العلاقات الرومانية المسيحية
بين
اللامبالاة والاضطهاد والاعتراف

شهدت القرون الثلاثة الأولى الميلادية من تاريخ الإمبراطورية الرومانية تطورًا فى كيانها وفى العلاقات بينها وبين المسيحية، وباستعراض تلك العلاقات التى بدأت منذ ظهور المسيحية فى القرن الأول الميلادى، فإننا نلاحظ أن ظهور المسيحية خلال الفترة الأولى من القرن الأول الميلادى قد أحدث دويًا هائلاً فى الأوساط الدينية الوثنية المختلفة[١] دون الأوساط الرسمية الرومانية، وأن هذه الديانة الجديدة قد أثارت منذ الوهلة الأولى بداية الصراع الدموى الدينى إلى مدى ما يقرب من ثلاثة قرون ذاق المسيحيون خلالها شتى ألوان العذاب والاضطهاد، برغم الدور الذى كانوا يقومون به فى كيان الإمبراطورية الرومانية المترامية.

مراحل العلاقات الرومانية المسيحية:

ولقد كان لظهور المسيحية خلال القرن الأول الميلادى ردودُ فعلٍ شديدة من قِبَلِ العناصر الدينية الوثنية المختلفة، ومن قِبَلِ أتباع الديانة اليهودية، فى حين أن الإمبراطورية قابلت هذا الحدث بالفتور واللامبالاة، واعتبرت هذه الديانة بمثابة ديانة جديدة مثل باقى الديانات الأخرى العديدة القائمة[٢].

---

(١) عن تلك الأحداث (راجع):

Clay (M), La Religion Romaine (V. 2, No. 168), Paris, 1971.

(٢) يقصد بالديانات العديدة القائمة (الديانات الوثنية) وكانت كثيرة، منها ما هو قديم أو مقتبس من الديانات الأخرى (كالإغريقية) ـ هذا إلى جانب ما استحدث من ديانات شعبية رومانية، مثل تأليه الأباطرة بعد مماتهم، وخلق شعائر لعبادتهم، أو عبادات عقائدية مثل عبادة «الإخوان الأرفاليين ـ Fratres Arvales» والتى كان من اختصاصها تقديم شعائر العبادة الزراعية ـ ثم تقديم الأضاحى الخاصة بالمناسبات، كعيد ميلاد الإمبراطور ـ راجع:

- Henzen (W), Acta Fratrum Arvalium (1974); C.I.L., VI. 2023 - 119, 32338 - 98, 37164 F. The Edition by E. Pasoli (1950) is Worlfless; Athenaeum 1946, 188 ff; Bull. Comm. Anch. IXXVIII (1961 / 2), 116 ff.

=

ومن الظاهر أن الديانة المسيحية قد ابتدأت بتحسس طريقها سراً، ثم أخذت تسعى إلى الانتشار فى إطار تحفظى، خوفاً من بطش أعدائها من الوثنيين. وبرغم ذلك فإن المسيحية كانت كبش الفداء الذى كان يُذبح لمرات عديدة أمام حقد وضغينة الظالمين. وربما كان القرن الأول يعكس لنا صورة صادقة لما عاناه المسيحيون فى كثير من بقاع الإمبراطورية المختلفة، وخاصة فى روما[(١)]. ولا أدل على ذلك من أن الرأى العام الرومانى ومستشارى الإمبراطور «نيرون» اتهموا المسيحيين بإشعال حريق «روما الشهير»، وهو الذى راح ضحيته مضمار «ماكسيموس» «Circus Maximus» ثم حى «إيميليانوس» «Emilianus»بطرف المدينة بعد ذلك بستة أيام.

وبرغم اتهام الإمبراطور «نيرون» بإشعاله الحريق[(٢)] ـ وبأنه كان الفاعل الحقيقى على الأقل لحريق حى «إيميليانوس»، وبأنه حث عبيده على إشعال هذا الحريق للتخلص من بعض الأحياء القذرة التى لم تنلها نيران الحريق الأول فى حى «ماكسيموس» ـ وذلك من أجل بناء مدينة جديدة على نمط حديث[(٣)] ـ فإن الاتهام الفعلى قد تحمله المسيحيون، واعتُبِروا الصورة المحركة للاضطرابات فى جسم الإمبراطورية ـ خاصة أنه لم يوجد دليل واحد يدين الإمبراطور[(٤)]. وتبعاً لذلك فإنه زج بالمئات فى السجون بمحاكمتهم بتهمة

= و أيضاً هناك عبادة ربات الزراعة والقمح متمثلة فى الربة الطيبة (Bona Dea) راجع: .

_ Latte, Caes, 9; Festus, 60, 1 ff. Lindsay.

وكان للتطور الفكرى العقائدى تأثيره الواضح على سكان المدن ـ وخاصة من طبقة المثقفين، الذين تأثروا بأفكارهم التقدمية الروحية، متمثلة فى الرواقية التى كانت تنادى بالمساواة والأخوة العالمية ومناهضة الظلم والطغيان، هذا إلى جانب الجذب الصوفى لكثير من سكان تلك المدن، ممثلاً فى روح التضحية للمسيح، وتطوير الأفكار الصوفية إلى درجات التعمق والانطلاق إلى آفاق ما بعد الحياة الدنيوية، تمثلت جميعاً فى فكر جديد للنظرية «الفيثاغورثية «Pythagorean راجع:

_ Cf., Cardini (M. T.) I Pitagorici (1958 -); Mullach, F. P. G., I. 485 - 509 (Pythagorum Similitudines); Hercher (R), Epistolographi, 601 (Pythagoreorum Epistolae); Frank (E), Plato und die sogenannten Pythagorer (1923); K. Von Fritz, Pythagorean Politics in Southern Italy (1940).

ـ كذلك راجع: سيد أحمد الناصرى (تاريخ الإمبراطورية الرومانية) السياسى والحضارى ـ الطبقة الثانية ١٩٨٥، ص ٩٥.

(١) Ramsay (W. M.), The Church in the Roman Empire before 170, (1906), P. 120; Last (H), J.R.S.,1937, 80 ff.

(٢) Tacitus, Annales XV, 36 - 41.

(٣) Seutonius, Nero, 31.

(٤) عن حريق روما وبداية اضطهاد المسيحيين.. راجع: سيد أحمد الناصرى ـ المرجع السابق، ص ١٦٣ وما بعدها.

الخيانة والإتيان بأفعال تتنافى مع سياسة الدولة وإثارة الاضطرابات فى أنحاء الإمبراطورية، حيث نال المسيحيون مختلف صنوف العذاب والتنكيل، مستقبلين شهدائهم بالترحيب والترانيم المسبحية المقدسة[١].

ويعتبر اتهام المسيحيين بهذه التهمة أكبر دليل على مدى ما وصلت إليه العلاقات بين المسيحيين والإمبراطورية فى بداية النصف الثانى من القرن الأول، وعلى مدى ما وصل إليه الصراع العنصرى ضد المسيحيين، وبخاصة من جانب اليهود الذين يُعزى إليهم تدبير هذا الاتهام المشين[٢]، الذى اتُّخِذَ ذريعة لبداية اضطهاد الرومان للمسيحيين.

ويتساءل «جيبون»: أى استفزاز جديد أثار سخط اللامبالاة الرفيقة القديمة، وأية بواعث جديدة دفعت بالحكام الرومان الذين لم يلقوا لَوْماً إلى كثير من الديانات التى عاشت فى سلام فى ظل حكمهم الوادع - دفعت بهم إلى إنزال أشد العقاب بأى فريق من رعاياهم اختاروا لأنفسهم لوناً فريداً بريئاً من العقيدة والعبادة[٣]؟ ويبدو أن السياسة الدينية القديمة لم تلبث أن اتخذت موقفاً أشد صلابة وأبعد عن التسامح لتقاوم تقدم المسيحية.

وبرغم صنوف الاضطهاد الرومانى للمسيحيين فإن ذلك قد قَوَّى من عزيمتهم على الصمود والاستشهاد، حيث سرت بين المسيحيين سياسة الحب والتقرب إلى الرب، سالكين طريق الشهادة. وبدأت مراحل الاستبشار والجهاد المسيحى لنشر الديانة باعتبارها سماوية مكملة لرسالة المسيح عليه السلام، فذهب القديس «مرقص St. Marcus» إلى الإسكندرية لنشر الديانة الجديدة، والعمل على تأسيس الكنيسة المرقسية فى الإسكندرية لتكون أولى نقاط الارتكاز للديانة المسيحية فى الشرق، فى حين توجه القديسان «بطرس - Peter» و «بولس - Plus» لنشر الديانة الجديدة فى روما[٤].

(١) كان من عوامل الاستسلام باتهام المسيحيين بإشعال حريق روما - عدم دفاعهم عن أنفسهم لاعتقادهم بأن يوم القيامة قد حل، وأن انتقام الرب خير مدافع لهم - راجع:
- Smallwood (E. M.), Journal of the Theological Studies, 1959, pp. 329 ff.

(٢) Cf., Josephus, Antiqu. Jud., X, 189 - 196..

(٣) جيبون (ادوارد) - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ترجمة محمد على أبو درة، ص ٤٠٧ - ٤٠٨.

(٤) من المرجح أنهما هلكا أثناء حركة الاضطهاد الأولى «فترة حكم الإمبراطور نيرون»، راجع:
Cf., Ramsay (W. M.), op. cit., pp. 121 ff.

ولاشك أن تلك الأحداث التى وقعت خلال القرن الأول الميلادى من اضطرابات واضطهاد للمسيحيين، قد عمت جميع أنحاء الإمبراطورية، حيث أن اعتناق المسيحية اعتُبر وصمة عار مقترنة بالخيانة. وكان من شأن ذلك بطبيعة الحال زيادة حدة التوتر بين العناصر الأجنبية المختلفة فى جميع ولايات الإمبراطورية، فقد استغلت تلك الديانة الشهيدة لتكون قناعاً لكل صور التذمر والخيانة والاضطرابات المختلفة[١]، هذا إلى جانب ما شهده القرن الثانى من استغلال المسيحية تحت ستار الخيانة والأطماع الشخصية وتدبير المكائد، بحيث أصبحت الوشاية صورة ظاهرة للانتقامات والمؤامرات الشخصية خلال تلك الفترة، مما اضطر الديانة المسيحية إلى الانكماش والنشاط السرى.

ويبدو أن القرن الثانى الميلادى قد ظهرت فيه ملامح الانتشار المسيحى وسط ما عُرف بسياسة الاستقرار والتسامح لعصر الأباطرة الصالحين: (٩٦ - ١٩٢م)[٢]، وبخاصة موقف الإمبراطور (ماركوس أوريليوس - Marcus Aurelius) عام ١٦١م، وسياسة التسامح التى اتبعها، حتى أنه شُبِّهَ فى نظر البعض بالسيد المسيح فى أخلاقياته وحُبه للخير والسلام - وذلك برغم من أنه لم يكن مسيحيّا - إلا أنه كان قد قرأ كل ما كتب عن السيد المسيح وأتباعه الحواريين ومعالم المسيحية - حتى أن البعض قد تشكك فى وثنيته. أما المسيحيون نفقد استبشروا خيرًا ولاحت لهم بشائر الأمل فى مرحلة جديدة من التسامح والاستقرار الدينى خلال حكم هذا الإمبراطور[٣].

(١) لا أدل على ذلك من ثورة اليهود الكبرى التى اندلعت فى (قورينة Cyrene) عام١١٥م وانتشرت إلى باقى المناطق المجاورة فى مصر وفلسطين وقبرص وحتى حدود بلاد ما بين الرافدين - وذلك بسبب ما ادعاه أحد زعماء اليهود ويدعى (شمعون باركوخيا) بأنه المسيح المنتظر، جاء ليخلص اليهود من براثن الوثنية الرومانية - راجع: سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) - ص ٢٤٥، كذلك راجع: عبد اللطيف أحمد على (مصر والامبراطورية الرومانية) - فى ضوء الأوراق البردية - القاهرة ١٩٧٤ - ص ١٨٥ وما بعدها - كذلك:

- OXF. Cl. Dict., p. 505.

- Préaux (C), Chron. d'Eg., 14 (1939), pp. 180 ff; Tcherikover (V), The Jews in Egypt in the Hellenistic Roman Age in the Light of the Papyri. Jerusalem, 1945, pp. 18 ff.

(٢) يقصد بذلك العصر عهد الامبراطور (١) «نرفا ٩٦ - ٩٨م» (٢) «ترايانوس ٩٨ - ١١٧م» (٣) «هادريانوس ١١٧ - ١٣٨م» (٤) «أنطونينوس ١٣٩ - ١٦١م» (٥) الحكم المزدوج بين «ماركوس أوريليوس ولوكوس فيروس ١١٦ - ١٨٠م»، (٦) «كومودوس ١٨٠ - ١٩٢م».

(٣) Parain (C), Marc- Aurele, 1957; Birley (A), Marcus Aurelius, 1966; Piganial (A), Hist. de Rome 1962, 307 f, 581 f.

=

ومن الظاهر أن المسيحية قد استغلت فترة الاسقرار المؤقت هذه وبدأت تعمل على تقوية مركزها بين العناصر والشخصيات المهمة فى جسم الإمبراطورية، ذلك أن عمليات اعتناق المسيحية قد امتدت لتشمل الكثير من الأسر المختلفة العريقة، سواء بشكل معلن أو بشكل سرى بين أفرادها، وأن كثيراً من الشخصيات البارزة قد مالَتْ إلى تعاليم المسيحية بشكل أصبح ينعكش على حياتها العامة، مستغلة وضعها الإجتماعى والإدارى فى وضع ركائز الديانة المسيحية فى إطارها الجديد المسيطر(١).

وبلغ مدى تصاعد الأحداث إبان القرن الثالث حداً يكاد يصعب معه تصور مدى الاضطهادات والمظالم التى نزلت بمعتنقى هذه الديانة بعد ازدياد عددهم، ذلك أن صنوف الاتهام والوشاية قد سلكت طريقها بين صفوف المتنافسين كنوع من صنوف الصراع، وكان من جراء ذلك أن تنوعت أشكال سياسة الإرهاب، ومع ذلك فإنه فى حالة ما إذا تناهى إلى سمع أحد الحكام الرومان أن شخصاً فى نطاق ولايته قد انضم إلى الطائفة المسيحية، وأُبلغت التهمة إلى المتهم للاستعداد للدفاع عن نفسه، ساوره شيء من الشك فى تجلُّده، فإنه كانت تُهيأ له هذه الفرصة للإبقاء على حياته بالهرب واللجوء إلى مكان مجهول، أوولاية نائية، لحين عودة الهدوء والطمأنينة، مما يدل على مدى هذا الصراع بين جوانب الإمبراطورية(٢).

ولقد تطورت صور الإرهاب عن طريق شهادات الإقرارات التى كانت تصدر من حكام الولايات، والتى كانت تنص على أن الشخص المذكور قد امتثل إلى قوانين الإمبراطورية، وأنه قَدَّم القرابين إلى الآلهة (الوثنية) الرومانية، وإزاء أهمية هذه الشهادات وكيفية إصدارها، فكثيراً ما تاجر الحكام بها، وارتضوا بيع هذه الشهادات، مخالفين لعقائدهم بقدر اتساع دائرة جشعهم، ولا أدل على ذلك من توافر مثل هذه الإقرارات الزائفة لدى المسيحيين الأثرياء اللَّبِقين، الذين تمكنوا من أن يوفقوا بشكل ما بين سلامتهم وديانتهم(٣).

= ـ وهناك من عارض سياسة الإمبراطور «ماركوس أوريليوس» فى التسامح والخير والسلام واتهمه بأنه أحد عوامل انهيار الإمبراطورية (راجع):

-Ferrero (G), La Ruine de la Civilization Antique, Paris 1921, pp. 62 ff.

(١) عرف البعض تلك الحركة باسم «نمو حكومة الكنيسة» ـ راجع «جيبون» ـ المرجع السابق ـ جـ١ . ص٢٦٧ وما بعدها.

(٢) راجع ما ورد عن «يوسابيوس القيصرى» تاريخ الكنيسة ـ ترجمة: القمص داود ـ الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٧٩) ـ ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٣) جيبون (المرجع السابق) جـ١، ص ٤٤٨ وما بعدها.

وإزاء صور الاضطهاد المختلفة ظهرت أعداد كبيرة من المسيحيين المرتدين، الذين أنكروا ولفظوا صراحة وعلناً العقيدة التى سبق اعتناقهم إياها ـ وأكدوا إخلاصهم فى ارتدادهم، فى حين أن أقوياء العزيمة استمسكوا بعقيدتهم راضين صنوف وألوان العذاب المختلفة(١). ومما يجدر بالملاحظة أن قواعد اتهام المسيحيين وعقابهم فى مثل هذه الحكومة الاستبدادية المترامية كان يتوقف على مدى سلوك المسيحيين أنفسهم من ناحية وعلى مزاج وطبيعة الحاكم أو الوالى ومزاج مَرْءُوسيه من ناحية أخرى، هذا إلى جانب بعض الدوافع الخفية لحكام الولايات المختلفة، فقد كانوا يجنحون إما إلى تنفيذ اللوائح والقوانين أو إلى التراخى والعدول عن تطبيقها استجابة إلى المقاصد الخفية للإمبراطور دون القوانين العامة وتطبيقها، حيث إنَّ نظرة من الإمبراطور كانت تكفى لإشعال نار الاضطهاد أو إخمادها(٢).

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على أوضاع الإمبراطورية الرومانية فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى، وخاصة قبل توليه «دقلديانوس» للحكم، فإننا نلاحظ أن المسيحية قد انتشرت، بحيث أنها كانت تسيطر على معظم طبقات المجتمع، تنوأن الكنيسة الرومانية بصفة خاصة قد ازدهرت وأصبحت تضم معظم فئات الشعب المختلفة من المثقفين والأدباء والمفكرين، وقد واكب ازدياد أعداد المسيحيين الملحوظ خلال تلك الفترة أن الكنيسة أصبحت تنهج نهجاً جديداً تمثل فى المشاركة والسيطرة، لتؤدى دوراً مهمّاً فى صفوف المجتمع، بدرجة أقلقت بال الإمبراطورية ـ وخاصة أن نظرة الدولة للمسيحيين كانت نظرة تشوبها الخيانة لخروجهم على عبادة الدولة، وامتناعهم عن تقديم مراسم تكريم الإمبراطور، وحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور رمز الدولة (الإمبراطورية)، وإزاء ذلك اعتبرت الدولة المسيحيين أعداءً للإمبراطورية، وألقت عليهم تبعة التدهور والانهيار الذى اجتاح الدولة نتيجة لإهمال آلهة روما القديمة(٣).

وقد كان من طبيعة الأوضاع فى الإمبراطورية عندئذ ألاَّ يزداد انتشار المسيحية دون أن تنكبَّ الاضطهادات على المسيحية، وبخاصة فى فترة حكم (ماكسيمينوس تراكس

(١) Frend (W. H. C.), Martyrdom and Persecution in the early church, London 1965, pp. 18 ff.

(٢) جيبون (المرجع السابق) جـ١، ص٤٥١.

(٣) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص٣٨٦، كذلك عنه:

La Declin du monde antique 284 - 610 A. D., Tradwit par A. Sevandoni Duparac (Histoire de L'europe, 1), Paris 1970, pp. 12 ff.

ـ Maximinus) (٢٣٥ ـ ٢٣٨م) الذى صب جام غضبه على العقيدة الجديدة، سواء فى روما أو فى فلسطين، إلى أن توفى فى عام ٢٣٨[١].

وقد بدأت المسيحية تتنفس الصعداء مرة أخرى فى عهد الإمبراطور «جورديان الثالث Gordian» (٢٣٨ ـ ٢٤٤م)[٢] عندما اتبعت تلك السياسة الحكيمة التى تمثلت فى حرية العقيدة للجميع[٣]. وقد بقى الوضع على ماهو عليه حتى حكم فيليب العربى (Philippus) (٢٤٤ ـ ٢٤٩م)[٤]، بيد أن تلك الفترة كانت بمثابة الهدوء الذى سبق العاصفة، وهى التى بدأت تظهر ملامحها منذ عهد الإمبراطور (دكيوس Decius) عام (٢٤٩ ـ ٢٥١م)[٥] الذى وجد فى ارتدادهَ إلى الوثنية نقطة الخلاص للإمبراطور من براثن أُخطبوط المسيحية[٦]. وتبعاً لذلك بدأ فى تطبيق سياسة الإبادة الجماعية للمسيحيين، حيث استصدر قراره الشهير عام ٢٥٠م بإلزام جميع أفراد الشعب بتقديم القرابين والمناسك لآلهة الدولة الوثنية، وفرض عقوبة الإعدام لكل مخالف للتعليمات. وإزاء ذلك فقد ازدادت حدة الصراع والتوتر فى جسم الإمبراطورية، وبدأت ملامح الاضطهاد للمسيحية تعود إلى سابق عهدها. وربما تحقق ذلك بصورة شبه كاملة على يد الإمبراطور «فاليريانوس ـ Valerianus ـ ٢٥٣ ـ ٢٦٠م»[٧] الذى ضيق الخناق على المسيحيين بإصداره قرارات تعسفية اقتضت منع تجمعاتهم، وإلزامهم بتقديم القرابين للآلهة الوثنية، وإغلاق صوامعهم، ثم أصدر فى العام التالى قراره بمحاكمة رجال الدين حسب مواقعهم الكهنوتية فى حالة تمسكهم بديانتهم[٨]، وبرغم فواجع المسيحية ـ من حيث فَقْد الكثيرين من أتباعها عن طريق الرِّدَّة

---

(١) Bersanetti (G. M.), Studi Sul Imperatore Massimino il Trace, 1940; Hohl (H), Maximini duo Julii Capitolini, 1949.

(٢) Cf., Olmstead (A. T.), Classical Philology, 1942, 241 ff; Townsend (P. W.), Yale Classical Studies, 1955, 49 ff.

(٣) Townsed (P. W.), Yale Clasical Studies, 1955, 49 ff.

(٤) Olmstead (A. T), Classical Philology, 1942, 241 ff; Parsons (P. J.), Journal of Roman Studies, 1967, 134 ff.

(٥) Cf., Gross (K), Reallexikon für Antike und Christentum, Stuttgart, 3, 611 ff.

(٦) Cross (K), R. A. C., 3, 611 ff.

(٧) Walser (G) and Pekary (Th), Die Krise des Romischen Reiches, 1962, 28 ff.

(٨) Olmstead (A. T.), Classical Philology, 1942, 241 ff; 398 ff.

إلى الوثنية أو الموت فى سبيل العقيدة ـ فإنها خرجت من تلك الأزمة أقوى وأصلب عوداً على الاستمرار والنضال المقدس(١).

وبتولى الإمبراطور «جالينوس Gallienus» (٢٦٠ ـ ٢٦٨م) الحكم ـ رَدَّ إلى المسيحية اعتبارها، وسمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم ومعتقداتهم الدينية. وبذلك بدأت مرحلة عودة استقرار وهدوء وسلام إلى الكنيسة(٢). وعرفت فترة حكم «جالينوس» بفترة التسامح الدينى مع أصحاب الديانات المختلفة.

ومن اليسير أن نتصور ما وصلت إليه أوضاع الإمبراطورية فى إطارها الداخلى والخارجى من حيث مدى التدهور والتدنى فى سياستها الداخلية والخارجية ـ ومدى ماكانت عليه سياسة حكام الولايات من حيث استغلال للظروف الطارئة لتحقيق الأطماع الشخصية ـ تلك الأطماع الشخصية التى أصبحت سمة كل مسئول أو قائد ـ مع ملاحظة أن سلطة الولاة فى الولايات كانت غير متكافئة تبعاً لأهمية كل ولاية ووضعها فى الإمبراطورية، ومدى ماوصلت إليه تطورات تلك الأحداث إلى حد الفضائح المنكرة(٣).

أما عن السياسة الدينية فى الولايات فقد كانت متروكة للولاة إلى جانب مهامهم السياسية، فمنهم من جامَلَ المسيحية وغض النظر عنها طالما أن الأمور مستقرة، ومنهم من اتخذ لنفسه نمطاً دينيّاً محددًا ومنهم من اتخذ موقفاً ضد المسيحيين، أو لم يلتفت إلى طلباتهم وتظلماتهم(٤).

---

(١) Frend (W. H. C.), op. cit.,PP. 177 ff.

(٢) Walser (G) and Pekary (th), Die Krise des Romischen Reiches, 1962, 28 ff.

ـ راجع / سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق)، ص ٣٦٥ وما بعدها ـ حيث يقدم عرضاً تحليليّاً متكاملاً عن تلك الفترة.

(٣) راجع (عبد اللطيف أحمد على) ـ المرجع السابق ـ «فضيحة مكسيموس وسلطات الوالى» ـ ص١٦٨ وما بعدها ـ كإحدى صور التدهور الإدارى فى فترة من فترات حكم الأباطرة فى الإمبراطورية الرومانية.

(٤) لا أدل على ذلك من اعتناق «أوريليانوس- Aurelianus » (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) رب الشمس السورى «إيلاجابالوس - Elagabalus» لاعتقاده بأنه الرب الذى لا يُقهر (Sol Invictus) وهو الذى نصره على تدمر ـ ولهذا أوحى إلى الناس أنه الرب الحامى للإمبراطورية، راجع:
سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق)، ص ٣٨٢. وكذلك عنه راجع:

- Cf., Theodore Optendrenk: Die Religionpolititk des Kaisers Elgabal in Spiegel der Historia Augusta, diss, Bonn 1968.

وراجع: «ورن هولستر» أوروبا فى العصور الوسطى ـ ترجمة ؟ محمد فتحى الشاعر ـ القاهرة ١٩٨٨ ص ٣٢ وما بعدها.

وبتولى الإمبراطور «دقلديانوس» (Diocletianus) الحكم ٢٨٥م، وَضَعَ نقاط سياسته الحكيمة القائمة على روح التسامح الدينى بشكل أكثر اعتدالاً وتحرراً، بحيث تابعت المسيحية مسارها فى هدوء وطمأنينة ـ حتى أن كبار موظفى الدولة الذين اعتنقوا المسيحية قد باشروا ممارسة ديانتهم فى حرية وسلام، وكان للأساقفة منزلة كبيرة فى سائر الولايات، لا من قبل الشعب وحده، بل أيضاً من الحكام أنفسهم[١].

ويبدو أن سياسة التحرر هذه قد استغلت بشكل سئ من قبل المسيحيين أنفسهم وأصبح سوء السلوك وفساد المبادئ ظاهرة وبرهاناً على الحرية التى يتمتع بها المسيحيون وأساءوا استغلالها فى عصر دقلديانوس.

صراعات السلطة وتطور العلاقات الرومانية المسيحية:

ولا أشك أن الفترة الأخيرة من النصف الثانى من القرن الثالث شهدت أعنف مراحل الصراع الدموى بين المتصارعين على السلطة، وأن فلول الصراع قد شوهت ملامح ومقومات الإمبراطورية بالصورة التى كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً وشاملاً ـ وذلك ما أمكن «دقلديانوس» استدراكه عن طريق إصلاحاته فيما بعد.

وقد عرفت تلك الفترة بفترة القلاقل القيادية مسبقاً، وخاصة بعد مقتل الإمبراطور (أوريليان - Aurelianus) عام ٢٧٥م[٢]. وتدخل السناتو، واستخدام سلطته، وانتخب (كلوديوس تاكيتوس - Claudius Tacitus)[٣]، وارتضاه الجيش، وقاد حملة موفقة ضد (الآلان - Alans)[٤]، بيد أنه دبرت له مؤامرة أنهت فترة حكمه القصيرة (٢٧٥ ـ ٢٧٦م)[٥].

ثم انتخب الجيش بعد مقتله (م. أوريليوس بروبوس - Aurelius Probus) ـ (٢٧٦ ـ ٢٨٢م)[٦]، الذى أحرز انتصارات فى الراين والدانوب، بعد أن طهر آسيا الصغرى من

(١) Cf., Stade (K), Der Politiker Diokletian und die letzt grobe christenverfolgung 1926.

(٢) Homo (L), Essai sur le regne de L' empereur Aurélian, 1904; Gross (K), R. A. C., I. 104 ff.

(٣) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٣٧٦ وما بعدها.

(٤) قبيلة من المتبربرين الرحل، استقروا فى جنوب شرقى روسيا فى القرون الثلاثة الميلادية الأولى. (راجع):

- Oxford Classical Dictionary, p. 33.

(٥) Vogt (J), The Decline of Rome (1967), pp. 113 ff.

(٦) Vitucci (G), L'imperatore Probo, 1952.

قُطّاع الطرق، ومصر والسودان من قبائل البشارية .(Blemmyes)، إلى أن دبر له رجال من قواته مؤامرة لاغتياله فى «سيرميوم - Sirmium» دون أن يدروا أنهم اغتالوا واحداً من أعظم القادة كفاءة وإخلاصاً للإمبراطورية، فى وقت كانت هى فى أشد الحاجة إليه[١].

وكان لرغبة القوات فى «رايتيا - Rhaetia» أثرها فى ترشيح قائد الحرس البرايتورى «ماركوس أوريليوس كاروس - M. Aurelius Carus» إمبراطوراً عام ٢٨٢م[٢]ـ وقد أشرك معه ولديه «كارينوس - Carinus»[٣] و «نومريانوس Numerianus» بوصفهما نائبين عنه مساعدين له بدرجة قيصر، وتمكن «كاروس» بمساعدة ابنه «نومريانوس» من فتح الشرق، حيث استطاع عام ٢٨٣م هزيمة قبائل «القادى - Quadi»، وقبائل «الصرب - Sarmatians» عند الدانوب Danube، ثم عبر الفرات قاصداً سحق الفُرْس، حيث استولى على «سلوقيه - Seleucia»، وبعد ذلك «كتيسيفون - Ctesiphon» إلا أنه قُتل فى ظروف غامضة ومفاجئة، وإن كان من المرجح أن يكون قد قتله قائد الحرس البرايتورى «آريوس آبر - Arrius Aper» وهو نفس الشخصية التى اتهمت بقتل ابنه «نومريانوس» بعد ذلك[٤]، وفى ضوء الصراعات الدموية على السلطة اجتمع مجلس القادة وانتخبوا قائد الحرس الخاص للإمبراطور الراحل «ديوكليسَ - Diocles» المعروف باسم «دقلديانوس Di- - ocletianus»[٥] وهو الذى تولى بنفسه إعدام قائد الحرس البرايتورى «آريوس آبر Arrius - Aper»، وقد أكمل «دقلديانوس» مشواره فى الصراع، حيث تقابل مع خصمه «كارينوس - Carinus» ابن الإمبراطور السابق عند سهل مارجوس ـ Margus» (موراقيا) فى معركة رهيبة كاد «كارينـوس» أن ينتصر فيـها لـولا اغتيـاله بخنجر مسمـوم صنعه أحد الترابنة الذى اغتصب «كارينوس» زوجته، وتبعاً لذلك قبلت قواته «دقلديانوس» إمبراطوراً ٢٨٥م[٦].

---

(١) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥. .

(٢) Johes (T. B.), C. PHil., 1942, pp. 193 ff; Meloni (p), II regno di caro, 1948, pp. 106 ff..

(٣) Ensslin (W), P. W., s. v., Valerius (142), 2424 f.

(٤) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص ٣٨٥.

(٥) Costa (C), Ruggiero Di Zionario Epigrafico di Antichita Romana, 1886, II, 1793 ff.

(٦) Jones (A.H.M.), Martindale (J), and Morris (J), The Prosopography of the Later Roman Empire, Col. I (A.D. 260 - 385). Cambridge University, Press 1971, pp. 37 ff.

ـ كذلك راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٣٨٦، كذلك راجع:

- Ensslin (W), Zur Ostpolitik des Kaisers Diokletian, 1942.

السلطة الرباعية وأثرها فى متغيرات العلاقات الرومانية المسيحية:

ولقد أدرك «دقلديانوس» مدى الأخطار التى تلاحق كيان الإمبراطورية داخلياً وخارجياً، وأن سلطة الإمبراطور غير كافية لحماية الإمبراطورية دون مساعدة من المساعدين والقواد وحكام الولايات. وأن شئون الإمبراطورية تستوجب أن يكون هناك نائب للإمبراطور يتولى مسئولية الدفاع عن الولايات الغربية حتى يتفرغ الإمبراطور لحماية الجبهة الشرقية.

ولهذا كان اختياره لأقرب الناس إليه ورفيقه فى السلاح - وهو «ماكسيميانوس - Maximianus»(١) الذى رقاه إلى مرتبة «قيصر - Caesar» ثم إلى مرتبة «اغسطس» فى عام ٢٨٦م تكريماً له على إنجازاته فى استتباب الأمن فى المنطقة الغربية بعد أن سحق الثورة فى منطقة الغال، وطارد الألمان حتى حدود الإمبراطورية شرقى الراين. وعندما أدرك «دقلديانوس» مدى النتائج الإيجابية التى حققها مع نائبه فى المجال السياسى والعسكرى - ثمرة نظام توزيع المسئولية - قرر عام ٢٩٣م توزيع السلطة الإمبراطورية على أربعة أشخاص، وهو ما عرف بالنظام المسمى بالسلطة الرباعية (Tetrarchia)، وذلك بتعيين نائب له، ونائب لشريكه «ماكسيميانوس»، وهذان النائبان كانا بمرتبة قيصر أو ولى العهد(٢). وبناء على ذلك فقد اختار «دقلديانوس» نائبه، وكان فلاحاً الليرياً جاء من تحت السلاح، وهو «جايوس جاليروس - Gaius Galerius»(٣) الذى كان على دراية تامة بالشئون العسكرية والاستراتيجية. وكذلك اختار «ماكسيميانوس» نائبه فلاحاً الليرياً ترقى تحت السلاح وهو «قنسطنطيوس - Constantius» المشهور باسم «خلوروس - Chlorus» أى ذى «الوجه الشاحب»(٤).

وبذلك قسمت إدارة الإمبراطورية بين الأقطاب الأربعة، وأصبح لكل منهم منطقته التى يديرها من خلال إدارته الموجودة فى عاصمته - حيث أوكل إلى «ماكسيميانوس» حماية المناطق الشمالية متخذاً من «ميلانو» عاصمة له، فى حين أوكل إلى «قنسطنطيوس» ولاية بلاد الغال وبريطانيا، متخذاً من مدينة «تريفيس - Treves» عاصمة له، أما

(١) Sutherland, (C.H.V), R.I.C., VI., 15 ff.

(٢) Seston (W), la Tetrachie, 1946, pp. 69 ff.

(٣) Sutherland, (C.H.V), R.I.C., VI., 15 ff.

(٤) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٠٢ وما بعدها.

«جاليريوس» فقد أشرف على منطقة البلقان وآسيا الصغرى، متخذًا من مدينة صيرميوم ـ Sirmium» عاصمة له، فى حين تولى «دقلديانوس» حماية المقاطعات الشرقية، وجعل من مدينة «نيقوميديا ـ Nicomedia» المواجهة لمدينة بيزنطة عاصمة له(١). ومما يجدر بالملاحظة أن القوانين والقرارات كانت تصدر باسم الأقطاب الأربعة، وكانت ملزمة وتحترم من الجميع، مع احتفاظ كل منهم بشخصيته الفردية المطلقة وأنه برغم تطبيق سياسة «اللامركزية ـ decentralization» فقد بقيت الإمبراطورية متحدة فى إطار حدودها وقوتها العسكرية(٢).

ولقد انكب كل طرف من الأقطاب الأربعة على إثبات قدرته على تأمين حدوده، والحفاظ على كيان ووحدة الإمبراطورية، حيث استطاع «جاليرويوس ـ Galerius» خلال الفترة من ٢٩٤ ـ ٢٩٧ م القيام بحملات دفاعية ضد القوط والصرماتيين (Sarmatians) فى منطقة الدانوب، مع بناء الحصون والقلاع، واستصلاح الأراضى وتوزيعها على المستوطنين الجدد(٣).

أما «قنسطنطيوس ـ Constantius» فقد قام بعمليات عسكرية ضد «كاراوسيوس ـ Carausius»(٤) فى بحر الشمال وهزمه، واستولى على بولونيا، وطرد الفرنجة والجرمان من المناطق المطلة على بحر الشمال. وقد ترتب على اغتيال «كاراوسيوس» فى عام ٢٩٣ م تخلص الإمبراطورية من مشاكله إلى الأبد(٥). وفى عام ٢٩٦ م غزا «قنسطنطيوس» بريطانيا وأعاد السيطرة الرومانية عليها من الجنوب إلى الشمال ـ حتى حائط هادريانوس ـ ثم أعاد مقر قيادته فى دمينة «تريفيس Treves» بعد أن قام بتجميلها لتصبح من أهم مدن الإمبراطورية فى الغرب(٦).

---

(١) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤ - ٤٠.

(٢) Cf., Seston (W), La Tetrarchie, 1946, pp. 72 ff.

(٣) Cf., Sutherland (C.H.V), R.I.C., VI, 15 ff.

(٤) قائد بحرى ألمانى أوكل إليه «ماكسيميانوس» قيادة قاعدة بحرية فى بولونيا ـ إلا أنه وسع نفوذه إلى بريطانيا، وأعلن نفسه إمبراطورًا «أغسطس» منفصلاً عن الإمبراطورية الرومانية. راجع:
- Cf., Webb (P.H) Reign and Coins of Carausius, 1906; Colingwood - Myres, Roman Britain 2, 276 ff; Seston (W), op. cit., pp. 69 ff.

(٥) Cf., Sutherland, (C.H.V), in Roman Britain, 1937, 62 ff; R.A.G. Carson, Journ. Brit. Arch. Assoc., 3, pp. 33 ff; Frere, Britannia, 335 ff.

(٦) Cf., Piganiol (A), L' Empereur Consrantin, 1932, 13 ff.

أما عن إنجازات «دقلديانوس» فقد كانت وساماً على صدر الإمبراطورية الرومانية، حيث شملت مناطق عديدة وكبيرة من شرق الإمبراطورية، حيث أخمَدَ كثيراً من الثورات، ومنها الثورة القومية في الإسكندرية عام ٢٩٧ م التي تزعمها «أخيليوس ـ Achilleus» و«لوكيوس دوميتيوس دوميتيانوس ـ Lucius Domitius Domitianus»، والتي كانت قد اندلعت نتيجة للسياسة الاقتصادية المجحفة التي أقرها، والتي تمثلت في الغلاء الفاحش، والضرائب التعسفية. هذا بالإضافة إلى أن «دقلديانوس» قد قضى أيضاً على الثورة الاجتماعية التي عُرِفَت باسم الثورة «المانيخية Manchaean»[(١)]، والتي كان المسيحيون قد شاركوا فيها مثلما شاركوا في الثورة الأولى ـ ـ فقد اقتضت من «دقلديانوس ـ Diocletianus» محاصرة المدينة ثمانية أشهر قبل أن يفلح في إخماد الثورة، فإن ذلك حفزه على إنزال أشد صنوف العذاب بالمسيحيين، فقد كانت المذابح التي أنزلها بهم «دقلديانوس» أشد فتكاً من كل ما صادفوه قبلاً من مذابح، مما جعل الكنيسة القبطية تتخذ بداية لتقويمها عام ٢٨٤ م، وهو العام الذي تولى فيه «دقلديانوس» حكم الإمبراطورية الرومانية ويُسمى هذا التقويم «تقويم الشهداء». ولعل شعور هذا الإمبراطور بالذنب لفرط قسوته هو الذي حفزه على توزيع منح من القمح على السكندريين، مما دَفَعَ والي مصر «بوستوس» على أن يقيم له نصباً تذكارياً اعترافاً بجميله على المدينة، وهو عبارة عن عمود ضخم يقف على الربوة المجاورة للسيرابيوم بمنطقة الحي الوطني. وكذلك أمَّنَ «دقلديانوس» حدود مصر الجنوبية من هجمات القبائل «البشارية ـ Blemmyes» حيث وطَّنَ إحدى القبائل الموالية للرومان في الأراضي الواقعة جنوب الشلال الأول لكي تتولى صد أي هجوم خارجي[(٢)].

كما كانت لانتصارات «دقلديانوس» شرقاً على الفُرس أكبر الأثر في استتباب أمن وسلام الإمبراطور، فقد استدعى «دقديانوس» مساعده «جاليريوس» لرد خطر الغزو

---

(١) عرفت بهذا الاسم نسبة إلى المبشر «ماني ـMani» الذي ظهر في (بارثيا) وبشر بالصراع بين الشعب والحاكم الظالم، وقد وصلت دعوته إلى مناطق كثيرة، ومنها مصر. راجع: سيد أحمد الناصري (المرجع السابق) ص ٤٠٦، ٤٠٧ ـ كذلك ارجع إلى:

- H.C. Puech, Le Manicheine, 1949; Wildengren (G), Mani und der Manichaismus (1961, E.T. 1965) Bibliography. C.A.H., XII, 773 ff.

(٢) عن زيارة دقلديانوس للإسكندرية (راجع):

- Cf., La revolte de Domitius Domitianus et le voyage en Egypte de Diocletion d'apres li temoignage des papyrus et des Ostraka, Revue des Etuds Grecques, 97, 1966. pp. IX, X.

الفارسى الذى قام به ملك الفرس «نارسيس ـNarses» مستغلاً انشغال «دقلديانوس» فى إخماد ثورة الإسكندرية ـ وقام بغزو أرمينيا وسورية. وبرغم هزيمة «جاليريوس» الأولى فى «كالينكيوم ـ Calinicium» عام ٢٨٧ م فإنه حقق النصر بعد ذلك بعد أن استعاد قوته عام ٢٩٨ م، فهاجم أرمينيا ـ ودخل «كتيسيفون ـ Ctesiphon» وأَسَرَ الأُسرة الملكية، مما أرغم الفُرس على عقد الصلح. وبذلك استردت روما ولاية ما بين النهرين، ومملكة «أرمينيا»، والطريق البرى بين سوريا حتى الخليج الفارسى، مع إلزام الملك الفارسى على أن يدفع التجار الضرائب والمكوس الخارجية لروما عند قلعة «نيسيبس ـ Nisilis» قرب نهر دجلة، مما دعم انتصار روما الساحق على الفرس الذين لم يَجْرُءُوا على تحدى روما لأكثر من خمسين عاماً قادمة[١].

وهكذا حققت السلطة الرباعية التى وضع قواعدها «دقلديانوس» أكبر استقرار لأمن وسلامة الإمبراطورية على مر تاريخها الطويل.

نقطة التحول ضد المسيحية:

كان لإنجازات السلطة الرباعية أكبر الأثر فى انتعاش الوضع العام داخل الإمبراطورية الرومانية، وخاصة بعد الإصلاحات الدستورية التى وضع أصولها «دقلديانوس» فى الناحية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية[٢]. وقد شعر كل مسئول رومانى وفرد بمدى الدور الإيجابى الذى شارك به كل منهم فى إرساء دعائم الإصلاح فى الإمبراطورية.

وأمام ذلك قد أحس الرومان بسلبية المسيحيين وانطوائهم وعدم تعاونهم فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإمبراطورية، وأنه كان من الواجب أن يرد المسيحيون الجميل بعد أن أخذوا حريتهم فى العبادة واستظلوا بمظلة التسامح خلال هذه الفترة. وتبعاً لذلك هاجمهم بشدة المتطرفون الوثنيون منتهزين هذه الفرصة لإظهارهم بمظهر الخارجين على الإجماع الوطنى، والمنشقين عن التراث الوطنى القديم فى سبيل عقيدة جديدة وافدة من الشرق[٣]. وكان لذلك الوضع أكبر الأثر فى تغيير شخصية ونفسية «دقلديانوس» ضد

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٠٧، ص ٤٠٨.
(٢) راجع: إصلاحات دقلديانوس ـ سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص ٤٠٨ وما بعدها ـ حيث لم نعرض لها حفاظاً على مضمون البحث من الناحية الشكلية والموضوعية.
(٣) Jones (A.H.M), The Decline of Ancient Rome, Longmans 1966, pp. 89 ff.

المسيحيين، وخاصة بعد تلك السياسة التسامحية التى منحهم إياها فى بداية عهده، وبعد أن اتخذ المسيحيون وضعهم فى سلك الجيش الإمبراطورى وداخل الدولة، وتسللوا داخل القصر الإمبراطورى نفسه، كما أن التنظيم الدقيق الذى قامت عليه الكنيسة جعل من الشعب المسيحى دولة داخل الدولة[(١)].

وقد وجه المفكر المسيحى «لاكتانتيوس ـ Lactantius»[(٢)] وكان يقيم فى قصر «دقلديانوس» فى نقوميديا ويشرف على تربية الأمير «قنسطنطينوس» ابن «قنسطنطيوس» نائب الإمبراطور فى الغرب ـ أصابع الاتهام إلى «جاليريوس ـ Galerianus» نائب «دقلديانوس» فى الشرق، وألد أعداء المسيحية، وإلى «هيروقليس ـ Hierocles» حاكم ولاية بيثينيا وصاحب الرسالة المشهورة القائمة على منطق الأفلاطونية الجديدة، والتى بعث بها إلى «دقلديانوس» طالباً منه الشروع فى تصفية المسيحية[(٣)].

وتطورت مراحل الاضطهاد من قِبَلِ «دقلديانوس» ضد المسيحيين إلى تصفيتهم، ذلك أنه أصدر أمراً يلزم الجنود والضباط فى الجيش الإمبراطورى بتقديم القرابين والأضاحى لآلهة الإمبراطورية القديمة، وجعل عقوبة الطرد من الخدمة لكل من يرفض تطبيق الأوامر. وأعقب ذلك بإصدار قرار إمبراطورى «Edict» بتصفية الكنائس المسيحية وتدميرها، وإحراق الأناجيل، وتحريم الصلاة فى الكنائس أو القيام بأية شعائر مسيحية، كما ألغى قراراً سابقاً كان قد سمح للمسيحيين بالدفاع عن أنفسهم أمام المحاكم والقضاء الرومانى.

وفى عام ٣٠٣ م هاجم الحرس الإمبراطورى الكنيسة الصغيرة المواجهة للقصر الإمبراطورى فى نيقوميديا وأشعل النيران بها، وقام بتعذيب وإحراق كل معترض على قرارات الإمبراطور، وعندما تصادف إذ ذاك نشوب حريق مرتين بالقصر الإمبراطورى على مدى أسبوعين وُجهت فيه أصابع الاتهام إلى المسيحيين كرد فعل أمام تطور الأحداث ضدهم، فتم القبض على عدد كبير منهم، وسجنهم وتعذيبهم حتى الموت[(٤)].

---

(١) Glover (T.R.) The Conflict of Teligions in the early Roman Empire, London 1920, pp. 33 ff.

(٢) Brandt (S), and Laubmann (G), Corpos scriptions Ecclesiasticorum Latinorum, 1866 X, XIX, XXVII; Moreau (J), De la Mort des Persécteurs, sources chretiennes, 39 (1956); Blakeney (E.H.), Epitome, 1950, p. 122 f.

(٣) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢.

(٤) جيبون (المرجع السابق) ص ٤٦٧ وما بعدها.

كما اندلعت بعض الثورات فى سوريا «وكابادوكيا» وكان المسيحيون هم كبش الفداء، حيث وُجهت إليهم أصابع الاتهام ـ وجاء رد فعل «دقلديانوس» فى منتهى القسوة، حيث أمر بالقبض على القساوسة والكهنة وإيداعهم السجون التى امتلأت بهم، وفى أثناء مرض «دقلديانوس» صدر قراره الثالث عام ٣٠٤ م الذى قضى بالإفراج والعفو عن المسيحيين مقابل تقديم الأضاحى للآلهة الرومانية، أو تنفيذ حكم الإعدام، وقد أرجع المسيحيون صدور هذا القرار الأخير إلى حقد «جاليريوس» ضد المسيحيين، وإن كان من المرجح أن مرد ذلك كان إلى الرغبة فى إخضاع رعايا الكنيسة لسيادة الدولة المطلقة[١].

ويلاحظ أن القرارات الثلاثة التى أصدرها «دقلديانوس» ضد المسيحيين قد طُبقت فى جميع ولايات الإمبراطورية بنسب متفاوتة ـ حيث طبقها «جاليريوس» بكل دقة وقسوة فى الشرق، أما «قنسطنطيوس» فقد نفذ القرار الأول، فى حين تباطأ فى تنفيذ القرارين الأخيرين، لشعوره أن بعض الوثنيين فى مصر والشرق بدءوا يتعاطفون مع المسيحيين ويساعدونهم إزاء بطش الجنود فى الولاية[٢].

وكان لمرض «دقلديانوس» الشديد أكبر الأثر فى اعتزاله وانكماشه عن الظهور فى المناسبات الرسمية. وفى بداية شهر مارس عام ٣٠٥ م أعلن «دقلديانوس» اعتزاله فى حفل تكريم كبير حضره عدد كبير من قواده فى نيقوميديا. وفى نفس الوقت أعلن «ماكسيميانوس» صديق عمره فى ميلان اعتزاله الحكم أيضاً وفاءً لعهد قطعه على نفسه أمام «دقلديانوس» أن يترك الحكم معه فى وقت واحد. حتى يعطيا الفرصة للآخرين، تطبيقاً للنظام الذى وضعاه، فقام «دقلديانوس» بتعيين «قنسطنطيوس» ـ خلفاً لماكسيميانوس فى الغرب ـ مشرفاً على ولايات بلاد الغال، وبريطانيا، وأسبانيا، كما عين «جاليريوس» خلفاً له فى الشرق مشرفاً على منطقة البلقان وآسيا الصغرى. وقد اختار «جاليريوس» ابن شقيقته، ويدعى «ماكسيمينوس دايا ـ Maximianus Daia» نائباً له بمرتبة قيصر لحكم الشرق، وأن يوكل إليه ولايات آسيا الصغرى وسوريا ومصر[٣]. أما «قنسطنطيوس» فقد أُرغم على تخطى ابنه ويختار رجلاً آخر من اليريا هو «فلافيوس فاليريوس سيفيريوس ـ Flavius Valerius Severus» ليشغل منصب نائبه فى الغرب، وأن

(١) Cf., Rostovtzeff., A History of the Ancient world, Vol. 2, Oxford 1953, pp. 350 ff.
(٢) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٣.
(٣) Cf.,Sutherland (C.H.V), R.I.C., VI 15 ff.

يوكل إليه حكم إيطاليا وإفريقيا وبانونيا. وبذلك أهمل «ماكسينتيوس ـ Maxentius» ابن ماكسيميانوس، كما أهمل مؤقتاً قنسطنطينوس ابن قنسطنطيوس[١].

الصراع من أجل الحكم والبقاء:

ويتنحى الإمبراطور «دقلديانوس» عن العرش عام ٣٠٥ م بعد بلوغه سن الستين، وتبدأ مرحلة جديدة من التوتر وعدم الاستقرار ـ لقيام الحروب الأهلية التى استمرت ما يقرب من سبع عشرة سنة ـ وبرزت خلالها شخصية قنسطنطين، الذى استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدًا بعد الآخر، وأن يعيد توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣ م[٢].

ولقد بدأت ملامح هذا الصراع بموت «قنسطنطيوس خلوروس ـ Constantius Chlurus» فجأة عام ٣٠٦ م[٣]، ومناداة قواته بابنه «قنسطنطينوس» وريثاً له دون استشارة «جاليريوس» الشريك فى حكم الإمبراطورية، والذى رضخ للأمر الواقع بتعيين «قنسطنطينوس» بمرتبة قيصر مثله مثل «ماكسيميانوس دايا» فى حين رقى «سيفيريوس» إلي درجة الامبراطور الشريك، بيد أن «ماكسنتيوس» ابن «ماكسيميانوس» الإمبراطور المعتزل أعلن أحقيته هو الآخر فى تولى العرش مثل قنسطنطينوس تماماً ـ وأعلن النضال والقتال من أجل هذا الحق، ثم استدعى أباه من عزلته فى التقاعد ليساعده، وتمكنا من إثارة إيطاليا وكسب تأييدها، وكذلك ولاية إفريقيا. ومن ثم اشتعلت جذوة الصراع الدامى على أشده بين المتنافسين من أجل الحكم والبقاء، وكثرت الحروب والانقلابات والمؤامرات والمعاهدات والتحالفات، ورفع القياصرة (النواب) السلاح فى وجه الأباطرة (وقد حدث ذلك كله وما يزال دقلديانوس على قيد الحياة فى مقر تقاعده). وفى خلال الفترة ما بين ٣٠٧ ـ ٣١١ م انحصر الصراع على السلطة بين خمسة أقطاب (١ جاليريوس (Galeruis). ٢ ـ وماكسنتيوس (Maxentius). ٣ ـ وماكسيميانوس (Maximianus). ٤ ـ وليكينيوس (Licnius) الذى حل محل سيفيروس. ٥ ـ وقنسطنطينوس(Constantinus)[٤].

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٣.

(٢) Vasiliev (C), Histoire de L'Empire Byzantin, Tome 1, 1932, pp. 80 ff.

(٣) Cf., Moreau (J), Jahrbuch für Antike und Christentum, II, 1959, 158 ff.

(٤) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٦.

ولقد توفى جاليريوس عام ٣١١ م صريعاً لمرض خبيث أودى بحياته، وسقط بعد ذلك «ماكسنتيوس» عام ٣١٢ م نتيجة للصراع مع قنسطنطينوس عند جسر «ميلفيا ـ Milvia» على نهر التيبر بعد هزيمة قواته على يد ليكينيوس.(١) ومما يجدر بالذكر أن «ماكسنتيوس ـ Maxentius» كان مسيحيا فى الأصل ثم ارتد إلى الوثنية بعد ذلك(٢).

ونتيجة لذلك فقد انحصر الصراع على عرش الإمبراطورية بين القائدين «قنسطنطينوس» و«ليكينيوس» الذى تزوج من شقيقة الأول عام ٣٢٤ م، بيد أن ذلك لم يمنع أو يحجب أطماع كل منهما فى السيطرة والسلطة المطلقة، فكان لابد من حليف قوى يشد من أزر الفَطِن إلى ذلك. وقد أدرك «قنسطنطينوس»(٣) أن يكسب التأييد المعنوى للمسيحيين ركيزة للاستقرار والسيطرة.

موقف المتصارعين من المسيحية:

وقد ظل الاضطهاد الوثنى للمسيحية قائماً بعد اعتزال دقلديانوس، واستمر يمارس بعنف فى الدوقيات التابعة لجاليريوس فى الليريكوم وتراقيا وآسيا الصغرى، كما طبقها بقسوة «ماكسيميانوس دايا» فى الدوقيات التابعة له فى مصر وسوريا ـ حيث كان «ماكسيميانوس» يصدر ضدهم الأحكام بالتمثيل والتشويه، إلى الأحكام الشاقة فى المناجم المحاجر، واستخدام صنوف التعذيب والتنكيل التى وصلت إلى حد قتل النساء والأطفال والشيوخ الذين يرفضون تقديم القرابين والأضاحى للآلهة الوثنية ويتخلون عن العقيدة المسيحية. وقد حاول ماكسيميانوس إحياء المعابد القديمة وبناء معابد كبرى جديدة للآلهة الوثنية، كما قام بإنشاء كنيسة على نفس النمط الكهنوتى الذى قامت عليه المسيحية كنوع من الخلط والطمس للكنائس المسيحية والتشبيه بها فى تنظيم وثنى. ويبدو أن «ماكسيميانوس» كان ينفذ تعاليم «جاليروس» التعسفية ضد المسيحيين(٤). وفى عام ٣١١ م تعرض «جاليريوس» لأزمة مرضية شديدة تمثلت فى مرض خبيث وصفه المسيحيون بأنه

---

(١) Cf., Cam., Med. Hist., Vol. 1, pp. 5 - 6.

(٢) من المرجح لإرضاء الربة «روما»، راجع: سيد الناصرى (المرجع السباق) ص ٤٢٦ وكذلك:
- Cf., De Decker, La politique religieuse de Maxence, Byzantion, XXX, A III, 1968; Sutherland (C.H.V), R.I.C., VI, 15 ff.

(٣) درج بين المؤرخين على تسمية «قنسطنطينوس» «قنسطنطين» بعد أن تولى الحكم إمبراطوراً.

(٤) راجع: يوسابيوس القيصرى «تاريخ الكنيسة» ترجمة القمص مرقس داود ـ ص ٤٣٠ وما بعدها.

انتقام الرب ضد الظالم، ويبدو أن مرض «جاليريوس» الشديد قد أشعره بمدى الظلم الذى أوقعه على المسيحيين، وأن عمليات الاضطهاد والتنكيل أصبحت لا تجدى، بل أتت بنتائج عكسية، إذ زاد من إيمان المسيحيين بالله وبدينهم، وازدادت الكنيسة قوة وصمودًا، وسرت فى المسيحيين نشوة الشهادة والبطولة والإصرار على العقيدة. وإزاء ذلك قرر وقف الاضطهاد والمذابح ضدهم لعدم جدواها، ولأنها أثرت فى بث دعائم الاضمحلال والانهيار فى جسم الإمبراطورية، وأدت إلى تعطيل مصادر الدخل فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة، وتدهور الحياة الاجتماعية وتفككها، وانتشار المجاعات بين الطبقات الدنيا[١] والشعور بوخز الضمير لدى بعض الطبقات.

أمام ذلك أحس «جاليريوس» بعقدة الذنب تجاه المسيحيين، وأن الوقت قد حان للتكفير عن الذنوب ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه، واسترضاء الرب فى تلك المرحلة الحرجة من الحياة، ومن ثم فإنه أصدر قرار التسامح مع المسيحيين.

مرسوم جاليريوس للتسامح

(Edict of Toleration)

ففى عام ٣١١ م[٢] أصدر «جاليريوس» قراره الشهير للتسامح الدين (Edict of Toleration) وهو يحمل اسمه، واسمى ليكينيوس، وقنسطنطينوس، وتضمنت ديباجته الألقاب الإمبراطورية، ثم جاء بعد ذلك[٣]:

«كان من شأن المهام الخطيرة التى تشغل أذهاننا، من أجل مصلحة الإمبراطورية والحفاظ عليها، أن اتجهت إرادتنا إلى تصحيح كل الأوضاع، وإعادة بنائها، وفقاً للقوانين القديمة، والنظام العام عند الرومان. وإنا لشديدو الرغبة، بصفة خاصة،

---

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٢) يدخل هذا التاريخ ضمن فترة تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، والذى يبدأ ببداية القرن الرابع الميلادى. بيد أن مؤثرات نهاية القرن الثالث لايمكن تجزئتها عن بداية القرن الرابع ـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد عرفت فترة تاريخ روما حتى سقوطها عام ٤٧٦ م على يد الجرمان بأنها تقع ضمن الفترة الخاصة بدراسة تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وهى تتبع التخصص الدقيق للتاريخ القديم اليونانى الرومانى.

(٣) راجع: جيبون (المرجع السابق). ص ٤٧٩، ص ٤٨٠، يوسابيوس القيصرى «تاريخ الكنيسة» ك ٨ ف ٧. ص ٤٢١ ـ ٤٢٣، إسحاق عبيد «الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية» ١٩٧٢، ص ٥٣.

في أن نهدى إلى طريق العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المضلين الذين نبذوا الديانة والطقوس التى شرعها آباؤهم، والذين تبجحوا فازدروا شعائر الأقدمين، ومن ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة، أملاها عليهم خيالهم، وشكلوا مجتمعاً متعدد الألوان فى مختلف أرجاء الإمبراطورية، ولما كانت المراسيم التى أصدرناها لفرض عبادة الآلهة قد عرضت كثيرين من المسيحيين للخطر والكروب، فقضى الكثيرون نحبهم، على حين ظل عدد أكبر سادرين فى حماقتهم الملحدة، حيث جُردوا من الحق فى الممارسة العلنية للدين، فإن إرادتنا اتجهت إلى أن نبسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد التعساء، ولذلك نرخص لهم فى إعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة، وفى عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو إزعاج، شريطة أن يُظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة، ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام، فى مرسوم آخر. وإنا نأمل أن يحفز تسامحنا المسيحيين إلى الصلاة والتضرع إلى الإلـه الذى يعبدون، من أجل سلامتنا ورخائنا، وسلامتهم ورخائهم هم أنفسهم، وسلامة الجمهورية ورخائها».

ويبدو أن مرسوم «جاليريوس» كان على الأقل صورة صادقة لشعور الإمبراطور المحتضر، والذى كان بمثابة تعهد بإخلاصه ـ كوأن توقيع «جاليريوس» على مرسوم التسامح هذا كان على يقين بمدى مسايرة «ليكينيوس» لنزعات صديقه الحميم، وأن أى خطوة فى صالح المسيحية كانت ستحظى برضاء قنسطنطينوس[1]. أما الإمبراطور «ماكسيميانوس» فقد كانت اتجاهاته واضحة، بحيث أن «جاليريوس» لم يكن ليجرؤ على وضع اسمه فى ديباجة المرسوم، ومما يجدر بالملاحظة أن ماكسيميانوس قد تولى بعد ذلك بأيام قلائل حكم ولايات آسيا، وفى الشهور الستة الأولى من حكمه تظاهر بالتزامه بالنصائح الحكيمة لسلفه، وتجلى ذلك من خلال توجيهات رئيس حرسه «سابينوس»، الذى أصدر توجيهات عديدة إلى الولاة والحكام فى الولايات يحثهم على غض الطرف عن محاكمة وعقاب الأساقفة وإطلاق سراح المسجونين المسيحيين.

بيد أن ذلك الاستقرار والسلام لم يدم طويلاً ـ حيث أن الخرافة (العقيدة) والقسوة كانتا كامنتين فى شخصية «ماكسيميانوس»، الذى كان مثابراً على عبادة الآلهة ودراسة السحر، والإيمان بالوحي، ومجالسة الفلاسفة الذين أثروا عليه وأقنعوه بأن المسيحيين

(١) Cf., Hardy (E.G.), Christianity and the Government, 1906, pp. 66 ff.

مدينون بانتصاراتهم إلى نظامهم الدقيق، وأن ضعف المشركين ناتج عن افتقارهم إلى وحدة رجال الدين وأحكام الرياسة والتدرج بينهم. وإزاء ذلك فقد أمر «ماكسيميانوس» بإصلاح المعابد وتجميلها فى كل المدن الكبيرة فى أنحاء الإمبراطورية، وفرض سطوته على الكهنة القائمين على خدمة مختلف الآلهة(١). وبتأثير الحكام وتأثير هذا النظام الكهنوتي وصلت رسائل كثيرة إلى الإمبراطور تنم عن الطاعة، وخاصة من مدن «نيقوميديا، وأنطاكية، وصور» - وهي تستحث وتلتمس من الامبراطور أن يلجأ إلي قوانين العدالة، وإبعاد المسيحيين إلى خارج بلادهم. ولنا أن نتصور مدى صور الاضطهاد والتعسف التى عانى منها المسيحيون، خاصة فى آسيا الصغرى، أمام جبروت وقسوة حاكم عنيد متعصب، دَبَّرَ كل صنوف الغدر والعنف بمثل هذه السياسة المقصودة والمدبرة.

موقف قنسطنطينوس من المسيحية:

ويبدو ان قنسطنطينوس قد أحس بمدى ما حققه من نجاح بعد جولاته فى الصراع مع المنافسين، وأنه يجب تحقيق كسب كبير بضم المسيحيين إلى جانبه، خاصة بعد تلك النبوءة المبشرة بالنصر - والتى اتسعت رؤيتها بعد رواية «لاكتانتيوس - Lactantius»(٢)، ومضمونها أن قنسطنطينوس قد أتاه الهاتف ليلة المعركة (جسر ميلفيا Milvia) طالباً منه أن يأمر جنوده بأن يكتبوا على دروعهم الحرفين الأولين من اسم السيد المسيح (خريستوس - Christos)(٣). وقد أشار «يوسيبيوس - Eusébius»(٤) بأن قنسطنطينوس قد روى له أنه شاهد قبيل المعركة علامة الصليب رمز المسيحية تُرْسَم عبر الشمس فى سماء روما عام ٣١٢ م، ومن تحتها عبارة "entoute nike" أى بهذا سوف تنتصر(٥). وخاض المعركة باسم الصليب، حيث حاصرت قواته ببسالة «ماكسنتيوس Maxentius» أمام التيبر، ثم دخل روما بعد ذلك فى اليوم الثانى منتصراً ليستعرض قواته، ويعرض أحد

---

(١) جيبون (المرجع السابق). ص ٤٨١.

(٢) Lactantius, De mortibus persectorum, in P.L., Vol. VII; Cf., Moreau (J), De la Mort des Persécuy-teurs, Sources Chretiennes, 30 (1965); Wolsok (A), Laktaniz Und die Philosophische Gnosis, 1960.

(٣) Cam. med. Hist., vol. I, pp 5, 6.

(٤) For Eusebius as a historian, See: Laqueur (R), Eusebius als Historiker seiner Zeit, 1929.

(٥) Castritius (H), Studien Zur Maximinus Daia (M. Lassleben), 1969, pp. 12 ff.

ضباطه رأس «ماكستيوس» معلقة على عربة وسط هتاف الجماهير بحياة المحرر والمنقذ قنسطنطينوس[١]، ثم مباركة السناتو له، وإعلان شرعيته وسلطانه المطلق على كافة ولايات الإمبراطورية[٢].

ولنا أن نتصور شعور المسيحيين إزاء تلك الانتصارات المبجلة بفضل الصليب ـ وتلك الأحاسيس الفياضة والشعارات الجامحة والشموخ بفضل قوة الصليب "Mente magnitu-dine" النابعة من وحى الرب "Instinctus divininitatis"، وهذا ما أعلنه قنسطنطينوس بالفعل نحو فضل المسيح ووقوفه إلى جانبه[٣].

وبرغم ذلك فإن قنسطنطينوس قد استمر فى احترام الديانات الأخرى الوثنية، وخاصة أنه كان الكاهن الأعظم لها (Pontifex Maximus)، وأنه بنى قوس النصر لرب الشمس، وسك صور الآلهة الوثنية على النقود، وأصبح يعمل على تقارب جميع المذاهب الدينية لتقف خلفه فى صراعاته. ولنا أن نتصور شعور الوثنية من مواقف قنسطنطينوس المسيحية، فقد كان بمثابة الخارج عن جلد أجداده برداء جديد غير مناسب[٤].

ويبدو أن الأوضاع والأحداث قد أملت على «قسنطنطينوس» خطا ثابتاً نحو المسيحية، والارتكاز على سياسة دينية قوية، تمثلت فى مؤثراتها فى المنطقة. وأن موقف المسيحيين من قنسطنطينوس أصبح يمثل الحليف القوى لكل من الطرفين، ومن ثم فقد كان من الأوفق تقديم المزيد من الطرفين للتقارب الأقوى. ولذلك أصدر «قنسطنطينوس» بصفته الأغسطس الأعلى بين أقرانه أوامره إلى «ماكسيميانوس دايا» بوقف اضطهاد المسيحيين فى الشرق الأوسط ـ ثم أصدر أمرًا فى عام ٣١٣ إلى حاكم ولاية إفريقيا بإصلاح الكنائس المهدمة، ومساعدة أسقف قرطاجة «كايكيليانوس Caecilianus» بالأموال اللازمة لتوزيعها على كهنة الكنيسة الأرثوذكسية فى شمال إفريقيا (نوميديا ـ وموريتانيا)، وإعفاء الكهنة من الضرائب وكافة الأعمال والمناصب الإلزامية[٥].

(١) CF., Vasiliev, OP. Cit., Tome 6, p. 61; Eusebius, Vita Constantini.
راجع: سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٧.
< in hoc signo Vinces >

(٢) Cf., Eadie (J.W.) The Conversion of Constantine (European Problem Studies), New York, and Winston 1971, pp. 35 ff.

(٣) Cf., Ostrogorsky, (T). History of the Byzantine State, London1952, p. 43.

(٤) Cf., Eadie (J.W), op. cit., pp. 22 ff.

(٥) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٣٤ ـ كذلك راجع:
- Cloeman - Norton (P.R.), Roman State and Christian Church, 1966, pp. 117 ff.

وتبعاً لذلك كان لزاماً على قسطنطينوس احتضان هذه الطبقة العريضة وضمها بصفة دائمة إلى جانبه دون أية قلاقل أو أى شعور من عدم الاطمئنان الذى كان صفة راسخة فى نفسية كل مسيحى. وأنه برغم ميول قسطنطينوس الظاهرة إلى إيمانه العميق بالمسيحية فإن دوافعه غير المباشرة فى السيطرة والاستقلال بالسلطة كانت العامل الأساسى فى مواقفه من المسيحية. ويميل المحدثون من البروتستانت والفلاسفة إلى الاعتقاد بأن قسطنطينوس، فى روايته عن تحوله إلى المسيحية كان مسوقاً بوازع من مصلحته، وأنه قد استخدم مذابح الكنيسة بمثابة سلم مناسب يرقى عن طريقه إلى عرش الإمبراطورية فى إطار أمنى شامل. والواقع أنه يصعب الجزم إذا ما كان للدافع الدينى صفة مؤثرة على تصرفاته[١]. بيد أنه لا يمكن إغفال أثر أحداث الفترة الأخيرة من القرن الثالث على تطور العلاقات الرومانية المسيحية.

مرسوم ميلان

(Edict of Milan)

نقطة التحول فى العلاقات الرومانية المسيحية

يُعَدُّ الإقرار العام للمسيحية (مرسوم ميلان عام ٣١٣) الذى أصدره قسطنطينوس بجعل المسيحية ديانة شرعية (Religio Licota) من أهم أحداث تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وتاريخ أوربا خلال تلك الفترة، ولا يزال جزء كبير من العالم محتفظاً بالأثر العميق الذى أحدثه تحول هذا العاهل الكبير إلى المسيحية[٢].

ولا شك أن ذلك المرسوم (Edict of Milan) كان حلقة الوصل بين مرحلتين غاية فى الأهمية، تتصل إحداهما بقسطنطينوس نفسه والإمبراطورية، وتتصل الأخرى بالمسيحية[٣]. ذلك أن المرحلة الأولى تمثل الفترة الأولى من حكم قسطنطينوس قبل الاعتراف بالمسيحية بمقتضى (مرسوم ميلان)، وهذه الفترة تعكس صورة واضحة لمدى الاضطرابات والصراعات الدموية وعدم الاستقرار فى الحكم الذى كان قسطنطينوس يسعى إلى توطيده. أما الفترة الثانية فهى تتسم بروح الاستقرار والطمأنينة التى عمت أرجاء الإمبراطورية بعد استقرار الحكم تحت سلطة قسطنطينوس المطلقة دون منافس. مدعماً بقوى عريضة من الشعب تجلت فى جمهرة المسيحيين.

---

(١) جيبون (المرجع السابق) ص ٥٨٢.

(٢) Baynes (N.H.), Constantine the Great and the Christian Church, 1929, pp. 3 ff.

(٣) عن نص مرسوم ميلان راجع: «يوسابيوس القيصرى» تاريخ الكنيسة ـ ك ١٠ ف ٥ ص ٤٩٧ ـ ٥٠٠.

وقد شهدت المرحلة الثانية تطور مركز المسيحية من فترة الاضطهاد والتعذيب على يدى دقلديانوس وجاليريوس إلى فترة الاعتراف والظهور والاستقرار والبقاء التى لم تجدها المسيحية فى أية فترة سابقة. ويكفى أن نشير إلى أن قسطنطينوس بقرار الاعتراف (مرسوم ميلان) قد أعاد إلى المسيحية روحها المفقودة ـ وأنه باعتناقه لها كان الركيزة التى وطدت أركان هذه الديانة[١].

ونستعرض فيما يلى ما ورد فى نص «مرسوم ميلان» الاعتراف بالديانة المسيحية، وهو الذى تضمنه الخطاب الذى أرسله قسطنطينوس إلى حاكم «نيقوميديا»[٢]:

«لقد كان رأينا منذ وقت بعيد ألاَّ تُنْكَر الحرية الدينية على أحد، بل كنا نهدف إلى أن نضمن لكل فرد الحق فى ممارسة عقيدته التى يختارها، ولقد سبق أن أصدرنا قراراً يكفل للمسيحيين وغير المسيحيين التمتع بمعتقداتهم الدينية وبعبادتهم، غير أن الشروط الكثيرة التى رهن بها التمتع بالحرية الدينية عند إصدار هذا القرار لم تمكن البعض من التمتع بالحرية الدينية كما ينبغى.

«وبناء علي ذلك فإنه من حُسن الطالع عندما وصلنا ـ نحن قنسطنطينوس أغسطس ونحن ليكينيوس[٣] أغسطس ـ إلى مدينة ميلان، ورحنا نتدارس سائر الأمور المتصلة بصالح الرعية ونفعها، كان من بين الإجراءات الأخرى التى قصد بها الصالح العام، أو بالأحري من المسائل الحيوية التى استوجبت الأولوية فى العناية قرارنا هذا بإرساء قواعد تؤكد وتضمن الاحترام والتبجيل للرب: بمعنى أن يُعْطَى المسيحيون وغيرهم الحرية فى العبادة التى تروقهم، لعلنا بهذا والرعية التى نحكمها نحظى بفضل ومحبة القوى الربانية والسلطات السماوية الأخرى، وهذا هو القرار الذى توصلنا إليه بعد تمحيص ودراسة، وغايتنا أن يهبنا الرب غياته وعطفه الشاملين مثلما أعطانا من قبل.

«لقد وجدنا من الضرورى أن نرسل مرسوماً يوضح هذا القرار إليكم حتى نؤكد لكم فيه أمرنا بإلغاء ما ورد من شروط فى المرسوم السابق بخصوص المسيحيين.

---

(١) Jones, Later Rom, Emp., pp. 22 ff.

(٢) راجع: إسحاق عبيد (المرجع السابق). ص ٥٧ ـ ٥٩.

(٣) عن «ليكينيوس ـ Licinius» راجع:

- Cf., Brunn (P.M.), R.I.C., VII, 64 ff.

هذا وعليكم مراعاة إلغاء كل التحفظات السابقة التى لم يكن لها من مبرر، والتى لا تتفق وروحنا المشبعة بالرحمة. والآن فإنه يتحتم أن يتمكن كل واحد (فرد) له الرغبة فى اتباع تعاليم المسيحية وطقوسها من ممارسة هذا الحق كاملاً، دون تدخل يعوقه من تحقيق مراده هذا. كل هذه الأمور نحن نبسطها أمامكم لتتبصروا تماماً، ولكى يتأكد لكم بصفة حاسمة أننا قد منحنا المسيحيين سابقى الذكر ترخيصاً مطلقاً فى أن يمارسوا عاداتهم فى حرية تامة. ولا يخفى على فخامتكم أننا بمنحنا هذا الحق على إطلاقه فإننا نسمح لمن يشاء من الرعية أن يمارس نوع العبادة التى يرتضيها لنفسه، وهذا حق خليق بسمات عهدنا الميمون الذى يسود فيه الاطمئنان. ولا يعنى هذا أننا نقلل من شأن أية طقوس أخرى وعبادات أخرى.

«وبالنسبة للمسيحيين فإننا نضيف القرار الآتى:

«كنا قد حددنا فى الرسالة السابقة إليكم تعليمات خاصة فيما يتصل بأماكن العبادة المسيحية، والتى اعتادوا على الاجتماع فيها، والآن فإننا نقرر أنه إذا اتضح أن أحدًا ما قد اشترى أماكن العبادة هذه - فى شكل أو آخر - بمال دفع من خزانتنا أو من مصدر آخر، فإن عليه المبادرة بإرجاع هذه الكنائس إلى المسيحيين بدون أن يتقاضى مالاً عنها وبدون أن يطالب بأية تعويضات. وهذا أمر لا نريد فيه إهمالا ولا إمهالاً، وإن كان أحد ما قد حصل على كنيسة من هذه الكنائس بصفة الهدية أو الهبة فعليه إرجاعها إلى المسيحيين بدون تباطؤ. وإذا رغب هؤلاء النفر من الناس فى المطالبة بتعويض فعليهم أن يلتمسوا هذا من أبواب كرمنا الإمبراطورى: بأن يتقدموا إلى قضاة وحكام مناطقهم، وسوف نجزيهم بكرمنا خيرًا.

«وعلى فخامتكم أن تتصرفوا فى همة زائدة وفورية لكى تسلم هذه الممتلكات جميعاً إلى المسيحيين بدون إبطاء. ولما كانت للمسيحيين إلى جانب كنائسهم أماكن أخرى موقوفة على الجماعة المسيحية كجمعية هنا وهناك، فإن هذه الممتلكات أيضاً يجب أن تُعاد إليهم، ويطبق فى صددها نفس القانون السابق ذكره. وهذا أمر لا يحتاج إلى مماطلة أو مجادلة. وتنحسب مسألة التعويض سالفة الذكر على هذا البند أيضاً.

«ونحن نحثكم على أن تبذلوا كل ما فى وسعكم من طاقة وهمة لتنفيذ كل هذه الأوامر فى أسرع وقت ممكن حتى يتعرف الناس على كرم قراراتنا، فتوطد دعائم السلام والأمن للرعية جميعاً، ذلك لأنه علي ثقل هذا القرار وبحسن نوايانا كانت العناية الربانية معنا دوماً، ونأمل فى أنها ستظل كما كانت من قبل إلى الأبد، ولكى يصل هذا القرار إلى آذان الكل فإنه يحسن بفخامتكم نشر ما جاء فيه ليذاع على الرعية ويصل إلى كل المواطنين».

وبمقارنة نص جاليريوس الذى صدر فى سنة ٣١١ بهذا النص الذى أصدره قنسطنطينوس من ميلان فى عام ٣١٣ يتضح لنا الفارق الكبير بين المرسومين. ولا يخفى أن قنسطنطينوس يهاجم جاليريوس - فى مرسوم ميلان - هجوماص عنيفاً وينتقده فى مرارة بالغة بسبب الشروط القاسية التى وضعها جاليريوس عند سماحه للمسيحيين بممارسة شعائرهم، ولهذا كان إصرار قنسطنطينوس فى رسالته إلى حاكم نيقوميديا على إلغاء كل ما ورد فى مرسوم جاليريوس من شروط مجحفة - برغم أن اسمه قد اقترن به - وإنْ كان ذلك ينم عَمَّا كان يخفيه قنسطنطينوس من بُعد نظر سياسى.

ولقد تطور إيمان قنسطنطينوس بشرعية المسيحية إلى درجة اعترافه بحق الكنيسة فى البقاء كشريك مسئول معه فى حكم الإمبراطورية، وقام بمنح المسيحيين المزيد من الامتيازات والإعفاءات، وأقر تشريعات الكنيسة كقانون إجبارى، حيث اعترف عام ٣١٨ م بشرعية الأحكام التى تصدرها محاكم الأساقفة فى وراثة ممتلكات الشهداء بشرط ألاَّ يكونوا قد كتبوا وصاياهم لغير الكنيسة[١].

وأعلن قنسطنطينوس أن يوم الأحد هو يوم الرب، بمعنى اعتباره عطلة لكل أجهزة الدولة المختلفة من مصانع ومحاكم وإدارات[٢]. كما اختار شعاراً لدولته الصليب الجديد (Labarum) الذى يحمل حرفى كلمة المسيح «خريستوس - Christus»[٣] وكان

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٣٧ - كذلك راجع:

- Eadis (J.W.), op. cit., pp. 35 ff.

(٢) Jones (A.H.M.), Constantine and the Conversion of Europe, 1948, pp. 61 ff.

(٣) كان اختيار قنسطنطين ليوم الأحد « dies Soils » الذى هو رب الشمس مرضياً لكل من المسيحيين وعباد رب الشمس - راجع:

- Mestin (R), Le fête des Kalends de Janvier dans L'Empire Romain Etudes d'un rituel de nouvel an (Coll. Latomus Vol. 115), Bruxelles, 1970.

لذلك كله أثره الإيجابى لتوطيد أركان العقيدة المسيحية بين معتنقيها. وقد بدأت مراحل التعمق المذهبى بحيث أخذت الكنيسة تشهد صراعاً عقائديا كاد أن يهدد كيانها، وهو الذى انحصر بعد ذلك فى أقطاب هذا الصراع بين المذهب «الأريوسى»(١) ـ والمذهب «الاثناسى»(٢) لتحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله والأب(٣). والتزاماً بموضوع البحث لا سبيل فى هذا المقام إلى تناول الصراع العقائدى.

* * *

(١) عن المذهب الأريوسى وانتشاره ـ راجع:

- Cf., Meslin (M), Les Ariens, L'occident (335 - 530), Paris Ed. du Seuil 1967.

(٢) Cam. Med. Hist., 1, p. 10.

(٣) راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور «تاريخ أوربا فى العصور الوسطى» ـ القاهرة ١٩٧٢ ـ ص ٤٩ ـ ٣ حيث قدم شرحاً وافياً لهذه المسألة.

المصادر والمراجع

(أ) المصادر الأصلية :

- CICERO. Orations - De Haruspicum Responso. 37.
- EUSEBIUS, Vita Constantini (Ecclesiastical History), Loels Classics.
- JOSEPHUS, Antiq. Jud., X, (Loeb. Class) Trans. by R. Marcus.
- SUETONIUS, Nero, 31 (Loeb. Class) Trans. by J. C. Rolfe.
- TACITUS, Annales. XV (Vol. V, Loeb. Class).

(ب) المراجع الأجنبية :

- BAYNES (N.H), Constantine the Great and the Christian Church, 1929.
- BERSANETTI (G. M), Studi Sul imperatore Massimino Trace 1940.
- BIRLEY (A), Marcus Aurelius, 1966.
- BLAKENEY (E. H), Epitome, 1950.
- BRANDT (S), and Laubmann (G), Corpus Inscriptionum Ecclesiasticorum Latinarum 1866 ff, XIX, XXVII.
- CARDINI (M. T), I Pitagorici (1958).
- CARY (M), A History of Rome down to the Reign of Constantine, London 1938.
- CASTRITIUS (H), Studien Zur Maximinus Daia (M. Lassleben) 1969.
- CLAY (M), La Religion Romaine, Paris. 1971.
- COLEMAN - NORTON (P. R), Roman State and Christian Church, 1966.
- COSTA (C), Ruggiero Di Zionario Epigrafico di antichita romana, 1886.

- DECKER (D), LaPolitique Religieuse de Maxence, Byzantine, XXX, A III 1968.

- DIEHLE (C), Constantinople, 1924.

- EADIE (J. W), The Conversion of Constantine, E. P. S., 1971.

- ENSSLIN (W), P. W., Valerius. - Zur, Ostpolitik des Kaisers Diokletian, 1924.

- FERRERO (G), La Ruine de la Civvilization Antique Paris 1921.

- FREND (W. H. C), Martyrdom and Persecution in the Early Church, London 1965.

- FRANK (E), Plato Und die Sogenannten Pythagorer, 1923.

- FRITZ (K), Pythagorean Politics in Southern Italy, 1940.

- GLOVER (T. R), The Conflict of Religions in early Roman Empire, 9th ed., London 1920.

- HARDY (E. G), Christianity and Roman Government 1906.

- HENZEN (W), Acta Fratrum Arvalium, 1974.

- HERCHER (R), Epistolographi, 601 (Pythagoreorum Epistola).

- HOMO (L), Essai Sur le regne de L'empereur Aurelian, Paris 1904.

- JONES (A. H. M), Constantine and the Conversion of Europe, 1948

- ——— The Decline of Ancient Rome, Longmans 1966.

- ——— And Martindale (J), and Morris (J), The Prosopography of the Later ——— Roman Empire, Vol. 1, (A. D. 260 - 385), Cambridge University, Press 1971.

- LACTANTIUS, De Mortibus persectorum, in (Migne, Patrologiae Cursus, Series Latina), Vol., VII.

- MESTIN (R), La fête des Kalends de Janvier dans L'Empire Romain Etudes d'un rit. el de mouvel an (Coll, Latomus Vol. 115), Bruxelles, 1907.

- MORREAU (J), De la Mort des Persécteurs, Sources Chrétiennes, 30 (1965).

- MULLACH (F. A. W), Fragmenta Philosophorum Graecorum I, 485 - 509.

- OLMSTEAD (A. T), Classical Philology, 1942.

- OSTROGORSKY (T), A History of the Byzantine State, London 1952.

- PARAIN (C), Marc. Aurèle, 1957.

- PIAGANIAL (A), Histoire de Rome 1962.

- ———— (A), L'Empereur Constantin, 1932.

- PREAUX (C), Chron, d'Eg., 14 (1939), pp. 180 ff.

- PUECH (H. C), Manichaismus (1961), E. T., 1965.

- RAMSAY (W. M), The Church in the Roman Empire before 170, London 1906.

- REMONDON (R), La Crise du Mond Romain de Mar. Aurele à Anstàse, 2nd. Ed., Paris 1970.

- ROSTOVIZEFF (M), A History of the Ancient World, Vol. 2, Oxford 1953.

- SESTON (W), La Tetrarchie, 1946.

- SMALLWOOD (E. M), Journal of Theological Studies 1959.

- SORDI (M), The Christians and the Roman Empire, London 1994.

- STADE (K), Der Politiker Diokletian Und die Litzte Grobe Christenver Polgund, 1929.

- TCHERIKOVER (U), The Jews in Egypt in the Hellenistic - Roman Age in the Light of the Papyri, Jerusalem 1945.

- THOMPSON (L. S), The Middle Ages, Vol. 1.

- TOWNSEND (P. W), Yale Classical Studies, 1955.

- VASILIEV (C), Histoire de L'Empire Byzantine, Tome 1, 1932.

- VITUCCI (G), L'imperatore Probo, 1952.

- VOGT (J), The Decline of Rome, 1967.

- WALSER (G) and Pekary (th), Die Krise des Romischen Reiches, 1962.

- WEBB (P. H), Reign and Coins of Carausius, 1907.

- WLOSOK (A), Laktanz und die Philosophische Gnosis, 1960.

(جـ) الدوريات:

- C.I.L., = Corpus Inscriptionum Latinarum, 1863 -
- C. Ph., = Classical Philology, 1906 -
- J. R. S., = Journal of Roman Studies, 1911 -
- J. T. S., = Journal of Theological Studies, 1899 -
- Y. C. S., = Yale Classical Studies, 1920 -

(د) المراجع العربية:

١ ـ إسحاق عبيد: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ١٩٧٢.

٢ ـ جيبون (إدوارد): اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ـ ثلاثة أجزاء، ترجمة: محمد على أبو درة.

٣ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٧٢.

٤ ـ سيد أحمد على الناصرى: تاريخ الإمبراطورية الرومانية ـ القاهرة ١٩٨٥.

٥ ـ عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية (فى ضوء الأوراق البردية) القاهرة ١٩٧٤.

٦ ـ يوسابيوس القيصرى: تاريخ الكنيسة ـ ترجمة: القمص مرقص داود ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٧٩.

بلاد تهامة والسراة منذ فجر الإسلام
حتى السنة الثانية عشرة للهجرة

حفَلت شبه الجزيرة العربية قُبيل الإسلام، بالعديد من الاتجاهات الفكرية والدينية، فوُجدت بها الديانات النصرانية، والصابئة، واليهودية، والحنفية، والمجوسية، وعَبَدَة الأوثان[1]، مما أدى إلى اضطراب اجتماعى وخَلْطٍ فى المفاهيم الدينية، فضلاً عمَّا كان هناك من قلق فى الأوضاع، وهكذا حتى جاءت رسالة الإسلام، لتعمل على تطبيق الأحكام الشرعية بدلا من الأعراف والعادات التى كانت سائدة بين القبائل بدون أدنى بصيرة أو منهاج. ودأب الرسول عليه السلام على توحيد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام بعد أن غدت المدينة المنورة عاصمة للدولة الإسلامية، ومنها خرجت الجيوش إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية، فضلاً عن قرارات تعيين الولاة، والقرارات السياسية والدينية والإدارية وغيرها[2].

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن الديانات المتعددة فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، انظر: جواد على: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٠م) جـ٦، ص ٥ ومابعدها.

(٢) ظهور الدين الإسلامى فى الحجاز على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم انتشاره فى جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، ثم فى بلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس، وفى بلاد فارس، والهند، والسند، وغيرها. لم يكن ليحدث بين عشية وضحاها، وإنما مر بمراحل صعبة منذ اجتماع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، حتى وصلت الفتوح الإسلامية إلى أقصى مداها فى عهدى الدولتين: الأموية والعباسية.

وللمزيد من الاطلاع على أحداث مراحل التاريخ الإسلامى المبكر، وامتداد الفتوح الإسلامية إلى أقصى الشرق والغرب. انظر: عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية**، حققه وشرحه، مصطفى السقا وآخرون (بيروت: دار القلم. د. ت) (٤ أجزاء) وأحمد بن يحيى البلاذرى: **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ص ١٧ ومابعدها. ومحمد بن عبدالله الأزدى: **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبدالمنعم عبدالله عامر (القاهرة: مطابع سجل العرب، ١٩٧٠م). ومحمد عمر الواقدى: **فتوح الشام** (بيروت: دار الجيل، د. ت) جزءان. وعبدالوهاب النجار: **الخلفاء الراشدون** (بيروت: دار الفكر، د. ت)، ص ٣ ومابعدها.

ومما يسترعى النظر فى تاريخ شبه الجزيرة العربية فى فَجْر الإسلام، ذلك التباين فى أهمية أجزائها وحواضرها وأقاليمها، وهو التباين الذى يبدو فى تتبع مسيرة التاريخ فى تلك الفترة، فمكة المكرمة، والمدينة المنورة نالتا حظاً وافراً من الاهتمام يفوق ماكان لغيرهما من الحواضر والأقاليم، ونظراً لمكانتهما الدينية المرموقة فى المرحلة المرتبطة بمولد الإسلام، مما جعل ذكرهما يتردد باستمرار فى كتب التراث الإسلامى. ويليهما فى الأهمية حواضر اليمن، مثل صنعاء، وصعدة. وهكذا تتسلسل أهمية بقية الحواضر والأقاليم، كاليمامة، والبحرين، وغيرهما. ولعل ورود الكثير من الروايات عن هذه المدن يعود إلى استراتيجيتها ودورها فى صنع الأحداث، فضلاً عَمَّا توافر لبعضها من قيادات سياسية وإدارية قادرة على أن تؤثر وتتأثر بالأحداث الجارية[1].

وقد اخترنا فى هذا البحث أن نلقى بعض الضوء على جانب من الأقاليم التى لم تَحْظَ بقدر واضح من الأهمية فى كتابات من تعرضوا لتاريخ شبه الجزيرة فى فجر الإسلام، واخترنا المنطقة المعروفة باسم (تهامة والسراة) والتى تصل حواضر الحجاز الكبرى ـ الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة ـ بحواضر اليمن، صنعاء وصعدة وغيرهما.

وربما اقتصر اهتمامنا على المنطقة الممتدة من شمالى نجران وجازان جنوباً، إلى جنوبى مكة المكرمة والطائف شمالاً، وَارتَأَيْنَا أن يكون بحثنا محصوراً فى فترة زمنية محدودة تمتد من بعث الإسلام إلى السنة الثانية عشرة للهجرة، آملين أن تكون هذه الدراسة اللبنة

(١) نلاحظ أن الكثير من كتب التراث الإسلامى المبكرة مملوءة بالروايات المختلفة عن المدن الكبرى فى شبه الجزيرة، كمكة، والمدينة، والطائف، وصنعاء، وصعدة، واليمامة، والبحرين، وغيرها، فتعرضت لثقلها السياسى، والاقتصادى، والفكرى، والاجتماعى، والدينى، وبخاصة فى مكه المكرمة والمدينة المنورة، بل إن الكثير من المصادر أشار إلى العديد من الشخصيات التى برزت فى تلك الحواضر، خلال القرون الإسلامية المبكرة، والتى كان لها دور بارز فى بعض مجالات الحياة السياسية والحضارية المختلفة.
وللمزيد من التوضيحات، انظر: محمد بن عبدالله الأزرقى: **أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدى ملحس، ط٤ (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) جزءان. وعمر بن شبه: **تاريخ المدينة المنورة**، تحقيق فهيم محمود شلتوت (جدة: دار الأصفهانى للطباعة والنشر، ١٣٩٣ هـ) (٤ أجزاء) وعمر على الجعدى: **طبقات فقهاء اليمن**، تحقيق فؤاد سيد (بيروت: دار القلم، د. ت) ص ٢٥ ومابعدها. وحمد الجاسر: **أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضيع** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د. ت) ص ٧ ومابعدها. وأكرم ضياء العمرى: **المجامع المدني في عهد النبوة** (المدينة المنورة: د. ت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، ص ١٧ ومابعدها.

الأولى، التى تشد من أزْرِ الباحثين وتحفزهم إلى الكشف عن تاريخ هذه المنطقة وغيرها من أقاليم شبه الجزيرة التى لم تنل حظاً كافياً من العناية فى مجال البحث التاريخى.

ونبدأ بتسجيل ملاحظة إيضاحية، وهى أن المصادر المعاصرة أطلقت على البلاد الواقعة إلى الجنوب من مكة المكرمة مسميات عديدة، مثل: بلاد جنوبى الطائف، ومكة، أو (بلاد اليمن)، أو (تهامة والسراة)، بدون تحديد الفواصل بين تلك الأقاليم بعضها وبعض. وقد ركزت بعض المصادر على حواضر ومراكز حضارية معينة، مثل: نجران، وجريش، وبيشة، والطائف، بدون تحديد منهجى لدراستها، وبذلك غدت من البلاد المحظوظة نوعاً ما، لتردد ذكرها فى بعض كتب التراث الإسلامى، برغم شحها قياساً بغيرها[1].

نبذة عن الوضع الجغرافى والبشرى:

المقصود ببلاد تهامة والسراة، الوارد ذكرها فى هذا البحث، تلك المنطقة الممتدة من قرب الطائف ومكة المكرمة شمالا، إلى جازان ونجران جنوباً. وهذه المنطقة لاتشمل كل بلاد تهامة والسراة المشار إليها فى كتب التراث، والتى قد تمتد شمالا إلى المدينة المنورة أو بلاد الشام، وجنوباً إلى حواضر اليمن الكبرى. وبين هذا وذاك، سنركز نحن فى هذا البحث على واسطة العقد، أى قلب ذلك الإقليم ووسطه، فنقول: سراة الشئ فى

(١) هناك العديد من المصادر المبكرة التى تعرضت لبلاد تهامة والسراة من حيث المسميات، أو من نواحى جغرافية وحضارية أخرى.
وللمزيد من الشروحات انظر: عبيد الله بن خردازبه: **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق، ام. جى. دى غوى (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩م) ص ١٣٣ ـ ١٤٤. وعبدالله بن عبدالعزيز البكرى: **معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م)، مجـ١، جـ١، ص ٥ ـ ٨٠. وشهاب الدين ياقوت الحموى: **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، جـ٣، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥. ومحمد بن أحمد بن جبير: **رحلة ابن جبير** (بيروت: دار الكتب، د. ت) ص ١٠٢ ـ ١٠٦. وشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل العمرى: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق، أيمن فؤاد سيد (القاهرة: المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، د. ت) ص ١٤٩ ـ ١٧٠؛ وحسن إبراهيم الفقيه: **مدينة السرين الأثرية** (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) ص ٩ ومابعدها. وأحمد بن عمر الزيلعى: «**المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي** (ق ٣ ـ ٩ هـ / ٩ ـ ١٦ م)». **حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت**، الحولية رقم (٧) الرسالة (٣٩) (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) ص ١١ ـ ٦٥؛ ومحمد أحمد معبر: **مدينة جرش من المراكز الحضارية القديمة** (خميس مشيط: دار جرش للنشر والتوزيع، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ص ١٣ ـ ٥٠.

اللغة: أعلاه، وظهره، ووسطه. ويُذكر عن بلاد السراة أنها سلسلة الجبال المتصلة المشرفة على عَرفة، والتى تمتد إلى حواضر اليمن[١].

ويشير بعض الجغرافيين المسلمين القدماء إلى أن تلك الجبال الممتدة من حواضر الحجاز الكبرى إلى حواضر اليمن يُطلق عليها جبال السروات، وربما أُطلق عليها الحجاز، لأنها تحجز بين تهامة فى الغرب ونجد فى الشرق[٢]. ويبدو أن حدود جبال السروات أو الحجاز صارت مثار جدل واختلاف عند الجغرافيين المسلمين. والذى يهمنا فى هذا الصدد أن بلاد السراة المعنية هنا، عُرفت باسم السروات، ومفردها سراة، وبهذه المنطقة سروات كثيرة ـ أى قمم ـ من أشهرها سراة الطائف، يليها نحو الجنوب سراة فهم وعدوان، ثم سراة بنى سعد بلحارث، ثم سراة بنى مالك بجيلة، فسراة غامد وزهران، ثم سراة خثعم وشمران وبلقرن، فسراة الحجر، يليها سراة عسير التى كان يطلق عليها قديماً (سراة عنز)، ثم سراة قحطان، وتعرف قديماً (بسراة جنب)[٣]، وتمتد أطرافها الجنوبية إلى بلاد نجران. انظر الخريطة رقم (١). وهذه السروات يسكنها العديد من القبائل والعشائر والأفخاذ، وبالتالى كانت ومازالت تنسب كل سراة إلى القبيلة أو العشيرة التى تقطنها، وإنْ كان معظم سكان تلك السروات يسكنون فى المرتفعات أو السروات التى تفصل بين الأجزاء التهامية والنجدية، غير أن بعض الأفخاذ والعشائر كانت ترحل عن مواطنها فى السروات[٤]، وتنزل الأغوار التهامية فى الغرب، أو الأجزاء النجدية فى الشرق.

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن بلاد تهامة والسراة، من حيث حدودها، وخطوط الطول والعرض بها، وبعض ماقيل عن دورها الحضارى فى بعض كتب التراث الإسلامية المبكرة، انظر: الحسن بن أحمد الهمدانى: **صفة جزيرة العرب**. تحقيق محمد بن على الأكوع الحوالى (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م) ص ٥٨ ـ ٥٩، ٩٨ ـ ١٠٠، وياقوت: **معجم البلدان**، جـ٣، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥. ومحمد بن محمد بن عبدالله الإدريسى: **كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) جـ١، ص ١٣٦ ـ ١٥٦. وحمد الجاسر: **فى سراة غامد وزهران** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩١هـ / ١٩٧١ م) ص ٣٥٣ ـ ٣٦٦.

(٢) انظر تفصيلات أكثر من مقالتى. عبدالله الوهيبى: **«الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب» مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض** (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) جـ١، ص ٥٣ ـ ٧٠. وصالح أحمد العلى: **«تحديد الحجاز عند المتقدمين»** مجلة العرب (١٣٨٨ هـ / ١٩٧٨ م) جـ١ ص ١ ـ ٩.

(٣) ولا تزال أغلب هذه السروات المذكورة تُستوطن بالقبائل والعشائر التى سُميت بها كل سراة. ويستنتج من ذلك أن الأرض كانت ومازالت تنسب إلى من يسكنها، فمثلا: سراة قحطان، أو عسير، أو الحجر، عُرفت بهذه الأسماء، لأن قبائل قحطان، أو عسير، أو الحجر استوطنت سرواتها منذ أمد بعيد، فعرفت الأرض باسم القبيلة ونُسبت إليها، وهكذا حدث مع بقية السروات الأخرى.

(٤) التنقل والترحال من عادات العرب القديمة، بل انتقال الفخذ أو العشيرة من مكان إلى مكان كان من الأوضاع المألوفة عند البدوى منذ عهود قديمة، إلى جانب وجود أسباب أخرى تجعل بعض العشائر =

وبلاد السراة كثيرة الهضاب والوهاد، وتتفاوت فى الارتفاع، فقد يصل ارتفاع بعض الجبال فى سراة عسير إلى أكثر من ثلاثة آلاف قدم، ثم تقل إذا ما اتجهنا صوب الشمال وتتخذ شكل المدرجات، وتميل بشدة نحو البحر فى اتجاه الغرب، فى حين تنحدر تدريجياً نحو الهضاب الداخلية فى اتجاه الشرق. وتعد مرتفعات السراة بمثابة موزع للمياه بين تهامة فى الغرب والهضاب النجدية فى الشرق، ومن أهم الأودية المنحدرة تجاه الشرق أودية الطائف، مثل: وادى وج، ووادى لبّه، ووادى السر، ووادى كلاخ. يليها إلى الجنوب وادى تربة، وهو من الأودية الكبيرة التى تأخذ مياه قسم كبير من وجه السراة الشرقى، ويتجه نحو الشرق حتى يلتقى بوادى بيشة. ولوادى تربة العديد من الروافد، منها: وادى العقيق الذى يسيل من سراة زهران، ووادى بواء، الآتى من سراة بجيلة ويمر فى بلاد بلحارث حتى سراة غامد وزهران، ثم وادى رَنْية، بفتح الراء وسكون النون، وكثيراً مايطلق عليه الآن اسم وادى سبيع، لأن كثيراً من بطون سبيع تقيم فى هذا الوادى وبين جنباته، وهو يسيل من سراة غامد، وجنوباً يأتى وادى بيشة الذى يعد من أكبر أودية السراة المنحدرة نحو الشرق، ويمكن أن يُطلق على هذا الوادى وادى خَثْعَم[1]، لأن جميع البطون القاطنة فيه وعلى معظم روافده من خثعم. ومن روافد هذا الوادى وادى تبالة الذى يسيل من سراة خثعم وبلقرن وشمران، وهرجاب من سراة الحجر وغيرها[2]. ثم وادى تثليث[3] إلى الجنوب من وادى قحطان، وإذا كنا قد أطلقنا

= ترحل من مواطنها الأصلية إلى مواطن أخرى، كأن تهاجم قبيلة قوية أخرى ضعيفة فتجبرها على الرحيل، أو ترحل بعض العشائر ـ وبخاصة البدوية منها ـ من مكان لآخر بحثاً عن الماء والعشب الذى يفيدها فى رعى مواشيها، أو حدوث نوع من الخصومة والشقاق بين أفراد العشيرة الواحدة، مما يؤدى إلى خروج بعضهم من مواطن العشيرة الأساسية، والبحث عن مكان آخر يعيشون به. ومانلاحظه فى بلاد تهامة والسراة من تشابه فى بعض أسماء القرى والأفخاذ المتفرقة، أو من توزع بعض أفراد القبيلة أو الفخذ الواحد فى أكثر من مكان، سواء كان بالأجزاء السروية المرتفعة، أو بالهضاب والأودية الشرقية، أو ببعض الأجزاء الساحلية التهامية، ناتج من حدوث بعض الأسباب الآنفة الذكر، والتى عاشتها ومارسها سكان تلك البلاد منذ أزمنة بعيدة.

(١) لقد لاحظنا ورود أسماء بعض الأودية دون ذكر أسماء العشائر والقبائل التى أقامت حولها، مثلما حصل مع قبائل سبيع وخثعم فى وادِيَى رنية وبيشة، وفى اعتقادنا أن السبب فى ذلك يعود إلى أن بعض القبائل التى سكنت حول الأودية ولم تسم باسمها، هى قبائل غلب عليها طابع الترحال وعدم الاستقرار، فلم تكن تمكث طويلا وتلتصق بالأرض مثلما حدث مع قبائل خثعم وسبيع على واديى بيشة ورنية.

(٢) يقصد ببلاد الحجر المنطقة الواقعة بين سراة عسير جنوباً، وبلقرن وخثعم وشمران شمالا، ويستوطنها فى وقتنا الحالى، قبائل بلحمر جنوبا يليها نحو الشمال قبائل بلسمر، ثم قبائل بنى شهر وبنى عمرو.
وللمزيد من التفصيل. انظر: غيثان على جريس: **بلاد بنى شهر وبنى عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين** (أبها: مطابع مازن، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) ص ٩ ـ ١٤.

(٣) تثليث هى ديار عمرو بن معدى كرب الزبيدى، الذى سيرد ذكره معنا، عند الحديث عن الوفود التى قدمت على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد فتح مكة المكرمة. ومن المعلوم أن السواد الأعظم =

على وادى بيشة، وادى خثعم، وعلى وادى رَنْية، وادى سبيع، فيمكننا أن نطلق على وادى تثليث، اسم وادى قحطان، حيث تنتشر بعض فروع قبائل قحطان على أغلب أجزاء وادى تثليث، بالإضافة إلى أن بداية مسايل هذا الوادى من أعالى سراة قحطان[1]،

خريطة رقم (١)

السروات الواقعة بين الطائف ونجران

= من سكان الجزيرة العربية كانوا يدينون بالوثنية أو ماشابهها من الديانات الساذجة الدالة على سخف فى التفكير، وضعف فى المعتقد، وبعد ظهور الإسلام، وانتشاره فى بلاد تهامة والسراة، ظهر عندئذ شخصيات، أمثال عمرو بن معدى كرب وغيره، تعد بوادر الخير الذى ظهر بظهورها، فحملوا راية الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وجعلها العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

(١) من أكبر عشائر قبيلة قحطان فى وقتنا الحاضر ـ وبخاصة فى الأجزاء السروية: وادعة، وسنحان، وبنو بشر، وعبيدة، ورفيدة، والجارمة، وخطاب.

ومن أكبر روافده وادى العرين الذى يستمد مياهه من سراة عبيدة عند المنطقة المسماة بـ (الفيض) حول ظهران الجنوب.

أما الأودية الغورية المتجهة من مرتفعات السراة تجاه الغرب، فمنها إلى الشمال نحو الجنوب، وادى نعمان، الذى يسيل من غرب سراة الطائف، ثم يمر بالقرب من عرفة جنوباً، وهناك يجتمع بوادى عرنة الآتى من الشمال، فيسمى الواديان وادى عرنة، حتى يصب فى البحر جنوبى جدة، ثم وادى ملكان، الذى يبارى الوادى السابق من الجنوب حتى يصب فى البحر عند الشعيبة[١]. وواديا إدام ويلملم، ويقعان إلى الجنوب من وادى ملكان. ثم يأتى وادى الليث نحو الجنوب، وهو أكبر ماتقدم من الأودية، وتأتى مياهه من أعالى سروات بلحارث وبجيلة بنى مالك، منحدراً نحو الغرب حتى البحر. وهناك أودية أخرى تأخذ مياهها من سروات غامد، وزهران، وخثعم، وشمران، وبلقرن. مثل: وادى الشواق، ثم دوقة، وقرماء، وناوان، والأحسبة، وجميعها تصب على مقربة من القنفذة. ووادى قنونا الذى يصب من غرب سراة بلاد الحجر حتى البحر عند القنفذة، ثم وادى حلى الذى يُعَدُّ أعظم الأودية التى سبق ذكرها، وله رافدان عظيمان هما: واديا بقرة والحمض اللذان يأتيان من سراة الحجر، ثم وادى عتود الذى يسيل من سراة عسيرة[٢]، حتى يصب فى البحر عند بلدة الشقيق، ثم يليه إلى الجنوب وادى بيض، ثم وادى بيش الذى تأتى مياههما من سراة قحطان، وأخيراً واديا صبيا ثم جازان[٣].

---

(١) الشعيبة كانت ميناء مكة المكرمة الرئيسى منذ العصر الجاهلى وحتى عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان (٢٣ هـ / ٦٤٤ م ـ ٣٥ هـ / ٦٥٦ م)، ثم استبدلت جدة به فصارت الميناء الرئيسى لبلاد الحجاز حتى وقتنا الحالى.

وللمزيد من التفصيل. انظر: حمد الجاسر: **فى شمال غرب الجزيرة، نصوص، مشاهدات، انطباعات** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) ص ١٦٧ ومابعدها، وللجاسر أيضاً: **«حول البحار والشعيبة» مجلة العرب** (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) جـ١٢، ص ١١٧٠ ـ ١١٧٢.

G. R. Hawting. **"The Origin of Jeddah and the Problem of al-Shuayba" Arabic** Vol. XXXI (1984). pp. 318 - 326.

(٢) إن الذى قصدنا به هنا من سراة عسير، هى منطقة مدينة أبها وماحولها، أو بوجه أدق مواطن قبائل عسير الأصلية، والتى هى: قبائل معيد، وعلكم، وبنو مالك، وربيعة ورفيدة، وجميعها تقطن الأجزاء السروية الواقعة بين سراة الحجر من الشمال وسراتى قحطان وشهران من الجنوب، كما يوجد لهذه القبائل بعض العشائر فى أسفل عقبة ضلع المنحدرة من جبال أبها تجاه منطقة جازان، وكذلك قبائل رجال ألمع الواقعة فى بعض مرتفعات الأجزاء التهامية من سراة قبائل عسير.

(٣) وللمزيد من التفصيل عن أهم الأودية الواقعة بين جازان ونجران جنوباً، وبين مكة المكرمة والطائف شمالا، انظر: عبدالرحمن صادق الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية، إقليم جنوب =**

تهامة والسراة أثناء مرحلة الدعوة المكية

بُعثَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مكة المكرمة يدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان، فتصدت له قبيلة قريش، وحاربوه، ووصفوه بأسوء الصفات، ثم سَعَوْا إلى تحريض باقي القبائل في شبه الجزيرة عليه وعلى ماجاء به، وشجعوهم على المضى في عبادة الأصنام في كل مكان، ولكن بنصر الله وتوفيقه انتصرت رسالة الإسلام، وتزايدت أعداد المسلمين حول الرسول، حتى صارت شبه الجزيرة العربية تدين بكلمة التوحيد(١).

ولم يكن سكان تهامة والسراة في بداية الدعوة بمعزل عن سير الأحداث في مكة المكرمة، وإنما كانوا على صلة سياسية وحضارية بأهل مكة والطائف ومَنْ جاورهم(٢). والسؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو: ماذا كان موقف التهاميين والسرويين أثناء المرحلة المكية؟ الواقع أن موقفهم كان سلبيا من الدعوة الإسلامية، لأن قبيلة قريش في نظرهم كانت المَثَلَ الذي يُقْتَدَى به، ولذا انساقوا وراء قريش في عدائها للرسول (ص) في

= **غريب المملكة** (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) جـ٢، ص ٣٣ ومابعدها وعاتق بن غيث البلادي: **بين مكة واليمن (رحلات ومشاهدات)** (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ص ١٣ ومابعدها. وللمؤلف نفسه: **بين مكة وحضرموت (رحلات ومشاهدات)** (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) ص ٩ ومابعدها.

(١) القرآن الكريم، وكتب السنة، وكذلك جميع كتب السيرة والطبقات والتراجم، والكثير من كتب التراث الإسلامي الأخرى ذاخرة بتاريخ سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سواء يوم كان في مكة المكرمة، أو بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وتأسيس أول عاصمة إسلامية هناك، ثم محاربته للمشركين واليهود والمنافقين، وتبليغه رسالة الإسلام إلى الناس كافة.

(٢) كان أهل تهامة والسراة على علاقات (تجارية، واجتماعية، وسياسية) مع الحجازيين. فالقرآن الكريم (في سورة الإيلاف) وكثير من كتب التراث الإسلامي تشير إلى الرحلة الشتوية التجارية التي كان يقوم بها أهل مكة المكرمة، عبر بلاد تهامة والسراة، حتى حواضر اليمن الكبرى. ورحلة تجارية متكررة كل عام لابد أن يحدث الاحتكاك الحضاري بين روادها ـ الذين هم من قريش ـ وبين أهل الديار التي يمرون عليها من بلاد تهامة والسراة. والأخذ والعطاء لايكون مقصوراً على الأعمال التجارية فحسب، وإنما يمتد إلى أمور أخرى عدة، كالتعاون في توفير الأمن للتجار أثناء عبورهم الطرق التجارية، أو ورودهم بعض الأسواق أو المراكز الحضارية الكبرى للبيع والشراء. ومن المتوقع أن تمتد العلاقات إلى الزواج والمصاهرة، واقتباس بعض العادات الاجتماعية المتعلقة بحفلات الزواج والختان، أو عادات الزينة واللباس، أو الطعام والشراب، أو بناء الدور وماشابهها. ومن يتجول الآن في بلاد الحجاز، أو بلاد تهامة والسراة المعنية في هذا البحث، أو بعض أرياف ومدن اليمن، يجد هناك الكثير من التشابه في نمط الألبسة، وطريقة عمل بعض الأطعمة، أو بناء ونقش وزخرفة المنازل. ومثل هذا التشابه لايمكن حدوثه من فراغ، وإنما ورثه الأبناء والآباء عن الأجداد، كما أنه نتيجة للاختلاط والانصهار البشري الذي مرت به هذه الديار منذ أزمنة بعيدة.

مكة المكرمة. ولم نستطع العثور على دليل يشير إلى أن السرويين والتهاميين وقفوا موقفاً إيجابياً من الرسول (ص) ودعوته فى المرحلة المكية، اللَّهُمَّ إلا بعض حالات فردية تمثلت فى بعض الشخصيات السروية التى تجاوزت الطوق الذى ضربته قريش حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن آمن معه فى مكة المكرمة[١]. ومن تلك الشخصيات الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيُّ الزهرانى، الذى كان زعيماً لقبيلة دَوْس، بسراة غامد وزهران. ويُذكر عنه أنه كان رجلاً شريفاً شاعراً يرتاد مكة المكرمة من وقت لآخر، وكان أجداده على علاقة مصاهرة مع أبى سفيان بن حرب وزعماء آخرين من قريش[٢]. وفى إحدى المرات - أثناء السنة الحادية عشرة من النبوة - جاء إلى مكة فاستقبله أبو سفيان وبعض طُغاة قريش، فحذروه من مقابلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو السماع له. ولكنه لم يصغِ لدعوتهم وقال: «إنى رجل لبيب شاعر، مايخفَى علىَّ الحسن والقبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل، ومايقول؟ فإن كان حسناً قَبِلْتُهُ، وإن كان قبيحاً تركته». ثم ذهب لمقابلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فسمعه يتلو القرآن، فأعجبه ماسمع، وقال: «ماسمعتُ قط قولاً أحسن منه، ولا أَمْراً أعدل منه» ثم أسلم، وشهد شهادة الحق، وقال للرسول (صلى الله عليه وسلم): «إنِّى مُطاعٌ فى قومى، وراجعٌ إليهم، وداعيهم إلى الإسلام» فوافقه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودَعَا له[٣].

---

(١) لم يترك القرشيون وسيلة إلا جربوها من أجل صَدِّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) عمَّا كان يدعو إليه، فوصفوه تارة بالجنون، وأخرى بالكهانة أو السحر، بل ضيقوا عليه فى جميع جوانب حياته الاجتماعية، وتطاول بهم الأمر إلى إيذائه والاستهزاء به والسخرية منه. أما المسلمون الأوائل الذين صدقوا برسالة الإسلام فقد نالهم من الإيذاء ما الله به عليم، بل فقد بعضهم حياته من أجل اعتناقه الإسلام، وذلك كله على أيدى طغاة قريش، من أجل القضاء على دين الله، والله مُتم نوره ولو كره الكافرون.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن علاقة الأحلاف والمصاهرة التى كانت بين آباء وأجداد الطفيل الدَّوْسيين وبين بعض زعماء قريش، أمثال أبى سفيان وغيره. انظر: محمد بن حبيب البغدادى: **كتاب المنمق فى أخبار قريش**، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ص ١٩٩ - ٢١١، الجاسر، **فى سراة غامد وزهران**، ص ٢٧٥ - ٢٧٩.

(٣) للوقوف على تفصيلات قصة إسلام الطفيل، ومادار بينه وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى أول لقاء، ثم عودته إلى قومه فى سراة غامد وزهران، ومابذل من جهد من أجل محاربة الوثنية بينهم ودعوتهم إلى الدخول فى الإسلام، انظر: ابن هشام: السيرة، جـ٢ ص ٢١ - ٢٥، وجمال الدين بن الجوزى: **صفة الصفوة** تحقيق محمود فاخورى ومحمد رواس قلعجى (حلب: دار الوعى، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩) جـ١، ص ٦٠٠ - ٦٠٤. وعز الدين على بن الأثير: **أسد الغابة فى معرفة الصحابة** (بيروت: دار إحياء التراث العربى، د. ت) جـ٣، ص ٥٤ - ٥٥.

وهناك فرد آخر يُدعى ضماد الأَزْدِيّ، مِنْ أزد شنوءة، بسراة عسير، جاء إلى مكة المكرمة، وكان يُعالِجُ من مرض الجن، فاستقبله طغاة قريش، وحذروه من مقابلة الرسول[١] (صلى الله عليه وسلم)، ووصفوه بأنه ساحر مجنون، فلم يسمع ضماد لما قالوا، وقال: «لو أنى أتيتُ هذا الرجل لعَلَّ الله يشفيه على يدى» ثم لقيه فقال له: «يامحمد إنى أرقى من هذا الريح فهل لك؟». فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». فقال ضماد: «أعِدْ عَلَيَّ كلماتك هؤلاء». فأعادهن عليه رسول الله ثلاث مرات، فقال: «لقد سمعتُ قولَ الكهنة، وقول السَّحَرَة، وقول الشعراء، فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء، هاتِ يَدَكَ أُبايعك على الإسلام». فبايعه[٢].

وإذا كان الطفيل وضماد من بوادر نسمات الخير التى أتت من بلاد تهامة والسراة، فإن السواد الأعظم من سكان تلك البلاد بقوا على وثنيتهم، حتى بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة، وأيضاً بعد حدوث المعارك الكبرى فى الإسلام كبدر، وأُحُد، والأحزاب، ثم فتح مكة المكرمة فى السنة الثامنة للهجرة.

تهامة والسراة أثناء مرحلة الدعوة المدنية

بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة، واتخاذها عاصمة للدولة الإسلامية، ثم تَحَوُّل المسلمين من دُعاة إلى جُند يقاتلون الشرك وأعوانه، ظل السرويون والتهاميون يرقبون تطورات الوضع عند القرشيين، ويهوون هواهم، ويتعاطفون معهم، بحكم الجوار والموقع مابين مكة والطائف وبين أهل تلك البلاد الذين يجاورونهم جنوباً. ونظراً للأهمية التى تتمتع بها أسواق مكة والطائف من حيث تسويق السلع وترويجها،

(١) لم تكن سياسة قريش فى محاربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وماجاء به من دعوة، مقصورة على تحذير الناس مِن مقابلة الرسول بشكل فردى، كما فعلوا مع الطفيل وضماد، وإنما كان منهجهم إلقاء الخطب على رءوس القبائل فى الأسواق، وعلى أبواب السكك الداخلة إلى مكة، وكذلك أيام الحج، وفى أماكن أخرى عديدة، يحرصون على التشكيك فيما جاء به الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ويَدَّعُونَ أنه ضَرْبٌ من الأساطير والخرافات.

(٢) للمزيد من التوضيحات عن إسلام ضماد الأزدى، انظر: ابن الجوزى: **صفة الصفوة**، جـ١ ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥، وصفى الرحمن المباركفورى: **الرحيق المختوم** (بيروت: دار القلم، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ص ١٣٣.

وتوفير مايحتاج الناس لشرائه من الحاجات. ونظراً لمعتقداتهم الوثنية التى تتفق مع ماكان عليه المشركون فى مكة وماحولها، كل هذا يجعلنا ندرك ماكان هناك من تجاوب بين أهل مكة والطائف وبين أهل تهامة والسراة المنتشرين من حواضر الحجاز إلى مدن اليمن الكبرى. ولاتذكر المصادر دوراً إيجابياً ملموساً لأهل تهامة والسراة، وبخاصة قبل فتح مكة المكرمة فى السنة الثامنة للهجرة، وإنما أشارت إلى بعض السرايا التى أرسلها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى بعض مواقع الجنوب من مكة والطائف. فذكر الواقدى والمسعودى أن الرسول أرسل سرية إلى تُرَبَة، جنوبى الطائف[١]، بقيادة عمر ابن الخطاب فى شهر شعبان فى السنة السابعة للهجرة، وكان معه من صحابة الرسول ثلاثون رجلاً، فذهبوا إلى بلاد تُرَبَة فوجدوا العشائر قد تفرقت من مواطنها، فعادوا إلى المدينة[٢]. ولم تذكر الروايات الطريق التى سلكها عمر بن الخطاب للوصول إلى تربة جنوبى الطائف، حيث كانت أغلب البلاد جنوبى المدينة حتى تربة مأهولة بالمشركين المعادين للرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكن ليس ببعيد أنه كان هناك طُرقٌ مطروقة بين بلاد تهامة والسراة من جهة، والمدينة المنورة من جهة أخرى، لأن المصادر تذكر قدوم أول طلائع المسلمين من بلاد السراة فى شكل جماعات، وذلك بعد رجوع الطفيل بين عمرو الدوسى إلى قومه، فبقى يدعوهم إلى الإسلام حتى السنة السابعة للهجرة. وفى تلك السنة خرج من سراة غامد وزهران ومعه ثمانون بيتاً من دَوْس فقدموا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأعلنوا إسلامهم[٣]. وخروج مثل هذه الأعداد الكبيرة من بلاد

---

(١) تربة ـ بالضم ثم الفتح ـ تقع إلى الجنوب من مدينة الطائف، بحوالى مائة كيلو متر، وبها وادٍ يسمى «وادى تربة»، وتنحدر مياهه من أعالى بلاد السراة نحو الأجزاء الشرقية، ويسكن على ضفافهً العديد من الأفخاذ والعشائر التى تمتهن الزراعة ومزاولة بعض الأعمال التجارية الأخرى. انظر: شهاب الدين ياقوت الحموى: **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) جـ٢، ص ٢١، وعاتق بن غيث البلادى: **بين مكة وحضرموت، رحلات ومشاهدات** (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ص ١١. ومشاهدات الباحث ورحلاته الميدانية خلال عام ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ـ ١٩٩٣ م.

(٢) انظر: محمد بن عمر الواقدى. **كتاب المغازي**، تحقيق مارسدن جونس (بيروت: عالم الكتب. د. ت) جـ٢، ص ٧٢٢، وعلى بن الحسين المسعودى: **التنبيه والإشراف** (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١ م) ص ٢٤٣. انظر أيضاً: خليفة بن خياط: **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمرى (الرياض: طبعة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ص ٧٨.

(٢) يُذْكَر أن الطفيل قَدِمَ مع قومه إلى المدينة، فوجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد ذهب إلى خيبر لفتحها، فلحق به هناك. وللمزيد من التفصيل انظر: الواقدى: **المغازي**، جـ٢، ص، ٦٨٣، وابن هشام: **السيرة**، جـ٢، ص ٢١ ـ ٢٥. وشمس الدين محمد بن القيم: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م) جـ٣، ص ٦٢٤ ـ ٦٢٨.

السراة مروراً ببلاد الطائف ومكة المكرمة قبل فتحها، يعد دليلاً على وجود طُرق تربط بين تهامة والسراة وبين المدينة المنورة. ثم إن أهل الطائف ومكة، وبخاصة منذ السنة السابعة للهجرة[١]، ربما غَدَوْا عاجزين عن قطع الطريق الواصل بين بلاد اليمن والسراة وبين عاصمة الإسلام في المدينة. هذا بالإضافة إلى أن قوة المسلمين أصبحت مرهوبة الجانب، ليس في المدينة وماحولها فحسب، وإنما في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية.

وبدخول الرسول (صلى الله عليه وسلم) الطائف في السنة الثامنة للهجرة علت كلمة الإسلام، الأمر الذى أدى إلى انهيار الشرك فى بلاد تهامة والسراة وغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية. وبعد معركة حنين وحصار الطائف. قَدِمَ وفدٌ من ثَقِيف على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المنورة بعد فتح مكة المكرمة، وتبعته وفود أخرى من حواضر تهامة والسراة وبلاد اليمن[٢]، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو: هل دخل سكان السراة وتهامة فى الإسلام زرافات أم وحدانا؟ وهل قام مَنْ دَخَل فى الإسلام من أهل السراة من نشر الإسلام بينهم؟ وهل بقى البعض منهم على وثنيته تأخذه العزة بالإثم؟

الواقع أن أهل تهامة والسراة لم يدخلوا فى الإسلام بشكل جماعى، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من القبائل التى دخلت الإسلام بعد فتح مكة المكرمة. ويمكننا القول: إن دخولهم فى الإسلام كان مابين السنتين السابعة والعاشرة للهجرة، فبعد فتح مكة المكرمة، ثم بعد معركة حُنين ومحاصرة أهل الطائف، نجد بعض التهاميين والسرويين كانوا من أوائل من دخل فى الإسلام، الأمر الذى أدى إلى استعانة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهم وبغيرهم من الداخلين فى الإسلام على محاربة من بقى على عقائد الوثنية. وتذكر بعض المصادر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أرسل الطفيل بن عمرو

(١) منَ استقراء تاريخ السيرة النبوية نجد أن المشركين كانوا يتراجعون إلى الوراء منذ ظهور الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة، ولكن سقوط حظهم لم يصبح واضحاً للعيان إلا بعد معركة بدر، ثم تتالت عليهم أحداث الفشل والخيبة حتى السنة السادسة للهجرة، وذلك عندما عقدوا ماسُمى بـ (صلح الحديبية) مع الرسول وصحابته، ومن بعد ذلك التاريخ لم يعمروا طويلا، فقد جاءت السنة الثامنة للهجرة فدخل المسلمون مكة المكرمة، وقضى على المشركين فى عقر دارهم.

(٢) من الوفود التى وفدت على الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بلاد تهامة والسراة: وفد الأزد، ووفد بجيلة، ووفد بارق، ووفد خثعم، ووفد ثمالة، ووفد غامد، ووفد دوس، وغيرها كثير.

للمزيد من التفصيلات، انظر: محمد بن سعد: **الطبقات الكبرى** (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) جـ١، ص ٣٢١ ـ ٣٥٩.

الدوسى مع بعض رجاله ـ بعد معركة حنين فى السنة الثامنة من الهجرة ـ لمحاربة من بقى على الوثنية فى بلاد غامد ودَوْس، وأوصاهم بهدم صنم عمر بن حممةَ الدوسى، الذى يعرف بذى الكفين، فلم يكن على الطفيل إلاَّ أن يطيع أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويطلب من الرسول الوصية، فقال (صلى الله عليه وسلم) للطفيل: «أفْشِ السلام، وابذل الطعامَ، واستَحِ من الله كما يستحى الرجل ذو الهيئة من أهله[1]، إذا أسأت فأحسن، إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى للذاكرين». ثم خرج الطفيل بمن معه فحارب بعض المشركين فى بلاد دَوْس وماحولها، ثم هدم صنم ذى الكفين، وجعل يحشو النار فى جوفه ويقول:

ياذا الكفين لستُ مـن عبادك ميلادنـا أقْدَمُ من ميلادك

أنا حَشَوْتُ النار فى فؤادك

وبعد ذلك رجع الطفيل ومن معه من قومه، وكان عددهم أربعمائة رجل، فقابلوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالطائف[2].

ويذكر ابن الجوزى أن جرير بن عبدالله البجلى قدم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببعض قومه بعد فتح مكة المكرمة، فأسلموا وحسن إسلامهم، ثم رأَسَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) جريراً على صحبه، وطلب منهم هَدْم صنم ذى الخُلَصَة فى بلاد

(١) أى ذو الصورة والشكل الحَسَن، أو ذو الوقار. وتقول هئت للأمر أهى، هيئة، وتهيأت تهيوا، والهيئة: الشارة، فيقال: فلان حَسَنَ الهيئة. انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، فعل «هيأ» جـ١٥، ص ١٧٠ (طبعة بيروت).

(٢) للمزيد من التفصيل عن محاربة الطفيل للوثنيين فى بلاد دوس، انظر: الواقدى: **المغازي**، جـ٣، ص ٩٢٣، وابن الجوزى: **صفة**، جـ١، ص ٦٠٣. والجاسر: **في سراة غامد**، ص ٣٢٤. والمسعودى: **التنبيه**، ص ٢٤٩. وابن سعد: **الطبقات**، جـ٢، ص ١٥٧. وابن هشام: **السيرة**، جـ٢، ص ٢١ ـ ٢٥. ويذكر أن الطفيل عاد من بلاد دوس مع قومه ومعه دبابة ومنجنيق، فقال لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم): «يامعشر الأزد من يحمل رايتكم؟ فقال الطفيل: من كان يحملها فى الجاهلى، فقال: أصبتم» وقيل أن الذى كان يحمل الراية فى الجاهلية هو: النعمان بن الزرافة اللهبى، وهذا ماذكر الواقدى، أما ابن سعد فذكر أن (النعمان بن بازية اللهبى)، وذكر ابن عبدالبر فى كتاب الاستيعاب، بأنه (النعمان بن الزراع عريف الأزد). انظر الواقدى. **المغازي**، جـ٣، ص ٩٢٣، انظر أيضا ملاحظة (٤) فى نفس الصفحة المذكورة آنفا، ابن سعد، **الطبقات**، جـ٢، ص ١٥٧ ـ ١٥٨، محمد بن اسماعيل البخارى. **صحيح البخاري** (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت) مج٣، جـ٥، ص ١٢٣.

خثعم، فلبى ما أَمَر به الرسولُ (صلى الله عليه وسلم)[١]. ويشير أبن سعد فى رواية أخرى عن جرير بن عبدالله بأنه قَدِمَ على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى السنة العاشرة ومعه مائة وخمسون رجلاً من بجيلة، فرحب به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه، ثم قال له: «بايعنى على أن تشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله، وتقيم اصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتنصح المسلمين، وتطيع الوالى، وإنْ كان عبداً حبشياً». فقال جرير: (نعم): فبايعه الرسول (صلى الله عليه وسلم). ثم سأله الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أحوال ماوراءه فى بلاد السراة، فقال: «يارسول الله، قد أظهر الله الإسلام، وأظهر الأذان فى مساجدهم وساحاتهم، وهدمت القبائل أصنامها التى كانت تعبد[٢]. قال: «ـ فما فعل ذو الخلصة؟». قال: «هو على حاله، قد بقى، واللهُ مُريحٌ منه إن شاء الله»[٣]. فبعثه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى هدمه، وعقد له لواء ومعه مائتان من قومه، فذهب جرير ومن معه فهدموه، ثم رجعوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال: «يارسول الله، والذى بعثك بالحق لقد هدمته، وأخذتُ ماعليه، وأحرقته بالنار، وتركته كما يسوء مَنْ يهوى هواه، وماصَدَّنَا عنه أحد». فَسُرَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبَرَّكَ على جرير وقومه[٤].

ولم يكُفَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن إرسال قادة من أهل السراة لمحاربة من بقى على الوثنية منهم، بل غَيَّرَ وبدَّل، فأرسل قادة من صحابته ليحاربوا المشركين فى

---

(١) انظر ابن الجوزى: **صفة الصفوة**، جـ١، ص ٧٤١. وصنم ذى الخلصة كان لدوس، وخثعم، وبجيلة، ومن كان ببلاد السراة، بل كان يعرف بالكعبة اليمانية، وكان يحج إليه أعداد كثيرة من الناس.
وللمزيد من التوضيحات، انظر: ابن هشام: **السيرة**، جـ١، ص ٨٨، وابن الجوزى: **صفة**، جـ١، ص ٧٤١. والبخارى، **الصحيح**، مج٣، جـ٥، ص ١١١ ـ ١١٢، مج٤، جـ٨، ص ١٠٠. والأزرقى، جـ١، ص ٣٧٤ ـ ٣٨٩. ويذكر أن صنم ذى الخلصة أعيد بناؤه بعد القرن العاشر الهجرى، وربما من قبل ذلك، وبقى على حاله حتى زمن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، حيث يذكر ابن بشر فى حوادث (١٢٣٠ هـ) بأن رجال عبدالعزيز بن محمد بن سعود حاربوا الترك فى بلاد بيشة وخثعم ودوس وغامد حتى وصلوا إلى صنم ذى الخلصة فهدموه وأحرقوه. انظر: عثمان بن بشر: **عنوان المجد فى تاريخ نجد** (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت) جـ١، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) ويتضح من هذه العبارات، أن الإسلام أصبح منتشراً عند أهل تهامة والسراة، حتى أن القبائل السروية والتهامية قامت بهدم الأصنام التى كانت تعبَد من دون الله، وصاروا يوحدون الواحد القهار فى مساجدهم وصلواتهم وجميع تصرفاتهم.

(٣) انظر: البخارى: **الصحيح**، مج٣، جـ٥، ص ١١١ ـ ١١٢. والأزرقى: **أخبار مكة**، جـ١، ص ٣٨٠، وابن سعد: **الطبقات**، جـ١، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٤) المصادر نفسها.

بلاد تهامة والسراة. وتذكر بعض المصادر أن سرية قطبة بن عامر بن حديدة التي أرسلها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى بلاد خثعم في شهر صفر من السنة التاسعة للهجرة كانت حوالي عشرين رجلا، ذهبوا إلى محاربة بعض المشركين، وعادوا ظافرين(١).

أما وفود بلاد تهامة والسراة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة فكانت في العامين: التاسع والعاشر الهجريين، وخاصة في العام التاسع الذي كثرت فيه الوفود على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من شبه الجزيرة، لدرجة أنه سُمِّيَ عند المؤرخين بعام الوفود. ويبدو أن بعض الوفود قَدِمَتْ من بلاد السراة قبل هذا التاريخ، أمثال الدوسيين بزعامة الطفيل بن عمرو الدوسي وغيرهم، فكانوا ندرة، ولكن بعد فتح مكة المكرمة، انفتح الباب الذي كان حاجزاً بين أهل تهامة والسراة واليمن وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين في المدينة، وبالتالي وفَدَتِ الوفود من قبائل متباينة في بلاد تهامة والسراة، وفي أعداد متفاوتة لكي تعلن إسلامها للرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم تعود إلى أوطانها لتنشر الإسلام بين أقوامها، وتحارب أهل الشرك أو من بقي مُصِراً على عبادة الأوثان.

وإلى جانب الذين سبق ذكرهم من الشخصيات أو الوفود التي وفدت على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأعلنت إسلامها. هناك أيضا وفود أخرى قدمت من بلاد تهامة والسراة في العامين التاسع والعاشر للهجرة، ومن تلك الوفود وفد ثمالة من النواحي الجنوبية لسراة الطائف، ووفد سلامان من تهامة، وسراة الحجر، قدموا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في السنة العاشرة للهجرة، فأسلموا، ثم علَّمهم بعض الشرائع، ثم أجازهم وعادوا إلى مقرهم. كذلك وفد غامد بزعامة أبي ظبيان الأزدي الغامدي، ووفد دوس، الذي سبقت الإشارة إليه بزعامة الطفيل بن عمرو الدوسي، ووفد بارق، ووفد خثعم، ووفد زبيد من بلاد تثليث وماحولها بزعامة عمرو بن معدي كرب الزبيدة، ثم وفد الأزد بزعامة صرد بن عبدالله الأزدي(٢).

---

(١) ابن القيم: **زاد المعاد**، جـ٣، ص ٥١٤. وابن سعد: **الطبقات**، جـ٢، ص ١٦٢.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن تلك الوفود، انظر: ابن سعد: **الطبقات**، جـ١، ص ٣٢١ ـ ٣٥٩. وابن هشام: **السيرة**، جـ٤، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٤. وابن القيم: **زاد المعاد**، جـ٣، ص ٦٢٠ ـ ٦٢١، ومحمد ابن جرير الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م) ج٣، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، ١٣٤ ـ ١٣٦. ومحمد حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ص ٢٤١، ٢٩٠ ـ ٢٩١.

ومن الملاحظ أن الوفود التى قَدِمَتْ على الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بلاد تهامة والسراة، أو من أى مكان فى شبه الجزيرة العربية، كانت دليلا على انهيار الشرك، وبالتالى علامة على انتشار الإسلام فى البلاد والأقاليم التى وفدت منها. ويتضح من بعض كتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن البعض من قبائل تهامة والسراة فعلوا مافعل الحارث بن عبد شمس الخثعمى، الذى خرج إلى المدينة المنورة بعد هدم جرير لصنم ذى الخلصة، فأسلم وأخذ الأمان لأصحابه من رسول الله[١].

كذلك قدم من بلاد بيشة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد فتح مكة المكرمة مطرف بن الكاهن الباهلى، الذى أعلن إسلامه، وطلب الأمان من الرسول ـ(صلى الله عليه وسلم) فأمنه وأعطاه الرسول كتاباً فيه فرائض الصدقات قال فيه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن، ولمن سكن بيشة مَنْ بَاهِلَة، إنَّ من أحيا أرضاً مواتاً بيضاء فيها منافع الأنعام ومراح فهى له، وعليهم فى كل ثلاثين من البقر فارض، وفى كل أربعين من الغنم شاة، وفى كل خمسين من الإبل ثاغية مسنة، وليس للمصدق أن يصدقها إلاَّ فى مراعيها، وهم آمنون بأمان الله»[٢].

وكتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتاباً آخر لنهشل بن مالك من باهلة ببيشة قال فيه: «باسم الله، هذا كتاب من محمد رسول الله لنهشل بن مالك ومن معه من بنى وائل، لمن أسلم، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع الله ورسوله، وأعطى من المغنم خمس الله، وسهم النبى، وأَشْهَدَ على إسلامه، وفارَقَ المشركين، فإنه آمَنٌ بأمان الله، وبَرِئَ إليه محمد من الظلم كله، وإن لهم ألاَّ يحشروا ولايعشروا، وعاملُهم من أنفسهم...»[٣].

(١) محمد حميد الله: **مجموعة الوثائق،** ص ٢٩١. ويتضح أن بعض العشائر الخثعمية، غير الحارث بن عبد شمس، قدمت على الرسول وأعلنت إسلامها، فيذكر محمد حميد الله، وابن سعد أن «عثعث ابن وحشى، وانس بن مدرك قَدِمَا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى رجال من خثعم.. فقالوا: آمنا بالله ورسوله، وماجاء من عند الله، فاكتب لنا كتاباً نتبع مافيه، فكتب لهم كتاباً شهد فيه جرير بن عبدالله ومن حضر...» انظر: محمد حميد الله، المصدر نفسه، ص ٢٩١. أيضاً وردت هذه المعلومات فى جزء من طبقات ابن سعد (تم طبعه فى بلدة أكبر أباد بالهند، عام ١٣٠٨ هـ) ص ١١٢ ـ ١١٣. وهذا الجزء ضمن مكتبة الباحث.

(٢) ابن سعد: **الطبقات،** الجزء المطبوع فى بلدة أكبر أباد بالهند، ص ٣٨ ـ ٣٩. ومحمد حميد الله: **مجموعة الوثائق،** ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) المصدران السابقان.

وفي كتاب آخر لقبائل خثعم ببلاد بيشة قال فيه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لخثعم من حاضر بيشة وباديتها، إن كل دَمٍ أصبتموه في الجاهلة فهو عنكم موضوع. ومَنْ أسلم منكم طوعاً أو كرهاً وفي يده حرث من خيار أو عرار تسقيه السماء.... فله نشره وأكله، وعليهم في كل سيح العشر، وكل غرب نصف العشر»[١]. وكتاب آخر لأهل بارق قال فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم): «هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق، لاتُجَزُّ ثمارهم، ولاترعى بلادهم في مربع ولامصيف إلا بمسالة من بارق، أو من مر بهم من المسلمين في عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام، وإذا أَيْنَعَت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط بوسع بطنه من غير أن يقتثم...»[٢].

وبهذا نخلص إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكتفِ فقط باستقبال الوفود في المدينة المنورة، وإنما عمل مافي وسعه لتوطيد الإسلام بين أهل تهامة والسراة، فأكرم وفادة الوفود القادمة عليه، ثم علمهم المبادئ الأساسية في الإسلام، وبعدها أَذِنَ لهم بالعودة إلى أوطانهم، فعادوا إلى أقوامهم وكلهم إصرار على نشر الإسلام فيما بينهم.

وأحياناً كان يكتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتباً لبعض الوفود يبين لهم فيها بعض التعاليم الدينية، وتارة أخرى كان يرسل رسائل إلى بعض القبائل والعشائر، يذكر لهم فيها مايتوافق مع منهج الإسلام، سواء في العقيدة أو الأحكام. أو الأنظمة الاجتماعية، أو غيرها، بل يحثهم على محاربة الفتن والضلالات، والنصرة على أهل الشرك، وضمان الأمن، والبقاء في أوطانهم.

ومن أهم الوفود السروية التي وفدت على الرسول الكريم، وفد الأزد، الذى كان يتزعمه صرد بن عبدالله الأزدي، حيث قدموا من «جَرَش» إلى المدينة وعددهم بضعة عشر رجلا، فأعلنوا إسلامهم بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم). ثم أَمَّرَ الرسول

---

(١) ابن سعد: **الطبقات**، الجزء المطبوع في بلدة أكبر أباد بالهند، ص ٤١. ومحمد حميد الله: **مجموعة الوثائق**، ص ٢٩١.

(٢) ابن سعد: **الطبقات**، جـ١، ص ٣٥٢. ومحمد حميد الله: **مجموعة الوثائق**، ص ٢٤١. وابن جريس: **بلاد بني شهر وبني عمرو**، ص ٤٤.

صرد بن عبدالله على بقية رفاقه، وأمَرَهُم بالعودة إلى ديارهم ليقيموا الجهاد على من بقي على وثنيته، ويعملوا على نشر الإسلام في أوطانهم وتطهيرها من الشرك، فخرجوا من عند رسول الله متجهين إلى بلاد جرش[١]، وهناك أبلوا بلاءً حسناً حتى تحولت بلادهم جميعاً من الشرك إلى الإيمان[٢].

وبعد انتشار الإسلام في ديار جرش، قَدِمَ منهم وفد آخر على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فقال لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم): «مرحباً بكم أَحْسَنَ الناسِ وجوهاً، وأصدقه لقاءً، وأطيبه كلاماً، وأعظمه أمانة، أنتم مني وأنا منكم...». وجعل شعارهم مبروراً، وحمى لهم حمىً حول قريتهم على أعلام معلومة...[٣].

ولم تأتِ حجة الوداع إلا وبلاد تهامة والسراة قد دَانَ أهلها بالإسلام، مثلهم مثل غيرهم من قبائل وعشائر شبه الجزيرة العربية. وانتقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى وبلاد العرب جميعها تدين بدين الإسلام. ثم أتى من بعده الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصِّدِّيق (١١ هـ / ٦٣٢ م - ١٣ هـ / ٦٣٤ م)، فحدثت هزة في مجتمع شبه الجزيرة نتيجة لحركة الرِّدَّة.

---

(١) بلاد جرش، أو إقليم جرش، أو مخلاف جرش، اسم واحد كان يطلق على أغلب إقليم عسير في وقتنا الحاضر، ومركز هذا الإقليم قديماً هو بلاد خميس مشيط في بلاد شهران، ورفيدة في بلاد قحطان، ومدينة أبها وماحولها في قبائل عسير الأصلية (علكم، ومغيد، وبنو مالك، وربيعة ورفيدة). وربما كان إقليم جرش يتسع ويضيق حسب الأحوال السياسية التي كانت تعيشها البلاد خلال القرون الإسلامية المبكرة. وقد تعرض لهذا الإقليم العديد من المصادر المبكرة فذكرت موقعه، وطبيعة أرضه ومابها من خيرات، وكذلك سكانه وأنسابهم.
وللمزيد من التفصيلات عن بلاد جرش، انظر: الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، ص ٢٥٥ - ٢٥٦. والبكري: **معجم مااستعجم**، مج١، جـ١، ص ٣٧٦. وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي: **كتاب البلدان**، تحقيق أم. دي غوي (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١ م) ص ٣١٤ - ٣٢٠. ولنا بحث بعنوان «تاريخ مخلاف جرش خلال القرون الإسلامية الأولى» سينشر في أحد أعداد، **مجلة العصور**، القادمة، إن شاء الله.

(٢) للمزيد من المعلومات عن ماقام به صرد بن عبدالله الأزدي وأصحابه من المسلمين في محاربة من بقي على الوثنية في بلاد جرش - وخاصة بعد ما أمرهم الرسول -(صلى الله عليه وسلم) بالرجوع إلى أوطانهم لمحاربة المشركين هناك - انظر: ابن هشام: **السيرة**، جـ٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٤. وابن سعد: **الطبقات**، جـ١، ص ٣٣٧ - ٣٣٨. وابن القيم: **زاد المعاد**، جـ٣، ص ٦٢٠ - ٦٢١. والطبري: **تاريخ**، جـ٣، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣) انظر: ابن سعد: الجزء المطبوع في بلدة أكبر أباد بالهند، ص ١٠١. وانظر: **الطبقات**، جـ١، ص ٣٣٨. وابن هشام: **السيرة**، جـ٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٤. ومحمد حميد الله: **مجموعة الوثائق**، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

صدى حركة الردة في إقليم تهامة والسراة:

ظهر قبيل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فى أنحاء شبه الجزيرة العربية بعضُ الكذّابين المُدَّعين للنبوة[(١)]، أمثال عَبْهَلَة، الملقب بـ (الأسود العنسى) فى بلاد اليمن وماحولها[(٢)]، فاتخذ من صنعاء نقطة انطلاق نحو الشمال، حتى سيطر على نجران وأجزاء عديدة من بلاد قحطان وعسير وبيشة وماحولها، بل لقد سعى إلى طرد عمال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى تلك الأجزاء[(٣)]. وجاء النبأ بأفعال الأسود العنسى إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فقام عليه السلام، بمراسلة العديد من قبائل وشيوخ أهل اليمن، وتهامة والسراة، وحثهم على التمسك بدين الإسلام، والثبات فى تصديهم للأسود العنسى، وحذرهم من الارتداد عن دين الله، بل أرسل جرير بن عبدالله البجلى مع بعض الرجال من أزد السراة ليتصدوا للمرتدين أو المؤيدين للأسود العنسى فى أرض السروات[(٤)].

وبعد خروج جرير بن عبدالله من المدينة متجهاً إلى بلاد السروات أتَى نبأ وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فعاد جرير إلى المدينة بدون أن يواصل مهمته، وربما عاد ليقف على أحوال المسلمين بعد وفاة الرسول الكريم. وفى ضوء ذلك الموقف يستطيع أن يتصرف مع بقية صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم). ويحتمل أن يكون موت الرسول (صلى الله عليه وسلم). وهَوْل تلك الصدمة، جعلت جرير بن عبدالله لايواصل

---

(١) المدعون للنبوة أمثال مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة ببلاد نجد، وطُليحة بن خويلد الأسدى فى قومه من قبائل بنى أسد، والأسود العَنسى فى بعض القبائل باليمن والأجزاء التهامية والسروية الواقعة بين صنعاء ومكة المكرمة.

(٢) الأسود العنسى رجل من عنس إحدى قبائل قحطان، كان كاهناً تنبأ قبيل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وتابَعَهُ على أمره أقوام عديدة من عرب اليمن وبعض أجزاء بلاد تهامة والسراة، فَخرَّبَ ودمر، وعاثَ فى الأرض فساد، حتى هيأ الله له بعض الموالى والعرب ببلاد اليمن فتآمروا على قتله ونجحوا فى ذلك.

للمزيد من التفصيلات عن حركته وفجوره، انظر: الطبرى، **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٣٠ ومابعدها. وعبدالوهاب النجار: **الخلفاء الراشدون** (بيروت: دار الفكر، د. ت) ص ٤٦ ـ ٥٦.

(٣) كان من عمال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى بلاد اليمن وتهامة والسراة، عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على مابين نجران ورمع وزبيد، وكانت إمارته تمتد شمالا على ديار قحطان وبلاد جرش، وعسير حتى بيشة، وكان الطاهر بن أبى هالة على عك، والأشعريون فى بعض النواحى التهامية.

(٤) الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٣٢، ٣٢٢. وعبدالرحمن بن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة وآخرين (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م) جـ٢، ص ٤٩٣.

هو وأصحابه ماكُلفوا به من قبل الرسول، فلم يستطيعوا السير قدماً، وقرروا الرجوع إلى مدينة الرسول الكريم[(١)]. ولكن حدث بعد عودة جرير وصحبه إلى المدينة المنورة أن وجدوا المسلمين قد اجتمعوا على تنصيب أبى بكر الصديق خليفة لهم، ووجدوا أبا بكر غير راض عن رجوعهم من المهمة التى كَلَّفَهُم بها الرسول (صلى الله عليه وسلم)[(٢)]، فلم يكن عليهم إلاَّ الذهاب إلى بلاد السراة لمحاربة من ارتد من عشائر وقبائل تلك البلاد. وساروا إلى بلاد بجيلة، وخثعم، ودوس، والحجر، فحاربوا مَنِ ارتَّد أو عَادَ إلى الوثنية، وتغلبوا عليهم[(٣)].

والواقع أن المرتدين فى بلاد تهامة والسراة كانوا قلة، وخاصة إذا ماقُورنوا ببقية أجزاء شبه الجزيرة العربية[(٤)]، فالأسود العنسى ـ كما أشرنا ـ ظهر فى حواضر اليمن الكبرى، ثم مَدَّ نفوذه شمالاً حتى نجران، وجرش، وبيشة، ووجد بعض المؤيدين لدعوته فى تلك الأجزاء، بل وجد من بين أهل تهامة والسراة من يتولى قيادات عامة ينوبون عنه فى السير بحركة الارتداد فى أوطانهم، فَيُقنعون مَنْ بقى على دين الإسلام، ويُحببون إليهم

(١) إن فاجعة موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت كارثة عظيمة للمسلمين، وخاصة عند صحابته (رضوان الله عليهم)، فقد عرفنا ماأصاب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الذى لم يصدق خبر الوفاة، والذى يُروى عنه أنه قال: والله لو قال أحد إن محمداً قد مات لقطعتُ رأسه بسيفى هذا، وهذه العبارة لايقولها إلا شخص لم يصدق بالخبر، وربما الصدمة العنيفة فى قلب عمر جعلته يقول هذه المقولة، علماً بأنه من العشرة المبشَّرينَ بالجنة، ومن العارفين العالمين بسنن الله، وأن الموت لايترك صغيراً ولاكبيراً إلاَّ داهمه. وتتجلى شخصية الخليفة أبى بكر الصديق فى القول الذى قاله لعمر وغيره من المسلمين، عندما تأكد من موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال: «مَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لايموت». وهنا عاد عمر إلى وعيه، وخفت الصدمة على نفسه بعد سماع ماقاله أبو بكر الصديق، وصبر المسلمون على تلك المصيبة العظيمة.

(٢) كان أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) حريصاً على تنفيذ جميع تعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبعد توليه للخلافة رأى أن جميع السرايا والغزوات التى كانت قد جُهزت فى حياة الرسول، أو كان قد أمر بعقد لوائها أو أرسلها، لابد أن تُنَفَّذَ مهما بلغ الأمر، ومن أعظم الأمثلة لذلك إنفاذه جيش أسامة ابن زيد بن حارثة إلى بلاد الشام، وخاصة فى الظروف العصيبة التى كانت تمر بها المدينة أثناء ارتداد القبائل العربية فى أطراف عديدة من شبه الجزيرة العربية، ومع هذا فلم ينقضه، ولم يفكر فى ذلك، وإنما قال بعد ما عرض عليه بعض الصحابة رأى تأجيل ذلك الجيش: «والله لا أحل لواءً عقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم».

(٣) الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٣٢٢. وابن خلدون: **تاريخ**، جـ٢، ص ٤٩٣.

(٤) للمزيد من التفصيل عن حركة المرتدين فى شبه الجزيرة العربية، وما قاموا به من خراب وفساد فى الديار، وكيف كانت عاقبتهم، انظر: الطبرى، **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٢٣ ـ ٣٤٢. وعبدالوهاب النجار: **الخلفاء الراشدون**، ص ٤٥ ـ ٦١.

الرِّدَّة، أو يهاجمون ويحاربون من يقف في طريقهم من مسلمي البلاد أنفسهم، أو من سيأتي من قِبَلِ المدينة المنورة وماحولها.

ومن أولئك المؤدين للعنسي، عمرو بن معدى كرب الزبيدى، الذى تزعم وفد زبيد عندما قدموا إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم أمام الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبعد ظهور العنسى ارتد عمرو وانضم إلى حزب المرتدين، فجعله العنسى نائباً عنه فى البلاد الممتدة من نجران جنوباً إلى بيشة شمالا[١]. وبرز إلى جانب عمرو مع العنسى قيس بن عبد يغوث الأزدى المرادى، الذى وَلاَّهُ العنسى إمْرَةَ الجيش العامة، كما شَارَكَ مع العنسى معاويةُ بن قيس الجنبى، ويزيدُ بن الأفكل الأزدى، وجميعهم من قبائل بلاد السراة الواقعة بين نجران وبيشة[٢]. ويوردُ الطبرىُّ تجمُّعً بعض الأفراد من عشائر بجيلة، وخثعم، وأزد السراة، وأفخاذ أخرى فى تهامة والسراة، ثم انضواءَهُم تحت زعامة حميضة بن النعمان بن حميضة البارقى، ثم إعلانهم ارتدادهم[٣]، وربما اتحادهم مع أعوان الأسود العنسى، ونهجهم نهج المرتدين فى شبه الجزيرة العربية، وبخاصة امتناعهم عن دفع الزكاة، وعدم التقيد ببعض أحكام الإسلام.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو: ماذا كان حجم المرتدين فى بلاد تهامة والسراة؟ والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال صعبة، لأن المصادر الأولى لاتسعفنا بمعلومات وافرة حتى نستطيع من خلالها معرفة حجم حركة الارتداد فى البلاد المعنية بالدراسة فى هذا البحث، ولكن فى اعتقادنا ـ وكما أشرنا سابقاً ـ أن حجمها كان أقل بكثير من حجمها فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة، بدليل أنه عندما عزم الخليفة أبو بكر الصديق على محاربة المرتدين فى كل مكان، فإنه لم يرسل جيشاً خاصاً إلى تهامة والسراة، وإنما

(١) لتفصيلات أكثر عن شخصية عمرو بن معدى كرب منذ العصر الجاهلى حتى إسلامه ثم ارتداده ثم إسلامه ومساهماته فى الفتوحات الإسلامية ببلاد الشام وفارس، انظر: الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١. وابن هشام: **السيرة**، جـ٤، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١. وابن سعد: **الطبقات**، جـ١، ص ٣٢٨. ومحمد بن عبدالله بن قتيبة: **الشعر والشعراء** (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م) ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢. وعلى بن الحسين المسعودى: **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) جـ٣، ص ٣٣٥. وأحمد ابن يحيى البلاذرى: **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ص ١٢٦. وأحمد بن محمد بن عبدربه: **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمد قميحة وآخرين. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م) جـ١، ص ١٢٤، ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٢) انظر: الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

(٣) انظر: الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٣٢١ ـ ٣٣٢.

أرسل جيشاً مر بمكة المكرمة ثم الطائف، ثم سلك طريقه عبر السراة حتى وصل صنعاء في اليمن. ومرور مثل ذلك الجيش بالسراة جعله يصطدم ببعض المرتدين، الذين يبدو أن حجمهم وخطرهم لم يصل إلى مستوى خطورة وحجم جماعة مسيلمة الكذاب، أو طُليحة بن خويلد الأسدى، أو مالك بن نويرة، ومن ارتد معهم، أو غيرهم فى أطراف أخرى من جزيرة العرب[١].

ولم يكتف الخليفة أبو بكر الصديق برد جرير بن عبدالله البجلى ومَنْ كان معه إلى حيث أرسلهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بلاد السراة، وإنما أصدر تعليمات أخرى إلى عماله فى مكة المكرمة والطائف يأمرهم أن يرسلوا البعوث إلى بلاد تهامة والسراة ليجمعوا من بقى على الإسلام هناك، ثم يجاهدون بهم من ارتد عن دين الله، فلم يكن على أمير مكة المكرمة عتاب بن أسيد، إلاَّ الامتثال لأمر الخليفة، وأرسل أخاه خالد بن أسيد إلى الأجزاء التهامية الواقعة إلى جنوب مكة المكرمة، والممتدة إلى بلاد اليمن[٢].

كذلك أرسل والى الطائف، عثمان بن أبى العاص، بعثاً إلى بلاد السروات، الممتدة من جنوب الطائف إلى اليمن، فذهب ذلك البعث حتى اجتمع بجرير بن عبدالله البجلى فى وسط السراة ببلاد دوس وخثعم والحجر، ثم ذهبوا جميعاً حتى التقوا بحميضة البارقى ومن كان معه من المرتدين فى سراة عسير (عنز)، فحاربوهم حتى هزموهم ومزقوهم شر ممزق[٣].

وأدى إصرار الخليفة أبى بكر على إبادة ودحر المرتدين إلى تجهيز جيوش عديدة فى المدينة، ثم أرسل كل واحد منها إلى ناحية لكى يتصدى للمرتدين، فكان نصيب بلاد تهامة والسراة واليمن الجيش الذى أرسله تحت زعامة المهاجر بن أمية، فخرج ذلك الجيش من المدينة المنورة حتى الطائف، ثم سار فى بلاد السراة حتى لحق بجيش جرير

---

(١) لمزيد من التفصيل عن حركات المرتدين فى الأجزاء المختلفة من شبه الجزيرة العربية انظر: الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٢٢٣ ـ ٣٤٢. والنجار: **الخلفاء**، ص ٤٥ ـ ٦١.

(٢) انظر: الطبرى: **تاريخ** جـ٣، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠. وابن خلدون: **تاريخ**، جـ٢ ، ص ٤٩١.

(٣) الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢، ٣٢٨. وبعد هزيمة حميضة البارقى ومن كان معه، قال أحد الشعراء

فضضنا جمعهم والنقع كاب ... وقد تعدى على الغدر الفتوقُ
وأبرق بارق لما التقينا ... فعادت خُلَّباً تلك البروقُ

انظر: الطبرى: **تاريخ**، جـ٣، ص ٣٢٠.

ابن عبدالله البجلى ومن كان معه، ثم واصلوا جميعاً السير حتى التقوا بجيوش عمرو بن معدى كرب الزبيدى وقيس المرادى وغيرهما فهزموهم، وعاد كل من عمرو وقيس إلى الإسلام، وعادت جميع بلاد تهامة والسراة إلى حوزة الإسلام[١].

وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية فى تاريخ الخليفة أبى بكر الصديق، وهى مرحلة الفتوحات الإسلامية، فانخرط الكثير من السرويين والتهاميين فى جيوش المسلمين - مثلهم مثل غيرهم من عرب شبه الجزيرة العربية - وأبلوا بلاءً حسناً فى فتح بلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس، وفارس، وغيرها، بل لقد عمل الكثير منهم على نشر الإسلام فى تلك البقاع الإسلامية الجديدة، واستقر بعضهم فى بعض الحواضر من تلك الأمصار، ثم شاركوا فى كثير من الأنشطة السياسية والحضارية.

وبعد؛ فلعلنا فى هذه الدراسة قد نجحنا فى كشف النقاب عن صفحة شبه مجهولة فى تاريخ إقليم تهامة والسراة فى فجر الإسلام.

* * *

(١) الطبرى: **تاريخ**، جـ٣ ص ٢٢٣ - ٣٤٢. والنجار: **الخلفاء**، ص ٤٥ - ٦١.

العمارة القبطية بمصر

وفد السيد المسيح إلى مصر بصُحبة أُمه السيدة مريم العذراء، ويوسف النجار، فى رحلة الهروب من هيرودس، ليؤكد منذ البداية تحول شعب مصر من الوثنية إلى المسيحية فى وقت بات فيه الشعب المصرى متطلعاً إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، بعد أن قطع شوطًا كبيرًا فى سبيل الوحدانية على مر تاريخه، وفى صحراء المحرق، حيث كان الدير المحرق فيما بعد، أورد أبو صالح الأرمنى وغيره من المؤرخين أول كنيسة أو بيعة لمصر فى مكانٍ باركته السيدة العذراء والسيد المسيح الطفل، ويوسف النجار بيعة قوسقام[١].

وكان التبشير بقدوم المسيحية إلى مصر وانتشارها على يد القديس مرقس الإنجيلى فى بدايات النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، حين وفد إلى مدينة الإسكندرية سرا، حيث يذكر أنه أسس فى منطقة «بوكوليا» بالإسكندرية الكنيسة الأولى لمصر[٢].

أطلق مرقس الإنجيلى الشرارة الأولى للدين الجديد، بعد أن كلفه هذا الأمر حياته، ووجدت هذه الشرارة صدىً كبيرًا فى نفوس الشعب المصرى، حيث بدأت الدعوة تنتشر

---

(١) أبو صالح الأرمنى كنائس وأديرة، نشر Evetts (أكسفورد ١٨٩٥ م) ص ٨٨ ـ ٩٩.
وانظر عن دير المحرق:

villard, du: Deyr El Moharraq, Millan, 1929 Gayet, L'Art, copte, paris, 1902, p. 103

Myinardus, O; Monks and Monasreies of The Egypt Deserts, Cairo, 1901, pp. 203 - 304

وأيضاً: اغريغوريوس: الدير المحرق: تاريخه ووصفه وكل مشتملاته، مطبعة دار العالم العربى، القاهرة.

(٢) اختلفت الآراء حول السنة التى وَفَد فيها مرقس الإنجيلى إلى مصر فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وقد ذكرت بعض المصادر أن وفاته كانت فى عام ٥٥ م.
انظر: السنكسار القبطى: حوادث ٣٠ برمودة، جـ ٢، ص ١٤٧ ـ ص ١٥٠، ساويرس، تاريخ البطاركة المجلد الأول ص ١٩ ـ ٢٥.
الباز العرينى: مصر البيزنطية، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٣ وما بعدها.
زكى شنودة: موسوعة تاريخ الأقباط، القاهرة ١٩٦٨، جـ١ص ٢٩ وما بعدها.
بتشر: الأمة القبطية وكنيستها، القاهرة ١٩٦٨، جـ١، ص ٢٧٠.

سرا فى مجتمع تسوده الوثنية، ويساندها جيش الرومان وبطشه، حيث بدأ الصراع بين المسيحية الدين الجديد القادم والوثنية دين الرومان والشعب فى آنٍ واحد.

تحمل الشعب المصرى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد معاناة وصراعًا وآلامًا كثيرة ألمت بمعتنقى الدين الجديد، حيث تفاعلت هذه المعاناة على نطاق واسع من خلال ما عُرف بالاضطهادات الدينية العديدة التى شهدتها مصر العالم كله على أيدى الرومان، والتى نتج عنها ما عُرف أيضاً ببدايات نشأة نظام الرهبنة، حيث يعتقد كثير من الباحثين أن حياة الرهبنة الأولى فى مصر، بدأت مباشرة بعد وفاة القديس مرقس الإنجيلى، إذ نشأ بين معتنقى الدين الجديد حالة من الزهد والتقشف فى منازلهم، وإنْ كانت أعباء الحياة ومتطلباتها لم تمكنهم من القيام بواجباتهم الدينية على النحو الصحيح لأسباب عديدة، مِمَّا دفَعَ قليلاً منهم فى البداية إلى الخروج إلى الجبال والصحراء ليعيشوا فى أماكن معزولة يمارسون فيها نوعًا من حياة الزهد والتقشف(١). والواقع أن طابع الخروج إلى الصحراء لغرض دينى بحت وعبادة خالصة، كان من شأنه إيجاد البدايات الأولى لنظام الرهبنة فى مصر، حتى أنه أصبح ـ بحلول القرن الثالث الميلادى ـ أصبح للراهب مدلول واضح يُعَرِّفُهُ بالمُنْسَحِب من الدنيا، والمنقطع عن العالم(٢).

لقد كانت معاناة شعب مصر فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد كبيرة وشاقة، وكانت كل حركة من حركات الاضطهاد الدينى المعروفة تُقَابَل بزيادة ملحوظة فى عدد المسيحيين، حتى بلغت قمتها زمن حكم الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م)، وهو الرجل الذى استهل حكمه بتركيز جهده للقضاء على المسيحية فى شخصية معتنقيها، فقتل وشرَّدَ الآلاف، وكانت مصر فى زمنه تعانى الكثير من الاضطهاد حتى عُرف عصره عامة فى مصر بعصر الشهداء، وكان لهذا العصر آثاره المهمة فى كل النواحى فى مصر، فاتخذ الأقباط لأنفسهم اسمًا علمًا ليميزهم عن مَسِيحِيِّى العالم كله.

(١) ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الأصول القديمة لنظام الرهبنة كانت عادة مصرية قديمة، فكرها ومنهجها الانسحاب من المجتمع إلى مكان معزول لتحقيق رغبة دينية بدلا من إتمام مواهب الحياة الطبيعية، ثم حدث تطور فى منهج هذا الفكر فى العصر اليونانى فى محاولة للمزج بين التقوى والدين بفعل الفلسفة اليونانية، وكان مكان هذه الخلوات داخل معابد السيرابيوم.
انظر: متى المسكين: الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار، الطبعة الأولى ١٩٧٢، ص ٣٨ ـ ص ٣٩ وهارولد إدريس بل: الهلينية فى مصر، ترجمة زكى على، القاهرة سنة ١٩٤٨.
George, H: The Early church from Ignative to Augustine, Newyork, 1915, pp. 154 - 155

(٢) انظر: Meinardus, O: op. cit, pp. 398 - 399
والباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٢٥.

وبدأ الفن فى منحنى جديد بعيداً عن الفن السكندرى بعيداً عن الرومان وأساليبهم الفنية، بحيث يمكن القول بأن اضطهاد دقلديانوس ترتب عليه تغييرات جذرية تدريجية فى مصر، شملت النواحى السياسية والدينية والاجتماعية والفنية فى مصر، بل إن تأثير فترة دقلديانوس، جعل من الأباطرة الرومان بعد ذلك يفكرون فى شىء جديد فى مجابهة المسيحية بعد أن ثبت أن أساليب القمع لن تجدى، فتغير الحال فى محاولة للعدول عن مثل هذه الأساليب، حتى جعلها الإمبراطور قنسطنطين أحد الشرائع المسموح باعتناقها، فمهد بهذا الأمر الطريق للإمبراطور ثيوديس عام ٣٩٥ م لتصبح الدين الرسمى للإمبراطورية[١]. وإذا كانت مصر قد نعمت بالاعتراف بالمسيحية ديناً، فإن الخلاف المذهبى حول طبيعة السيد المسيح قد بدد كثيراً من فترة الهدوء النسبى بين مصر صاحبة اعتناق مذهب الطبيعةالواحدة وبين مذهب الدولة الحاكمة صاحبة مذهب الطبيعتين أو بين اليعاقبة عامة الشعب المصرى، والملكانية مذهب الحاكم، وهو الأمر الذى تم حسمه عام ٤٥١ م، وتمثل فى انفصال الكنيسة القبطية عن الكنيسة المسيحية الأم فى مجمع خلقدونية[٢].

والواقع أن الصراع بين أقباط مصر وحكامهم البيزنطيين لم يهدأ إلا بالفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص، الذى وَضَعَ نهاية لهذا الصراع الطويل بفتحه مصر وتخليصها من براثن البيزنطيين، فتخلصت الكنيسة المصرية من أعمال الظلم والعدوان التى تعرضت له بفعل تعاليم الإسلام السمْحة، فانتشر الإسلام فى مصر عن طواعية واختيار[٣]. وكان للسياسة الرشيدة التى نهجها عمرو بن العاص فى مصر أثرها الواضح فى عودة الهدوء وشعور الأقباط بالأمن، وهو الأمر الذى يتضح من خلال الأمان الذى

(١) إدريس بل: الهلينية فى مصر، ص ١٤٠.

(٢) انظر: الشهرستانى: الملل والنحل، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٠٨، والدكتور سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦١، جـ ١، ص ٣٥، ويحيى الخشاب، كتاب بيان الأديان، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٩، ص ٢٤. والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٨ ـ ص ٤٨٩

Adeny, F.W: The Greek and Eastern churches, Newyork, 1928, pp. 553 ` 554.

(٣) انظر: حسن إبراهيم حسن: عمرو بن العاص، القاهرة، ص ٦٣، وسيدة الكاشف مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة ١٩٤٧م ص ١٩٧ ـ ص ١٩٨، بتلر فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣، ص ٣٩٣.

أعطاه للمسيحيين وجاء فيه: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص، أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليه شيء ولاينتقص[١]». وكذلك الأمان الذى أعطاه للبطريك بنيامين بطريرك الأقباط (٦٠٩ - ٦٤٨م) وكان متخفيًا من وجه قيرس الحاكم البيزنطى، ولاذى جاء فيه: «فليظهر الشيخ البطريرك مطمئنًا على نفسه، وعلى طائفة القبط جميعهم التى بالديار المصرية وغيرها آمنين على أنفسهم من كل مكروه[٢]»، ويذكر ساويرس «فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاث عشرة سنة[٣]».

لقد شعر أقباط مصر منذ البداية بأن القائد الإسلامى لا يحمل لهم كرهًا أو يخفى لهم اضطهادًا جديدًا، كما ظل الحكم المدنى بمصر لم يتغير، بل أصبح بعد فترة وجيزة، كل عمال الدولة يكادون أن يكونوا جميعًا من المسيحيين، وقد وضع عمرو بن العاص نصب عينيه مصلحة المصريين عامة[٤] وبدأت الكنيسة المصرية تنتعش من جديد وتأخذ حركة التجديد والتعمير على نطاق واسع.

تاريخ عمارة الكنيسة والدير قبل الإسلام[٥]:

الواقع أن دراسة تاريخ عمارة الكنيسة والدير قبل الفتح الإسلامى لمصر يعد من الأمور الصعبة، حيث تتركز الدراسة فى هذا الموضوع على ثلاث نقاط رئيسية، هى تتبُّع سيرة بطاركة الكنيسة المصرية، وسيرة الآباء الأوائل ممن كان لهم دور مؤثر في حركة الرهبنة في صحراء مصر، ثم بقايا الآثار المادية المعمارية والزخرفية، وتتبُّع تطورها مع خلال الأساليب المعمارية والزخرفية المتعارف عليها، وهو الأمر الذى يتضح معالمه خلال العصر الإسلامى.

أولا- سيرة بطاركة الكنيسة المصرية:

لعل من أهم النصوص التاريخية التى يُستفاد منها بداية تتبع حركة البناء فى الكنيسة المصرية ما أورده المؤرخ تقى الدين المقريزى من وجود كنائس بنيت سرا فى القرن الثانى

(١) ابن تَغْرِ بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) جـ ١، ص ٢٤.
(٢) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ١٠١، ص ١٠٢.
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول «نشر جمعية الآثار القبطية» ص ١٠٧.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى والثقافى، جـ ١، ص ١٨٥.
(٥) انظر من هذا الموضوع:
مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة والفنون القبطية، هيئة الآثار المصرية ١٩٨٨، ص ١٥ ـ ص ٣٠.

الميلادى، ما بين فترة البطريرك بريموس[1] وفترة البطريرك ديمتريوس[2]، حيث يرد فى نص المقريزى قوله: «وفى أيامه أثار الملك سوريانوس قيصر على النصارى بلاءً كبيراً فى جميع مملكته، وقتل منهم خلقًا كثيراً، وقدم مصر وقتل جميع من فيها من النصارى، وهدم كنائسهم، وبنى بالإسكندرية هيكلا لأصنامه»[3]. ويبدو هذا الأمر منطقيا، فمع زيادة انتشار المسيحية فى مصر، بُنيت بعض الكنائس القليلة سرا، ربما فى أواخر القرن الثانى الميلادى وبداية القرن الثالث الميلادى، وكان من الطبيعى أن تتعرض هذه الكنائس للتدمير على يد الأباطرة ونوابهم على مصر. ونعتقد بأن هذه الكنائس الأولى ربما كانت على درجة كبيرة من البساطة، وفى أماكن سرية، ولا تخضع لنمط معين من التخطيط، كما يرد من خلال سيرة البطاركة أول إشارة إلى بناء الأديرة فى مصر على يد الراهب أنطونيوس[4] فى فترة بطريكية ديونيسيوس (٢٤١ ـ ٢٦٢م)، ويذكر النص: «وفى أيامه كان الراهب أنطونيوس المصرى، وهو أول من ابتدأ يلبس الصوف وابتدأ بعمارة الديارات فى البرارى وأنزل بها الرهبان»[5] كما ظهر أيضا الأنبا بولا، أول المتحدين من المصريين فى المسيحية فى فترة بطريركيته، ويعد هذا النص غاية فى الأهمية، حيث يرجع عمارة الأديرة فى مصر إلى حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى، وكانت هذه العمارة بسيطة بطبيعة الحال تواكب حالة الزهد والتقشف التى درج عليها كل من ذهب إلى الصحراء لوحدانية الله، بل إنها حين تطورت بعد ذلك فى القرون التالية اتسمت عمارتها بنفس البساطة الشديدة، والتى تكفى من خلال العناصر المعمارية المجتمعة لتحقيق مبدأ الأمان للرهبان فى انعزالهم عن الحياة.

---

(١) تولى منصب البطريرك عام ١١٢م وعاصر الإمبراطور الرومانى إدريانوس.

(٢) تولى منصب البطريرك عام ١٩١م وعاصر خمسة أباطرة، وكان له دور مهم فى تاريخ الكنيسة المصرية، وإليه يرجع الفضل فى وضع الحساب المعروف بحساب القبطى الخاص بتحديد عيد القيامة، وهو الحساب المعمول به للآن فى الكنائس الشرقية واستمر فى فترة بطريكيته حتى عام ٢٤٤م.
انظر: إيزيس المصرى: قصة الكنيسة المصرية، القاهرة، ص ٤٤ ـ ص ٥١.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٤٨٤ ـ ص ٤٨٥.

(٤) عاصر هذا البطريرك كل من الأباطرة: قيوس، وجالوس، وفاليرناوس، وجاليانوس، وكلوديوس، واشتهر بمعرفته فى العلوم الفلسفية واللاهوتية. وقد اندلع فى فترته اضطهاد كبير قاده الإمبراطور دقيوس.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٥، السنكسار القبطى، حوادث ٢٢ طوبة، أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة، ص ٦٩.

ويبدو أن فترة بطريكية ثيوناس[١] كانت من أهم الفترات التى شهدت بعض الأحداث المهمة فى عمارة الكنيسة المصرية، وهو الذى تولى منصب البطريرك من عام ٢٧٤م وحتى عام ٢٨٥م، وفى فترته تمكن من أن يبنى كنيسة الإسكندرية للمرة الأولى «حيث صلى بها النصارى لأول مرة جهراً»[٢]. وقد تمكن أن يفعل هذا بفضل علاقته الطيبة مع الرومان، وهى التى كانت على حد قول المقريزى: «فَلاطَفَ الروم، وأهدى إليهم تحفاً جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالإسكندرية»[٣].

ومن هذا النص يتضح أول بناء لعمارة الكنيسة فى عهد هذا البطريرك على وجه التحديد، حيث من المرجح أن تكون هذه الكنيسة قد اتخذت مظهراً معيناً من التخطيط المعمارى، كما أنها كانت كنيسة كبيرة، ضَمَّتْ فى الصلاة الأولى بها ـ بريادة هذا البطريرك ـ عدداً كبيراً جدا من المسيحيين الذين تكاتفوا فى مواجهة الرومان.

على أن حالة الهدوء التى انتابت الكنيسة المصرية فى زمن هذا البطريرك لم تدم طويلاً، حيث اعتلى الإمبراطور دقلديانوس عزش الإمبراطورية الرومانية عام ٢٨٤م ليدخل العالم المسيحى كله فى فترة دامية من الصراع بين المسيحية والوثنية، كان نصيب الاضطهاد منها فى مصر أشدَّ وأعمَّ من كل بلاد العالم المسيحى، وكان من بين ما شمله هذا الاضطهاد بطبيعة الحال تدمير الكنائس المصرية حيثما وجدت[٤]، وقد قتل هذا الإمبراطور البطريرك بطرس، المعروف بخاتم الشهداء، وقتل معه مجموعة كبيرة من الأساقفة والرهبان وعلماء المسيحية[٥]. وكان لحركة هذا الإمبراطور أثرها الكبير على مَسيحِّى مصر الذين اتخذوا لأنفسهم تقويمًا جديداً، اعتبارا من عام ٢٨٤م، حيث عُرف هذا العام بالسنة الأولى لسنة الشهداء.

وبانتهاء عصر دقلديانوس عام ٣٠٥م دخلت حركة البناء فى الكنيسة المصرية مرحلة جديدة نشطة، ساعد عليها موقف الإمبراطور قسطنطين التاريخى ووالدته الإمبراطورة

(١) هو البطريرك ثاونا: انظر: ساويرس تاريخ البطاركة ص ٥١ ـ ص ٥٢، وإيزيس المصرى: قصة الكنيسة ص ١١٣.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٨٥.
(٤) مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ١٨.
(٥) السنكسار القبطى، حوادث٢٩ هاتور، ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول ص ٥٩ ـ ص ٦٢.

هيلانة، التى ما زال يعزى إليها بناء منشآت دينية فى مصر، أو على الأقل فى فترة عهد الإمبراطور قنسطنطين، كبناء بعض الأديرة التى تؤرخ فى هذه الفترة، كالدير الأبيض، والدير الأحمر، وبعض أديرة محافظة قنا[١] ويعضد هذا الرأى المؤرخ المقريزى بقوله: إنه «فى السنة الثانية عشرة من مُلكه (قسطنطين) على الروم أمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه، وكسر الأصنام وهدم بيوتها»[٢]. ويذكر نفس المؤرخ أيضًا بناء كنيسة فى الإسكندرية على اسم ميكائيل فى بطريركية الكسندروس (٢٩٥ ـ ٣١٨م)، حيث حول بيته إلى كنيسة، وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة حتى احترقت عند قدوم جيش المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٥٨م، وإنْ كانت حركة البناء فى الكنيسة المصرية قد تأثرت بعض الشىء بدرجة من الإهمال فى فترة بطريركية أثناسيوس الرسولى ٣١٨ ـ ٣٦٤ م نتيجة للهرطقات الدينية فى ذلك الوقت، حيث يذكر ساويرس: «وأقام الناس زماناً طويلا يتقربون فى المغاير والبرارى والحقول فى جميع أعمال مصر كلها إلى الصعيد، وكان الآريوسيون أصحاب الملك قد انتشروا فى كل مكان»[٣]. وفى فترة بطريركية تيموثيوس التى تبدأ من عام ٣٧٥ م، بُنيت عدة كنائس بمدينة الإسكندرية[٤].

لقد كان الاعتراف بالدين المسيحى دينًا رسميا للإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ثيوديس عام ٣٩٥ م إيذانًا ببداية مرحلة جديدة مزدهرة فى حركة البناء فى الكنيسة المصرية، وهو الأمر الذى يظهر بوضوح من نتائج الحفائر فى المواقع القبطية لأقدم كنيسة، آثارها باقية من أيام حكم الإمبراطور أركاديوس، وهى الكنيسة المعروفة بكنيسة مارمينا بمريوط[٥]، كما بنى فى فترة حكم الإمبراطور أركاديوس أيضاً الدير المعروف بدير

---

(١) انظر: Butler, A, J: Ancient Coptic churches of Egypt, oxford, 1884, vol, I, P. 365.

يذكر المقريزى حلم قنسطنطين الشهير بقوله: «فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب وصوتًا من السماء يقول له: هذه العلامة تنتصر على عدوك. فقص رؤياه على أعوانه، وعمل شكل الصليب على أعلامه وبنوده، وسار لحرب مكسيمانوس برومية، فبرز إليه وحاربه، فانتصر قسطنطين عليه وملك روميته».

المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٥.

(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة، جـ٢، ص ٦٨.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٧.

(٥) السنكسار القبطى، حوادث ١٥ هاتور.

وانظر أيضا: Anthony de cosson: Mareoits, London, 1955.

وبيتر جروسمان: أبومينا ـ دليل عن مركز الحج التاريخى، ترجمة السيد كمال الدين، نشر معهد الآثار الألمانى بالقاهرة ١٩٨٦.

القصر. وقد كان هذا الدير معروفًا على أيام المقريزى فى القرن التاسع الهجرى / ١٥ م، بدير البغل، حيث يحدده فى جبل المقطم شرقى طرة خارج مدينة فسطاط مصر[١]. هذا وتعد الفترة التى قضاها البطريرك كيرلس الكبير ٤٠٤ ـ ٤٣٦ م من أهم فترات البناء والتجديد فى الكنيسة المصرية، حيث يذكر عنه المقريزى: «فأقام اثنتين وثلاثين سنة، وهو أول من أقام القومة فى كنائس الإسكندرية وأرض مصر»[٢]. لقد أثرت الأحداث الدينية المهمة التى اتخذت أسلوب الهرطقات الدينية فى الصراع المذهبى العنيف على حركة البناء والتعمير فى الكنيسة المصرية، وقد وضح أثرها فى فترة الإمبراطور مرقيانوس ٤٥٠ ـ ٤٥٧م، حيث انفصلت الكنيسة القبطية عن الكنيسة المسيحية عام ٤٥١م فى مجمع خلقدونية، وظلت الخلافات الدينية قائمة بعد هذا التاريخ، بحيث لم يحسم هذا النزاع إلا بالفتح الإسلامى لمصر، بل إن هذا الصراع المذهبى كان له أثره بعد ذلك على نظام الرهبنة فى مصر، حتى إذا ما جاء الفتح الإسلامى كل الانهيار قد أصبح كاملا[٣].

والواقع أنَّ حركة التعمير والإنشاء فى الكنيسة المصرية بعد تاريخ انعقاد مجمع خلقدونية تبعت إلى حد كبير بطريرك مصر للمذهب اليعقوبى[٤] أو الملكانى[٥]، فإذا كان يعقوبيَّ المذهب، قام بإنشاء وتعمير وتجديد الكنائس والأديرة، وسعى فى الوقت نفسه لتعطيل كنائس الطائفة الملكانية، بل أخذها منهم للأقباط البعاقبة، كما كان يحدث العكس إذا تولى منصب البطريرك ملكانيّ المذهب.

كذلك لا يمكن إغفال دور بعض الأباطرة فى حركة التعمير والبناء فى الكنيسة المصرية، فيذكر المقريزى على سبيل المثال أن الإمبراطور زيتون كان يحمل بنفسه لدير

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٨٨.

(٢) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ٧٦ ـ ص ٨٢.

(٣) هارولد إدريس بل: الهيلينية ص ١٤٢، الباز العرينى: مصر البيزنطية ص ٤٠.

Adeny, Op. cit, p. 553.

(٤) يذكر المقريزى تسمية الأقباط باليعاقبة نسبة إلى البطريرك، ديسقورس، إذ قيل إنه كان يُسمى قبل بطريركته بيعقوب، وقيل إنه كان له تلميذ اسمه يعقوب، وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه فنسبوا إليه، وقيل إنه كان كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى.
المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٩.

(٥) المذهب الملكانى نسبة إلى مرقيانوس، ملك الروم.
انظر: الشهرستانى: الملل والنحل، ص ٢٠٣ ـ ص ٢٠٤، والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٨ ـ ص ٤٨٩.

يوحنا بمصر ما كان يحتاج إليه الدير من المؤن الغذائية فى كل عام[١]. كما كان لاعتلاء الإمبراطور أنسطاسيوس الأول ٤٩١ ـ ٥١٨ م عرش الإمبراطورية البيزنطية أثره الواضح فى تمتع الكنيسة القبطية بالهدوء والاستقرار، فقد كان هذا الإمبراطور يعتنق المذهب اليعقوبى، فقامت علاقة طيبة بينه وبين بطريرك اليعاقبة يوحنا الراهب ٥١٢ ـ ٥١٨ م حتى أن السنكسار القبطى يذكر ضمن حوادثه فى شهر بشنس «أن الكنيسة القبطية فى أيامه كانت فى هدوء وسلام، ساعد عليها تربع الملك البار أنسطاسيوس على أريكة الملك»[٢].

لقد استمر تحيز البطاركة فى مصر لمذهبهم لفترة طويلة، فحين تولى البطريرك اليعقوبى تاوذسيوس ٥٢٨ ـ ٥٥٩ م تعرض للنفى أكثر من مرة، ثم عُين بدلا منه البطريرك بولس التنيسى، وكان ملكانى المذهب، وحين رَفَضَهُ أقباط مصر تعرضوا لشدة كبيرة وأُغْلِقَتْ كنائسهم. ويذكر المقريزى أن أقباط مصر استجدوا خلال هذه الفترة كنيستين[٣].

وقد ترتب على هذا الصراع أيضاً نقل كرسى البطريركية مؤقتًا من الإسكندرية إلى دير أنبا مقار[٤]. هذا وقد خربت أديرة وادى النطرون فى فترة بطريركية البطريرك داميانوس[٥]. وحين اعتلى أنسطاسيوس منصب البطريرك، وكان يعقوبىَّ المذهب، بنى عدة كنائس فى مدينة الإسكندرية، كما أعاد الأقباط تجديد كنائس عديدة، مثل كنيسة القديس ميخائيل، والقديس انجيليوس، عدا عِدَّة أديرة أخرى[٦]. ويورد السنكسار القبطى نصه الهام فى هذا الصدد: «اختير للبطريركية أنسطاسيوس، فاهتم بالكنائس اهتمامًا زائدًا، ورسم أساقفة وكهنة على الجهات التى كانت خالية، وشيد عدة كنائس، واستعاد من المالكية ما كانوا قد وضعوا يدهم عليه»[٧].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٨٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٩، السكنسار القبطى، حوادث ٢٧ بشنس.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٠.
(٤) متى المسكين: الرهبنة القبطية، ص ٨٢٠.
(٥) يذكر النص الذى أورده ساويرس فى تاريخ البطاركة بهذا الشأن: «ومن بعد زمان يسير جاء صوت السماء، على تلك البرية يقول: الهَربَ الهربَ، فلما خرجوا أهل الأربعة ديارات منها خربت».
ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ٩٧.
(٦) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٤٤.
(٧) السنكسار، حوادث ٢٢ كيهك.

لقد ازدهرت عمارة الكنائس والأديرة فى مصر، إذ انتشرت هذه الكنائس والأديرة فى أماكن كثيرة من مدن وقرى مصر، فى حين كانت الأديرة بطبيعتها تنتشر فى مساحات كبيرة من صحراء مصر، غير أن الخراب الكبير الذى أصاب الكنائس والأديرة المصرية حدث خلال الغزو الفارسى لمصر عام ٦١٦م، حيث ظلوا يحتلون مصر حتى عام ٦٢٩م، حين أجبرهم الإمبراطور هرقل عن الرحيل عنها بعد أن حاربهم فى بلادهم، ولقد قدر بعض المؤرخين خراب الفُرس لكنائس الإسكندرية وأديرتها وحدها بحوالى ستمائة دير وكنيسة[١]. وكان لبعضها آكام على شكل أبراج الحمام، بالإضافة إلى سلبها ونهبها، وقد ظلت خراباً حتى الفتح العربى لمصر[٢]. كما خَرَّبَ الفُرْسُ أيضاً ما كان فى ريف مصر من كنائس وأديرة، ولم ينجُ من هذا الخراب الكبيرالذى حل بالكنائس والأديرة المصرية سوى دير الزجاج بالإسكندرية[٣]، ودير قبريوس إلى الشمال الشرقى من مدينة الإسكندرية، كما عاد التوتر من جديد بين أقباط مصر وقيرس وإلى هرقل عليها نتيجة للاختلاف المذهبى، حتى أن البطريرك بنيامين بطريرك يعاقبة مصر هرب من وجهه إلى الصحراء[٤].

ثانياً ـ الرعيل الأول من رهبان مصر:

يعد تتبع سيرة الرعيل الأول من رهبان مصر من أهم مصادر دراسة تطور عمارة الأديرة والكنائس فى مصر، فقد شق رجال من الرهبان الصحراء للنسك والعبادة، وتمسكًا بعقيدتهم ودفاعًا عنها، وهم كثيرون، غير أن النُّسَّاك الأوائل منهم كان لهم فضل ارتياد أماكن عديدة فى الصحراء، أقيم عليها فيما بعد أديرة مشهورة، ما زال بعضها قائماً إلى اليوم، .ويأتى فى مقدمة هؤلاء النساك من الرهبان بولس الطيبى،

---

(١) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) يقع هذا الدير على مسافة تسعة أميال غربى مدينة الإسكندرية، وقد بلغ فى القرنين السادس السابع الميلاديين درجة كبيرة من الأهمية، وفيه تم مراجعة الترجمة السيريانية للإنجيل. كما ظل عمرًا برهبانه حتى العصر المملوكى. وقد أورده المقريزى بخططه، كما أورده المؤرخ الواقدى من قبله، حتى أنه يذكر عنه: «وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديورة والصوامع، وكان دير الزجاج فى مملكة القبط». وقد اختفت أطلال هذا الدير الآن.

انظر: الواقدى فتوح البلدان جـ ٢، ص ٢٤.

والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٨.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٤٧ وحاشية رقم (١).

وأنطون، وأمون، ومقار، وباخوم، وشنودة، وصمويل، وكثير غيرهم لا يتسع المقام لذكرهم.

القديس بولس الطيبى:

يعد بولس الطيبى أول المتوحدين، ولد بمدينة الإسكندرية عام ٢٢٤ م، وعزف عن الحياة وهو فى سن صغيرة لم يتجاوز العشرين عامًا[١]، فتوغل فى الصحراء، ولجأ إلى كهف فى البرية الشرقية حيث عاش منقطعاً عن العالم لمدة ثمانين عامًا فى عزلة تامة، وقد اتصل به القديس أنطونيوس فى أواخر حياته. والواقع أن هذا القديس يُعَدُّ الرائد الأول لمنهج نشأة الرهبانية الانفرادية، والتى كان مهدها فى صعيد مصر، وفى قلالٍ على شواطئ البحر الأحمر، وقد أُقيم ديره فى نفس المكان الذى عاش فيه معظم حياته. وتعرض الدير على مر العصور لإضافات وتجديدات، وكان عامرًا بالرهبان، وقد أورد المقريزى تسميته بدير النمور، وقد توفى عام ٣٤١ م تقريبًا[٢].

القديس أنطون[٣]:

يعد هذا القديس رائدَ الحياة الجماعية المشتركة عند الرهبان، التى تُعرف باسم «الكينوبيين» حيث مكان تواجد قلالى الرهبان. وقد كان هذا الراهب أول من بدأ عمارة الأديرة فى مصر، حيث يقول عنه المؤرخ أبو صالح الأرمنى: «نجم البرية، وأول الرهبان، وأول راهب سكن البرية، واجتمعت إليه الرهبان من برية مصر، وابتدأت

(١) تذكر الروايات التاريخية التى تناولت سيرته أن سبب عزوفه عن الحياة كان لاختلافه مع أخيه حول الميراث الذى تركه والدهما، إذ طمع أخوه بطرس الأكبر فى الثروة، وفى رواية أخرى ترجع سبب هروبه أنه كان بسبب مخاوفه من أن يشي به زوج أخته عند الحاكم الرومانى طمعًا فى ماله أيضًا، فلجأ إلى مغارة.

انظر: إيزيس المصرى، قصة الكنيسة القبطية، ص٨٠ ـ ص ٨٣.

(٢) انظر: السنكسار القبطى، حوادث ٢ أمشير، ومتى المسكين: الرهبنة القبطية ص ٤١، ٤٢، ٧٩، ٧٩٦، وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة ص ٦٦.

(٣) ولد هذا القديس فى بلدة قمن العروس (محافظة بنى سويف) من أبوين غنيين حوالىَ عام ٢٥٠م، وعزف عن الحياة وعمره صغير، حيث ترك كل شيء وعاش فى منزل معزول خارج المدينة، ثم تركه وأخذ يتوغل فى الصحراء حتى وصل إلى الصحراء الشرقية، ثم جبل القلالة الجنوبية على ساحل البحر الأحمر، حيث عاش فى مغارته بقية حياته، وتبعه رهبانه.

انظر: إيزيس المصرى ص ٩٣ ـ ص ٩٩، ومتى المسكين: الرهبنة القبطية ص ٤٤ ـ ص ٤٥، وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ٦٩.

عمارة الديارات واجتماع الرهبان إليها»[١] ويقول عنه المقريزى أيضا: «أول من أحدث الرهبانية للنصارى عوضًا عن الشهادة»[٢]. ويعنى هذا النص أن الرهبنة تعطى صاحبها درجة مساوية للاستشهاد فى سبيل العقيدة نفسها، فإذا فَرَّ ناجياً بنفسه من وجه الرومان أصحاب الاضطهاد وأصبح راهباً فقد أدى بذلك واجبه ناحية العقيدة ذاتها، فكأن مقام جهاد النفس لا يقل عن مقام الاستشهاد.

ويتضح من مسيرة حياة هذا الراهب عبوره النيل إلى الصحراء الشرقية، حيث استقر به المطاف عند قلعة قديمة فى الصحراء أنشأ بها قلاية، وقد أقيم على هذه القلاية فيما بعد دير الميمون، وقد ذكر أبو صالح هذا الدير فى خططه بدير الجميزة (على شاطئ بحر النيل المبارك، يجاوره جوسق وبستان وطاحون ومعصرة)[٣]. وأورده المقريزى فى خططه أيضا بدير الجود (ويسمى موضعه البحارة جزائر الدير، وهو قبالة الميمون)[٤]. وقد زار الدير الرحالة ڤانسليب عام ١٦٧٣م، والتقط له الرحالة نوردن بعض الصور فى منتصف القرن ١٨م. وكان لا يزال باقياً به حتى هذا التاريخ بقايا من حصنه القديم وأسواره وبعض قبابه وأبراجه[٥].

وقد أقام الراهب أنطون فى هذه المنطقة حوالى عشرين سنة، التف فيها حوله بعض النساك، ولم يتقابلوا معه، مما دفعهم لاقتحام قَلاَّيته فى عام ٣٠٥ هـ، حيث رضى بمطالبهم لمشاركتهم فى حياة جماعية رهبانية، ثم انطلق فى عام ٣١٥م إلى الصحراء الشرقية جهة جبل القلالة الجنوبى على ساحل البحر الأحمر ليعيش بقية حياته فى مغارة يحيط به الرهبان فى قلاليهم حتى توفى عام ٣٩٥م.

القديس آمون:

يعد الراهب آمون أول راهب تطأ قدماه منطقة نتريا (وادى النطرون)، إذ تذكر الروايات التاريخية عنه أنه نبت فى الصحراء، ووهن فى الصحراء، ويعد المؤسس الحقيقى لجماعة ديرية نتريا. ويذكر الأب مَتّى المسكين أنه اعتزل العالم فى نتريا عام

(١) أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة، ص ٦٩.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٢.
(٣) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة ص ٧٠.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٢.
(٥) Vansleben: Nouvelle relation en Forme de Journal d' un Fait en Egypte, paris, 1689, p. 242.
Norden: Travells in Egypt and Nubia, vol. I, pp. 11 - 13.

٣١٥م[١]، فهو أول متوحدى هذه المنطقة، ومؤسس رهبنتها، وأنه تقابل مع القديس أنطونيوس فى حياته. وربما توفى عام ٢٩٧م. وقد مثل هذا المتوحد مرحلة التوسط بين الديرية المشتركة والنسك التوحدى، ورأس بذلك أول جماعة ديرية فى نتريا[٢].

وعلى هذا الأساس فإن آمون كان قد فتح آفاقاً جديدة لحركة الرهبنة، وبالتالى لبناء الأديرة فيما بعد فى هذه المنطقة الشاسعة، التى لا تزال حتى اليوم تخفى كيمانها وتلالها كثيرًا من الأديرة والكنائس والقلالى الأولى، حيث شهدت هذه المنطقة من بداية القرن الرابع الميلادى تجمعًا رهبانيا كثيفًا، كان فى حركة ازدياد مستمر، بحيث كان عدد الأديرة يزيد على خمسين ديرًا، بها أكثر من خمسة آلاف راهب، كان لهم سبعة مخابز لإطعامهم[٣].

الأنبا مقار:

وهو الراهب الكبير الذى ارتبط باسمه جانب آخر كبير من حياة التجمعات الرهبانية فى منطقة وادى النطرون، وُلد بقرية شبشير حوالى عام ٣٠٠م، وبدأ توحده فى منطقة نتريا عام ٣٣٠م، والتقى بالقديس أنطون عام ٣٩٠م، وقد أنشأ أول كنيسة له فى المكان أنشأَ عليه فيما بعد دير البراموس، إذ كانت أول كنيسة تُبْنَى فى وادى النطرون عام ٣٥٠م، حسب أقوال المؤرخين، بعد زيارة القديس أنطون للمنطقة، فى المكان الذى وقف فيه وصلى مع آمون، وبذلك أصبحت منطقة دير البراموس أول مركز رسمى لتجمع الرهبان ببرية شيهيت بمصر السفلى، حتى إذا ما جاء عام ٤٠٨م كان قد تم إقامة أربعة أديرة كبيرة تجمع فيها وحولها آلاف الرهبان، حول دير البراموس، ودير أنبا مقار. ثم حدث تَجَمَّعٌ رهبانى ثالث فى موضع دير الأنبا يؤانس (ضمن الأديرة الخربة حاليًا جنوب غرب دير أنبا مقار)، والمنطقة الرابعة مكانها حاليا دير الأنبا بيشوى، وقد ضم دير الأنبا مقار مجموعة كبيرة من الرهبان بعد ذلك، بحيث أصبح عدد رهبانه يزيد على عدد رهبان كل الأديرة المنتشرة فى منطقة نتريا[٤].

---

(١) متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص ٨٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٣) عمر طوسون: وادى النطرون ورهبانه وأديرته، ومختصر تاريخ البطاركة ص ١ ـ ١٠.

(٤) انظر: متى المسكين، ص ٢٠٩، ص ٨١٣ ـ ٨١٧.

وأنطونيوس الدويرى البراموسى: تاريخ دير السيدة العذراء (دير البراموس) القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٦.

white, E: The Monasteries of Wadi N'Natrun, Newyork, vol, I, pp. 10 - 12.

Meinardus, o: Op. cit p. 178.

الأنبا باخوم:

يعد الأنبا باخوم من الرهبان الأوائل الذين ساهموا فى إنشاء المؤسسات الديرية الأولى فى مصر، وإليه يرجع تأسيس النظام المعروف باسمه (الباخومى) حيث تشابه منهجه فى الحياة الجماعية المتحدة للرهبان مع منهج القديس آمون. وقد أنشأ باخوم ٢٩٠ ـ ٣٤٦م أول دير له فى منطقة طباسين عام ٣١٨م، بفضل ما اجتمع له من رهبان فى أعداد كثيرة، بحيث تمكن من أن يؤسس لهم شركة رهبانية، وأن يشيد لهم جملة أديرة بالصعيد. وقد نقل الأنبا باخوم شيئاً من النظام الشبيه بشىء من أسلوب الإعاشة فى الثكنات العسكرية للجيش الرومانى إلى أسلوب الحياة فى الأديرة، مستفيداً بذلك من الفترة التى قضاها فى الجيش الرومانى[١].

الأنبا شنودة:

من رهبان مصر الأوائل، وكان له دور كبير فى مناطق تجمعات الرهبان بصعيد مصر، خاصة فى صحراء سوهاج حول الدير الأبيض والأحمر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادى، وكان له نظام خاص، ويذكر المقريزى: «أنه كان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوت هو وإياهم من عمل الخوص»[٢].

الأنبا صمويل:

ارتبطت حياة التجمعات الرهبانية وبناء الأديرة حول شخصية الراهب صمويل في الجبال المحيطة بوادي الريان بالفيوم التي كانت من أماكن التجمعات الأولي للرهبان في جبل القلمون، والنقلون، وقد ذكر المقريزي عن هذا الراهب قوله: «كان في زمن الفترة ما بين عيسي ومحمد صلوات الله عليهم ومات في ثمان كيهك»[٣]. ولد عام ٥٩٧م

(١) متى المسكين: الرهبنة القبطية، ص ٣٨، ٣٩، ١٧٨، ٨٣٢، والسنكسار القبطى: حوادث ١٤ بشنس، وسعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، جـ ١، ص ١٦٣ ـ ١٦٥، إيزيس المصرى، قصة الكنيسة، ص ٢٧٧ ـ ٢٩٢.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥١١. ومتى المسكين: الرهبنة القبطية ص ٨٣٧، وإيزيس المصرى: قصة الكنيسة ص ٤٣٢ ـ ٤٤٤.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٥.

وترهب فى دير أنبا مقار بوادى النطرون، ثم انطلق إلى برية القلمون ليؤسس فيها فى بداية القرن السابع الميلادى ديره الكبير، وتعرض هذا الراهب لأحداث كثيرة(١).

تاريخ عمارة الكنيسة فى العصر الإسلامى:

الواقع أن دراسة تاريخ عمارة الكنيسة المصرية فى العصر الإسلامى وتطورها يعد من الأمور الواضحة إذا ما قُورنت دراستها فى العصر الإسلامى بفترة عصر ما قبل الإسلام، وذلك من عدة نواحٍ، يأتى فى مقدمتها تعاليم الإسلام السمحة فى تعايش الجميع فى ظل التسامح الدينى بين كل الطوائف، وفى تخلص الكنيسة المصرية من أعمال الظلم والعدوان الذى وقع عليها فى العصر البيزنطى، فوضع العرب فى مصر خاتمة للصراع بين الأقباط والحكام الرومان والبيزنطيين، والذى امتد من القرن الأول الميلادى حتى فتح مصر فى القرن السابع الميلادى ٢٠ هـ / ٦٤١م، وللسياسة الرشيدة التى نهجها حكام مصر خلال العصر الإسلامى، فبنيت الكنائس والأديرة، وجدد ما كان قد تشعث منها، وكثرت التجمعات الرهبانية فى معظم أنحاء صحراء مصر. ووصل كثير من الأقباط إلى أعلى المناصب فى إدارة دفة شئون الحكم خلال فترات التاريخ الإسلامى فى مصر.

وقد بدأت هذه السياسة الرشيدة منذ ولاية عمرو بن العاص، حث أورد المؤرخ ساويرس فرحة أقباط مصر بالفتح الإسلامى بقوله: «وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلَّ رباطُهم وأُطلقوا على ألبان أمهاتهم»(٢). كما كان فى أمانه للبطريرك بنيامين ما يؤكد سياسته لأقباط مصر. وقد بدأت عمارة الكنائس مباشرة فى ولاية عمرو بن العاص الثانية (٣٨ ـ ٤٣ هـ) إذ بُنيت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية(٣) وكانت قد تشعثت نتيجة لأعمال الحرب خلال فتح الإسكندرية(٤)، كما بُنيت عدة كنائس أخرى، بالإضافة إلى تجديد بعض الكنائس، كما حدث فى كنيسة دير الأنبا مقار بوادى النطرون، والتى يرجع تاريخ تجديد عمارتها الأولى إلى فترة بطريركية بنيامين،

(١) انظر: السنكسار القبطى: حوادث ٨ كيهك. وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ٧١.

Fakhry, A: The Monastery of Kalmon ANNalas du service des Antiquitiés de l'Egypte, T, 46, pp. 67 - 68

Meinerdus, O: Monks and Monasteries, p. 312.

(٢) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ١١٠.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين، طبعة ليدن، ص ٥٠.

(٤) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ١٠٧.

وفى ذلك يقول الأب متى المسكين: «فلما حل الأمان أول ما بُدئ فى عمارة كنيسة مقار بطبيعة الحال[١]، إضافة إلى سيطرة الكنيسة اليعقوبية - كنيسة أقباط مصر - على الكنيسة الملكيانية[٢]، حتى أنَّ الأقباط استردوا ما سبق ان أخَذه الملكانيون من كنائسهم وأديرتهم فى الفترات السابقة، بل استطاع الأقباط أن يجذبوا لمذهبهم اليعقوبى كثيراً من الأقباط الملكانية[٣]. واستمرت حركة التجديد والبناء فى الكنيسة المصرية خلال العصر الأموى ٤٠ - ١٣٢ هـ / ٦٦٠ - ٧٥٠ م وكانت أول كنيسة تُبنى فى فسطاط مصر زمن ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى عليها، حيث يذكر عنها أبو صالح الأرمنى قوله: «أول كنيسة بُنيت فى فسطاط مصر هى الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد الأنصارى»[٤]. كما بنيت كنائس أخرى فى حلوان فى ولاية عبد العزيز بن مروان ٦٥ - ٨٤ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٣م، حيث عَهَدَ للبطريرك أغريغوريس برعاية هذه الكنائس والإشراف على عمارتها[٥]. ومن الكنائس التى بُنيت فى عهده كنيسة مار جرجس، وكنيسة أبى قير داخل قصر الشمع، كما سمح للبطريرك إسحاق بتجديد كنيسة مرقس بالإسكندرية، وهى الكنيسة التى أُعيد تجديدها فى ولاية عمرو بن العاص الثانية.

كذلك أورد أبو صالح الأرمنى أن الوليد بن رفاعة والى مصر ١٠٩ - ١١٧ هـ / ٧٢٧ -٧٣٥م أذِنَ للنصارى بتجديد كنيسة لهم بخط الحمراء فى منطقة مصر القديمة تُعرف بكنيسة أبى مينا، صُنع لها الكثير من الأوانى الحسنة من الفضة وغيرها فى خلافة هشام بن عبد الملك[٦]، ويذكر لهشام بن عبد الملك، أمره لعبد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر فى أن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى حوزة اليعاقبة، فَرَدَّ لهم كنيسة البشارة[٧] وعنى لهم «بطريرك» لأول مرة بعد أن ظلوا بغيره منذ الفتح الإسلامى

(١) انظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٢. والقلقشندى: صُبح الأعشى جـ ٥، ص ٣١٤، ومتى المسكين: الرهبنة القبطية، ص ٤٣١.
(٢) عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣.
(٣) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ ٢، ص ٤٥ - ص ٤٦.
(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٣١. والسيوطى: حُسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٠٩) جـ ٢، ص٥.
(٥) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع، جـ ٢، ص ٤١.
(٦) انظر: الكندى: الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨، ص ٧٣ - ص ٧٤. والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٢، وأبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٤٢.
(٧) المقريزى المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٣.

لمصر، وربما يرجع ذلك إلى الاتفاق الذى تم بين هشام بن عبد الملك وإمبراطور الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت[١]. هذا إضافة إلى كنائس أخرى ما بين بناء جديد، وتجديد، وإضافة فى عصر هشام بن عبد الملك، ككنيسة مار جرجيوس، وأبى حنس. كما جدد الوالى حنظلة بن صفوان ١١٩ ـ ١٢٤ هـ / ٧٣٧ ـ ٧٤١م كنيسة أخرى للقديس يوحنا، وكنائس أخرى لليعاقبة[٢].

لقد ظلت حركة التجديد والتعمير فى الكنيسة المصرية خلال فترة العصر العباسى الأولى ٧٥٠ ـ ٨٦٨ م / ١٣٢ ـ ٢٥٤ هـ. ويذكر سعيد بن بطريق فى تاريخه أن الخليفة المأمون على سبيل المثال حين قَدِمَ مصر جعل على مدينة «بورة» وما حولها[٣] قبطيا، فبنى العديد من البِيَع فى المدينة وما حولها، كما ذَكَر أبو صالح الأرمنى أن كنيسة الروم التى كانت تقع بالقرب من قبة الهواء جددها خدم الخليفة المأمون فى عهده[٤].

كذلك كان لبعض الأحداث فى هذه الفترة أثرها السئ على الكنيسة القبطية، إذ هدمت بعض الكنائس، ولكن كان يُعاد تجديدها بعد ذلك، مثلما حدث فى ولاية موسى ابن عيسى ١٧٥ ـ ١٧٦ هـ، أذِنَ فى تجديد ما سبق هدمه من كنائس، «فبُنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة اللذين قالا إنها من عمارة البلاد[٥]»، وقد أسهب «تاريخ البطاركة» فى وصف مشهدٍ حضره أحدُ أساقفة مصر أمام واليها موسى بن عيسى، الذى طلب منه أن يأمر بإعادة وتجديد كل ما تشعث من الكنائس، فأمر له الوالى بذلك، ويقول هذا الأسقف: «فبُنيت جميع بيع فسطاط مصر[٦]» هذا وقد رسم فى خلافة هارون الرشيد ٧٨٧ ـ ٨٠٩ م ـ ١٧١ ـ ١٩٣ هـ بإعادة جميع الكنائس التى

(١) القلقشندى: صُبح الأعشى، جـ ٥، ص ٣١٥، وسيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة ص ١٩٧.
(٢) انظر: مصطفى شيحة: كنائس مصر القديمة وما بها من التحف والآثار (رسالة مخطوطة «ماجستير» ١٩٧٤، ص ٣ ـ ٥.
(٣) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع، جـ ٢، ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٦٧. «وقد كانت قبة الهواء من أحسن منتزهات الخلفاء الفاطميين، مستشرف بهيج بديع بين التاج والخمس وجوه، يحيط بها عدة بساتين، لكل بستان منها اسم، ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف، ويركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت والثلاثاء».
انظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ٤٨٧.
(٥) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١١٦ ـ ١١٧.
(٦) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول.

استولى عليها اليعاقبة مرة أخرى من الطائفة الملكانية(١) على أن حركة التعمير والتجديد فى الكنيسة المصرية قد تأثرت لفترة من الوقت ببعض أحداث عصر الخليفة المتوكل على الله ٨٤٨ ـ ٨٦١م / ٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ، إلا أن الأمور عادت إلى سيرتها الأولى فى أواخر عهده حين أعطى أمانًا لأهل الذمة، فبنى البطريرك «قسما الثانى» كنيسة جديدة فى ناحية سَخَا(٢). كما بنيت كنائس أخرى عديدة فى فترة البطريرك سانوتيوس الأول ٨٥٩ ـ ٨٨١م ، منها بيعة بدير أبى مقار، ضمن أديرة وادى النطرون كما كرر بيعة بالقرب من مريوط، وجدد فى أديرة مصر العليا وكنائس مدينة الإسكندرية(٣).

وحظيت الكنيسة المصرية فى خلافة المستعين بالله ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م / ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ باهتمام كبير فى حركة البناء والتجديد، التى امتدت لتشمل كل كنائس وأديرة مصر السفلى والعليا، بحيث شملت كل المواضع المصرية من أسوان فى الجنوب وحتى مدينة الفرما فى الشمال، حتى أن سماويرس يصف الخليفة المستعين بالله بقوله: «كان رجلاً صالحاً خيراً. . . وفَعَلَ خَيْراً فى أيامه فى أرض مصر وأعمالها»(٤). هذا وقد تعرضت كنائس وأديرة الصعيد للسلب والنهب خلال النزاع الذى نشب بين المعتز والمستعين بالله بواسطة البدو الذين لم تفرق غاراتهم بين العمائر الإسلامية والمسيحية(٥).

وحينما تمكن أحمد بن طولون من تأسيس الدولة الطولونية بمصر ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م، زاد الأمن والرخاء فى البلاد، وتمتعت الكنيسة المصرية بمزيد من الرعاية والاهتمام، فقد أحَبَّ الشعبَ المصرى بكل طوائفه، ويذكر المؤرخ البلوى كاتب سيرته فى ذلك قوله: «وأما إشفاقه على أهل مصر فكان يزيد على كل إشفاق، حتى أنهُ كان يجاوز إشفاق الوالد على ولده، يحوطهم ويراعى أحوالهم، ويدفع كل مكروه عنهم(٦).

(١) انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٣٦١. والمقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٩٣.
(٢) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ ٤، ص ١٣٩. وساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٤، ١١، ١٢.
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد.
(٤)ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٣٠ ـ ص ٣١.
(٥) يذكر ساويرس عن هؤلاء البدو: «. . . وهم القوم الذين مساكنهم فى الجبل والبرارى. . وأفسدوا فى الصعيد، ونهبوا وقتلوا من جملة مانهبوا دير أبى شنودة، ودير القلمون بالفيوم، ودير أنبا نجوم الذى من أعمال طلحا، وأحرقوا الحصون، ونهبوا الأعمال، وقتلوا جماعة من الرهبان القديسين الذين فيهم». ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٣٢.
(٦) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، نشر كرد على، دمشق، ١٣٥٨ هـ، ص ١٩٩.

فكان كثيراً ماتتعدد زياراته للصحراء، ليفتقد أحوال رهبانها، فقد روى عنه رهبان دير القصير، أنه كان كثيراً مايطرقهم ويخلو فى بعض قلاليهم[١]، وكذلك كان ابنه خمارويه الذى بنى قاعة أعلى هذا الدير كان يمكث فيها بعض الوقت فى ضيافة الرهبان[٢].

لقد تمتعت الكنيسة المصرية وحركة عمارتها بمزيد من الاهتمام خلال العصر الفاطمى ٩٦٩ ـ ١١٧١ م / ٣٥٨ ـ ٥٦٧ م، فشهد هذا العصر حركة ملموسة فى عمارة الكنائس والأديرة المصرية، فضلاً عن إطلاق ماعُرف بالأرزاق الثابتة المقررة لأديرة الصحراء، حيث كان يُستفاد من ريعها فى إصلاح كل مايتشعث من عمارتها، كما كان كثير من الخلفاء يقومون بزيارات لأديرة الصحراء لتفقدها ورعاية رهبانها. وقد غدت الكنائس والأديرة المصرية فى هذا العصر من أماكن المنتزهات العامة التى يطيب لكثير من الناس فيها بمختلف طوائفهم الوفود إليها، والتنزه بجوارها، والتمتع بما تجاوره من حدائق وبساتين.

وكان اهتمام خلفاء الدولة الفاطمية شاملاً لكل طوائف أهل الذمة فى مصر: مِن يعاقبة، وملكانيين، وأرمن، حتى طائفة النساطرة[٣] كان لهم دير بِبِرْكَة الحَبش (دير مارجرجس) كان من العمارة الحسنة المحكمة ومن المنتزهات المشهورة[٤]، وقد أورد أبو صالح الأرمنى فى خططه قائمة لعدد كبير جداً من الكنائس والأديرة التى كانت قائمة حتى عام ١٢٠٠ م، موزعة على أبروشيات مصر المختلفة، وقد انحسر هذا العدد إلى حد كبير فى خطط المقريزى، وقد كان هذا الانحسار لعدة عوامل، منها مااندثر بفعل فيضان النيل[٥]، ومنها بفعل الزلازل، ومنها ماتخرب بخراب المدن نفسها، ومنها ماكان بفعل الهدم والتخريب فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، وعصر الناصر محمد بن قلاوون، خاصة فى عام ٧٢١ هـ[٦].

وشملت الأرزاق الثابتة المقررة للأديرة من قِبَلِ خلفاء الدولة الفاطمية وبعض وزرائها

(١) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٢) الشابشتى: كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عياد، بغداد ١٩٦٦، ص ٢٨٤.

(٣) انظر: مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ٤٢.

(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٥٤، ٩٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٥ ـ ٧٦، ٥١ ـ ٥٢، ٦٨ ـ ٨٧.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٥١١، ص ٥١٦. والمقريزى أيضاً: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، القسم الثالث ص ٦٦٧.

أراضٍ من أجود الأراضى المصرية، كما شملت الأرزاق من الأموال والحبوب الكثير، بخلاف ماكان يُقدم للأديَرة من معونات وهبات مختلفة[١]. وقد ساق المؤرخ أبو صالح الأرمنى نصوصاً كثيرة فى هذا الشأن فى أديرة أطفيح ودهشور والقلمون بالفيوم، ودير شهران، ودير القصير، ودير الشياطين (دير الشمع بطوبة بالجيزة) وأديرة سمالوط بالأشمونين، وأديرة وادى النطرون، وغيرها من الأديرة المصرية[٢]. كذلك يلاحظ فى هذا العصر تشييد المناظر أو القاعات الفخمة فى أعلى وأمام الكنائس والأديرة من قِبَلِ الخلفاء والأثرياء والأمراء ووجوه القبط، وذلك للتردد على زيارتها[٣].

إن المتتبع لعمارة الكنيسة المصرية خلال العصر الفاطمى يلاحظ من خلال المصادر التاريخية وفرة النصوص التى ترسم صورة متتابعة لعمارتها خلال العصر الفاطمى منذ قدوم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، فيذكر أبو صالح الأرمنى أن هذا الخليفة أنشأ أيام دير «نهيا» بالجيزة بستاناً وساقية وسبيلا بمجرد وصوله، كما عَمَّرَ الخليفة المعز الكنيسة المعلقة بقصر الشمع عام ٩٧٥ م / ٣٦٥ هـ. وقد توثقت علاقة بطريرك الأقباط الأنبا أفراهام السيريانى بالخليفة المعز، الذى سمح له بعمارة وتجديد كل الكنائس والأديرة المصرية على أساس أنها من عمارة البلاد[٤]. كما توثقت علاقة هذا البطريرك أيضاً بالخليفة العزيز بالله ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م / ٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ، فسمح له بمواصلة مابدأه فى خلافة أبيه من تجديد وتعمير للكنائس والأديرة المصرية. وقد أنشأ الأمير تميم أخو الخليفة العزيز عدة بساتين بجوار دير مار يوحنا على شاطئ بركة الحبش، وكان ضمن ماأقامه من منشآت بجانب هذا الدير إنشاء «مجلس على عمد، حَسَن البناء، مليح الصنعة» كما أقام بئراً عُرِفَتْ ببئر ابن مماتى[٥].

ثم تغيرت الأمور والأحداث خلال عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م / فى

(١) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ١٠ ـ ١٢.

(٢) أبو صالح: كنائس وأديرة ص ٦٠ ـ ٦١، ٨٥، ١١١. والمقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣. وعلى مبارك: الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة، جـ١٧، ص ٥٢.

(٣) الشابشتى: الديارات، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧. وأبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٣٣ ـ ص ٣٤.

(٤) انظر ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٩٦ ـ ص ٩٧. ومصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ٤٦.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٥٠٣، وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ٤١.

٣٨٦ ـ ٤١١ هـ إلى حد كبير، فقد انقلب على أهل الذمة، ثم وَاصَلَ غضبه على المسلمين أيضاً، فامر بهدم بعض الكنائس، ثم عاد فى أواخر حياته فأصدر أماناً قبل اختفائه أعاد فيه لأهل الذمة ماأخذ من أوقاف الكنائس والأديرة، وسمح لهم بتجديد وتعمير كنائسهم، وأمر بإعادة الكنائس للنصارى[١]. ومما هو جدير بالذكر أن كنائس وأديرة وادى النطرون لم تتعرض لأى ضرر من أحداث الخليفة الحاكم، والغريب أن الحاكم نفسه أمر بتعمير دير شهران عندما زاره وطلب منه راهبه «بمين» ـ وكان صديقاً للحاكم إعادة تجديده، بل إن بطريرك اليعاقبة الأنبا «زخارياس» طلب من الراهب نفسه التوسط لدى الحاكم لتجديد وتعمير الكنائس المصرية، فوافقه على ذلك[٢].

لقد هدأت الأمور بعد عصر الخليفة الحاكم إلى حد كبير فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م / ٤١١ ـ ٤٢٧ هـ، وأعيد تجديد وتعمير كل ماكان قد تشعث من عمارة الكنائس والأديرة، حتى أن ساويرس يصف ذلك بقوله: «وكان فى أيام الظاهر هدوء وسلامة عظيمة، وأقام سِتَّ عشرة سنة ملكاً، وكان دين النصارى مستقيماً، وأهله مكرمين وبُنيت البيع فى أيامه حتى أُعيدت كما كانت عليه وأفضل، ولم يزل البناء فيها والعمارة متصلة إلى السنة التى كتبت فيها هذه السيرة، وهى سنة سبع ماية وستين للشهداء، ١٠٤٤[٣]»، وقد تواصلت رعاية عمارة الكنيسة والدير فى مصر فى خلافة المستنصر بالله ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م / ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ، وقد استحدث البطريرك «خرستوذلوس» فى عصر المستنصر كنيسة بمنطقة مصر القديمة، هى كنيسة بوموقدرة، وكنيسة أخرى هى كنيسة السيدة العذراء بحارة الرُّوم[٤]. كذلك كان الخليفة الآمر بأحكام الله ١١٠١ ـ ١١٣٠ م / ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ كثيراً مايزور الأديرة ويتبرع لها، ويأمر بعمل تجديدات بها، فقد كان كثيراً مايطرق دير «نهيا»، وكان فى كل مرة يزور هذا الدير يعطى رهبانه ألف درهم، بعد ضيافتهم له، حتى أن الرهبان جمعوا من جملة مانحصل لهم من زيارات الآمِر مايناهز خمسة وعشرين ألف درهم، جددوا من حصيلتها حصن

(١) انظر: محمد عبدالله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة ١٩٥٩، ص ٥٢، والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٤٩٤، والمقريزى أيضاً: اتعاظ الحُنَفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا، جـ٢، نشر محمد حلمى ص ٤٨، ص ٧٥.

(٢) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ١٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٣١، المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٤٩٥.

الدير الضخم، كما أنشأ به نظرة عالية، تتوجها قبة شاهقة الارتفاع[١]. ويذكر أبو صالح الأرمنى أن رهبان هذا الدير انتهزوا فرصة إغداق الآمِر عليهم وطلبوا منه أن يخصص لهم مساحة من الأراضى الزراعية الجيدة يذهب ريعها للدير، فأجاب سُؤْلَهُم، وأنعم عليهم من أراضى ناحية «طهرمس»، تمليكاً ثابتاً منه بخط يده، «قطعة أرض قبالته بغير مساحة، مايقارب ثلاثين فدانا استمرت بأيديهم»[٢].

ومن الأديرة التى أُعيد تجديدها فى خلافة الآمِر بالله دير «طموية» بالجيزة، الذى جدد عمارته «أبو اليمن» أسفل الأرض، وابنه أبو المنصور. وكان الأفضل شاهنشاه ينزل هذا الدير ويقيم فيه، وأنشأ به منتزهاً وبستاناً، غرس فى جواره جميع الأشجار والنخيل، وحفر آباراً ركَّبَ عليها سواقى، كما أحدث بداخله معاصِرَ للزيوت، وأنشأ أيضاً أبو اليمن قنطرة كبيرة أعلى كنيسة المرتوتى سُميت بالسلوقية، ومن المعروف أن الخليفة الآمِر أنشأ منظرة علو دير القصير، كان يقيم بها حين يفد إلى المنطقة فى رحلاته للصيد، وكانت تجاور هذه المنظرة تلك التى بناها خمارويه، فى الجانب الشرقى من الدير[٣]، كما جدد الخليفة الآمر كنيسة لطائفة الملكانية، كانت تقع بجوار دير مار يوحنا بمنطقة البساتين. وقام خلال فترة خلافته أبو الفضائل النسطورى بتجديدٍ فى دير للنساطرة كان على شاطئ بركة الحَبَش على اسم مار جرجس[٤].

وتتابعت حركة التجديد والتعمير فى الكنائس والأديرة خلال فترة خلفاء هذه الدولة أيضاً، ففى عصر الخليفة الحافظ لدين الله ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م جدد جوسق (حصن) دير المحرق بأسيوط، وكنيسة يوحنا المعمدان بمنطقة مصر القديمة، وأنشأ الإمام جبريل ابن الإمام الحافظ لدين الله منظرة كبيرة أمام كنيسة المرتوتى، وتم تجديد عمارة دير الشياطين[٥].

لقد حظيت الكنيسة فى العصر الإسلامى باهتمام بالغ تَمَثَّلَ فى حركة التعمير والبناء منذ بداية العصر الإسلامى وحتى نهاية العصر الفاطمى ـ كما تقدم ـ وهو الأمر الذى

(١) أبو صالح الإرمنى: كنائس وأديرة، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.
(٣) أبو صالح: كنائس وأديرة ص ٦٤ ـ ص ٦٥، ص ٨٥، والشابشتى: الديارات، ص ٢٩٨ ـ ص ٢٩٩.
(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٤، ٥٤، ٥٥، ١٠٦.
(٥) المصدر السابق، ص ٨٤ ـ ٨٥، ص ٩٨ ـ ٩٩.

استمر خلال العصور الإسلامية المتتالية. هذا وقد تميزت الكنيسة المصرية فى عمارتها ببعض الخصائص المعمارية والزخرفية، وكذلك فى عمارة الأديرة، وهو الأمر الذى سنعرض له بإيجاز شديد فيما يلى:

تخطيط الكنيسة المصرية:

ساد التخطيط البازيليكى[١] عمارة الكنيسة المصرية، وهو الأسلوب الواضح فى عمارة معظم كنائس منطقة مصر القديمة، وكنائس الوجه البحرى، ومعظم كنائس الوجه القبلى، وهو التخطيط القائم على الأروقة الرأسية الثلاثة، أوسطها أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وتنتهى الأروقة الرأسية عادة بالهياكل الثلاثة فى الناحية الشرقية بعناصرها المعمارية المميزة[٢]، وهو ماتنفرد به الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية.

والواقع أن الكنيسة المصرية تتكون من عدة أجزاء معمارية، تشمل الواجهة، التى كانت تضم عادة ثلاثة مداخل محورية تؤدى إلى مايُعرف بدهليز المدخل، وهو عبارة عن رواق مستعرض من الشمال إلى الجنوب، ومحدد بواسطة بداية صفوف البائكات التى تقسم الأروقة، ثم الأروقة الثلاثة أو أكثر، فمكان المرتلين، فالهياكل الثلاثة، وقد تميزت الكنائس البازيليكية بتغطيتها بسقوف خشبية فى معظم الأحيان، حيث يغطى الرواقَ الأوسط الرئيسى سقفٌ جمالونى من الخشب، أكثر ارتفاعاً من السقوف المسطحة التى تغطى الرواقين الجانبيين. ويلاحظ فى كنائس الصعيد من هذا النوع استخدام الأقبية والقباب فى التغطية، نظراً لعدم توافر مادة الخشب، وطبيعة الطقس الحار، ووجود حشرة

(١) تعددت الآراء حول مصدر هذا التخطيط، حيث يرجعه بعض الباحثين إلى أنواع العمائر الرومانية القديمة التى اتخذت من ساحة العدل عند الرومان مصدره، حيث كانت تتكون من مساحة مستطيلة الشكل، يقسمها صفان من البائكات إلى أروقة ثلاثة، الأوسط أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وتنتهى هذه المساحة بحنية كبيرة كان يُعقد فيها مجلس القضاء، أو مجلس كبار التجار، ويذهب بعض الباحثين أيضا إلى الرأى فى إرجاع مصدر هذا التخطيط إلى قاعة الأعمدة الضخمة فى المعبد المصرى القديم فى عصر الدولة الحديثة:

انظر: Flectcher; History of Architecture, pp. 196-199, 222-226. Butler, A, op. cit pp. 2-4 Dalton,O: East christian Art, pp. 89-94. (oxford, 1925) Badawy, A: L'Art copte, les Influences Egyptiennes D'Art copte, pp. 4-7 (le caire, 1949).

(٢) الهيكل بمثابة حجرة مربعة أو مستطيلة الشكل، يتوسطها مذبح من الحجر أو الآجر أو الخشب أو غير ذلك، يعلوه قبة خشبية محمولة على أعمدة رخامية أو حجرية أو خشبية. وإلى الخلف منه مدرج رخامى من عدة درجات، ويتوسط الجدار الشرقى حنية صغيرة.

النمل الأبيض التى تلتهم الأخشاب، وقد ترتب على هذا الأمر حدوث تغييرات فى الأجزاء المعمارية الداخلية للكنيسة، وإمكانية تعدد الهياكل بشكل غير عادى.

وقد تميزت بعض الكنائس المصرية بمميزات معمارية، خاصة فى صعيد مصر، ككنيسة الدير الأبيض، والدير الأحمر، وكنيسة دندرة وهى تتميز بوجود الحنية الثلاثية فى نهاية الكنيسة من الناحية الشرقية. كما تميزت الكنائس المصرية عامة فى وجود المنبر (الأمبون) فى الناحية الشمالية الشرقية من الرواق الأوسط بالكنيسة، يُضاف إلى ذلك ماتميزت به الكنيسة المصرية من زخارف الفرسكو (الألوان المائية) حيث الموضوعات الدينية التى تشرح لرواد الكنيسة معتقداتها، ودور الآباء والقديسين والرهبان، فضلاً عن موضوعات السيدة العذراء والسيد المسيح.

ويبدو أن التخطيط الصليبى كان معروفاً فى مصر منذ زمن بعيد، حيث كشفت الحفائر عن كنيسة ذات تخطيط (صليبى) وهى الكنيسة المعروفة بكنيسة أبى مينا (القرن ٤ ـ ٥ م)، ونعتقد بأن تأثير عمارة الكنيسة البيزنطية على الكنيسة القبطية لم يكن كبيراً. إذ أن أهم مايميز الكنيسة البيزنطية استخدامها للقبة المركزية التى تغطى المساحة الوسطى أو المساحة الرئيسية فى البناء الكنسى، والقبة كعنصر معمارى عُرفت فى مصر منذ عصر الدولة القديمة فى الحضارة المصرية القديمة.

هذا وقد ساد فى مصر فى العصر العثمانى تغطية مساحات الكنيسة بالقِبَاب، ولم يكن أيضاً هذا النوع من التخطيط غير معروف فى مصر، إذ أن كثيراً من كنائس الوجه القبلى غُطيت بالقباب منذ العصر الفاطمى، هذا وتتميز واجهات الكنائس المصرية ببساطتها وتناسق عمارتها، ويندر أن نجد فى الكنائس القبطية القديمة مايُعرف بأبراج الكنائس كوحدات معمارية مستقلة بذاتها[١].

تخطيط الدير[٢]

يشتمل الدير على مجموعة من الأبنية تحقق للرهبان بداخله حياة آمنة، حتى يتفرغوا

(١) انظر: مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ٥٧ ـ ٦٨ ص ١٧٣ ـ ١٧٧.

(٢) يذكر المقريزى فى تعريفه للدير أنه «خان النصارى، والجمع أديار، وصاحبه ديار وديرانى». قلت: الدير عند النصارى يختص بالنسَّاك المقيمين فيه. ويذكر الشابشتى: «أن هناك مواضعَ مختلفة تُبنى فيها الأديرة، وتختلف باختلاف مواضعها، فمنها ماتسنَّم الجبال، أو ماتوسَّد ضفاف الأنهار، أو مااقترب من المدن والأرياف، أو ما انفرد فى البرارى والقفار».

للعبادة، وقد تخلَّفَ من عمارة الأديرة المصرية عددٌ لابأس به، حيث كانت معظمها عامرة برهبانها خلال العصور الماضية، ومن هذه الأديرة أديرة وادى النطرون، دير الأنبا مقار، ودير السيدة العذراء المعروف بدير البراموس، ودير الأنبا بيشوى، ودير السيدة العذراء المعروف بدير السيريان، وأديرة البحر الأحمر، ودير القديس أنطونيوس، ودير الأنبا بولا، ودير القلمون والنقلون بالفيوم، ودير الميمون، والأديرة العديدة بمحافظة قنا، ودير القديس سمعان بأسوان، ودير المحرق بأسيوط، والدير الأحمر والدير الأبيض بسوهاج، وغير ذلك من الأديرة القبطية، بالإضافة إلى بعض أديرة الراهبات فى مصر. ويُعد دير سانت كاترين بسيناء من الأديرة المهمة التى يتضح فى عمارتها أثر العمارة والفن البيزنطى.

وتشترك الأديرة جميعها فى وجود عناصر معمارية ضرورية، وقد جرى عليها عمارة الدير بعد أن اكتملت هذه العناصر المعمارية بمرور الزمن متمثلة فى الأسوار التى تُبْنَى عادة بارتفاع كبير، وتُدَعَّم بأبراج ساندة، وبعضها للمراقبة. ويوجد بالسور عادة مدخل واحد لزيادة الأمان، وكانت الأسوار القديمة تُبنى عادة من الطوب اللبن، ومن قوالب كبيرة الحجم وفى الكنيسة، التى تُعد من أهم الوحدات المعمارية الدينية داخل الأديرة، ولأهميتها الدينية كان لايقتصر الأمر على كنيسة واحدة، بل تعدد الكنائس داخل الأديرة والقلالى، وهى أشبه بحجرات صغيرة يعيش فيها الرهبان، وكان تخطيطها فى معظم الأديرة المصرية على شكل كتلة مستطيلة البناء بتوسطها مَمَرٌ كبير مقبىٌ، على جانبيه صفوف القلالى المتجاورة، وقد اختلف عدد هذه القلالى، حسب عدد رهبان الأديرة. أما الحِصْن فهو يعد من أهم المبانى المُؤَمَّنة داخل الدير، حيث كان يلجأ إليه الرهبان فى حال تعرض الدير لغارات البدو، وهو على هذا الأساس يكون منفصلا عن كل وحدات الدير المعمارية ويتكون من ثلاثة طوابق، بهما وحدات الإعاشة، والمؤن، وكنيسة صغيرة للعبادة، وغير ذلك مما يلزم من وحدات تخدم الرهبان فى حالة اللجوء إليه لطول فترة الحصار. كما تعد المائدة أيضاً من العناصر المعمارية بالأديرة ذات الصفة الدينية، حيث يجلس الرهبان عادة كل يوم أحد من كل أسبوع حول منضدة طويلة مستطيلة الشكل قليلة الارتفاع، بعد صلاة القداس بالدير لتناول وجبة الأغابى (المحبة) داخل قاعة كبيرة مستطيلة الشكل، مقسمة من أعلى بواسطة عقود متنوعة إلى مربعات ومستطيلات، تغطيها قباب وأقبية.

هذا وتشتمل عمارة الأديرة على عناصر أخرى مهمة، كالمعاصر، والطواحين، والأفران، وخزانات المياه، والآبار، ودار للضيافة، وجبانة صغيرة ملحقة بالدير، ومساحات للزراعة، فضلا عن المكتبة التى تعد من أهم وحدات الدير، لاحتفاظها بالمخطوطات والكتب الدينية التى تشكل جانباً مهماً بالنسبة لحياة الرهبان[١].

* * *

(١) انظر: مصطفى شيحة، دراسات فى العمارة، ص ٦٩ - ص ٧٨.

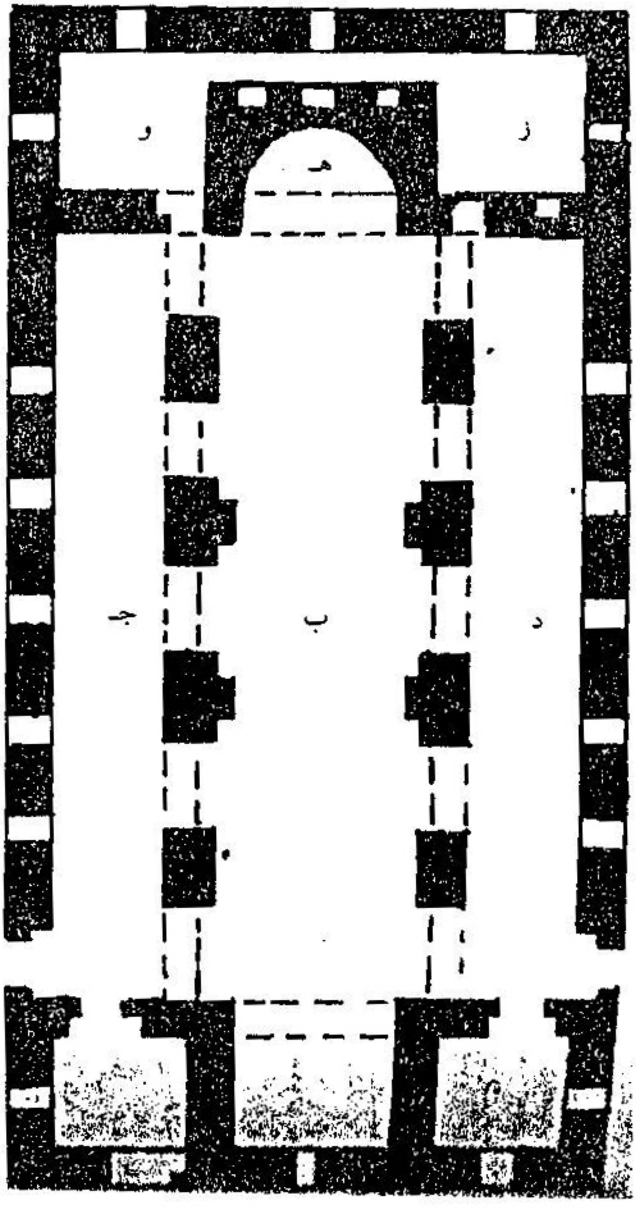

شكل (١) : كنيسة بازيليكية الطراز

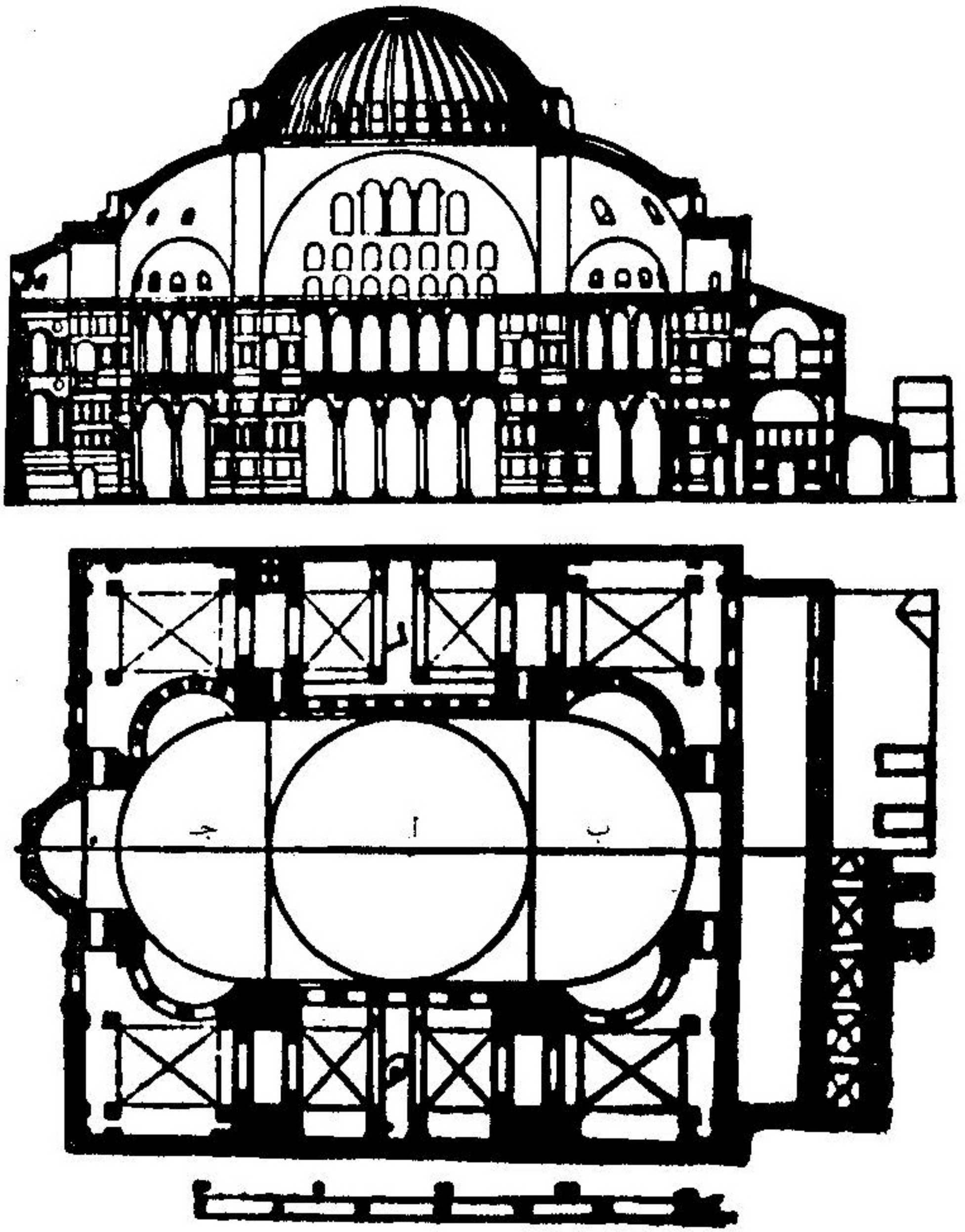

شكل (٢) : كنيسة آياصوفيا (الطراز البيزنطى)

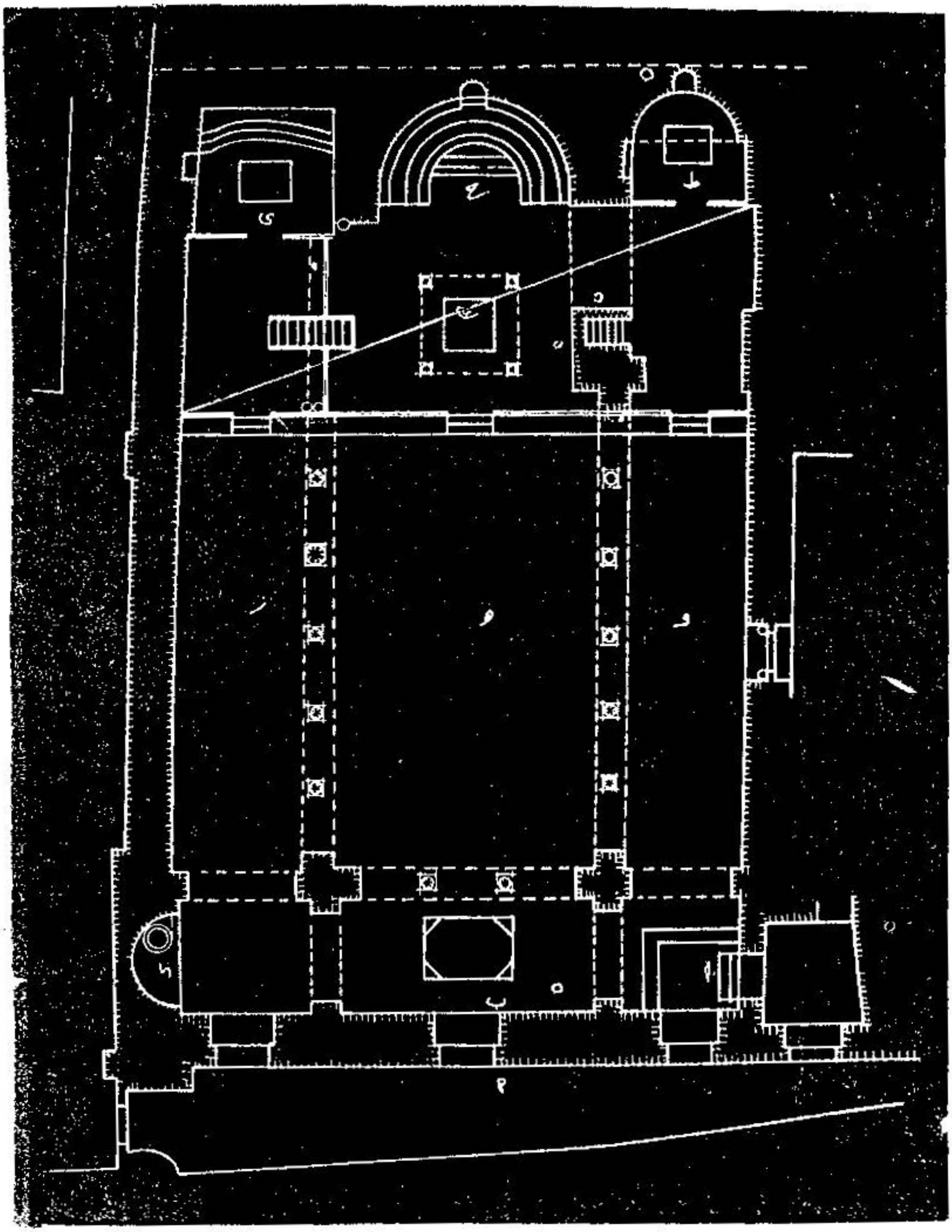

شكل (٣) : كنيسة أبى سرجة بمنطقة مصر القديمة

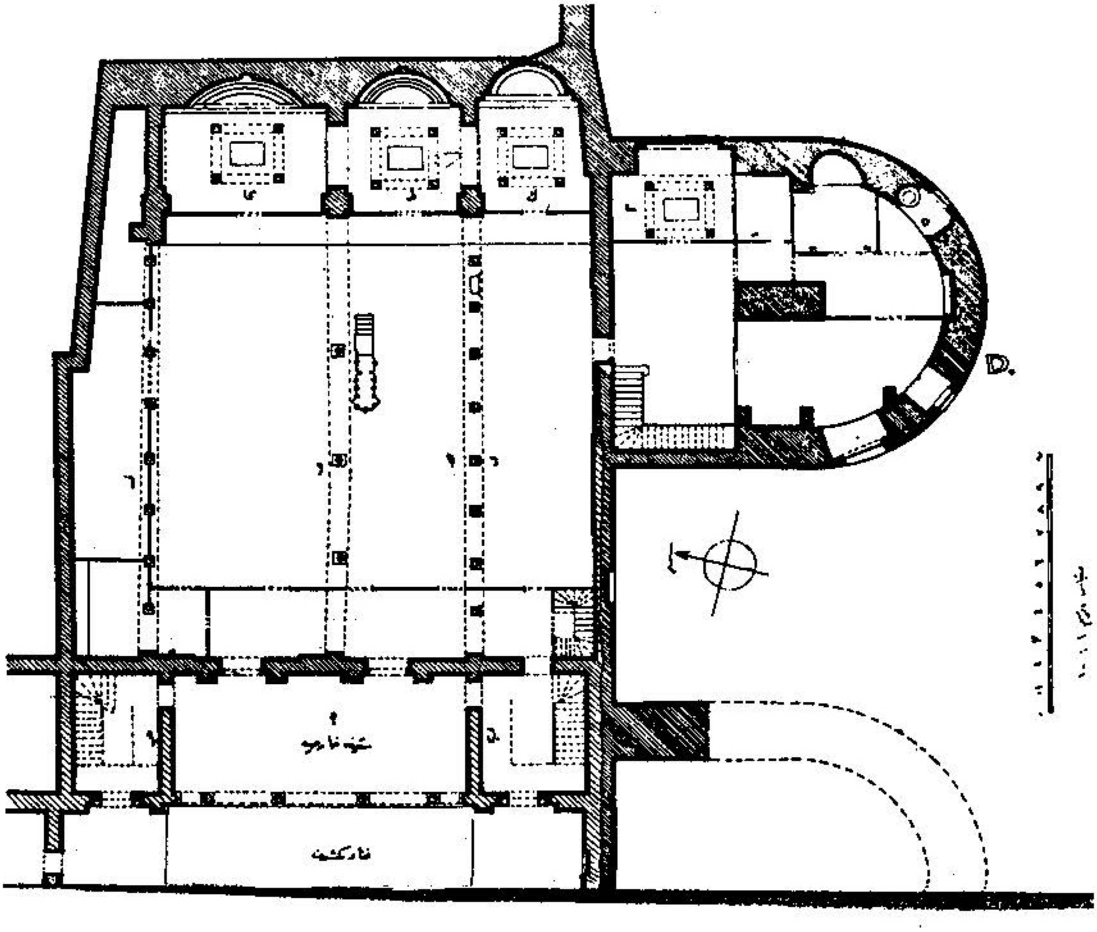

شكل (٤) : الكنيسة المعلقة بمنطقة مصر القديمة

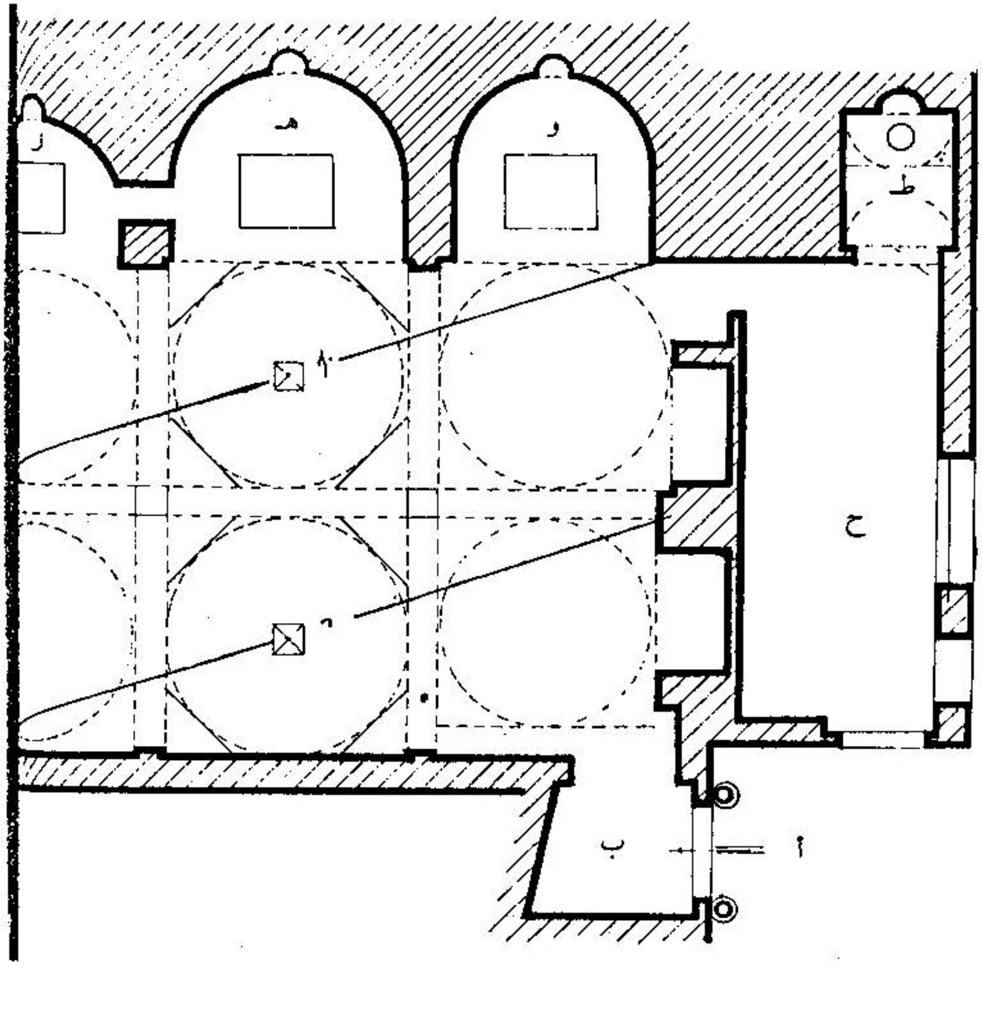

شكل (٥) : تخطيط كنيسة السيدة العذراء المعروفة
بقصرية الريحان بمنطقة مصر القديمة

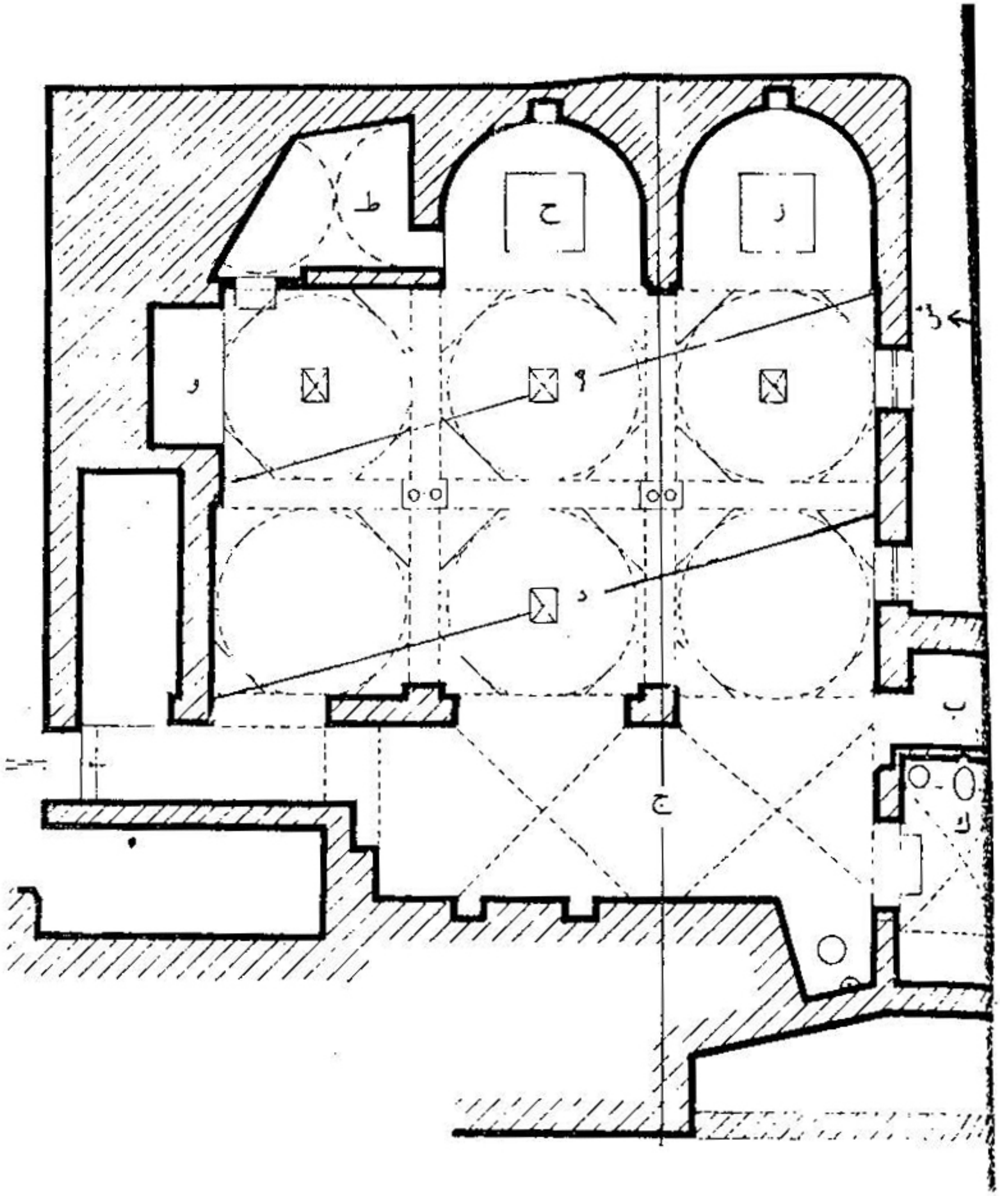

شكل (٦) : تخطيط كنيسة الأمير تادرس المشرقى
بمنطقة مصر القديمة

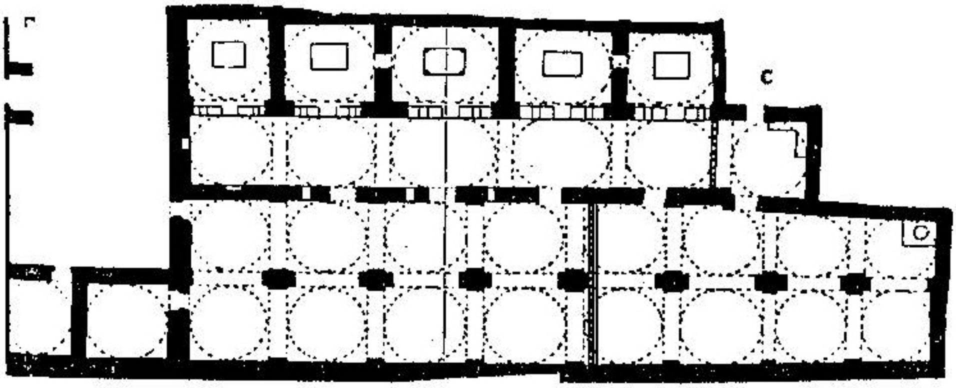

شكل (٧) : تخطيط كنيسة المدامود

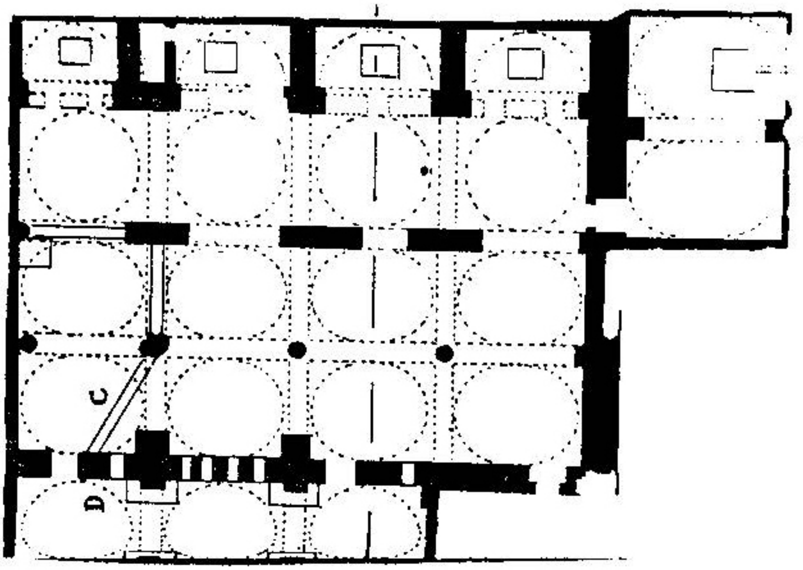

شكل (٨) : تخطيط كنيسة تيودور بمدينة هابو

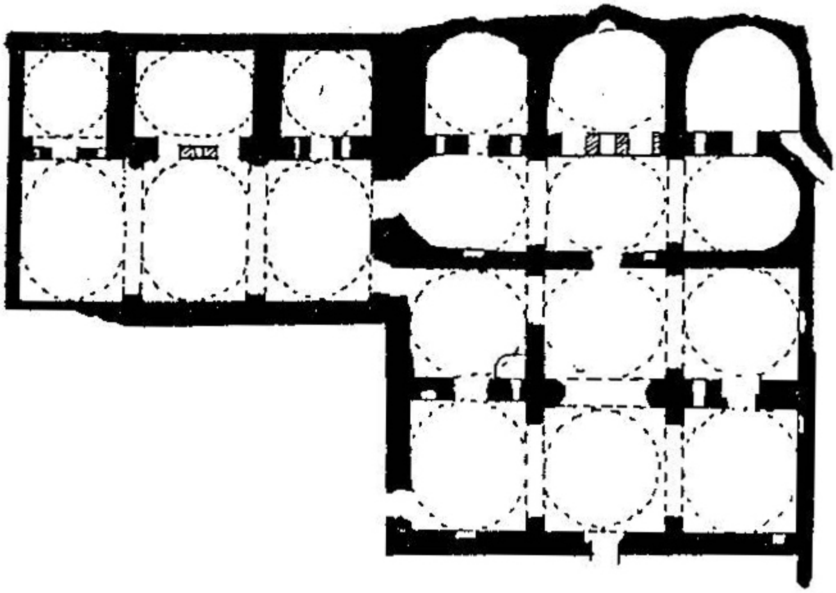

شكل (٩) : تخطيط كنيسة دير الملاك ميخائيل بنقادة

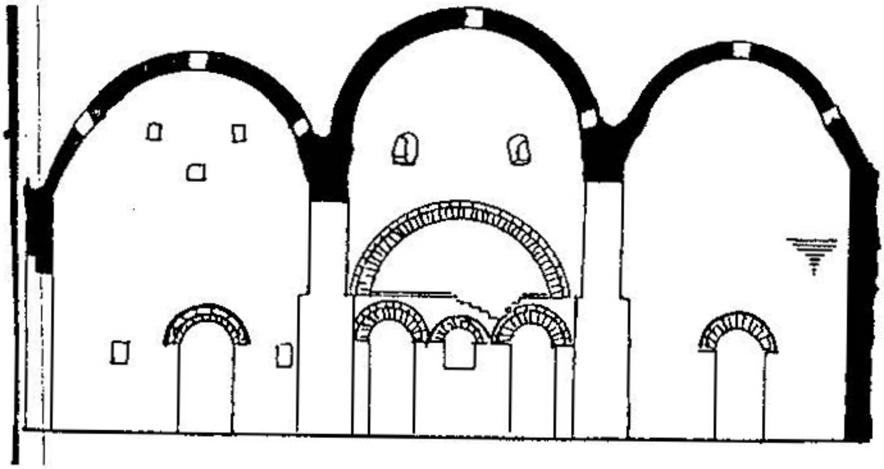

شكل (١٠) : قطاع رأسى جهة عقود وجدران
كنيسة دير الملاك ميخائيل بنقادة

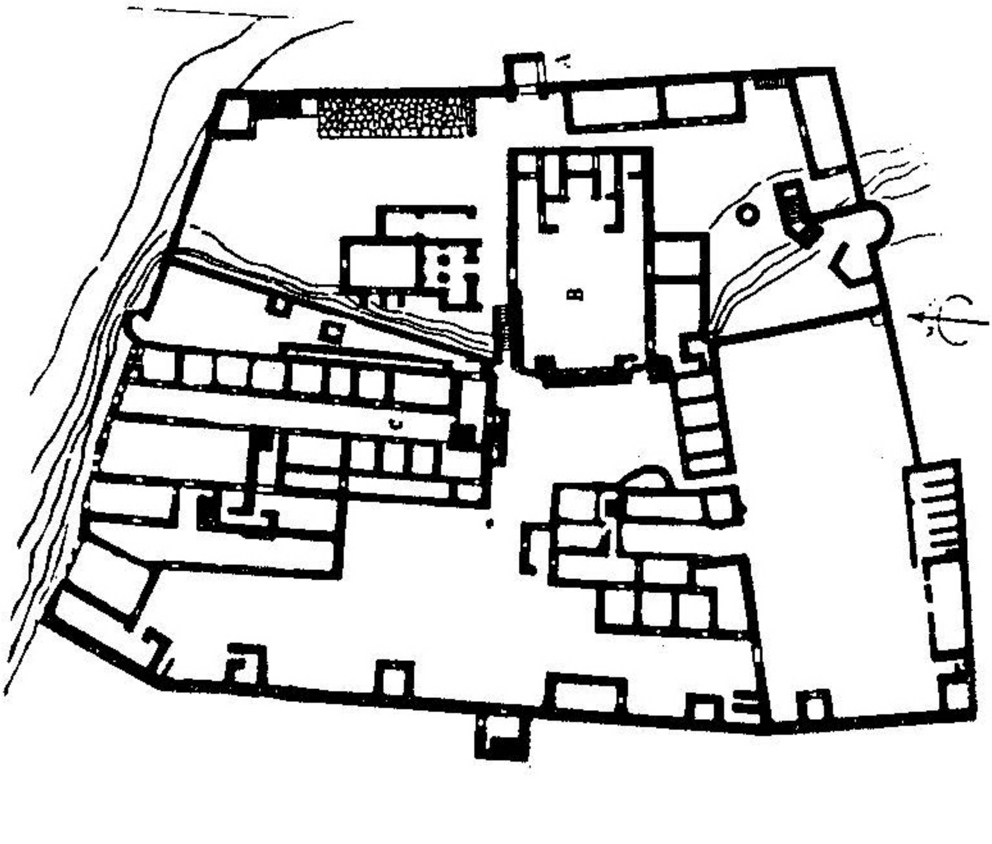

شكل (١١) : تخطيط دير سمعان بأسوان

المجاورون المصريون فى الحرمين الشريفين
(٥٦٧ - ٦٤٨هـ / ١١٧١- ١٢٥٠م)

تمتعت كل من مكة المكرمة، والمدينة المنورة بمكانة روحية سامية لدى جماهير العالم الإسلامى، وقد جذبت هذه المكانة عددًا كبيرًا من المسلمين الذين توافدوا على الحرمين الشريفين من مختلف أمصار العالم الاسلامى، والذين لم يلبث أنْ فَضَّلَ بعضُهم جوار بيت الله العظيم، على أرض مكة الطاهرة، أو جوار الحرم النبوى الشريف، على أرض المدينة المنورة.

أما عن مكة المكرمة، فقد اختار كثيرون الإقامة بها، تبركاً بها، واستجابة، لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم * وارزقهم من الثمرات * لعلهم يشكرون** ﴾[1]. وتمشيًا مع حديث رسول الله ﷺ: «والله إنَّكِ لَخير أرْضِ الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أُخرِجْتُ منك ما خَرَجْتُ»[2].

وكانت المجاورة فى الحرمين الشريفين، مستحبَّة لدى أكثر الأئمة والعلماء، ومنهم الإمام الشافعى، وصاحبا أبى حنيفة: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وابن القاسم صاحب مالك الذى قال: «إن جوار مكة ما يُتقرب به إلى الله، كالرباط، والصلاة «كما استحبها أيضًا الإمام أحمد بن حنبل، لأنه روى عنه أنه قال: «ليت لى الآن مجاورة بمكة»[3].

---

(١) سورة إبراهيم ـ من الآية ٣٧.

(٢) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٥١، ١٥٢.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مكة المكرمة ١٩٥٦، جـ١، ص ٨٤.

وأسهم فى زيادة أعداد الوافدين على الحرمين الشريفين ـ لأداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوى، ثم المجاورة فى الفترة الزمنية موضوع البحث ـ ما قام به السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م بإزالة الرسم الذى كان الفاطميون قد فرضوه على الحجاج.

وكان هذا الرسم سبعة دنانير مصرية ونصف دينار على كل فرد.

وكانوا الحجاج يؤدون ذلك الرسم بعيذاب، أو بجدة، ومن لم يُؤَدِ مُنِعَ من الحج وُعذِّب[١]. وبذلك سهل السبيل للحجاج للحج، ثم المجاورة.

ولما كان هذا الرسم مفروضًا باسم ميرة مكة والمدينة، فإن صلاح الدين وضع عوضًا منه مايقوم مقامه، من أطعمه وسواها، وتكفل بتوصيل جميع ذلك كله إلى بلاد الحجاز[٢]. وكان مقدارُ ما عُوض به أمير مكة ـ عن هذا الرسم ألفى دينار، وألفى أردب قمح، بالإضافة إلى إقطاعيات بصعيد مصر، وباليمن، وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تُحمل إلى جدة[٣].

وقد اختلفت مدة إقامة المجاورين المصريين فى الحرمين الشريفين، فكانت المدة تطول وتقصر حسب رغبة المجاور، فمنهم من جاور فى مكة عاماً، وامتدت بالنسبة للبعض الآخر لسنوات عديدة. فالمجاور عبد المعطى بن محمود بن أبى الثناء الإسكندرى (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) جاور عاماً واحداً[٤]. كما جاور عمر بن على بن مرشد المصرى المولد والدار (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) اثنى عشر عاماً[٥]. وممن طالت فترة مجاورتهم، الشيخ أبو العباس القسطلانى المصرى، الذى ولد بمصر عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، وقدم مكة بنية المجاورة عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، وأقام مجاورًا حتى عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م، وعاد إلى مصر، وظل مقيمًا بمصر حتى عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، ثم قدم مكة مع الحاج فى تلك

(١) ابن جبير: رحلته، بيروت ١٩٨١، ص ٢٨.
والمقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤، جـ١، ق١، ص ٦٤.
(٢) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٢٩.
(٣) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، الطبعة الأولى، حيدر آباد ١٩٥١، جـ٨، ق١، ص١٣٨.
والمقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٧ جـ٢، ص ٢٣٣.
(٤) الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، جـ٥، ص ٤٩٩.
(٥) المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٥٠.

السنة واستوطنها حتى وفاته بمكة عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م[١]. وبذلك جاور مرتين فى الأولى جاور ستة أعوام، وفى الثانية جاور لمدة ستة عشر عاماً. أما المجاور ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حاتم المصرى فقد دخل مكة عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م وظل بها حتى وفاته بمكة عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. وبذلك بلغت مدة مجاورته، أربعة وستين عاماً[٢] وهناك أعداد من المجاورين المصريين بمكة جاوروا لكن لم تحدد لنا المصادر مدة إقامتهم[٣].

كذلك اختار بعض المجاورين المصريين قضاء بقية عمرهم بجوار البيت الحرام الذى جعله الله ﴿ **مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** ﴾[٤]، ولينعموا فى رحابه الطاهرة بالسكينة، وطمعًا فى ثواب الله يوم القيامة. وذلك تمشيًا مع قول عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ماتَ بأحد الحرمين بَعَثَهُ الله تعالى من الآمنين يوم القيامة»[٥].

(١) المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٨، جـ٣، ص ٤٦٢.
، والذهبى: العبر فى خبر من غبر، بيروت بدون تاريخ، جـ٣، ص ٢٢٦.
، وابن فرحون: الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة بدون تاريخ، جـ١، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
، والسخاوى: التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، القاهرة ١٩٧٩، جـ١، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) المنذرى: مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٦٢.
والفارسى: مصدر سابق، جـ٧، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٣) عن المجاورين المصريين الذين لم تحدد المصادر مدة مجاورتهم انظر: المنذرى: التكملة، جـ٣، ص ٢٦٤.
، والذهبى: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، وآخرين، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨، الطبقة الحادية والستون. ١٤٧.
، والأدفوى: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٩٥.
، والصفدى: الوافى بالوفيات، جـ١٨، شتوتجارت ١٩٨٨، ص ٢٥٩.
والفارسى: العقد الثمين، جـ٢، ص ٢٥٦، وجـ٣، ص ٢٩٩، وجـ٥، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٨، وجـ٦، ص ١٣٦، ١٣٧، ١٧٩، ١٨٠ ـ وجـ٧، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٤) سورة البقرة ـ من الآية ١٢٥.

(٥) عن المجاورين المصريين الذين فضلوا المجاورة حتى وفاتهم انظر: المنذرى: مصدر سابق، جـ٣ ص ٥٥٦.
والذهبى: العبر، جـ٣، ص ٢٢٦.
، واليافعى: مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٠، جـ٤ ص ٩٤.
، والفاسى: العقد الثمين، جـ٣، ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ ـ وجـ٥، ص ٤٩٧، ٤٩٩، وجـ٧، ص٢٠٤.
، والسيوطى: حُسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٧، جـ١، ص ٤٥٥.

أمَّا مَنْ جاورَ بالمدينة المنورة من المصريين، فهناك عبد السلام بن محمد عفيف الدين، المصرى، الحنبلى، جاور خمسين عامًا، منها عامان فى الفترة الزمنية موضوع البحث من عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م إلى عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، ثم امتدت مجاورته إلى العصر المملوكى حتى وفاته عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م[١]. كذلك جاور عدد من المصريين بالمدينة المنورة، ولكن لم تمدنا المصادر بمدة المجاورة[٢]. وكان للمجاورة ـ سواء فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة ـ آثار عديدة منها:

١ ـ الأثر الدينى:

كانت الغاية من المجاورة لمعظم المجاورين فى الحرمين الشريفين الانقطاع للعبادة، والاحتماء بحرم الله، ابتغاءً لفضله ورضوانه. فجاور عدد كبير من المصريين الصلحاء الذين كانوا ينهجون نهج المتصوفة، فألزموا أنفسهم الزهد فى الدنيا وشدة العبادة، كما ألزموا أنفسهم ضروباً من المجاهدات والرياضات التى قصد بها تصفية النفس، وتقوية الروح. ويلاحظ أن هؤلاء المجاورين قد نالوا حظاً من العلوم الدينية ـ بالسماع أو الإجازة ـ ولذلك كان لهم ـ بالإضافة للأثر الروحى ـ فى المجتمع أثر ثقافى.

ومن هؤلاء المجاورين عبد العزيز بن محمود بن عبد الرحمن المالكى، المعروف بابن القصار (ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)، صَحِبَ جماعة من الصالحين، وكان زاهدًا على طريقة حسنة، يؤثر الانفراد عن الناس، وترك مالا يعنيه[٣].

أمَّا الزاهد ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) فكان زاهدًا، وقد ذكره القطب القسطلانى[٤] فى شيوخه الصوفية[٥].

---

(١) العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذَهَب، بيروت، ١٩٦٦، جـ٥، ص ٤٣٦.
والسيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٤٨٠ ـ ٤٨١.

(٢) عن المجاورين الذين جاوروا فى المدينة المنورة بدون تحديد مدة المجاور. انظر:
، المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، جـ٢، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
، والفارسى: العقد الثمين، جـ١٣، ص ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨.
، والجزرى: غاية النهاية فى طبقات القراء، القاهرة ١٩٣٢، ص ٤.

(٣) المنذرى: مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٦٤.
، والذهبى: تاريخ الإسلام، الطبعة ٦٣، ص ٢٦٣.
، والفاسى: مصدر سابق، جـ٥، ص ٤٦٠، ٤٦١.

(٤) القطب القسطلانى، أبو بكر بن أبى العباس المصرى، جاور بمكة، وتولى وظيفة الإفتاء، ثم تولى وظيفة القضاء. ت بمصر ٦٨٦هـ/ ١٢٨٨م. انظر:
، الفاسى: العقد الثمين ، جـ١، ص ٣٢٢.
، والسخاوى: التحفة اللطيفة، جـ٣، ص ٤٨٦.

(٥) الذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الطبعة الرابعة والستون، ص ٢٠٧.

أما المجاور أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد المكنى أبو العباس القسطلانى المصرى المولد (ت ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) فقد سمع الحديث بمصر من أبى القاسم البوصيرى[١]، وبمكة من يونس بن يحيى الهاشمى، صحيح البخارى[٢]، ومن جويكار السّجزى[٣]، ومن زاهر بن رستم إمام المقام[٤]، وأبى عبد الله بن البنا الصوفى[٥] وأخذ عنه الطريقة، والفقيه تقى الدين بن أبى الصيِّف[٦]. وقد صحب جماعة من مشايخ الطريق[٧]، وكان قد جمع الفقه والزهد، وكثرة الايثار مع الإقبال، والانقطاع التام مع مخالطة الناس[٨] ثم نزع بنفسه إلى خدمة الصالحين، والانضواء إلى أهل الدين[٩].

(١) أبو القاسم البوصيرى هو هبة الله على بن مسعود الأنصارى الكاتب الأديب، مسند الديار المصرية، سمع من أبى صادق المدينى وطائفة. ت ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م. انظر:
الذهبى: العبر، جـ٣، ص ١٢٥.
، والعماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٤، نص ٣١٨.
، والسيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٣٧٥.

(٢) هو الشريف يونس بن يحيى بن أبى الحسن بن أبى البركات الهاشمى العباسى، أبو محمد البغدادى نزيل مكة، حدث عن أبى الوقت بصحيح البخارى، وسمع عليه وعلى جماعة.
وحدث بصحيح البخارى ولبس خرقة التصرف من الشيخ عبد القادر الكيلانى ت ٦٠٨هـ/ ١٢١١م. انظر:
الفاسى: مصدر سابق، جـ٧، ص ٥٠٠.

(٣) جويكار السّجزى هو محمد بن أحمد بن أحمد بن الحسن السجزى، أبو عبد الله المكى المقرى. سمع منه ابن أبى الصيف ـ جاور بالحرمين، وحدّث حتى توفى. كان حيًا عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، وهو معدود فى مشيخة الحرم بمكة. انظر:
الفاسى: مصدر سابق، جـ١، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٤) زاهر بن رستم، الأصبهانى الأصل، البغدادى المولد، إمام المقام الشريف بالمسجد الحرام، قرأ بالروايات على أبى الكرم الشهرزورى، وسمع من أبى الفتح الكرخى جامع الترمذى، وحدث ببغداد وواسط ومكة، وتفقه على مذهب الشافعى، وصحب الصوفية ت ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، انظر:
العماد الحنبلى: مصدر سابق، جـ٥، ص ٣٧.
، والفارسى: مصدر سابق، جـ٤، ص ٤٢٦، ٤٢٧.

(٥) هو ابن البنا البغدادى على بن نصر بن المبارك، الواسطى الأصل، سمع من أبى الفتح الكرخى جامع الترمذى، مع كتاب العلل بمكة حدث به فى مكة ومصر والإسكندرية ودمياط، ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م. انظر:
الفاسى: العقد الثمين، جـ٦، ص ٢٧١.

(٦) تقى الدين بن أبى الصيف هو محمد بن إسماعيل بن على اليمنى الشافعى، فقيه مكة، حدث عن ابن عمار الأطرابلسى بصحيح البخارى، وعن الميانشى بجامع الترمذى. سمع منه جماعة بمكة، وحدث بها ودرس وأفتى كثيراً، انتهت إليه رئاسة الفقه ت ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م
انظر: الفاسى: مصدر سابق، جـ١، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٧) السخاوى: التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، جـ١، ص ٢٠٤.

(٨) المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، جـ٣، ص٥٠٨ ـ ٥٠٩.
، والذهبى: تاريخ الإسلام، الطبقة الرابعة والستون، ص ٢٦١.
، وابن فرحون: الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، جـ١، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
، والفاسى: مصدر سابق، جـ٣، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
والسخاوى: مصدر سابق، جـ١، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٩) الفاسى: مصدر سابق، جـ٣، ص ١٠٦.

أما الفقيه الصوفى عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى بن عبد الخالق، المكنى بأبى محمد بن أبى الثناء الإسكندرى (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) فقد كان مشهوراً بالزهد والصلاح. سمع من أبى الفضل عبد المجيد بن دليل، وأبى القاسم عبد الرحمن بن مفرق الأنصارى، وغيرهما، وحدّث. كما كانت له معرفة بأصول الدين ومذهب مالك، وصنف كتباً فى الرقائق، وعلم الباطن، وشرح الرعاية للمحاسبى[١] ورسالة القشيرى[٢].

أما الزاهد إسماعيل بن يغلب المصرى، (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) فقد ذكره القطبُ الحلبى فى تاريخ مصر وقال: الفقير المسافر[٣]. والفقر عند الصوفية السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود. والفقير لاتكون له رغبة، فإن كان ولابد فرغبته لاتجاوز كفايته وأقل ما يلزم الفقير فى فقره، أربعة أشياء: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه[٤].

كذلك جاور مصطفى بن محمود بن موسى، الشيخ الصالح المحدث صفى الدين أبو عبد الله بن أبى الثناء المصرى (ت٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م) نزيل مكة شرفها الله تعالى. أجازه أبو محمد بن الطباخ[٥]، وقد ذكره ابن مسدى[٦] فى معجمه فقال: أحد المشيخة الصلحاء من مجاورى الحرم الشريف[٧].

وهناك المجاور قطب الدين الشيخ أبو بكر ابن الشيخ أبى العباس القسطلانى، المولود بمصر عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، والذى سمع على الشيخ شهاب الدين السهروردى[٨].

---

(١) المحاسبى هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى البصرى ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٥م الزاهد المشهور، له كتب فى الزهد والأصول، أهمها كتابه الرعاية. انظر:
ابن خلكان: وفيات الأعيان، بيروت ١٩٦٨، جـ٢، ص ٥٧، ٥٨.

(٢) الفاسى: مصدر سابق، جـ٥، ص ٤٩٧، ٤٩٨.
، والقشيرى: أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان، الفقيه الشافعى، كان علاّمة فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب وعلم التصوف، ولد بنيسابور عام ٣٧٦هـ/ ٩٨٥م وأخذ بالتصوف، وصنف الرسالة القشيرية ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٤م. انظر:
ابن خلكان: مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٣) الفاسى: العقد الثمين، جـ٣، ص ٢٩٩.

(٤) أحمد حنفى نصار القوصى: مع التصوف الإسلامى، معارج ونماذج، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٥) هو المبارك بن الطباخ بن على بن الحسين، أبو محمد البغدادى، نزيل مكة، وإمام الحنابلة بالحرم، المحدث الحافظ، سمع الكثير ببغداد، كان صالحًا ديّنًا، ثقة، حافظ مكة فى زمانه، توفى ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، انظر: العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٤، ص ٢٥٣.

(٦) ابن مسدى الحافظ أبو بكر محمد بن يوسف الأزدى الغرناطى الأندلسى. كان حافظاً، علاّمة، شاع عنه التشيع. جاور بمكة وتوفى فيها ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م. انظر: العماد الحنبلى: مصدر سابق، جـ٥، ص ١١٣.

(٧) الفاسى: مصدر سابق، جـ٧، ص ٢٠٤.

(٨) السهروردى شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد، كان فقيهًا شافعياً، ورعاً، كثير الاجتهاد، تخرج عليه خلق كثير من الصوفية، وله تواليف حسنة، منها كتاب «عوارف المعارف»، جاور بمكة، وتوفى ببغداد ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م. انظر:
ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٤٤٦، ٤٤٨.

وقد أسندت بعض الوظائف الدينية إلى المجاورين المصريين، فقد تولى وظيفة الفتوى الشيخ قطب الدين أبو بكر ابن الشيخ أبي العباس القسطلاني المصري، وذلك في عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وظل متولياً وظيفة الإفتاء فيما بعد ذلك كثيراً[١]. كما تولى هذا المجاور أيضاً وظيفة القضاء، حيث عُين في قضاء مكة في عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م[٢].

ومن الوظائف الدينية التي تولاها بعض المجاورين المصريين وظيفة المؤذن، فهناك المجاور عبد الرحمن بن محمد بن أبي الطاهر محمد بن عبد الرحمن المصري، الذي كان مؤذناً بالحرم الشريف بمئذنة دار الندوة. وقد وُلد هذا الرجل عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م. وتلقى وظيفة المؤذن عن أبيه عن جده[٣]. ومن ذلك نستنتج أن جده ابن أبي الطاهر محمد قد تولى وظيفة الأذان في الفترة الزمنية التي نحن بصددها.

وفي الحرم النبوي الشريف تولى وظيفة المؤذن إبراهيم بن محمد بن المرتضى، وكان حَسَنَ الأداء، طيب الخُلُق، حسن الصوت[٤]، وكان تولِّيه هذه الوظيفة في النصف الأول من القرن السابع ـ لأن ابنه محمداً الفقيه المكنى بأبي عبد الله الكناني المصري، المولود بالقاهرة عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م قد تولى منصب رئيس المؤذنين بالمدينة المنورة ـ بعد أبيه ـ وجاء على شاكلته من حيث حُسن الأداء وحُسْن الصوت، كما كان من الفقهاء النبهاء[٥].

ولم يجد الباحث ـ في الفترة الزمنية لبحثه ـ أياً من المجاورين بعمل بالخدمة في المسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف. ويرجع ذلك لأن السلطان صلاح الدين الأيوبي حين تولى أمر بلاد الحجاز عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، أرسل فتياناً من الأحباش والصقالبة، وكساهم بملابس بيضاء، وعلَّق عليها شارات خاصة بهم، فكان أول سلطان وضع قاعدة خُدَّام الحرمين الشريفين، وأوقف لهم الأوقاف[٦] وقد شاهدهم ابن بطوطة في رحلته

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، جـ١، ص ٣٢٢.
، والسخاوي: التحفة اللطيفة، جـ٣، ص ٤٨٦.
(٢) الفاسي: مصدر سابق، جـ١، ص ٣٢٣.
(٣) المصدر السابق، جـ٥، ص ٤٠٧.
(٤) السخاوي: مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٥٨.
(٥) المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٥٨.
(٦) ابن جبير: رحلته، ص ١٥٣.
وسليمان عبد الغني المالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، الرياض ١٩٨٣، ص ١١٢.

للمدينة المنورة وقال: «خدام المسجد الشريف وسدنته فتيانٌ من الأحابيش، وسواهم. وهم على هيئات حسان، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدم، ولهم مرتبات بديار مصر والشام، وتؤتى إليهم فى كل سنة»[١]. وأهم وظائفهم المحافظة على المسجد النبوى نهاراً، وقفل أبوابه وحراسته ليلاً، وتنظيف القناديل، ومسحها، وتنظيف المسجد، وإيقاد البخور للمسجدين، وتطييب الكعبة بالعطور[٢].

كما كان للمجاورين المصريين ـ مع غيرهم من المجاورين من مختلف أمصار العالم الإسلامى ـ دور فى رؤية أهِلَّة الشهور العربية، لتحديد بدايات تلك الشهور، والشهادة بذلك عند الأمير والقاضى وإمام المسجد الحرام. فابن جبير فى رحلته إلى مكة عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م هَلَّ عليه شهر رجب بشهادة خَلْق كثير من المجاورين[٣].

٢ ـ الأثر الثقافى:

كان أغلب المجاورين المصريين الذى حفظت لنا المصادر المعاصرة أسماءهم، من رجال العلم الذى تركوا آثاراً ثقافية واضحة فى مجتمع الحرمين الشريفين، وقد أسهم فى ذلك وجود حلقات العلم والدراسة بالحرمين الشريفين، إذ كانت المقامات الأربعة لاجتماع أتباع المذاهب الأربعة، كل فى مقامه للصلاة والدراسة. وقد شاهد ابن جبير فى رحلته لمكة حلقات المدرسين وأهل العلم فى المسجد الحرام[٤].

وقد ساعدت تلك الحلقات العلمية على سماع طلاب العلم من المجاورين لمختلف العلوم الدينية، من قراءات وتفسير، وحديث، وفقه، بالإضافة إلى قيام العلماء منهم، برواية العلم. كما أسهم بعض العلماء المجاورين فى التدريس بالمدارس التى أُنشئت بمكة فى الفترة الزمنية موضوع البحث.

كانت الرحلة فى طلب العلم أمراً شائعاً فى ذلك الوقت، فقد كان هناك حرص على لقاء العلماء المشهورين لأخذ العلم منهم عن طريق السماع، وشجع السَّعْى فى طلب

(١) رحلته، القاهرة ١٩٣٤، جـ١، ص ٩٥، ٩٦.
(٢) ابن جبير: مصدر سابق، ص ١٥٣.
والسخاوى: التحفة اللطيفة، جـ١، ص ٥٠.
(٣) رحلته، ص ٩٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٦٠.

العلم ومجاورة الحرمين الشريفين كثرةُ الأربطة التى كانت معَدَّة لإيواءهم بالمجان، والنفقة عليهم، من ريع الأوقاف عليها(١).

وممن جاء إلى مكة للمجاورة، وسمع علم القراءات، محمد بن حمد بن غياث الأنصارى المصرى (ت ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م)، سمع بمصر، ثم رحل إلى مكة، وسمع من المبارك بن الطباخ وقرأ عليه القراءات. كما أجاز له أبو الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى، وهو من بيت القرآن والحديث والصلاح(٢).

والمجاور الشيخ الصالح أبو محمد عبد العزيز بن إسماعيل بن أبى محمد بن زيد الدمياطى الشافعى، المقرئ المعروف (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، سمع بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ من الحافظ أبى الفتوح نصر بن أبى الفرج بن على الحصرى(٣). وسمع من أبى الفرج يحيى بن ياقوت بن عبد الله الفراش(٤) كما سمع من غيرهما(٥).

كما جاور وسمع علم القراءات حامد بن أحمد بن حمد بن حامد المصرى المقرئ (ت ٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، سمع من المبارك بن الطباخ بمكة(٦).

وممن جاء إلى مكة المكرمة لسماع علم الحديث القاضى الأجَلُّ أبو القاسم هبة الله بن يحيى التميمى الشافعى المصرى (ت ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م)، سمع من أبى الفتح عبد الملك ابن أبى القاسم الكرّوخى(٧)، وبعد عودته إلى مصر حَدَّثَ، وكان ممن يُرْجَع إليه فى الأمور الدينية(٨).

---

(١) عن الأربطة بمكة انظر: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٣٠ إلى ٣٣٦.

(٢) ابن رجب: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، وقف على طبعه محمد حامد الفقى، القاهرة ١٩٥٣، جـ٢، ص ٣٨.

(٣) أبو الفتوح بن الحصرى، الحافظ برهان الدين البغدادى الحنبلى المقرئ، جاور بمكة، وتوفى باليمن عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م. انظر: الذهبى: العبر، جـ٣، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.
وأبو شامة: الذيل على الروضتين، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٣٣.

(٤) أبو الفرج يحيى بن ياقوت بن عبد الله البغدادى، شيخ الحرم، حدّث ببغداد وبمكة، وجاور بها، وسمع منه جماعة من أهلها، ثم عاد إلى بغداد، وتوفى عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م. انظر: الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص ٤٥١، ٤٥٢.

(٥) المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، جـ٢، ص ٢٤٣.

(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الطبقة الثانية والستون، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٧) أبو الفتح الكروخى الهروى، الرجل الصالح، راوى جامع الترمذى. كان ورعاً، ثقة، حَدَّثَ ببغداد ومكة، وتوفى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م. انظر:
العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٤، ص ١٤٨.

(٨) المنذرى: التكملة، جـ٢، ص ١٠٦، ١٠٧.
والذهبى: تاريخ الإسلام، الطبقة الحادية والستون، ص ١٤٧.

أما الشيخ الحافظ أبو الطاهر إسماعيل بن أبى محمد عبد الله الأنصارى المصرى الشافعى (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) فقد سمع بمصر والإسكندرية، وسمع بمكة من أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين الأشكيذيانى(١) وغيره(٢).

وسمع أيضاً الحديث بمكة، الشيخ الفاضل أبو محمد عبد الصمد الشافعى المصرى الذى تفقه على مذهب الإمام الشافعى بمصر (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م)، وسمع بمكة من المنتخب أبى الحسن الريحانى(٣)، والشريف أبى محمد يونس بن يحيى الهاشمى، كما سمع من غيرهما(٤).

وممن جاور وتعلم الفقه بالسماع، الشيخ الفقيه أبو المنصور فتح بن محمد بن على بن خلف السعّدى الدمياطى الشافعى، سمع بمصر من أبى الطاهر السلفى(٥)، وسمع بمكة من الفقيه أبى محمد عبد الدائم بن عمر العسقلانى(٦)، ثم عاد إلى مصر، فحَدَّث بالقاهرة ودمياط، وكانت عنده معارف كثيرة، وله شعر حسن، وصنف تصانيف مفيدة فى فنون عديدة(٧).

وممن جاور بالمدينة المنورة وسمع بها العلم، القاضى الأجل أبو إبراهيم إسماعيل بن القاضى، أبو القاسم عبد الملك بن عيسى المنعوت بالعماد (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م)، تفقه على مذهب الإمام الشافعى، وصحب جماعة من الصالحين. سمع بمصر من والده، ومن

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن بن على الأشكيذيانى، كان حنبلياً مُحَدِّثاً، نزل بمكة، فكان عظيم الحنابلة بها، وحَدَّث بمكة، وأقام بها، وأمَّ بها فى موضع الحنابلة ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م.
انظر: العماد الحنبلى: مصدر سابق، جـ٤ ، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) المنذرى: مصدر سابق، جـ٢، ص ٧٩.

(٣) على بن الحسن بن على بن محمد، أبو الحسن المعروف بالريحانى المكى، سمع بمكة وحدَّث بها، ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م.
انظر: الفاسى: العقد الثمين، جـ٦، ص ١٤٩ ـ ١٥١.

(٤) المنذرى: مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٠٨.

(٥) الحافظ أبو الطاهر السلفى أحمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهانى، سمع ببغداد، والكوفة، والحرمين، والبصرة، وهمدان، وأذربيجان، والرى، والدينور، وقزوين، والشام، ومصر، واستوطن الإسكندرية، وسمع منه الكثيرون ت ٥٧٦هـ/ ١١٧٨م. انظر: الذهبى: العبر، جـ٣، ص ٧١ واليافعى: مرآة الجنان، جـ٣، ص ٤٠٣.

(٦) أبو محمد عبد الدائم بن عمر العسقلانى جاور مكة سنين، وكان أحد الصالحين. انظر: الفاسى: العقد الثمين، جـ٥، ص ٣٣٩.

(٧) المنذرى: التكملة، جـ٢، ص ١٧٠.

أبى القاسم البوصيرى، أما فى مدينة رسول الله ﷺ فسمع من الشيخ أبى محمد جعفر ابن آموسان الأصبهانى[١] وأجاز له جماعة كبيرة[٢].

أما المجاورون الذين قاموا برواية العلم فى الحرمين الشريفين فنجد أنهم انقسموا بين رواة للحديث، ومدرسين للفقه.

وممن جاور بمكة لرواية الحديث محمد بن فرقد بن هوشاب، ظهير الدين الشيبانى الإسكندرى، نزيل مكة، حدث بخمسة عشر جزءًا من جامع الترمذى بالحرم الشريف، سمعها منه على أبو الحسن بن البنا، وسمعها من الأخير سليمان بن خليل العسقلانى فى مجالس، آخرها عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، ولعله قرأ الكتاب كله، فإن سليمان بن خليل سمعه لكماله، وحدث به عن ابن البنا[٣].

أما عبد العزيز بن محمود بن عبد الرحمن، أبو محمد المالكى، فهو من فضلاء المصريين (ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) تفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، واشتغل بعلم الحديث، وأقبل عليه إقبالاً كثيراً. واختصر كتاب الحميدى فى «الجمع بين الصحيحين» وغير ذلك كَتَبَ بخطه كثيرًا، وجاور مكة شرفها الله تعالى مدة[٤].

أما المجاور تاج الدين، أبو الحسن بن الشيخ أبى العباس القسطلانى المصرى المولود بمصر عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٠م فقد سمع من الشريف يونس بن يحيى الهاشمى صحيح البخارى، ومن زاهر بن رستم جامع الترمذى، ومن ابن الفتح الحصرى مسند الشافعى، وسنن أبى داود، والنسائى بمكة، وسمع أيضاً من ابن أبى الصيِّف، وأبى عبد الله بن البنا، وكان أحد المشايخ المشهود لهم بالفضل والدين، المعروفين بحسن الخُلق، ومحبة الحديث لأهله، وكانت إقامته بمكة أعواماً كثيرة مع والده، وحدَّث بها، وسمع منه الأعيان[٥].

---

(١) الشيخ أبو محمد جعفر بن آموسان الأصبهانى الواعظ، روى الكثير، وحج فادركه الأجل بالمدينة المنورة عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، انظر: العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٥، ص ٢٥.

(٢) المنذرى: مصدر سابق، جـ٢، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) الفاسى: العقد الثمين، جـ٢، ص ٢٥٦.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام، الطبقة الثالثة والستون، ص ٢٦٣.

والمنذرى: التكملة، جـ٣ ، ص ٢٦٤.

والفاسى: مصدر سابق، جـ٥، ص ٤٦٠، ٤٦١.

(٥) المصدر السابق، جـ٦، ص ١٣٦، ١٣٧.

ومن المجاورين الذين قاموا بتدريس الفقه أبو العز مظفر بن عبد الله بن على بن الحسين الشافعى، الإمام تقى الدين المصرى (ت ٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، كان إماماً فى الفقه، والخلاف، وأصول الدين، صنف التصانيف الكثيرة، وتخرج به خلق، سمع بالإسكندرية، وحدَّث بالقاهرة، ثم سافر إلى مكة وحدث بها، وكان كثير الإفادة، منتصبًا لمن يقرأ عليه(١).

أما الفقيه الورع بهاء الدين بن الجميزى على بن هبة الله بن سلامة (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) فقد رحل به أبوه وهو ابن عشرة أعوام، فسمع بدمشق، وبغداد، وبالإسكندرية. وكان رئيساً للعلماء بالقاهرة فى وقته، وروى عنه خلق من أهل مكة(٢)، مثل محمد بن عبدالرحمن بن محمد الأزدى، ويُلقب بابن الملجوم المكى (ت ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م)(٣).

ولم يقتصر نشاط المجاورين المصريين على علوم الدين، بل تعداها إلى الأدب أيضاً. وهناك شاعر وأديب جاور بمكة يقال له أبو القاسم بن أبى الحسن شرف الدين، المعروف بابن الفارض، وهو حموى الأصل لكنه مصرى، فقد ولد فى مصر عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م وتوفى عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م وهو الشاعر المشهور الملقب بسلطان العاشقين، برع فى الأدب وكان فصيح العبارة، دقيق الإشارة. وكان حَسَن النظم متوقد الخاطر(٤).

كذلك قام المجاورون المصريون بجهد تدريسى فى المدارس التى أُنشئت بمكة، وقد أنشئت هذه المدارس بجهود شخصية، واعتمدت فى ذلك على الأوقاف فى أداء رسالتها

(١) المنذرى: مصدر سابق، جـ٢، ص ٣٤٣.
والذهبى: تاريخ الإسلام، الطبقة الثانية والستون، ص ١٩٢.
والسبكى: طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٠٦، جـ٥، ص ١٥٦.
والسيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ١٩٠.

(٢) الذهبى: سير أعلام النبلاء، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤، جـ ٢٣، ص ٢٥٣، ٢٥٤
وابن الجزرى: غاية النهاية فى طبقات القراء، جـ١، ص ٥٨٣.
و السبكى: مصدر سابق، جـ٥، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ١٢٩.
والصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٢٢، ص ٢٨٤.

(٣) الفاسى: العقد الثمين، جـ٢، ص ١١٠.

(٤) المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٤٩، ٣٥٠.
والسيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥١٨.

العلمية، فقد كان ريع الأوقاف هو المصدر المالى الأساسى والوحيد للمدارس التى أنشئت فى الحرمين الشريفين، وكانت وثيقة الوقف، بمثابة لائحة تنفيذية للمدرسة(١).

وممن جاور وقام بالتدريس الفقيه أبو الوفاء الحنفى، صديق بن يوسف بن قريش، وكان مولده عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٢م، وسمع بالإسكندرية من الحافظ أبى طاهر السِّلفى، ومن أبى القاسم البوصيرى بمصر، واستوطن الديار المصرية زمناً، وولى بها حسبة البلد زمناً، ثم حج إلى مكة، وقام بالتدريس فى مدرسة ابن الزنَّجيلى وهى قرب باب العمرة للحنفية(٢)، وكان كثير الولوع بصناعة الكيمياء(٣).

أما الفقيه المفتى الشافعى، ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حاتم المصرى (ت ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) فقد سمع صحيح البخارى من أبى الحسن على بن حميد بن عمار الأطرابلسى، وحدَّث عنه وعن أبى محمد بن الطباخ، وقرأ الفقه على الإمام تقى الدين بن أبى الصيِّف وغيره، وكان يدرس فى المدرسة التى انشأها ابن الأرسوفى(٤) بمكة خارج باب العمرة وكان رجلا مشهوراً ينقل من مسائل الفقه، وكُتب العلم وأهله، ويصحب أهل الفضائل ويلازمهم للإفادة والاستفادة(٥).

أما أبو القاسم القوصى وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن سليمان (ت ٦٤٣هـ/ ١١٤٨م) فقد تفقه لأبى حنيفة، وسمع من ابن برّى(٦)، وقام

---

(١) عن مدارس مكة المكرمة وأوقافها انظر:
الفاسى: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جـ١، ص ٣٢٨، ٣٣٠.
والفاسى أيضاً العقد الثمين، جـ١، ص ١١٧، ١١٨.

(٢) مدرسة الزنجيلى هى المدرسة الأمير فخر الدين عثمان بن على، كان نائباً بعدن للسلطان صلاح الدين الأيوبى، وتاريخ وقف المدرسة عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، ولها أوقاف كثيرة. وتوفى الأمير فخر الدين مؤسس المدرسة عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. انظر:
الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٢٨، والعقد الثمين، جـ٦، ص ٣٤، ٣٥.

(٣) الفاسى: العقد الثمين، جـ٥، ص ٣٩.

(٤) مدرسة ابن الأرسوفى هى مدرسة العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفى، وهى معروفة له، وتقع بقرب باب العمرة، ولا يعرف الفاسى تاريخ وقفها، إلا أنه يقول: إن لها أزيد من مائتى عام، وبذلك يرجع تاريخ وقفها فى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى. انظر:
الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٣٠.

(٥) الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٦) ابن برى: الإمام العلامة، نحوى وقته، وهو ابن محمد بن عبد الجبار المقدسى، ثم المصرى، تصدر بجامع مصر للعربية، وكان عالماً بكتاب سيبويه (ت ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، القاهرة بدون تاريخ، جـ ١٢، ص ٣١٩.
والذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ٢١، ص ١٣٦، ١٣٧.

بالتدريس بمكة أثناء مجاورته[١]، ويعتقد أنه كان يقوم بالتدريس فى إحدى المدارس التى كانت موجودة فى مكة[٢]، أو فى الحرم المكى الذى كان «محدقاً بحلقات المدرسين وأهل العلم»[٣].

كما قام القطب أبو بكر بن أبى العباس القسطلانى، المصرى المولد، حيث ولد عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وحمله أبوه عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م إلى مكة، فنشأ بها وسمع بها، ودرس بمدرسة دار زبيدة[٤] بالحرم بحضرة والده[٥].

وهكذا أسهم المجاورون المصريون فى تطوير وازدهار الدراسات الدينية، وقدموا خدمات ثقافية جليلة مع غيرهم من المجاورين من مختلف أمصار العالم الإسلامى، مما أدى إلى نبوغ الكثيرين من أبناء الحرم الشريف متأثرين بهذا الجو الروحى والعلمى الذى ساد مكة المكرمة.

ومن هؤلاء الذين تأثروا بهذا الجو العلمى أبو عبد الله المكى، محمد بن عبد الله بن محمد بن مقبل، الذى سمع من يونس الهاشمى صحيح البخارى، ومن زاهر بن رستم، ومن أبى الفتوح الحصرى، وحدَّث، وسمع منه أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز المهدوى، وأجاز لفاطمة بنت القطب القسطلانى. وإخوتها، باستدعاء أبيهم سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، وسمع منه الحافظ الدمياطى بمكة، ووصفه بالفقيه، وكان حج الدمياطى عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م[٦].

ومنهم أبو محمد المكى عبد العزيز بن عيسى بن محمد بن عمران الحجى، سمع من الشريف يونس. بن يحيى الهاشمى، وحدث، وسمع منه أبو المعالى بن القسطلانى، وتوفى عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م[٧].

---

(١) الأدفوى: الطالع السعيد، ص ٢٩٥.
والصفدى: الوافى بالوفيات، جـ١٨، ص ٢٥٨.
والسيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٤٦٥.
(٢) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٢٨، ٣٣٠.
(٣) ابن جبير: رحلته، ص ٦٠.
(٤) مدرسة دار زبيدة، يبدو أنها مدرسة طاب الزمان الحبشية تاريخ وقفها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م وهى من دار زبيدة. انظر: الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص ١١٧.
(٥) السخاوى: التحفة اللطيفة، جـ٣، ص ٤٨٥، ٤٨٦.
(٦) الفاسى: مصدر سابق، جـ٢، ص ٨٩، ٩٠.
(٧) المصدر السابق، والجزء، ص ١١٠.

ومنهم أيضًا ابن الملجوم، محمد بن عبد الرحمن بن محمد الأزدى، الذى سمع من ابن الجميزى، وابن أبى الفضل المرسى، ثم رحل فسمع بدمشق وحلب وحران وبغداد ومن بعض شيوخ الحافظين قطب الدين العسقلانى، وشرف الدين الدمياطى، وكانت وفاته عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م(١).

٣ ـ الحياة الاجتماعية للمجاورين المصريين:

كان المجاورون المصريون يشكلون جزءًا فى البناء الاجتماعى لمجتمع الحرمين الشريفين، فقد استقروا واندمجوا مع السكان الأصليين، وقد أدت الأهمية الدينية للحرمين إلى زيادة أعدادهم، بالإضافة إلى قرب المسافة بين البلدين، وارتباط أشراف مكة والمدينة بسلاطين الدولة الأيوبية.

وقد ساعدهم على المجاورة كثرة الأربطة التى أُقيمت فى مكة المكرمة والمدينة المنورة لسكناهم. وقد أسهم بعض المصريين من ذوى اليسار فى إنشاء أربطة فى مكة والمدينة، أسهمت هى بدورها فى تسهيل إقامة المجاورين.

فقد أنشأ على بن عبد الوهاب بن محمد القاضى، أبو الحسن المفتى الإسكندرى (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م) رباطاً بأسفل مكة، وعلى بابه حجر مكتوب عليه: أنه وقفه وحبسه وتصدق به على فقراء العرب الغرباء المتعبدين، وذوى الحاجات المجرَّدين، ليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب، وذلك عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م. وكان صاحب الرباط شامل المبرات، كثير الطاعات، وله على رباطه بمكة وقف(٢).

كما أنشأ على بن محمد المصرى الرباط المعروف برباط غُزِىّ، وعلى بابه حجر مكتوب فيه: أن وقفه على الفقراء والمساكين الرجال المجردين، من أى جنس كان من المسلمين، وذلك عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م(٣).

وهناك العديد من الأربطة فى مكة كانت موقوفة على فقراء المسلمين المجاورين، وكان شرط الوقف يسمح للمجاورين المصريين بسكناها، مثل رباط السِّدرة الذى كان أول رباط أقيم فى مكة، ويرجع تاريخه إلى مطلع القرن الخامس الهجرى، ويقع بالجانب

(١) المصدر السابق، جـ٥، ص ٤٥٦.
(٢) الفاسى: العقد الثمين، جـ٦، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٣) المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٠.

الشرقى من المسجد الحرام على يسار الداخل إليه من باب بنى شيبة، وكان موقوفًا فى عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م لسكنى المنقطعين من المجاورين[١] ورباط القاضى صدر الدين أبى بكر المراغى، ويقع على باب الجنائز بمكة، وقد أوقفه صاحبه عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م على الغرباء الواصلين إلى مكة، والنازلين فيه[٢]. وهناك رباط البانياسى الذى يقع على يسار الذاهب إلى الصفا، وقد وقفه الأمير فخر الدين البانياسى عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م[٣]. والرباط المعروف برباط ربيع، الذى أوقفه السلطان نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م[٤]. ورباط العفيف الأرسوفى، صاحب المدرسة التى تجاوره، وقد أوقفه سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، يتبين ذلك من الحجر الذى على بابه[٥]، وإنْ كان العقد الثمين يجعل وقفه عام ٥٩١هـ/ ١١٩٤م[٦].

كما وجدت أربطة بمكة اشترط واقفوها أن يقيم بها الصوفية والزهاد من المجاورين وقد سمح شرط الوقف على إقامة المجاورين المصريين من الصوفية والزهاد، مثل رباط أم الخليفة الناصر العباسى، وتاريخ وقفه عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م حسب الخشب الذى على بابه[٧]. ورباط الخاتون وتاريخ وقفه عام ٥٧٧هـ حسب الحجر الذى على بابه، وقد أوقف على الصوفية والرجال الصالحين، والتى أوقفته هى الشريفة فاطمة بنت الأمير أبى ليلى محمد بن أنوشروان الحسنى[٨]. وهناك الرباط المعروف برباط الخوزى، والذى أوقفه الأمير قرامر بن محمود الفارسى عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م حسب الحجر الذى على بابه[٩].

كما كان هناك بالمدينة المنورة رباط القاضى محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم صدر الدين أبو بكر المراغى، الذى أنشاه مجاورًا لحرم النبى ﷺ، وكان قد أوصى ألّا يُدفن فيه، ولذلك نُقل إلى المدينة المنورة بعد وفاته عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م لدفنه هناك[١٠].

---

(١) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٣٠.
(٢) الفاسى: العقد الثمين، جـ٢، ص ٦٧.
(٣) المصدر السابق، جـ١، ص ١٢٠، وفى شفاء الغرام، جـ٢، ص ٣٣٣.
(٤) المصدر السابق، والجزء، ص ١٢١، ونفس المصدر السابق والجزء، ص ٣٣٥.
(٥) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٣٦.
(٦) الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص ١٢٢.
(٧) المثدر السابق والجزء، ص ١١٨.
(٨) المصدر السابق والجزء، ص ١١٩.
(٩)الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٣٢.
(١٠) الفاسى: العقد الثمين، جـ٢، ص ٦٦، ٦٧.

هذا ولم يكن المجاورون المصريون بمعزل عن حياة المجتمع المكى أو المدنى، يتضح ذلك حينما أجدبت المدينة المنورة، فاتفق رأيهم على أن يستسقوا يومًا، والمجاورون يومًا، فاستسقى أهل المدينة يومهم فلم يسقوا، فقام المجاور أبو العباس القسطلانى المصرى بعمل طعام للضعفاء والمساكين، واستسقى مع المجاورين فَسُقُوا[١]. وفى مكة المكرمة كان هذا المجاور يعول فى اليوم ثمانين فقيرًا[٢].

كذلك تمتع المجاورون المضريون بكرم أهل مكة، فقد كانت لهم الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار للضعفاء والمنقطعين، وحُسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء والمنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بلطف ورفق، وحُسن خلق، ثم يطعمهم»[٣]. كما كانوا يجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين، والمحتاجين فى الليالى المباركة[٤]. ويمكننا بعد هذا الحديث السريع عن المجاورين المصريين فى الحرمين الشريفين أن نخلص إلى الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: أن الأهيمة الدينية للحرمين الشريفين استأثرت باهتمام عدد كبير من المصرينين للمجاورة.

الحقيقة الثانية: تباينت فترة المجاورة، فكانت عامًا واحدًا فى بعض الأحيان، وامتدت فكانت أربعة وستين عامًا مع مجاور آخر، وهناك من فضل البقاء بالحرمين الشريفين حتى وفاته.

الحقيقة الثالثة: نتج عن جوار عدد من الزهاد والصوفية شيوع حياة الزهد والورع فى مجتمع الحرمين الشريفين.

الحقيقة الرابعة: أسهم المجاورون المصريون فى الحياة الثقافية والعلمية فى مجتمع الحرمين الشريفين، ساعدهم على ذلك انتشار حلقات الدراسة والعلم وانتشار المدارس، مما نتج عنه ظهور علماء من أبناء الحرم الشريف تأثروا بهذا الجو الروحى والعلمى.

---

(١) الذهبى: العبر، ص ٢٢٦، واليافعى: مرآة الجنان، جـ٤، ص ٩٤.
والفاسى: مصدر سابق، جـ٣، ص ١٠٨.
والسخاوى: التحفة اللطيفة، جـ١، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق والجزء، ص ٢٠٥.

(٣) ابن بطوطة: رحلته، جـ١، ص ١١٩.

(٤) نفس المصدر السابق والجزء، ص ٩٨.

أما الحقيقة الخامسة والأخيرة: شكل المجاورون المصريون جزءًا من الهيكل الاجتماعى لمجتمع الحرمين الشريفين، وأنشأ ذوو اليسار منهم عددًا من الأربطة لتكون سكنًا للمجاورين، مما يدل على مدى التأثير الكبير الذى نتج عن ظاهرة الجوار فى الحرمين الشريفين فى النواحى الدينية والثقافية والاجتماعية التى شملها البحث.

* * *

مصادر البحث

الأدفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن تغلب ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

١ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد.

تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦ .

ابن بطوطة: (محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):

٢ ـ الرحلة (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) القاهرة ١٩٣٤ .

ابن جبير: (محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م):

٣ ـ الرحلة (رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك) بيروت ١٩٨١ .

الجزرى: (شمس الدين أبى الخير محمد بن محمد ت ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م):

٤ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء.

نشر ج. برجستراسر، القاهرة ١٩٣٢ .

ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):

٥ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨ .

شمس الدين الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م):

٦ ـ تاريخ الإسلام وفيات المشاهير والأعلام.

تحقيق د. بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط ـ د. صالح مهدى عباس الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨ .

٧ ـ تذكرة الحفاظ.

الطبعة الثانية ـ حيدر آباد ١٣٣٤هـ.

٨ ـ سير أعلام النبلاء.

تحقيق د. بشار عواد معروف وآخرين، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤، ١٩٨٥م.

٩ ـ العبر فى خبر من غبر.

تحقيق أبى هاجر محمد السعيد، بيروت، بدون تاريخ.

١٠ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار.

تحقيق محمد سيد جاد الحق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٧.

ابن رجب: (أبو الفرج عبد الرحمن البغدادى ٧٣٦ ـ ٧٩٥هـ/ ١٣٢٥ ـ ١٣٩٣م):

١١ـ الذيل على طبقات الحنابلة.

وقف على طبعة محمد حامد الفقى، القاهرة ١٩٥٣.

سبط بن الجوزى: (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م):

١٢ـ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان.

الطبعة الأولى ـ حيدر آباد ١٩٥١م.

السبكى: (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م):

١٣ـ طبقات الشافعية الكبرى.

الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٠٦.

السخاوى: (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م):

١٤ـ التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة.

القاهرة ١٩٧٩، ١٩٨٠م.

السيوطى: (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

١٥ـ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة.

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٧.

أبو شامة: (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م):

١٦ـ الذيل على الروضتين، تراجم رجال القرنين السادس والسابع.

نشره السيد عزت العطار الحسينى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧.

الصفدى: (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ/ ١٣٣٢م):

١٧ـ الوافى بالوفيات.

شتوتجارت ١٩٨٨، فيسبادن ١٩٨٣.

ابن ظهيرة: (جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين ـ من علماء القرن ٩هـ/ ١٥م):

١٨ـ الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف.

الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٣٨.

العماد الحنبلى: (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩هـ/ ١٧٠١م):

١٩ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب.

بيرت ١٩٦٦.

الفاسى: (تقى الدين محمد بن أحمد ٧٧٥ ـ ٨٣٢هـ/ ١٣٧٤ ـ ١٤٢٩م):

٢٠ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. مكة المكرمة ١٩٥٦م.

٢١ـ العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين.

تحقيق فؤاد سيد، القاهرة ١٩٦٠، ١٩٦٢، ١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٧.

ابن فرحون: (برهان الدين إبراهيم بن على ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦ ـ ١٣٩٧م):

٢٢ ـ الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب.

تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور. القاهرة، بدون تاريخ.

ابن كثير: (عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧١م):

٢٣ ـ البداية والنهاية فى التاريخ. القاهرة، بدون تاريخ.

المقريزى: (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م):

٢٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك.

تحقيق. محمد مصطفى زيادة. القاهرة ١٩٣٤.

٢٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٧.

المنذرى: (زكى الدين أبو محمد عبد العظيم ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٩م):

٢٦ـ التكملة لوفيات النقلة.

تحقيق د. بشار عواد معروف. الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٨.

ابن النجار: (الشيخ محمد بن محمود ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م):

٢٧ـ الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، مكة المكرمة ١٩٥٦.

اليافعى: (أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمنى المكى ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م):

٢٨ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة مايعتبر من حوادث الزمان.

الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٠.

مراجع البحث

أحمد حنفى نصار القوصى:

١ ـ مع التصوّف الإسلامى، معارج ونماذج، القاهرة ١٩٨٢.

سليمان عبد الغنى مالكى:

٢ ـ بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد، الرياض ١٩٨٢.

* * *

الرعاية الصحية
فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى
(٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

الحضارة العربية على مر عصورها التاريخية حافلة بكثير من الأمثلة الدالة على مدى ما وصل إليه أبناء هذه الحضارة من رُقِىٍّ وتقدم وازدهار فى كل مجال ومكان، فى أنحاء العالم العربى والإسلامى. والدارس للتراث العربى تستوقفه كثير من الحقائق الدالة على هذا. ولعله من بين الدلائل المهمة على مدى رُقى هذه الحضارة هو الاهتمام بالشئون الصحية للأفراد، وتوفير الرعاية الصحية لهم، عن طريق النهوض بالطب والأطباء، وإعداد المنشآت الطبية وتزويدها بكل ما يكفل لها الاستمرار فى أداء وظيفتها، فضلاً عن توفير كل أسباب الرعاية الصحية فى مجال المأكل والمشرب والملبس والمسكن، والوقاية من الأمراض المعدية، وتخليص المدن من المخلفات الضارة بالصحة العامة. وهذا ما سوف تقدمه لنا هذه الدراسة السريعة عن الرعاية الصحية فى مكة المكرمة فى عصر من أزهى عصور التاريخ الإسلامى، ألا وهو العصر المملوكى، الذى امتد من منتصف القرن السابع الهجرى - الثالث عشر للميلاد، وضم رقعة فسيحة من الأرض العربية ممثلة فى مصر، وفلسطين، والأردن، وسورية، ولبنان، والحجاز، وأجزاء من آسيا الصغرى.

وفى بداية حديثنا عن الرعاية الصحية كواحدة من أوجه العناية التى شملت مجتمع مكة المكرمة فى العصر المملوكى، يجب الإشارة إلى أن العرب اشتهروا من قديم الزمان بمعرفتهم بالطب ومداواة المرضى، يظهر ذلك واضحًا أيام الرسول ﷺ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «احتف برجل من الأنصار يوم أُحُد من أصحاب النبى ﷺ، فدعا له النبى طبيبين كانا بالمدينة، فقال: عَالِجَاه. فقالا: يا رسولَ الله إنا كنا نُعالج ونحتال فى الجاهلية فلما جاء الإسلام فما هو إلا التوكل. فقال: عالجاه، فإن الذى أَنْزَلَ الدَّاءَ أنزل

له الدواء، ثم جَعَلَ فيه شفاءً. فعالجاه فَبَرِئَ». وإذا كان العرب فى الجاهلية أدركوا ما للطب من أهمية، فإنه بظهور الإسلام ازدادت هذه الأهمية، وأدرك المسلمون أن العقل السليم فى الجسم السليم، وأن المسلم لا يستطيع أن ينهض بواجباته كاملة تجاه الله سبحانه وتعالى، وتجاه المجتمع، وتجاه نفسه إلا إذا كان سليمًا مُعَافَى البدن، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «ما أَنْزَلَ اللهُ داءً إلا وأَنْزَلَ له دواءً». «يا أيها الناس، تَدَاوَوْا فإن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء».

وفى العصر المملوكى كان الطب قد تقدم، وأدرك المعاصرون أنه علم نظرى وعملى، وأباحت الشريعة تعلمه لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية الشريفة. وأصبح لايمارس الطب إلا كل من هو عارف بتركيب البدن ومزاج الأعضاء، والأمراض الحادثة، وأسبابها وأعراضها وعلاماتها. والأدوية النافعة فيها، والاعتياض عمَّا لم يوجد منها، والوجه فى استخراجها، وطريق مداواتها، ومن لم يكن كذلك فليس من حقه مداواةَ المريض، ولا يجوز له الإقدام على علاج يُخاطر فيه، ففى حديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَبَّبَ ولم يُعْلَمْ منه طب قبل ذلك فهو ضَامِن»[1]. وكان المعاصرون لهذه الفترة يحتاطون من أن يمارس الطب من ليس له دراية به، لذلك جعلوا لجماعة الأطباء فى كل مدينة رئيسًا لهم، كذلك اشترط على الطبيب إذا دخل على المريض أن يسأله عن سبب مرضه، وعمَّا يجد من الألم، ثم يرتب له نظاماً من العلاج من الأشربة وغيرها من العقاقير، ويكتب لأهل المريض نسخةمن تقريره عن حالته يُشهد عليها من حضر معه عند المريض، وإذا كان من الغد حضر وفحص المريض، ونظر إلى قارورته، وسأل المريض هل تناقص به المرض أم لا، ثم يرتب له ما ينبغى على حسب مقتضى الحال. ويكتب تقريره ويسلم نسخة منه إلى أهل المريض، ويفعل ذلك فى اليوم الثالث والرابع، وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإن بَرِئَ المريض كان ذلك من سعد الطبيب، وإن مات حضر أهله عند رئيس الأطباء وعرضوا عليه النسخ التى كتبها لهم الطبيب فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب قال: هذا قُضى بفروغ أجله. وإن

---

(١) ابن الأخوة «محمد بن محمد بن أحمد القرشى»: معالم القربة فى أحكام الحسبة، عنى بنقله وتصحيحه روبن ليوى، مكتبة المتنبى، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص ١٦٥، ١٦٦.

رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذى قتله لسوء صناعته وتفريطه. فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد، حتى لايتعاطى الطبَّ من ليس من أهله. ولا يتهاون الطبيب فى شىء منه[1].

كذلك كان المحتسب فى مكة المكرمة وفى غيرها من المدن الإسلامية يأخذ على الأطباء عهد أبقراط، ويحلفهم الاَّ يعطوا احداً دواءً «مُضِراً»، ولا يركبوا له سمًّا، ولا يذكروا للنساء الدواء الذى يُسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المريض، وألاَّ يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار. ولا يتعرضون لما يُنكر عليهم فيه[2]. وينبغى للطبيب ان يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال، والتى يستخدمها فى كثير من الحالات: عند معالجة الأسنان، والطحال، والبواسير، والأنف، والرحم، وغيرها من الآلات المشهورة فى ذلك العصر[3].

أمَّا أطباء العظام، وهم الذين عُرفوا باسم المُجبِّرين، فقد اشترط عليهم الاَّ يتصدى احدهم للعلاج مرضى العظام والكسور إلاَّ إذا كان يعلم عدد عظام الآدمى، وصورة كل عظم منها، وشكله وقدره، حتى إذا انكسر منها شىء أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته التى كان عليها، ويمتحنهم المحتسب على ذلك[4]. أما أطباء الجراحة وهم الذين عُرفوا باسم «الجرائحيين» فكان يُشترط فيهم معرفة أنواع الجراحات، والتشريح، وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب. وأن يكون لدى كل واحد منهم «دست المباضع، فيه مباضع مدورات الرأس، والمؤربات، والحربات، وفأس الجبهة، ومنشار القطع، ومخرقة الأذن، وورد السلع، ومرهمدان المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم»[5].

يُضاف إلى هذا أن كتب المعاصرين كما حددت واجبات الطبيب، وضرورة حلفه اليمين، نصحته دائمًا ـ وحتى لا يصيبه نوع من الغرور من كثرة ما يتم على يديه من حالات الشفاء ـ أن يؤمن باستمرار أن طِبَّهُ لايرد قضاءً ولا قدرًا، وأنه إنما يفعل ما يفعل

(١) المصدر السابق، ص ١٦٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

امتثالا لأمر الشرع، وأن الله تعالى أنزل الداء والدواء. وأن الأمور كلها تسير وفق مقادير قدرها الله تعالى[١]. ومع هذا فقد كان للطبيب الحرية التامة فى العمل والتجريب واستنباط الأساليب للعلاج. وكانت التجارب تُدَوَّنُ فى كتب خاصة، يقرؤها جمهور من الأطباء، وكان لبعض الأطباء أنواع من العلاج هى من مبتكرات قرائحهم وفوق الهمة العظيمة والتدبير الحسن والعناية التامة براحة المرضى، فقد كان لهم من حُسْن الخلق وطول الأناة والتسامح مع المرضى الشىء الكثير، وقد أوصلهم سمو الخُلق وبَسْطَة العلم إلى أعلى الدرجات[٢].

وينبغى أن نشير إلى أن صناعة التطبيب قد شهدت ازدهاراً واضحاً فى العصر العباسى، ذلك أن الخليفة العباسى المقتدر بالله جعفر بن المعتضد الذى تولى الخلافة سنة ٢٩٥ هجرية عُرِفَ عنه أنه أول من نظم هذه الصناعة، وقيدها بنظام خاص، حرصاً على مصلحة الجمهور، ففرض على من يريد معاناة التطبيب تأدية امتحان للحصول على إجازة تخوله هذا الحق بين الناس، وصار النظام بعد ذلك: متى أتم الطالب دروسه يتقدم إلى رئيس الأطباء فى بلده، ويطلب إجازته لمعاناة صناعة التطبيب. وكان الطالب يتقدم إليه برسالة فى الفن الذى يريد الحصول على الإجازة فى معاناته، وهذه الرسالة أشبه بما يُسمى اليوم أُطروحة، وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء المتقدمين أو المعاصرين، يكون قد أجاد دراستها فيمتحنه فيها، ويسأله فى كل ما يتعلق بما فيها من الفن، فإذا أحسن الإجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة[٣].

وإذا كان العصر العباسى قد شهد تنظيم مهنة الطب بالشكل الذى ذكرناه، فإن العصر العباسى كذلك شهد قيام أول بيمارستان فى مكة المكرمة كذلك، إذ تشير بعض المصادر المعاصرة إلى هذا البيمارستان، وهو الذى بناه الخليفة العباسى المنتصر بالله «٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م» بالجانب الشمالى من المسجد الحرام[٤] ضمن ما بناه من مساجد ورباطات وبيمارستانات ومدارس فى بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامى

(١) السبكى «تاج الدين عبد الوهاب»: معيد النعم ومبيد النقم، بيروت ١٩٨٣م، ص ١٣٣.
(٢) د. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ببروت ١٩٨١م، ص ٣٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٢، ٤٣.
(٤) النهروالى «قطب الدين ت ٩٨٨هـ»: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، طبع ليبسيك ١٨٧٥م، ص ٢٠٢.

مدة خلافته[١] وقد وقفه على مرضى المسلمين عامة ـ أى من سكان مكة المكرمة والقادمين إليها والمجاورين بها سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م. واستمر هذا البيمارستان قائماً، وإن كانت قد أُجريت فيه كثير من الإصلاحات والترميمات على يد أمير مكة الشريف حسن بن عجلان، وكذلك بعض الإضافات والتوسعة، وظل قائماً بحى «أجياد» حتى ولى الأمير عبد الله الفيصل وزارة الصحة بالمملكة، فأمر بإقامة مستشفى بمدينة الطائف عوضاً عنه، وأزيل هذا البيمارستان، ومكانه الآن عمارة سمو الأمير مشعل بن عبد العزيز، وبها فندق خوقير الذى بأجياد أمام باب الملك عبد العزيز[٢].

والبيمارستان كلمة فارسية من مقطعين: «بيمار» بمعنى مريض، و «ستان» بمعنى مكان أو دار، أى مكان معالجة المرضى، أى المستشفى. ثم اختصرت كلمة بيمارستان فى الاستعمال فصارت مارستان، كما ذكرها الجوهرى فى صحاحه. وكان البيمارستان هذا ـ ومن أول عهده ـ كواحد من المستشفيات العامة، تعالج فيه جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية «ورمدية» وعقلية وغيرها[٣] وقد كان هذا البيمارستان موقوفاً لمداواة مرضى المسلمين الفقراء والمساكين والمنقطعين، على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وأمراضهم، ينتفعون بالإقامة والسكنى فيه، لا يزعجهم أحد، ولا يخرجهم، بل يستمرون إلى أن يحصل لهم الشفاء والعافية، فيخرجون باختيارهم. كما كان مقسماً إلى قسمين: أحدهما خاص بالرجال، والآخر خاص بالنساء. كما كان يتكون من طابقين، تم تخصيص واحد منهما للرجال والآخر للنساء[٤] وكل قسم كان مقسمًا إلى قاعات قاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة «أمراض العيون» وقاعة للتجبير، وكانت قاعة الأمراض الباطنية مقسمة هى الأخرى إلى أقسام صغيرة تبعاً لاختلاف الأمراض، فمنها قسم للمحمومين، وهم المصابون بالحمى، وقسم للممرورين، وهم مرضى الجنون السبعى، وقسم للمبرودين أى المتخومين، وقسم لمن به إسهال[٥].

(١) السيوطى «جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ»: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ص ٤٦٠.

(٢) ابن فهد «النجم عمر ت ٨٨٥هـ». اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق د. عبد الكريم على باز، مكة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ قا، جـ ٤، ص ٣٢ ـ ٤٦.

(٣) د. أحمد عيسى: نفسه، ص ٤.

(٤) الفاسى «تقى الدين محمد بن أحمد بن على ت ٨٣٢هـ»: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ١، ص ٥٣٨.

(٥) ابن أبى أصيبعة « موفق الدين أبو العباس أحمد ت ٦٦٨»: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، القاهرة، ١٨٨٢م، جـ١، ص ٢٥٤ ـ ٣١٠. وجـ٢، ص ٢٤٢ ـ ٢٦٠.

وهكذا، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان ما بين طبيب وثلاثة حسب اتساع القسم وعدد المرضى، ولكل قسم رئيس، فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجرائحيين، ورئيس للكحالين(١).

وأمام قلة المعلومات عن الخدمات التى كانت تؤدى للمرضى به، والتى كان يصرف عليها من ريع الوقف المحبوس على هذا البيمارستان يمكن القول استنادا على ما جاء فى المصادر المعاصرة عن كثير من البيمارستانات الأخرى فى عصر سلاطين المماليك: إن أهم هذه الخدمات توفير الأسِرَّةِ والفُرُش اللازمة للمرضى، وتوفير الأدوية والعقاقير على اختلاف أنواعها وتوفير الغذاء المناسب لكل مريض حسب حالته الصحية، فضلا عن توفير الإضاءة، وترتيب الفراشين والقومة الذين يتولون أعمال النظافة، وغسل ملابس المرضى، والقيام بمختلف مصالحهم التى يحتاجون إليها(٢). أما عن توفير الماء العذب لشرب المرضى وإعداد الطعام لهم منه فقد وردت إشارة لدى الفاسى مؤرخ مكة الشهير يقوله فيها: إن شريف مكة الأمير حسن بن عجلان عندما قام سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م بعمارة هذا البيمارستان «وزاد فيه على ما كان عليه أولا إيوانين: أحدهما فى جهة الشامية، والأخرى فى جهة الغربية، وأحدث فيه صهريجاً ورواقاً فوق الإيوانين اللذين أحدثهما، وفوق الإيوان الشرقى الذى كان فيه من قبل، وجدد هو عمارته. . . . وأدخل فيه البئر التى كانت يستقى منها للميضأة الصرغتمشية، ووقف جميع ما بناه وما يستحق منافعه فى الموضع المذكور. . . . على الضعفاء والمجانين، ووقف عليه منافع الدار المعروفة بدار الإمارة عند باب بنى شيبة. . . .(٣)».

وترجع أهمية هذا النص الذى أورده الفاسى إلى أنه يلقى ضوءاً على دور المسئولين فى مكة المكرمة فى مجال الرعاية الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك، وبخاصة ما يتعلق بأمور الصحة العامة، فبرغم أن الرعاية الصحية تبدو من خلال ما ذكرته المصادر المعاصرة وكأنها من أعمال الخير والقُرْبَى والزلفى إلى الله سبحانه وتعالى، ولذا يتم الوقف عليها ـ فإنه لايفوتنا أن نشير إلى أن القائم بهذا العمل ـ وهو أمير مكة ـ هو

(١) المصدر السابق، نفسه، جـ ٢، ص ١٥٥.

(٢) ابن حبيب «الحسن بن عمر»: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه: تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م، جـ١، ص ٣٠٤.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٥٣٨.

نائب السلطان المملوكي، وأن مسألة الوقف على مصالح البيمارستان هي من قبيل ضمان استمرار الصرف على هذا البيمارستان من ريع الوقف، لذا يمكن أن نَعُدَّ هذا الوقف بمثابة رصد إيراد معين من أجل الصرف على هذه المنشأة الصحية المهمة، وتدعيمًا لدورها في خدمة المجتمع، وبما يضمن استمرارها في أداء وظيفتها، سواء في حياة الواقف، أو بعد مماته.

وعلى الرغم من أنه لم تصل إلينا معلومات كافية عن هذا البيمارستان، فإن المصادر التي تحدثت عنه أشارت إليه على أنه شيء مألوف كغيره في هذا العصر، وهذا ما يجعلنا نؤكد على أنه لم يختلف عن غيره من البيمارستانات في العصر المملوكي، والتي انتشرت في كل أنحاء سلطنة المماليك في مصر والشام والحجاز وغيرها، وأنه لايقل عمًّا تعرفه المستشفيات الحديثة من ضروب النظافة والخدمة فيه، فكان إذا دخله مريض تُنْزَعُ ثيابه، ويُودع ما معه من المال أو الأشياء الثمينة عند أمين البيمارستان، وتُقَدَّمُ له ثياب خاصة بالبيمارستان. وكان المرضى يتناولون الأدوية والأغذية مجاناً. ويظل المريض فيه حتى يتم شفاؤه، فيؤذن له بمغادرة البيمارستان. بعد أن ترد إليه ثيابه ونقوده وما كان قد أودعه عند أمين البيمارستان[1].

كذلك من المرجح أنه رُوعي في هذا البيمارستان ما كان يراعى في غيره من البيمارستانات في العصر المملوكي من بعض الأنظمة، والتي تعد من أسس الرعاية الاجتماعية الحديثة، من ذلك ما يشترط من ضرورة تحضير الأدوية في أوانها، وتخزينها لحين الحاجة إليها، على أن يُصرف لكل مريض ما يحتاج إله فقط بدون زيادة أو نقصان، حيث جرت العداة أن يكون بكل بيمارستان خزانة كاملة للشراب، ولا نستبعد أن يكون المسئولون قد راعوا حالة الجو في مكة المكرمة في فصل الصيف بوجه خاص، فيتم صرف مراوح من الخوص ليستخدمها القادرون من المرضى في التخفيف من حرارة الصيف، كذلك ربما حرصوا على أن يكون هناك ما يغطى به غذاء المرضى لمنع تلوثه، وأن يتناول كل مريض غذاءه من غير مشاركة مع مريض آخر زيادة في الحيطة، واتباعًا لأساليب صحية أصبحت بمرور الزمن من التقاليد الصحية المرعية[2].

---

(١) ابن حبيب: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٩٨.
(٢) المصدر السابق: نفسه جـ١، ص ٣٠٤.

ومن الوظائف التى كانت البيمارستان فى أشد الحاجة إليها، ولا يمكن لأى بيمارستان الاستغناء عنها ما يماثل وظيفة الصيدلى والممرض فى العصر الحديث، حيث جرت العادة فى كل بيمارستان أن يتم تخصيص رجلين اشترط فيهما الأمانة والديانة، يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير، ويكون مسئولاً عن صرف الأدوية حسب تعليمات الطبيب المعالج، فيسلمها للرجل الثانى لتوزيعها على المرضى، ويمكن أن يتأكد أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له، وعليه كذلك الإشراف على المطبخ، وتوصيل الطعام إلى المرضى، كُلٌّ حسبما وُصف له[١]. وقد أشارت كتب الفقهاء المعاصرين إلى ضرورة قيام المحتسب بالتفتيش عليهم وعلى الأدوية والعقاقير أسبوعيًا، وأن يخوفهم الإهمال أو الخطأ أو النسيان، لما فى ذلك من ضرر بالغ بالمريض[٢].

كذلك لم توضح لنا المصادر المعاصرة التى تحدثت عن هذا البيمارستان أمثال الفاسى، والشيخ قطب الدين النهروالى، والنجم عمر بن فهد كيفية قيام الأطباء ببعض مهامهم فى هذا البيمارستان، وهل كانوا يتكونون ـ كغيرهم فى البيمارستانات الأخرى ـ من ثلاث فئات: «الطبائعيين»، وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية. و «الجرائحيين»، وهم الذين يقومون بالعمليات الجراحية. و «الكحالين»، وهم المختصون بأمراض العيون[٣]. وأنهم عندما يأتى أحد المرضى إلى البيمارستان كانوا يفعلون مثلما هو الحال فى معظم البيمارستانات من توقيع الكشف الطبى على المريض مجتمعين أو متناوبين، وأن يصفوا لكل مريض ما يحتاج إليه من علاج وغذاء[٤]، إلا أننا نرجح أن يكون كل ذلك قد كان عُرْفًا مألوفًا، وأشارت إليه أهم المصادر التى تحدثت عن الطب والأطباء فى ذلك العصر، وبحيث ترك من اهتم بالتأريخ لهذا البيمارستان أو الحديث عنه ذلك، باعتباره شيئًا معروفًا للجميع، فقد أشار ابن أبى أُصيبعة إلى أن تشاور الطبيب «الكحال» مع «الطبائعى» وهو طبيب الأمراض الباطنية ـ

---

(١) المصدر السابق نفسه، جـ١ ص ٣٠٥، د. محمد محمد أمين: «الأوقاف والحياة الأجتماعية فى مصر» القاهرة ١٩٨٠، ص ١٦٦.

(٢) الشيزرى «عبد الرحمن بن نصر ت ٥٨٩هـ»: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، نشر السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٤٦، ص ٥٧، ٥٨.

(٣) د. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر السلطان الغورى، رسالة دكتوراه فى جامعة القاهرة، ١٩٥٦م، تحقيق رقم ٦٥٤.

(٤) ابن حبيب: نفسه، جـ١، ص ٣٠٥، د. محمد أمين: نفسه، ص ١٦٧.

كان أمرًا مألوفًا وشائعًا، بل وضرورياً فى كثير من الأحيان، حيث تتضاعف «الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجرى بينهما فى الكلام فى الأمراض ومداواتها، وما كانا يصفان للمرضى[١].

وقد كان لهذا البيمارستان المستنصرى بمكة المكرمة ـ وكأى بيمارستان آخر ـ ناظرٌ يتولى تنظيم العمل فيه، أحياناً يكون أحد كبار علماء مكة المكرمة أو المجاورين بها، وأحياناً أمير مكة المكرمة نفسه، مثل السيد بركات، وكان من مهام ناظر البيمارستان أو متولى مشيخة البيمارستان أن يحافظ على الأوقاف المحبوسة على البيمارستان، ويعمرها، ويجددها، ويستثمرها حتى يستمر ريعها الذى ينفق منه فى صالح البيمارستان، وعلى القائمين عليه من الأطباء وغيرهم[٢]، مثال ذلك ما فى ترجمة الشيخ محمد بن سالم بن محمد البلدى شيخ المارستان«ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م» فى عهد السلطان الأشرف برسباى من أنه «حصل من فتوح البيمارستان مالاً أرسله إلى الشام، واشترى به أشياء أوقفها على البيمارستان، وكان يخدم الفقهاء ويبالغ فى ذلك، ويمشى فى الإصلاح بين الناس»[٣]. ومن المرجح أنه كان يصدر تعليماته المشددة بضرورة تواجد بعض الأطباء ليلاً بالبيمارستان فى الأيام العادية، وربما تواجدهم جميعاً فى المواسم التى تزدحم فيها مكة المكرمة بالقادمين عليها لأداء فريضتى العمرة والحج، وبخاصة فى شهور رجب ورمضان وذى القعدة وذى الحجة.

كذلك ينبغى أن نشير إلى أن الرعاية الصحية التى قدمها هذا البيمارستان لم تكن مقصورة على ما هو معروف فى عصرنا الحالى باسم العيادة الداخلية، أى المرضى النازلين به، بل شمل كذلك العيادة الخارجية، أى تقديم خدماته للمترددين عليه من المرضى للكشف عليهم وأخذ الدواء المناسب. فقد جاء فى وثيقة الوقف الخاصة بهذا البيمارستان ـ والتى تخص السيد حسن بن عجلان أمير مكة، والذى أعاد عمارته ـ أنه أوقفه «على الفقراء والمساكين والمنقطعين المرضى والمجاورين، يأوون فيه ويأوون إليه علواً وسفلاً، وينتفعون بالإقامة فيه والارتفاق به، انتفاع مثلهم بمثله، لايزعج أحد منهم، ولا

(١) ابن أبى أصيبعة: نفسه، جـ٢، ص ٢٤٣.

(٢) السخاوى «شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ»: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ طبع جـ١، ص ١٦٧، ١٧٠.

(٣) المصدر السابق: نفسه، جـ٧، ص ٢٤٨، ابن فهد: نفسه، جـ٤، ص ١٠٥.

يخرج منه بغير اختياره إلاّ بعد حصول العافية له والشفاء. فإذا خلا البيمارستان المذكور منهم، وصار خالياً كان الانتفاع به للفقراء والمساكين من المسلمين، فإذا عاد الضعفاء والطرحاء عاد الانتفاع لهم كما كان يجرى الحال فى ذلك كذلك وجودًا وعدمًا.....»[١].

والحقيقة أن هذا النص قد يوحى أيضاً أن الخدمات الطبية لهذا البيمارستان قد امتدت خارج جدران البيمارستان، وهذا هو الأرجح فى نظرنا، ومن غير المستبعد كذلك فى ذلك العصر، فقد كانت هذه هى طبيعة كثير من البيمارستانات فى العصر المملوكى، والتى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر البيمارستان المنصورى بالقاهرة، الذى أنشأه السلطان المنصور قلاوون «ت ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠» فى ١٨ ربيع الأول ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م وكملت عمارته فى ربيع الآخر سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م. والذى لم تقتصر الرعاية الصحية التى يقدمها للمرضى المترددين عليه والنازلين به، بل نص السلطان قلاوون فى كتابِ وَقْفِه على أن تمتد الرعاية الصحية إلى الفقراء فى بيوتهم، فيصرف لهم ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة والأغذية أيضاً، بشرط عدم التضييق على الموجودين بالبيمارستان نفسه[٢]، فإذا وضعنا فى اعتبارنا صغر حجم مكة المكرمة فى ذلك العصر بشكل لايمكن مقارنته بما هى عليه فى عصرنا الحالى لأمكننا أن نرجح هذه الفكرة، فقد ذكر الفاسى مؤرخ مكة المكرمة فى ذلك العصر أن عرض مكة ـ كما قاسه هو بنفسه ـ قد بلغ ٤٤٧٢ ذراعاً (١,٢٨) ميلا: فى حين نبلغ طولها كذلك ٤٦٩٢ ذراعاً (١,٣٤ ميلا) وعلى هذا الأساس تكون مساحة مكة المكرمة ١,٧١ ميلا مربعاً، أى حوالى ٢,٠٦٠ كيلُو متراً مربعاً، وهى مساحة صغيرة جدًا، ولا يتعذر معها امتداد الخدمات الطبية إلى كل أنحائها[٣].

وربما تم الصرف من البيمارستان على الأقل للفقراء فى بيوتهم أو أماكن إقامتهم لما يحتاجون إليه من أدوية وأشربة وأغذية، إذ كان مثل هذا العمل يُعد من أعمال القُرْبَى إلى الله تعالى، وطلب المثوبة والأجر، فضلاً عن أن المرضى بوجه عام هم أحوج الناس إلى الرعاية الاجتماعية، ولاسيما فى عصور لم تعرف ما تعرفه اليوم من إجازات مرضية

---

(١) النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، جـ٣، ص ٥٠٧، ٥٠٨.
(٢) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ١٥٧ ـ ١٦٧.
(٣) الفاسى: شفاء الغرام، جـ١ ص ٥٩.

بأجر أو نصف أجر. وربما رَاعَى الواقف ذلك فى وقفه وخصص بعض ريع الوقف على البيمارستان لكسوة الخارجين من البيمارستان بعد أن تماثلوا للشفاء، وبما أنهم كانوا فيما يعرف حالياً فى مرحلة النقاهة من المرض فهم أحوج إلى مثل هذه المساعدات وغيرها والتى عُرفت فى كثير من البيمارستانات الإسلامية[١]. ومن الخدمات الاجتماعية التى أداها البيمارستان فى مكة المكرمة فى ذلك العصر، والتى تتصل بالمرضى، تجهيز ودفن من يموت من مرضى البيمارستان، حتى ولو مات بين أهله، وقد جرت العادة بذلك[٢].

كما جرت العادة أن يلحق بكل بيمارستان خزانة للشراب أو صيدلية، أو ما اصطُلح على تسميتة «الشرابخاناة» والتى يقول عنها القلقشندى «ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م»: «هذه الخزانة هى المعبر عنها فى زماننا بالشرأبخاناه، وهى الحواصل المعبر عنها بالبيوت، وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه، كالشراب خاناه، والطشت خاناه، والطبل خاناه، ونحوها. وخاناه لفظ فارسى معناه البيت، فتأويلها بيت الشراب. . إلخ. غير أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة الفُرس فى ذلك. وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة، والمربيات الفاخرة، وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التى لاتوجد إلا فيها. وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصينى من الزبادى والبرانى والأزيار ما لايقدر عليه.

وقد كان لكل مارستان خزانة للشراب كاملة، ولكل شراب خانه «مهتار» يعرف بمهتار الشربخاناه (ومهتار بالفارسية بمعنى رئيس) متسلم لحواصلها، له مكانة عالية، وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة، يطلق على كل واحد منهم شراب دار[٣] وتجدر الإشارة إلى أن هذا البيمارستان كان محل رعاية وعناية سلاطين المماليك أيضاً. من ذلك ما يشير إليه الفاسى مؤرخ مكة الشهير، من أن السلطان الأشرف شعبان بن حسين «فعل بالحرمين مآثر حسنة. . . . . . وأقام البيمارستان المستنصرى بمكة. ووقف على ذلك وقفا كافياً» وذلك من خلال ما قام به من أعمال فى مكة المكرمة فى الفترة ما بين ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، ٧٧٦هـ ١٣٧٤م[٤].

---

(١) ابن حبيب: نفسه، جـ١، ص ٣٠٧، ٣٠٨.
(٢) المصدر السابق: نفسه، جـ١، ص ٣٠٨.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء القاهرة ١٩٣٦، جـ٤، ص ١٠.
(٤) الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ٥، ص ١٠.

واضح من هذا النص أن هذا السلطان أعاد بناء هذا البيمارستان، أو أعاد عمارته، على العكس مما يذكره أحد المؤرخين المحدثين فى حديثه عن هذا السلطان نفسه فى أطروحته للماجستير من أنه «أنشأ أيضاً مارستاناً جديداً فى مكة المكرمة، وقد خصص له كل ما يحتاج إليه من أطباء وممرضين وممرضات وأدوية وغذاء ونفقات جارية. . . .»(١). أما الوثيقة التى قام بتحقيقها ـ وهى الوثيقة رقم ٤٩ محكمة ـ فتقول: «إن السلطان استجد بيمارستانا بمكة». وقد كان يرسل فى كل عام إلى الحجاز ثمن دقيق وقمح ليطحن ويخبز فى كل يوم، وليفرق على الضعفاء من الرجال والنساء والرمداء والزمناء المقيمين بالمارستان من ريع أوقافه المبرورة، على حد قول الوثيقة(٢). وفى عهد السلطان الأشرف برسباى تمت عمارة هذا البيمارستان أيضاً فى سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م، إذ يذكر النجم عمر بن فهد ذلك فيقول: «وفيها عَمَّرَ احمد بن جمعة جانباً من البيمارستان ووسع فيه، وفتح له باباً آخر غير باب الحرم من زقاق «آلو» لإخراج الموتى منه، وإدخال الحطب والماء العذب منه إلى البيمارستان»(٣). وقد سبق أن أشرنا إلى موقع هذا الزقاق، وأنه بأجياد أمام باب الملك عبد العزيز.

وقد وجد هذا البيمارستان فى الأوقاف المحبوسة عليه خير دعامة للقيام بمهمته فى تقديم الرعاية الصحية لأهل مكة المكرمة والوافدين عليها والمجاورين بها. نذكر من هذه الأوقاف على سبيل المثال لا الحصر أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين، والتى يمكن إيضاحها على النحو التالى:

خصصت وثيقةُ الوقف مبلغاً وقدره خَمْسَةَ عشر ألفاً ومائتا درهم ثمن دقيق وقمح، جملته ستة وسبعون أردباً وطحنه، أى حوالى ٩١٢٠ كيلو جراماً، فإن انخفض السعر اشترى ببقية المبلغ دقيقاً أو قمحاً، وقد حددت الوثيقة كيفية توزيع هذا الدقيق والقمح، حيث ذكرت أنه يجرى توزيع نصف أردب يوميًا، أى حوالى ٦٠ كيلو جراماً، من الثالث عشر من ذى الحجة حتى آخر المحرم من السنة التالية، أى منذ فراغ الحجاج من حجهم حتى رحيلهم عن مكة غالباً عائدين إلى بلادهم، وهى ثمانية وأربعون يوماً،

---

(١) راشد القحطانى: «أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسن عَلَى الحرمين الشريفين، رسالة ماجستير بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٥ - ١٤٠٦هـ، لم تنشر بعد، ص ١٣٥.

(٢) د. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات فى الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٤٤٣.

(٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، جـ٤، ص ٤٦.

فيكون ما يتم توزيعه أربعةً وعشرين أردباً، أى حوالى ٢٨٨٠ كيلو جراماً، وفى حالة انخفاض السعر فإنه يضاف ما يفيض من ثمن الشراء هذا إلى هذه المدة ليستفيد منها أكبر عدد من فقراء الحجاج. أما بقية أيام العام ـ وهى ثلثمائة واثنا عشر يوماً ـ فيصرف الناظر فى كل يوم سدس أردب، أى حوالى ٢٠ كيلو جراماً من القمح إلى الطباخ ليطبخه ويفرقه على الضعفاء من الرجال والنساء والرمداء وذوى الحالات المزمنة المقيمين بالمارستان. كما تم تخصيص سبعمائة وعشرين درهماً سنوياً، بواقع ستين درهماً شهرياً لشراء سمن يطبخ به الدقيق(١).

كذلك حددت الوثيقة مرتبات العاملين فى هذا البيمارستان، فكان حكيم البيمارستان ـ والذى ربما كان رئيس الأطباء فى الوقت نفسه ـ يتقاضى راتباً سنوياً حددته الوثيقة بمبلغ ألفين وأربعمائة درهم سنوياً، أى بواقع مائتى درهم شهرياً، وذلك نظير قيامه بمداواة المرضى، وما جرت به العادة فى مثل ذلك. ومن الملاحظ أنه لم يكلف بأى عمل إدارى كما يحدث فى كثير من الأحيان فى عصرنا الحالى، إذ ينشغل كبار الأطباء بأعمال إدارية تحول بينهم وبين التفرغ التام لمهمتهم الأصلية وهى علاج المرضى(٢).

كما حددت الوثيقة وظيفة الشاهدين، وهما من أصحاب الأعمال الإدارية، يحضران إلى البيمارستان كل يوم ليصرفا ما يحتاج إليه المرضى، ويضبطا ما به من الحواصل على عادة أمثالهما، على أن يتقاضى كل واحد منهما خمسمائة درهم سنوياً أى حوالى أربعين درهماً شهريا، وهو مبلغ بلا شك معقول جداً بمقاييس ذلك العصر(٣).

كذلك نصت الوثيقة على ضرورة تواجد موظف مسئول عن المستودعات فى البيمارستان، وهو «أمين الحواصل»، وقد كانت مهمته أن يفرق الطعام والشراب على المرضى فى البيمارستان كل يوم على عادة أمثاله. وقد حددت الوثيقة راتبه السنوى بمبلغ ثلثمائة وستين درهماً سنوياً، أى بواقع ثلاثين درهماً شهرياً، وهو مبلغ معقول أيضاً بمقاييس ذلك العصر(٤).

كما نصت الوثيقة على ضرورة وجود سقّاء يسقى الماء العذب للمرضى فى ذلك البيمارستان، وحددت أجره بمبلغ سبعمائة وستين درهماً، وقسمت هذا الأجر قسمين،

---

(١) راشد القحطانى: نفسه، ص ١٣٦.
(٢) المرجع السابق: نفسه، ص ١٣٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٩.
(٤) المرجع السابق ص ١٣٨، ١٣٩.

قسم عن المدة التى يتزاحم فيها المرضى على المارستان، وهى موسم الحج، وقد حددت له فيها ثلثمائة درهم، أما المدة الثانية ـ وهى بقية السنة ـ فكان أجره عنها أربعمائة وستين درهماً[١].

ولم تغفل الوثيقة عن ضرورة تواجد بواب للمارستان لينظم عملية الدخول إليه، ويمنع أرباب الفساد أو التهم من الالتجاء إليه أو الاختفاء فيه إنْ تُرِكَ وشأنه. ولهذا نصت الوثيقة على أن يُصْرَفَ للبواب فى كل سنه ثلثمائة وستون درهماً سنوياً، بواقع ثلاثين درهماً شهريا، وأشارت إلى عمله بقولها: على أن يتولى «ما جرت به عادة أمثاله من غلق باب المارستان وفتحه وصونه عن أرباب التهم والفساد»[٢]. وكان من حقه المبيت بقرب باب البيمارستان، بحيث يسمع من يطرقه عليه فى أى وقت جاء من أوقات الليل أو النهار، وربما كان يغلق باب البيمارستان بعد صلاة العشاء ولا يفتحه لأحد إلا عند الضرورة القصوى، ويفتحه فى الصباح الباكر لدخول المترددين على البيمارستان من طالبى العلاج[٣].

كذلك كان من حق المحتسب أن يشرف على عمل القومة من بوابين وفراشين وغيرهم، ويأمرهم بكنس البيمارستان ونظافته فى كل يوم من الأوساخ، ومسح حيطانه، وغسل قناديله وإشعالها بالوقود فى كل ليلة، ويلزم البواب بغلق الأبواب وصيانتها من الصبيان، أو مما يعمل فيه صناعة، أو يبيع سلعة، أو ينشد فيه ضالة، أو يجلس فيه لحديث من أحاديث الدنيا[٤].

وكأى بيمارستان آخر فى أنحاء العالم الإسلامى، وجدت فى بيمارستان مكة المكرمة مجموعه من الممرضين والممرضات للقيام بخدمة المرضى من الرجال والنساء، «كل جنس يخدم أبناء جنسه»، فالرجال يقدمون خدماتهم للرجال، والنساء يقدمن خدماتهن للنساء، وقد بلغ عدد هؤلاء الممرضين والممرضات ثمانية، وقد حددت وثيقة وقف السلطان الأشرف شعبان بن حسين عمل كل واحد منهم، فذكرت أنه يتحتم «على كل واحد من الفراشين من الرجال والنساء أن يتعاهد مَنْ بإزائه من المرضى يقوم بمصالحهم فى مشربهم وأكلهم وغسل ما يحصل منهم من الأوساخ وتنظيفهم على العادة»[٥]. ومن هذه

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٧، ١٣٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٨.
(٣) السبكي: معيد النعم، ص ١٤٤.
(٤) ابن الأخوة: نفسه، ص ١٧٢.
(٥) راشد القحطاني: نفسه، ص ١٣٧.

الناحية نستطيع القول: إن البيمارستان فى مكة فى ذلك العصر لم يقل عن أى مستشفى حديث فى عصرنا الحالى، من حيث الرعاية بالمرضى وشئونهم، ونظافتهم، وتوفير كل أسباب الراحة لهم.

يضاف إلى هذا أن وثيقة الوقف الخاصة بالسلطان الأشرف شعبان حددت مرتبات هؤلاء المرضين والممرضات بمبلغ الفى وثمانمائة درهم سنوياً تُصرف إليهم بالسوية، أى أن نصيب الرجل مثل نصيب المرأة «يصرف إليهم بالسوية نصفه للرجال ونصفه الآخر للنسوة»، ولم تفرق بينهم، فى حين أن بعض الدول فى القرن العشرين الميلادى ما زالت تجعل أجر المرأة أقل من أجر الرجل الذى يؤدى نفس العمل، أو بعبارة أخرى أن البيمارستانات فى الإسلام قد تميزت عن كثير من كبار المستشفيات فى العالم الغربى الآن فى مساواتها بين أجر الرجل والمرأة مادامنا يؤديان نفس العمل وبنفس الكفاءة والمقدرة، وعليهما مسئوليات متساوية فى كل الوجوه[١]. أما عن النفقات الخاصة بهذا البيمارستان، فقد حددت نفس الوثيقة احتياجات البيمارستان السنوية من الحطب، وزيت الزيتون اللازم للإضاءة، وثمن اللحم للمرضى، والسكر والأشربة والأدوية وغيرها على النحو التالى:

(أ) ثلثمائة درهم ثمن حطب تطبخ به الحريرة «الدقيق والسمن» وغيرها مما يحتاج إله المرضى بالبيمارستان المذكور فى كل يوم.

(ب) اربعمائة وخمسين درهماً فى ثمن زيت الزيتون وما يقوم مقامه ليضاء به على الضعفاء بالمارستان طوال السنة.

(جـ) أربعة آلاف درهم تُصرف فى ثمن لحم برسم المرضى فى طول المدة، وفى ثمن سكر وأشربه، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى كل سنة.

(د) ويصرف للناظر على البيمارستان مبلغ خمسمائة درهم للإنفاق على ما تقتضيه مصلحة المرضى، وما يحتاجون إليه من سكر وأدوية وأشربة وغير ذلك، وما يحتاج إليه البيمارستان من عبى ومكانس وأسطال نحاس وغيرها، حيث يستمر نفعه على الدوام والاستمرار. أى أنه بلغت نفقات البيمارستان فيما يُصرف على المرضى، ولشراء احتياجاتهم من طعام وشراب وأدوية وأوانى وخلافه ٥٢٥٠ درهما سنوياً، وهو مبلغ

---

(١) المرجع السابق، نفسه، ص ١٣٧.

بلاشك كبير بمقاييس ذلك العصر[(١)]. فإذا أضفنا إلى هذه النفقات ما كان يتم صرفه من مرتبات سبقت الإشارة إليها، فإن الإجمالى سيكون كبيرًا جدًا، وهو يعكس لنا فى الوقت نفسه مدى العناية التى أولاها سلاطين المماليك لمثل هذه المنشأة، كواحدة من المنشآت الاجتماعية المهمة فى ذلك العصر.

كما تنبغى الإشارة إلى أنه لم تصل إلينا أية معلومات عمَّا عُرِف فى بعض بيمارستانات العالم الإسلامى من علاج المرضى بالموسيقى والترفيه عنهم فى البيمارستان المستنصرى بمكة المكرمة، ولعل هذا راجع إلى طبيعة مكة الدينية، فقد كانت الأجواق الموسيقية فى بيمارستان فارس تروح عن المرضى وتسليهم عن آلامهم. وكذلك الأمر فى البيمارستان النورى فى دمشق، فقد كانوا يجلبون القُصَّاص والمطربين إلى قاعات المرضى فيه، بل رتب المؤذنون ينشدون على المآذن قبل الفجر بساعتين، بأنغام شجية تخفيفاً لعناء السهر على المرضى المؤرَّقين[(٢)]. غير أننا لا نستبعد أن يكون المؤذنون فى الحرم المكى الشريف قد قاموا بهذا الدور نظرًا لملاصقة البيمارستان المذكور للحرم المكى، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد وردت إشارة عند مؤرخ مكة النجم عمر بن فهد ترجح ذلك، حيث يذكر أنه فى عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م «وفيها منع الأمير تغرى برمش التركمانى المؤذنين من المدائح النبوية وغيرها فى المنائر ليلاً، ومنع المداحين من إنشاد ذلك فى الأوقات التى جرت عادة الناس بكثرة الاجتماع فيها بالمسجد الحرام.....»[(٣)].

كما تنبغى الإشارة كذلك إلى أن بلاد الحجاز بوجه عام ومكة المكرمة بوجه خاص فى العصر المملوكى قد عرفت البيمارستانات المحمولة أو المنتقلة، وهى التى يمكن حملها أو نقلها من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها، وهى التى كانت تكثر بها فى أوقات مواسم العمرة والحج من كل سنة، وبخاصة تلك التى كانت تأتى إليها مع مواكب الحج من كثير من أنحاء العالم الإسلامى، وبخاصة فى ركب الحاج المصرى، الذى جرت العادة أن يصحبه «كَحَّال» وطبيب عارف، وجرائحى حاذق، ويصرف لكل منهم ما يحتاج إليه من الجوامك، وما عساه أن يكون بصحبة كل شخص منهم من الأدوية والعقاقير والأشربة والمعاجين والمسهلات والأكحال والإشبانات

---

(١) المرجع السابق، نفسه، ص ١٣٧.
(٢) د. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص ٥.
(٣) النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى، جـ٣، ص ٥٢٧.

والمراهم والأدهان والمفردات والعطريات والدرياقات والسفوفات وغيرها مما يحتاج إليه المرضى[(١)]. ولم تكن الخدمات التى تقدمها مثل هذه البيمارستانات مقصورة على وفد الحجيج، بل قدمت خدماتها لكل من تقدم إليها، فيعاينه أحد الأطباء الموجودين، ويصف له ما يناسبه من الدواء ويصرفه له من «الشرابخاناه» أو «الدواء خاناه» المحمولين صحبة هذا البيمارستان المتنقل، وبذلك كان هذا النوع من البيمارستانات يقدم خدماته لأهل مكة وغيرهم من طرائف المسلمين المتواجدين بها فى موسم الحج والعمرة [(٢)].

كما يجب أن نشير إلى أن الخدمات الطبية قد شهدت ازدهارًا كبيرا فى مكة المكرمة طوال ذلك العصر المملوكى، لابسبب ما أداه البيمارستان من خدمات، وما رُصد له من مبالغ ضخمة لمساعدته على الاستمرار فى أداء هذه الخدمات فحسب، بل كذلك نتيجة لكثرة الأطباء، وبخاصة من كبار مشاهير أطباء العالم الإسلامى الذى توافدوا إلى مكة وجاوروا فيها زمناً طويلاً، أو فضلوا الإقامة بها، والذين حملوا معهم الكثير من مؤلفاتهم، وساهموا فى إثراء الحاية الطبية بمعالجاتهم مثال ذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة من أن: محمد بن أحمد بن إسحاق الأبرقوهى ثم الشيرازى غياث الدين «ت ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م» نزيل مكة «كان بارعاً فى الطب انتفع به أهل مكة كثيراً لاسيما أنه كان يحسن إليهم بما يحتاجون إليه من أدوية وغيرها. مات فى بيته لضعفه وعجزه عن الحركة... ودفن بالمعلاة... وكانت له تصانيف كثيرة فى الطب، كما كانت له مكانة عند شاه شجاع صاحب فارس، وهو الذى تولى له عمارة الرباط بمكة، قدم مكة فقطنها نحو ثلاثين سنة، على طَّريقة حسنة من كَفٍّ الأذى والإقبال على الخير والعبادة، وجرت على يديه لأهل مكة كثير من أعمال الخير»[(٣)].

ومنهم أيضاً محمد بن عبد الله الخضرى «ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م». المصرى نزيل مكة المكرمة، الطبيب، كان يمارس الطب والكيمياء. وأقام بمكة مجاورًا بها زمناً طويلاً، «ثم دخل اليمن، فأقبل عليه سلطانها الناصر، فيقال إن طبيب الناصر دَسَّ عليه مَنْ سَمَّهُ

(١) الجزيري «عبد القادر بن محمد بن عبد القادر إبراهيم الأنصاري»: الدرر الفرائد المنتظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر، دار اليمامة الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جـ١، ص ٣٤٢.
(٢) المقريزي «تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ»: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعرفة بالخطط المقريزية، طبع بولاق ١٢٧٠هـ، جـ٢، ص ٢٠٠.
(٣) ابن حجر «شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ»: إنباء الغمر بأنباء العمر: تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٢، جـ٢، ص ١٢٠.

فهَلَكَ. وكان هو أُتِهُمَ بأنه دَسّ على الرئيس شهاب الدين بن المحلى التاجر سُماً فقتله فى آخر سنة ست وثمانمائه»[(١)].

ومنهم أيضاً الشيخ محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمسى، أبو عبد الله الكردى ثم المقدسى، نزيل مكة، ويعرف بابن الكردية، وُلد فى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ببلاد الأكراد، وقدم مع أبويه وهو ابن سبع إلى بيت المقدس، وسمع بها، وأقام ببيت المقدس عشرين سنة، فمات أبوه هناك، فقدم بأمه إلى مكة فقطنها، وسمع بها على كبار المشايخ، أخذ عنه مؤرخ مكة النجم بن فهد، وذكره فى معجمه وذيله وقال: إنه كان مباركاً، منجمعاً عن الناس، له معرفة كبيرة بالطب. مات بها فى ظهر يوم الثلاثاء عشرين شعبان سنه ثلاث وأربعين وثمانمائه، وصُلى عليه بعد العصر، ودفن بالمعلاة، رحمه الله تعالى[(٢)].

ومنهم الشيخ محمد بن على محمد بن على الشمسى القدسى نزيل مكة، وشيخ رباط ربيع والبيمارستان المستنصرى بها «ت ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م».

ومنهم كذلك «ابن صغير، الكمال بن الشمس بن العلاء القاهرى الحنبلى الطبيب، حفيد رئيس الأطباء، ويعرف كسَلَفِه بابن صغير. حفظ القرآن، والعمدة، وألفية النحو، والموجز فى الطب، واللمحة العفيفة فى الأسباب والعلاقات فى الطب، وفصول أبقراط، ومقدمة المعرفة له، وتشريح الأعضاء، والزبد فى الطب.... حج غير مرة، وجاور.. وعَدَا عليه فَتَى فقتلَ زوجتة واختلس بعض متاعه، فكان ذلك ابتداء ضعفه، بل كفّ ولم ينقطع عن مباشرة نوبته وغيرها إلى أن اشتد به الأمر وأُقعد، وهو مع ذلك صابر محتسب، يكثر من التلاوة جداً، حتى مات فى صفر سنة إحدى وتسعين وثمانمائه»[(٣)].

ومنهم «أبو عثمان الحكيم المغربى، أظنه سعيد بن عبد الله بن محمد الزواوى الملياني. جاور بمكة سنين كثيرة، حتى مات بها فى أوائل المائه الثامنة.. وكان أبو عثمان هذا عارفاً بالطب، لأن أهل مكة نقلوا عنه حكايات عجيبة دلت على كثرة معرفته بالطب، منها أن شخصاً شكا إليه ضعفًا بامرأة، فأمره أن يأتيه بإراقتها، فأتاه بإراقة

---

(١) المصدر السابق: نفسه، ص ٣٤٠، ٣٤١.
(٢) د. أحمد عيسى: معجم الأطباء، القاهرة، ١٩٤٢م، ص ٣٧٣.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، جـ٩، ص ٢٢ - ١٥١.

نفسه، لأن المرأة امتنعت من الإراقة، فقال له عثمان: ما هذه إراقه المرأة وصاحب هذه الإراقة لا يعيش إلا ثلاثة أيام، فكان الأمر كذلك، وهذا معنى الحكاية»(١).

ومنهم «أبو بكر بن إبراهيم بن محمد الهيصمى الجلاد اليمنى الطبيب. مات بمكة فى صبح يوم الثلاثاء ١٨ المحرم سنة أربع وخمسين وثمانمائه، أرخه ابن فهد...»(٢).

ومنهم «أمير شريف العجمى المكى العلاَّمة فى الطب، قَدِمَ دمشق سنه ٩٤٩م متوجهاً إلى الروم، وأضافه الشيخ أبو الفتح السبرى، قال ابن طولون: وبلغنى أنه شرح رسالة الوجود للسيد الشريف، وشرح الفصوص للمحيوى بن العربى رحمه الله تعالى. توفى سنة ٩٥١هـ»(٣).

ومما يدل على ازدهار الخدمات الطبية والرعاية الصحية وتقدم الطب فى مكة فى ذلك العصر ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة، من نجاح أخطر العمليات الجراحية التى كانت تجرى فى ذلك العصر، وهى التى تعرف فى عصرنا باسم «الكتراكت»، أى فصد العين مما بها من ماء، وهى التى عرفت فى ذلك العصر بعملية «قدح العين»، فكثيراً ما تشير المصادر المعاصرة إلى أن فلاناً من الناس قد «أضر بآخرة ثم قدح له فأبصر»(٤). أو «كان حصل له ضرر قبل وفاته بنحو عشر سنين، ثم عولج فأبصر، بحيث أنه صار يكتب أسطرًا قليلة(٥). وغير ذلك من إشارات تفيد نجاح مثل هذه العمليات الخطرة بنسبة كبيرة جداً، على الرغم مما نعرفه عن ضآلة نسبه نجاح مثل هذه العمليات فى عصرنا الحالى، بالرغم مما نحن فيه من تقدم علمى هائل وأجهزة لامثيل لها، مقارنة بهذا العصر المملوكى.

كما ينبغى أن نشير إلى ما كان للبيمارستان من أهمية خاصة فى مجال النهوض بعلم الطب والعمل على ترقيته، ذلك أن خدمات البيمارستان لم تقتصر على معالجة المرضى، بل تعدى الأمر إلى تدريس الطب والاهتمام به، ويشبه هذا إلى حد كبير ما يتم فى كبار المستشفيات فى العصر الحديث من إلحاق كليه الطب بالمستشفيات، حيث تتوافر الدراسة

(١) الفاسي: العقد الثمين، جـ٨، ص ٧١.
(٢) د. أحمد عيسي: المرجع السابق، ص ٧٩.
(٣) المرجع السابق: نفسه، ص ١٤٩.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، جـ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٢. وابن فهد «النجم عمر»: معجم الشيوخ، تحقيق محمد الزاهي، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٦٩.

العملية وممارسة الطب تحت يد الأساتذة، وإن كانت لم ترد الإشارة إلى ذلك فى وثيقة الوقت السابقة لكنه من المعروف أن بيمارستانات ذلك العصر كان يتم فيها تعيين شيخ للاشتغال بالطب، يكون من بين أطباء البيمارستان ويُخَصَّصُ له مكان محدد لإلقاء دروس الطب على طلبته[١].

كذلك يمكننا القول بأن الاهتمام بالرعاية الصحية ـ كواحدة من الخدمات الاجتماعية المهمة ـ كانت واضحة فى عصر سلاطين المماليك، وانعكس هذا الاهتمام فيما يصدره ديوان الإنشاء فى القاهرة من وصايا عند تقليد أحد الأطباء رئيساً أو مقدماً للأطباء، فإذا كان طبيباً طبائعيًا يذكر فى الوصية: «وليتجنب الدواء ما أمكنه المعالجة بالغذاء.. وإذا اضطر إلى وصف دواء صالح للعلة نظر إلى ما فيه من المنافاة، وإن قلت ـ يقصد العلة ـ وتحليل لإصلاحه، يوصف مصلح مع الاحتراز فى وصف المقادير، والكميات، والكيفيات فى الاستعمال، والأوقات، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء، ولا ما يستغرب من غذاء» أى لايأمر باستعمال دواء غير مضمون النتائج، وكذلك لايصف غذاء إلا إذا كان متأكدًا أنه يناسب تماماً حالة المريض. وإذا كان طبيبًا كحّالا «طبيب أمراض العيون» جاء فى وصيته: «وها أنت قد أفردت بتسليم أشرف الحواس الخمس ـ أى تخصصه فى علاج أهم الحواس وهى العيون ـ والجوارح التى لولاها لم تعرف حقيقة ما يدرك بالسمع والذوق والشم واللمس، هى العين التى تغرى بالعين.. أرفق بها، فإنها من طبقات، منها الزجاجية، ومنها شبيه الزجاج، ولايقدم عليها بمداواة حتى يعرف حقيقة المرض. والسبب الذى نال به ذلك الجوهر العرض، ثم دَاوِها مداواةً تجلو بها القذى عن البصر...». وإذا كانت الوصية لطبيب جرائحى جاء بها: «واجبر كل كسر، وشد كل أسر، وخط كل فتق، وقوِّ كل رتق، وداوِ الكُلوم، ودار باللطف... واعمل على حفظ الأعصاب، وشد الأعضاء، حتى يمكن معالجة المصاب... وليحذر قطع شريان، ما قُطع إلا نزف دم صاحبه حتى يموت، وليعد معه ما يكون لإخراج النصال...»[٢].

(١) ابن حبيب: نفسه، جـ١، د. محمد محمد أمين: الأوقاف، ص ١٧٠.
(٢) ابن تفضل الله العمري «شهاب الدين أحمد بن يحيي ت ٧٤٩هـ»: التعريف بالمصطلح الشريف، طبع مصر ١٣١٢هـ، ص ١٣٨، وابن حبيب: نفسه، جـ١، ص ٣٠٩، ٣١٠، د. محمد محمد أمين: نفسه، ص ١٧٧.

كما ينبغى أن نذكر أن هذا البيمارستان نال من الرعاية والعناية طوال العصر المملوكى ما كفل له المداومة على تقديم خدماته حتى تم هدفه، كما سبق أن أسلفنا. إذ تشير بعض المصادر أنه فى عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م أيام السلطان قانصوه الغورى، أمر هذا السلطان خاير بك المعمار «أن يتوجه إلى مكة من البحر الملح ويأخذ صحبته جماعة من البنائين والنجارين والمهندسين، وقد أمر السلطان ببناء مارستان ورباط فى مكة، وأن يبلط الحَرَم، ويجرى عين ماء بأزان إلى مكة، فخرج فى أثناء هذا الشهر < رجب > وتوجه إلى الطور. . .»[١]. هذا النص يوحى فعلا بأن السلطان الغورى بنى بيمارستاناً جديدًا فى مكة، لكن مؤرخ مكة الشيخ قطب الدين النهروالى، والذى عاش فى مكة فى الفترة من ٩٣٠هـ إلى سنة وفاته عام ٩٨٨هـ أو ٩٩٠هـ، أى بعد العصر المملوكى مباشرة، يذكر أن المدرسة الحنفية التى أنشأها سلطان الهند السلطان أحمد شاه الكشروانى بجانب البيمارستان، كانت بيده هي والبيمارستان المستنصرى، وكذلك أوقاف السلطان المؤيد شيخ المحمودى، كما يذكر أن هذا البيمارستان منذ أن أنشأه الخليفة المستنصر بالله العباسى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م «استمر إلى أن خرب ودثر، فاستبدل مرارًا آخر ذلك فى أواخر دولة المرحوم المقدس السلطان سليمان خان بن سليم خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان». أى أنه تمت عمارته عدة مرات آخرها فى الدوله العثمانية. مما يؤكد أن ماقام به السلطان الغورى فى أواخر أيام دولة سلاطين المماليك كان بمثابة إعادة بناء أو عمارة لهذا البيمارستان القديم[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن مثل هذه الجهود إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرص على تقديم كل الرعاية الممكنة لأهل الحرم المكى الشريف والقادمين عليهم طوال العصر المملوكى. وأخيرًا يجب أن نشير إلى أن الرعاية الصحية لأهل مكة المكرمة طوال العصر المملوكى امتدت لتشمل الأطفال الصغار كذلك، وبخاصة الصبية فى المكاتب أو الكتاتيب، حيث حددت كتب الفقهاء المعاصرين أن من ضمن عمل مؤدب الأطفال الإشراف على النواحى الصحية لهم، حيث تحتم عليه أن يفتش على نظافة أظافرهم،

---

(١) ابن إياس «محمد بن أحمد الحنفي ت ٩٣٠هـ»: بدائع الزهور في وقائع الدهور، نشر جمعية المستشرقين الألمانية بمصر، ١٩٦٠ - ١٩٧٢، جـ٤، ص ١٦٣ - ٢٤١، وجـ٥، ص ٩٣.

(٢) النَهَرَوالي: الأعلام، ص ٢٠٢، ٣٥١ - ٣٥٣، د. أحمد عيسي تاريخ البيمارستانات، ص ٢٦١ - ٢٦٥.

ونظافة ملابسهم وشعورهم وأجسادهم بصفة دورية، وفى حالة ما إذا اشتكى أحد منهم من مرض أو تعب وتأكد المؤدب من صِدْقِهِ فكان عليه أن يصرفه، إما باستدعاء والده أو إرساله إلى منزله، حتى يتمكن أولياؤه من علاجه أو إسعافه، وفى نفس الوقت يتم عزله فى منزله إلى حين شفائه، كنوع من الإجراءات الوقائية لباقى الأطفال، ولمنع انتشار أية عدوى إذا ما أُصيب أحدهم بمرض معدٍ[١].. وهذا يؤكد أن العزل الصحى كان معروفاً كإجراء وقائى لمنع انتشار كثير من الأمراض المعدية.

كذلك امتدت الرعاية الصحية لتشمل كل ما يُباع ويُشتَرى فى الأسواق من مأكولات ومشروبات، وأشرف عليها المحتسب إشرافاً دقيقاً، وكانت تعليماته صريحة وواضحة وصارمة فى الوقت نفسه لكل من له صِلة بطعام الناس وشرابهم، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة، فقد نصت كتب المعاصرين على ضرورة أن يُلْزِمَ الطحَّانين بغربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ويمنعهم ألا يطحنوا على أثر نقر الحجر، فإنه يضر بالناس إذا تُرِكَ مع الدقيق، مما قد يتسبب عنه بعض أمراض الحصوة المعروفة. وبالنسبه للفرانين والخبازين، فقد كان يأمرهم برفع سقائف أفرانهم، وأن يجعلوا فى سقوفها منافس واسعه للدخان، ويأمرهم بكنس بيت النار فى كل مرة يخبزون فيها، وغسل الأوعية التى يستخدمونها، وبخاصه المعاجن، وضرورة نتنظيفها، وإلاَّ يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه. ولا يعجن إلا ويكون عليه ثوب ضيق الكمين، ويكون مُلَثَّماً أيضاً، لأنه ربما عطس أو تكلم فيقطر شىء من بصاقه أو مخاطه فى العجين، وأن يحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط شىء منه فى العجين، وإذا عجن فى النهار فليكن عنده إنسان على يده مذبة يطرد عنه وعن العجين الذباب بها. كما تحتم عليه نشر أكسية العجين بعد نفضها وغسلها فى كل وقت[٢].

وأما الجزارون فيمنعهم المحتسب من الذبح على أبواب دكاكينهم، لأنهم بهذا يلوثون الطريق العام بالدم والروث، ومطالبتهم بضرورة الذبح فى المذبح المخصص لذلك، كما كان يلزمهم بضرورة غسل لحم الحيوان المذبوح من الخارج، وتطهير بطنه من الروث ومن

---

(١) ابن الحاج: «أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ت ٨٣٧هـ»: المدخل، مدخل إلي الشرع الشريف علي المذاهب، القاهرة ١٩٢٩م، جـ٢، ص ٣٢١.
(٢) ابن الأخوة: نفسه، ص ٨٩ - ٩٢.

الدم، وجميع أجزائه، وإذا فرغوا من بيع اللحوم، أمرهم أن ينشروا على قرمهم الملح ويغطوها خشية من هوام الأرض[(١)].

وبالنسبة للطباخين فقد كان المحتسب يأمرهم بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار، وغسل الأوعية التى يأكل فيها الناس بالماء النظيف والليف. أمَّا بائعو الأسماك فكان يأمرهم بغسل قفافهم وأطباقهم التى يحملون فيها السمك، وأن ينثروا فيها الملح المسحوق فى كل ليلة بعد الغسيل، وكذلك يفعلون بموازينهم، لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها وكثر وسخها[(٢)].

كما كان من واجب المحتسب فى مكة المكرمة فى ذلك العصر أن يشرف على نظافة سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقِرَب والدِّلاء، وهى الأدوات المستخدمة فى سقى الماء العذب للناس. أمَّا سُقاة الكيزان فيأمرهم بنظافة أزيارهم وتغطيتها، وافتقادها بالغسل بعد كل قليل من الوسخ المجتمع فيها، وأن يغسلوا الكيزان ويجلوها فى كل يوم، ويبخروها، فإنها تتغير من أفواه الناس ونكهتهم، ولتكن الكيزان عندهم معلقة ليضربها الهواء فتبرد، ويسقون كل أناس من كيزان تليق بهم. وأن يتخذوا للأزيار أغطية من خوص، ولا يسقى الواحد منهم أحدًا من كوز الزير، ولايدخل يده فى الزير وهى زفرة. ويجتهد فى نظافة حانوتة وبدنه وثوبه، وأن يتفقد المحتسب حوانيتهم على غفلة منهم ليلاً ونهارًا. فمن وجد عنده زيرًا مكشوفاً أو كيزانًا وسخة أَدَّبَهُ على ذلك، وغلق حانوته حتى يرتدع به غيره.

وأما أرباب الروايا والقرب والدلاء فيختار المحتسب عريفًا، وجلاً أمينًا ليراقبهم ويمنعهم من أن يستعملوا شيئاً من الآنية الحافظة للمياه، إلا من الجلود المدبوغة بالقَرَظ اليمانى، والتى قد استحكم دباغها، وطال مكثها. ومن اتخذ منهم قربة جديدة ألزمه المحتسب أن ينقل بها الماء إلى أحواض الطواجين ومعاجن الطين أياماً، ولا يبيعه للشرب أصلا، فإنه يكون متغير الطعم واللون والرائحة من أثر الدباغ والقطران، فإن زال التغير أذِنَ له المحتسب ببيعه للناس للشرب والاستعمال[(٣)].

(١) المصدر السابق: نفسه، ص ٩٣ - ٩٩.
(٢) المصدر السابق: نفسه، ص ١٠٦ - ١١٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

وشملت الرعاية الصحية فى ذلك العصر كل من يشتغل بغسل ملابس الناس وصقلها، إذ عَرفت مكة المكرمة ما نعرفه اليوم من المغاسل لغسل الثياب. إذ يذكر لنا أحد مشاهير مؤرخى مكة المعاصرين فى حديثه عن عام ٨٧٥/ ١٤٧٠م، وعن الدكاكين الموجودة بالمسعى، بأن هذه الدكاكين «كان يكتريها غسَّالُون يغسلون على أبوابها الثياب، ويخبطونها على أحجار يضعونها تحت أبواب الدكاكين إلى جانب الحائط . . .»[١].

وقد نصت كتب المعاصرين على أن المحتسب كان يشرف على «الغسالين لأقمشة الناس، وينهاهم عن غسل ثياب الناس بالماء المطبوخ فيه القلى والنورة والنطرون، ويسمى عندهم المقة، فإن ذلك يضر بملابس الناس، ويعرضها لتخريقها وتوليد القمل فيها، ولا يعصروا على خشب ولا بخشب، فمن فعل شيئاً من ذلك أدبه»[٢].

كذلك كان لهذه المهنة شروط خاصة، فقد كان للمحتسب أن يسأل هؤلاء الغسالين «عن طهارة الثوب المتنجس الذى جُهل مكان نجاسته كيف يطهرون فيما دون القلتين، فمن عرف ذلك أقره، ومن لم يعرفه أمره بالتعليم، فإن كثيراً من الغسالين إذا أُحضر إليهم ثوب متنجس وضَعَ ماءً فى الإناء وأورد الثوب عليه فينجس الماء القليل، إذ النجاسة واردة على تغير الماء ولم يتغير، وينجس كل شيء وُضع فى الماء، فيلزم ذلك بطلان صلاة الناس وهم لايعلمون، فإن العامة قد قرَّ فى أذهانهم أن الشيء إذا نقى من وسخه فقد طَهُرَ، وتركوا أصل الطهارة، وهو الماء الطهور، فيأمرهم المحتسب أن يضعوا الثوب المتنجس فى الإناء، ويكون الماء وارداً لأمور، وأن يكفى جرى الماء إذا لم تكن النجاسة عيناً، وأما إذا كانت النجاسة عيناً فلابد من إزالة الطعم، وأما اللون العسر والريح فيقول الشافعى رضى الله عنه: إنه يضر، أما إذا بقيا معاً اللون والريح ضرا على الصحيح . . .»[٣]. ومعنى هذا ضرورة الحرص على إزالة نجاسة الثياب عند غسلها، وإفاضة الماء فى محل النجاسة أو الوسخ، وأن يتقى كل واحد منهم الله سبحانه وتعالى فى عمله وفيما هو مُكَلَّف به، حرصاً على الصحة العامة ونظافة الثياب[٤]. بل إن الحرص على النظافة والصحة العامة شمل كذلك الدواب، فقد حتمت كتب الفقهاء

---

(١) ابن فهد: اتحاف الوري، جـ٤، ص ٥٢٩، ابن ظهيرة «جمال الدين جار الله محمد»: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، القاهرة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م ص ٣٤٨.

(٢) ابن الأخوة: نفسه، ص ٢٤١.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ص ٢٤١.

(٤) السبكي: نفسه، ص ١٣٨.

المعاصرين على سائس الدواب تنقية العليق لها، وتأدية الأمانة فيه، وتقديم الماء العذب النظيف لهذه الدواب عند شربها، مع ضرورة مراعاة تحميمها بين الحين والحين، وتمشيط شعرها، ورفع الأقذار عن جسدها[١].

كذلك شملت الرعاية الصحية الكثير من المنشآت الدينية والاجتماعية والثقافية فى مكة المكرمة فى ذلك العصر، من مساجد ورباطات وزوايا، ومدارس، وكتاتيب، وبيمارستانات، وغيرها مثال ذلك ما حدث عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م أيام السلطان الأشرف برسباى الذى أصدر مرسومًا بإلزام كل بواب على باب من أبواب المسجد الحرام بمكة المكرمة بملازمة باب الحرم والنوم عليه ليلاً ونهارًا، وألاَّ يغيب عنه إلا لضرورة، وأن يتعاهد البواب بابه بالكنس والرش والتنظيف، ومنع الكلاب والجوارى الحاملات الماء والجِمَال من الدخول فى المسجد الحرام، واستطراقه أو المرور فيه لغير حاجة، وجعل السلطان لكل بواب عشرة دنانير أشرفية معلوماً كل عام نظير قيامه بهذا العمل، تحمل إليه من أوقاف الحرمين صحبة المسفر على مودع الحكم[٢].

وبلغت عناية سلاطين المماليك بالحرم المكى ونظافته حدًا كبيرًا، إذ تشير وثيقة الأشرف شعبان بن حسين إلى مدى هذه العناية، ونظافة الحرم المكى وصيانته، ونظافة ما حوله باستمرار، فقد خصصت الوثيقه ثمانية من الفراشين يتناوبون على خدمة الحرم، وتنظيف أروقته وأسطحه من الأوساخ، وكنس أبواب الحرم وما حولها من الأوساخ لتكون نظيفة على الدوام، ويبدو أن المقصود من كنس أبواب الحرم هو مداخل الحرم أمام أبوابه، وقد حددت لهم الوثيقة مبلغ ألفين* وسبعمائة درهم نُقرة توزع عليهم بالسوية، أى أن راتب الواحد منهم كان ثلاثمائة درهم سنويًا، بواقع خمسة وعشرين درهمًا شهريًا. بل أكثر من هذا خصصت الوثيقة مبلغ ثلاثمائة درهم لثلاثه أشخاص يقومون بتنظيف الحرم المكى من الطريش والعقارب وسائر الهوام، وهم الذين عُرفوا باسم «صائدى الهوام والحشرات». وتم تخصيصهم لمراقبة نظافة الحرم المكى الشريف من هذه الحشرات الفتاكة، بالإضافة إلى أن الوثيقة عينت نَفَرَيْن يتوليان تنظيف ما بين الصفا والمروة من العظام والأوساخ، بحيث يكون المسعى نظيفاً بصفة مستمرة للساعين بينهما،

(١) المصدر السابق: نفسه، ص ١٤٤.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٣، ص ٦٤٥.

وقد خصصت الوثيقة لهما ألف درهم سنوياً، تُقسم بينهما بالسوية، أى بواقع خمسمائة درهم لكل واحد منها، وهو راتب كبير إذا ما قيس براتب فراش الحرم الذى كان ثلاثمائة درهم سنويا[١].

وكما حرص سلاطين المماليك على نظافة المسجد الحرام والمناطق المؤدية إليه، فإنهم حرصوا على أن يكون جو الكعبة صحياً تفوح منه روائح الطيب والبخور، فقد قررت نفس وثيقة وقف الأشرف شعبان أن يصرف لمن يقوم بتبخير الكعبة ستمائه درهم نقرة منها ما هو ثمن طيب وبخور لتطييب الكعبة المشرفة وأركانها، وتحليتها، وتبخير من يحضر للطواف من الطائفين ما جملته مائتان وأربعون درهم نقرة، وأجرة من يقوم بذلك ثلثمائة وستون درهم نقرة، وقد استثنت الوثيقة من ذلك أيام الحج من التطييب والتبخير، لما هو معروف من النهى عن استخدام الطيب للحجاج، حتى يكونوا جميعاً سواء، مجردين من زينة الدنيا وزخرفها أثناء القيام بشعائر هذه الفريضة المقدسة[٢].

كذلك كان من أهم واجبات المحتسب فى مكة المكرمة أن يأمر قومة المنشآت المختلفة بضرورة كنسها وتنظيفها فى كل يوم من الأوساخ، ونفض حُصرها وفرشها من الغبار، ومسح حيطانها، وغسل قناديلها حرصاً على النظافة العامة ومن يهمل منهم فى ذلك يقوم بتأديبه وفق السلطات المخولة له فى ذلك[٣].

ومن المعروف فى ذلك العصر أن كثيراً من المدن العربية والإسلامية ـ ومنها مكة المكرمة ـ لم تعرف ما نعرفه فى عصرنا الحالى من وسائل الصرف الصحى الحديث، لذا فقد وجدت جماعة من الناس كانت مهمتها كسح أسربة البيوت وتخليصها مما بها من فضلات، ومن المؤكد أنها لو تراكمت فإن ذلك سيؤدى حتماً إلى انتشار كثير من الأوبئة والأمراض، هذه الجماعة من الناس هى التى عرفت باسم «المشاعلية» حسب اصطلاح ذلك العصر، والتى كانت تخليص أسربة البيوت يعد واحداً من الأعمال التى قامت بها هذه الجماعة[٤]. وربما كان منهم كذلك جماعة «الزبالين». والذين قاموا بنقل القمامة أو الزبالة من المنازل، وتنظيف الشوارع مما بها من قمامة طوال ذلك العصر، وخضعوا

(١) راشد القحطانى: نفسه، ص ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.
(٢) المرجع السابق: نفسه، ص ١٢٨.
(٣) ابن الأخوة: نفسه، ص ١٧٢.
(٤) ابن فهد: نفسه، جـ٣، ص ٦٤٧.

كذلك لإشراف محتسب مكة المكرمة، الذى كان يأمرهم دائماً بإصلاح مزابلهم وتصحيحها، لأن كثيرا منهم يحملون فى مزابلهم هذه الأوساخ والنجاسة التى قد تصيب أثواب الناس فينجسونها - كذلك كان يأمرهم «أنهم إذا أرادوا مُشْتَرى خُبزٍ أو شيئاً من المأكولات أنهم لا يلمسونه بأيديهم وأيديهم وسخة، حتى يغسلوها غسلا جيداً. وأيضاً لا يُمَكَّنوا من مس أوانى السقائين إلا أن يغسلوا أيديهم من النجاسة» حرصاً على الصحة العامة ومصلحة الناس[1].

كما تجلت الرعاية الصحية فى الحَمَّامات العامة التى يقصدها الناس للاستحمام، حيث وُضِعَتْ لها شروطٌ خاصة بالنظافة والرعاية الصحية، فقد كان على المحتسب أن يأمر أصحاب هذه الحمامات - والتى بلغ مجموعها فى مكة المكرمة فى ذلك العصر حوالى عشرين حمامًا - بغسلها وكنسها، وتنظيفها بالماء الطاهر غير ماء الغسالة، وأن يفعلوا ذلك مراراً فى اليوم، وأن يدلكوا البلاط بالأشياء الخشنة، وأن يغسلوا فى كل يوم حوض النوبة من الأوساخ المجتمعة فيه، وكذلك الفساقى والقدور من الأوساخ المجتمعة من المجارى والعكر الراكد فى أسفلها فى كل شهر مرة، فضلاً عن أنه اتخذت عدة إجراءات لمنع انتشار بعض الأمراض المعدية فى مثل هذه المنشآت، وكان منها منع دخول الحمام لمجذوم أو أبرص، فضلا عن عدم استخدام الأمواس غير الجيدة، أو التى سبق استعمالها[2].

ومن المنشآت ذات المنفعة الصحية فى المقام الأول المطاهر أو المياضىء التى أوقفها سلاطين وأمراء المماليك وأهل الخير لكى تمد المصلين باحتياجاتهم من المياه اللازمة للوضوء والطهارة، وتم تزويد كل مطهرة منها ببئر عليها ساقية لجلب الماء وتوفيره باستمرار للمترددين عليها[3]. ولم تكن هذه المطاهر أو المياضىء مقصورة على الرجال فحسب، بل وجدت بعض المطاهر التى تم تخصيصها للنساء، مثل المطهرة التى عمرتها أم سليمان المتصوفة خلف مطهرة السلطان الأشرف شعبان بسوق الليل وخصصتها للنساء، وذلك فى عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م[4].

---

(١) ابن الأخوة: نفسه، ص ٢٤١.
(٢) المصدر السابق: نفسه، ص ١٥٤.
(٣) ابن فهد: نفسه، جـ٣، نص ٣٢٢، جـ٤، ص٣٢.
(٤) المصدر السابق: نفسه، جـ٣، ص ٣٩١.

ولكى تستمر المطهرة أو الميضأة فى أداء عملها فى خدمة أهل مكة والمترددين عليها، كان المنشىء لها غالباً ما يوقف عليها بعض الأوقاف، ويولى أحداً من يثق بهم من قضاة مكة النظر على تلك الأوقاف، وتنظيم الصرف من ريعها على المطهرة أو الميضأة. مثال ذلك مطهرة الأمير زين الدين بركة العثمانى، رأس نوبة النوب بالقاهرة، أنشأها وأنشأ ربعها ودكاكينها فى سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م بسوق العطارين، الذى يُقال له سوق النداء، عند باب بنى شيبة، والتى تولى النظر عليها وعلى أوقافها القاضى أبو الفضل النويرى، ولما توفى عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٥م أيام السلطان الأشرف برسباى تولى القاضى أبو البقاء ابن الضياء الحنفى النظر عليها، بالإضافة إلى نظر الحرم الشريف والحسبة بمكة[١].

كما تشير المصادر المعاصرة لتلك الفترة من تاريخ مكة المكرمة إلى مدى حرص السلطات الحاكمة وأهل مكة فى الوقت نفسه على تتبع الكلاب الضالة فى طرقات مكة وبواديها وقتلها أينما وجدت، وذلك لتطهير المدينة منها، وفى نفس الوقت كإجراء وقائى لمنع انتشار بعض الأمراض التى يمكن أن تنقلها مثل هذه الحيوانات، سواء لأبناء مكة، أم الحيوانات المختلفة، وبخاصة الجمال ودراب الحمل الأخرى[٢].

من هذا العرض يتضح لنا مدى الرعاية الصحية التى لقيها سكان مكة المكرمة طوال العصر المملوكى، والتى حظيت بها جميع فئات السكان من صغار وكبار، كما حظيت بها المنشآت الدينية والخيرية والإجتماعية والثقافية، مما يؤكد لنا أن هذا العصر قد بلغ الناس فيه من الرقى والتقدم درجة كبيرة فى العالم العربى والإسلامى فى الوقت الذى كانت فيه بلدان الغرب الأوربى تعيش غارقة فى ظلام العصور الوسطى.

* * *

---

(١) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٦٠٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٦٤٤.

وصف قاهرة القرن العاشر الهجرى
السادس عشر الميلادى
فى كتاب الرحالة مصطفى على[1]
حالات القاهرة من العادات الظاهرة

مَثَّلَ الفتح العثمانى لمصر مرحلة تحول فى تاريخها وفى شكل الحياة ومظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومما يُؤسف له أن مظاهر الحياة الاجتماعية وما أصابها من تغيُّر طبقاً للمتغيرات السياسية والعسكرية لم تكد تلقى أى اهتمام من مؤرخى تلك الفترة، وخاصة تلك الفترة المبكرة من العصر العثمانى فى مصر، ولولا ماكتبه الرحالة الأوربيون مثل كارستين نيبور[2] وغيره لظلت الفترة التى تسبق الحملة الفرنسية غير واضحة المعالم، وليس ذلك لانعدام المصادر التاريخية المعاصرة، فهى متعددة، فقد

---

(١) مصطفى على (٩٤٨ - ١٠٠٩هـ - ١٥٤١ - ١٦٠٠م) - رحالة وشاعر ومؤرخ تركى معروف، كتب فى موضوعات متعددة، وهو أكثر شهرة باسمه المختصر الذى يضعه على مؤلفاته وهو «على» . . وقد وضع كتابه عن رحلته إلى مصر، التى زارها مرتين: الأولى فى مطلع شبابه عام ٩٧٦هـ - ١٥٦٨م، وكانت تزيارة سريعة حيث كان يعمل كاتباً للسر عند (لالا مصطفى باشا) حيث صحبه معه إلى مصر وعاد مع سيده إلى استانبول.

أما الزيارة الثانية فكانت بعد ٢٧ عاماً، فقضى فى القاهرة قرابة العامين، إذ دخلها فى المحرم عام ١٠٠٨هـ - يوليو أغسطس ١٥٩٩م. وكتب خلالها هذا الكتاب باللغة التركية فى ٩٧ صفحة من القطع المتوسط. وقد حققه وترجمه من التركية إلى الإنجليزية الباحث التركى (أندريا تيتاز) بعنوان:

- Andreas Tietze: MUSTAFÁ ALI'S Deseription of Cairo of 1589 - Text. Translitration, Translation nots. Rlagder österreischen Akademie Wissenschaften Wien 1975.

وقد قمتُ بترجمة النص الإنجليزى إلى العربية، واضفت إليه التعليقات والحواشى، لما لهذا الكتاب من أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الاجتماعى لتلك الفترة. وهو يُعَدُّ للنشر إن شاء الله تعالى.

(٢) كارستين نيبور - رحلة إلى مصر ١٧٦١ - ١٧٦٢م - ترجمة د. مصطفى ماهر جـ١ . المطبعة العالمية - القاهرة ١٩٧٧م.

عاصر ابن إياس السنوات الأولى من العصر العثمانى، كما أرخ لتلك الفترة ابن أبى السرور البكرى، والبرلسى السعدى، ويوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل، وأحمد شلبى عبد الغنى، والجبرتى، وغيرهم.

وجدير بالذكر أنه قد ظهرت فى الفترة الأخيرة عدد كبير من المخطوطات المحققة التى تتحدث عن مصر فى عصر الدولة العثمانية، وهى تكاد تغطيها. ولكنها أكثر تناولاً للجوانب العسكرية، وصراعات البيوت المملوكية، والولاة العثمانيين، بدون إهتمام بالتقاليد والحياة الاجتماعية، أو تسجيل لمظاهرها ومتغيراتها(١).

ويوضح لنا ذلك مدى أهمية ماكتبه مصطفى على عن رحلته إلى القاهرة وسجل فيها ملاحظاته على الحياة الاجتماعية بمدينة القاهرة، وتسجيله للمتغيرات التى واكتب الفتح العثمانى لمصر على مدى الربع الأخير للقرن العاشر الهجرى وبداية القرن الحادى عشر، وهى الفترة المحصورة بين رحلته الأولى والثانية إلى القاهرة.

ويتميز ماكتبه الرحالة مصطفى على من وصف للقاهرة بالدقة والموضوعية وتفيض كتابته بالحياة والصدق، ونحس بأنه يضع يده على نبض الحياة، وأنه يعيش الجو الحقيقى لمصر وللعصر، وقد تيسر له التغلغل فى الحياة العامة فى مصر، بالإضافة إلى اتصاله بالحكام ورجال الدولة بحكم طبقته، مِمَّا ميزه عن المصادر الأوربية التى يجب أن ننظر إلى ماجاء بها بعين الحذر، إذ ان الأوضاع العامة فى مصر ـ وخاصة قبل الحملة الفرنسية ـ كانت تحول دون تغلغلهم فى الحياة المصرية ودراستها دراسة وافية(٢).

ومن أهم ما يلفت الانتباه فى وصف مصطفى على لعادات القاهرة هو قدْرته على رصد التغيرُّ الذى أصاب المجتمع المصرى على مدى قرابة الأربعين عاماً، فقد سجل الكثير من المتغيرات، ولا يفتأ يعقد المقارنات بين ما كان عند مجيئه فى الرحلة الأولى وما صارت إليه الأحوال فى رحلته الثانية للقاهرة، وهو ينص على ذلك صراحة، حيث

(١) راجع: احمد شلبى عبد الغنى الحنفى ـ أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ـ تحقيق ـ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ص ٦، مكتبه الخانجى ـ القاهرة ١٩٧٨م.

وأحمد الدمرداش كتخذا عزبان ـ مخطوطة الدرة المصانه فى أخبار الكنانة تحقيق د. دانيال كريسيليوس و د. عبد الوهاب بكر. . دار الزهراء القاهرة ١٩٩٢م.

(٢) توكيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدى ص ١٣٥ ـ ١٥٨، مطبعة النجوى ـ بيروت ١٩٦٩م.

يقول: «إن هناك عادات مفجعة شاهدتها بنفسى عندما زرتُ القاهرة عام ١٠٠٨هـ - ١٥٩٩م. ولم تكن هذه المساوئ قائمة وقت زيارتنا السابقة لمصر، ويبدو أن تلك العادات السيئة قد ابتدعها فى أول الأمر بعض السفلة من الجند السباهية، وسرعان ما تحولت إلى عادة شاعت بين الطبقات الدنيا»(١).

وهو يؤكد أن الجود والكرم قد تناقصا بشكل ملحوظ لدى عليه القوم فى القاهرة ما بين زيارته الأولى والثانية، وحل محلهما الجشع، وتزايدت الرشوة فهو يقول: «تميز أعيان القاهرة فى الزمن السابق بالشهامة والكرم الحاتمى عندما جئت إلى مصر فى رحلتى السابقة.... أما فى هذه الأيام - أى عندما حضر إلى القاهرة فى رحلته الثانية - فإنه عندما يقصد أحد متوسطى الحال زيارة واحد من عليه القوم فيجب أن يقدم إليه خمسة أو عشرة أقماع من السكر على الأقل، وقطعتين من ثياب فارسكور ذات الألوان المتعددة أو من الموسلين، أى بهدية لاتقل عن عشرين أو ثلاثين قطعة ذهبية، حتى يمكن أن يساله التوسط لقضاء حاجته، فقد تولى المناصب العليا الوصوليون ومحدثو النعمة(٢).

ثم يسجل التدهور الذى أصاب أحوال الجند ومظهرهم فهم لا يهتمون بارتداء الملابس الداخلية، ولا القمصان، بل إن أحوال الجاويشية فى مصر قد تدهورت، فهو يقول: «عندما قمت بزيارتى الأولى لمصر كان بها حوالى ٣٠٠ من الجاويشية ذوى المظهر المحترم، يرتدى أغلبهم سراويل من القطيفة، ويملك كل منهم قدراً من المال، على أنى فى زيارتى الحالية وجدت جاويشية الديوان فى حالة يرثى لها، فهم أشبه باللصوص فى مظهرهم، يرتدون القفاطين القديمة، ولاتجد منهم من يلبس السروايل الفضفاضة والقطيفة الزاهية الألوان(٣).

رؤيا مصطفى على للتقاليد الاجتماعية القاهرية:

تميز وصف مصطفى على للحياة القاهرية وتقاليدها الاجتماعية بالصدق والموضوعية والفهم العميق، فهو يضع يده على نبض الحياة، ويلمس حقائقها. وهو يسجل بصدق وموضوعية توافر أنواع الأطعمة، ورخص سعر الطيور، كالأوز والدجاج وصغار الحمام، مقارنة بأسعارها فى تركيا(٤).

---

(١) Andreas Tietze: op cit p. 40

(٢) Ibid., p. 46.

(٣) Ibid., p. 49 .

(٤) Ibid., p. 32.

كل يسجل تردد أعداد غفيرة من المصريين عقب صلاة الجمعة لزيارة قبور الأولياء، مثل ضريح الإمام الشافعى، وضريح الإمام الليث، والسيدة نفيسة رضى الله عنها[١].

ثم يعرض بعد ذلك لتقاليد سكان القاهرة واحتفالهم بتوديع موكب الحج واستقبال عودته، كما يسجل اهتمامهم بتبادل التهانى فى بداية كل شهر، وتبادلهم للتحية الحارة صباحاً ومساء[٢].

ونراه يشيد بالروح السمحة والمرحة لأهل القاهرة، وكثرة احتفالاتهم بالمناسبات المتعددة، فبالإضافة إلى العيدين يحتفلون بوفاء النيل وأعياد أخرى كثيرة لا توجد فى بلاد الروم»[٣].

ويعرض لأنواع الأزياء التى يرتديها المصريون، ويسجل ملاحظة مهمة، وهى أنه كان مميزاً لطبقات المجتمع، وأن لكل طبقة مكونات الزى الخاص بها، وهى ملحوظة زكية أكدها الرَّحَّالة الأجانب، كما أكدتها دراسات الحملة الفرنسية فى وصف مصر، وكذلك الدراسات الحديثة المتخصصة[٤].

فيتحدث عن ارتداء نساء الطبقة العليا من الروميات وعليه القوم للأُزُر البيضاء، والخمار الأسود. وارتداء النساء المصريات للحبرات السوداء على رءوسهن، ومظهر ملابسهن البسيط، فيبدون فى الشارع وكأنهن بملابس المنزل. وتتميز الفتيات اللائى لم يتزوجن بتغطية وجوههن ببراقع حمراء من الحرير[٥]. أما الفلاحون فهم يلبسون خليطاً غير متناسق من قطع الملابس والطواقى، وهو يشير إلى أن أطفالهم غالباً عرايا تماماً، إلاَّ من خرقة صغيرة لستر عوراتهم[٦]. وهذه ملاحظة أكدها علماء الحملة الفرنسية وكذلك نيبورو ادورد لين فيما بعد[٧].

(١) Andreas Tietze: op cit., p. 33.

(٢) Ibid., p. 34.

(٣) Ibid., p. 33, 35

(٤) الحملة الفرنسية، كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ـ جـ١، ص ١٠٥ ـ ١٠٩. (نشر مكتبة مدبولى القاهرة).

Von Hammer, Histoire de l'simpire ottoman - VoLL XVII P. 40 Paris, 1835.

آمال حامد المصرى ـ أزياء النساء فى مصر من الفتح العثمانى حتى عصر محمد على رسالة ماجستير مخطوطة ـ جامعة القاهرة ـ كلية الآثار ١٩٨٨ ص ٥٨ ـ ١٠٩.

(٥) Tietze ,op. cit, p. 40.

(٦) Ibid., p.44.

(٧) الحملة الفرنسية المرجع السابق جـ١ ص ١٠١، كتالوج اللوحات لوحة ٨، ١٥ نيبور ـ المرجع السابق، جـ١، ص ٢٩٦ ـ وإدورد وليم لين ـ المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم ـ ترجمة عدلى طاهر نور ص ٤٥ ـ ٤٨، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٥.

ويقارن مصطفى على الروميات (التركيات) وبين القاهريات، ويسجل أن القاهريات أقل مهارة، فهن لا يطهين الطعام فى المنازل، وليس لهن اهتمام بأعمال الحياكة والتطريز مما يرهق الأزواج(١).

كما لاحظ أن نساء القاهرة يركبن حمير المكارية فى تنقلاتهن، وحتى فى حفلات الزواج تركب العروس حماراً، ومن حولها أقاربها، لتُزَفَّ إلى منزل الزوجية، وهو ينعى ذلك بشدة، كما ينعى أيضاً تردد النساء على القرافة فى أيام الجمع وما يحدث من اختلاطهن بالرجال من منكرات(٢).

ويعرض بعد ذلك لما رآه من تقاليد جنائزية، فيعيب وجود النائحات والنادبات المحترفات.. كما يصف ما يفرق على الفقراء من رحمة فى جنازات الميسورين بقوله: «تجد عجلين يتقدمان الجنازة ومن وراءهما الصوانى المغطاة محملة بالخبز والتمر، وبعد أن يوارى الجثمان فى المقبره تنحر الذبائح وتوزع على الفقراء مع الخبز والملح والتمر»(٣).

وبرغم تميز ملاحظاته بالدقة والموضوعية فإننا نلمح عنجهية عنصرية تطفو أحيانًا فتظهر فى تحامله على العرب والمصريين واتهامهم بقبح الأشكال والصور، وأنك لاتجد منهم حُسن الصورة إلا من قد اختلطت به الدماء التركية(٤).

وهى نظرة عنصرية تعتقد سيادة العنصر التركى، وتتعالى على أبناء الأمم الأخرى من الشعوب التى خضعت لهم، وكانوا يطلقون عليهم اسم (تعت) (tat).

ويعرض لعادات المصريين فى حفلات الزواج، وكيف أن العروس فى ليلة الزفاف تستعرض أثوابها واحدًا بعد الآخر، ثم تستعرض نفسها فى ملابس الرجال، وتحاول أن تهاجم العريس لإخضاعه، فيهرع أهله لإنقاذه، ولا تجرى مثل هذه التقاليد عند علية القوم(٥).

ثم يقدم لنا صورة شائقة ودقيقة لم يُسبق إليها لبيوت القهوة التى عمت وانتشرت فى القاهرة، وهى تجمع المتناقضات، حيث يتردد عليها أهل التقى والصلاح لاحتساء أقداح

(١) Tietze, op cit p. 40.
(٢) Ibid., p. 41.
(٣) Ibid., p. 44.
(٤) Ibid., p. 40.
(٥) Ibid., p. 47.

القهوة فى الصباح الباكر قبل ارتيادهم للمساجد، كما أنها فى نفس الوقت ملجأ للمتنطعين والبطالين من قدامى الجند ذوى الهيئة الرثة، ومدمنى المخدرات، حيث يستلقون على الحُصر طوال النهار يجترون بطولاتهم الزائفة.. ويضيف: «إن العقارب تعبث فى أركانها، وقد تلوثت جدرانها... وينتشر بها عارفو الموسيقى من المعتوهين الذين يعزفون الموسيقى الصاخبة، فتتحول تلك المغارة إلى ما يشبه العرس.. ونادرًا ما تجد بيتًا للقهوة نظيفًا يصلح لأن يرتاده المتعلمون والصلحاء»(١).

أحوال الجند فى القاهرة:

ومما يتفرد به مصطفى على ما سجله عن أحوال الأجناد فى القاهرة بمعرفة ودراية تامة، فقد عجت مدينة القاهرة بأخلاط من الجند من كل صنف ولون، ونراه يحرص لطريقة جمع الجند فى الحملات لإرسالهم إلى اليمن أو غيرها فيقول: «عند صدور أمر السلطان إلى الوالى بذلك، يصدر الوالى (البكلربك) أمره بتعيين آغا، وكتخدا، ويكلفهما بجمع الجند، فيعلن عن ذلك، ويجلس الأغا فى مسجد السلطان حسن ومعه كيسان من الذهب لصرف نفقة الجند، فتهرع أعداد غفيرة من الشباب التعساء الذين يبيعون أرواحهم مقابل خمس قطع ذهبية بدون أن يسألوا عن طبيعة المهمة التى سوف يُدْفَعُون إليها».

ويمضى فى شرح طريقة تعبئة الجند بدقائقها: «فما إن يسجل الشاب اسمه حتى يُعْطَى واحدة من ريش الديكة ليضعها على رأسه، دلاله على أنه قد وقع عليه الاخْتِيار، وصار فى خدمة السلطان. وهم لايدركون أن الموت لهم بالمرصاد فى جبال اليمن وأوديتها، بدون أن يجدوا لهم كفنًا»(٢). ونراه يسجل ملحوظة مهمة، وهى أن معظم هؤلاء من مماليك التجار والأسر الكريمة(٣).

---

(١) Tietze, op.cit., p. 38.

يقدر إدوردلين عدد بيوت القهوة فى القاهرة فى أيامه بما يزيد على ألف بيت للقهوة، يرتادها متعاطو الحشيش والأفيون من الطبقات الدنيا. لين. المرجع السابق ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٢) Tietze, op. cit., p. 52.

(٣) يؤكد الرحالة نيبور ملحوظة مصطفى على من أن كثيرًا من الجند الذين يدخلون فى الجندية من مماليك الأسر المصرية الكبيرة وكبار التجار، فيقول: «إنه قد تعرف إلى تاجر كبير ثرى لم يكن يقوم على خدمته سوى خادم واحد، ولم يكن يركب سوى الحمار إذا خرج لقضاء أعماله، ولكنه دفع ببعض مماليكه إلى حيث أصبحوا ضباطاً كباراً فى القوات المصرية التى تظهر فى شوارع المدينة فى أبهة وعظمة، علمًا منه بأنهم على استعداد فى كل وقت لحماية صاحب الفضل عليهم» ـ (نيبور ـ المرجع السابق ص ٢٤٧).

ويمضى فى استعراض الحالة المزرية لكثير من الجند فى مصر، وإلى تدنّى أخلاقهم، ومظهرهم المتواضع، بالإضافة إلى سوء أخلاقهم وانحلالهم، وممارستهم العلنية للشذوذ الجنسى والفجور، وتبادلهم للسباب والألفاظ السوقية، ومعاركهم وصراعاتهم الدائمة التى لا تعدو أن تكون خلافًا على غلام أو جواد(١).

وهذا ما أكده المؤرخ المصرى ابن أبى السرور البكرى فى كشف الكربة وغيره من المعاصرين(٢).

كما كان هؤلاء الجند يتسكعون فى شوارع المدينة مخمورين على ظهور جيادهم طوال يومهم، يثيرون الاضطراب، ويتنطعون، ويتزاحمون فى الأسواق، وحتى إذا خرجوا لمرافقه موكب الحج لحماية الحجاج فإنهم لايكفون عن الصراع لأتفه الأسباب، والاشتباك مع جند دمشق، وأتباع شريف مكة(٣).

وهو يُقَدِّر عدد الجند المنوط بهم حماية القاهرة من هجمات الأعراب بعشرة آلاف جندى، ويتهمهم بالانحلال، والبعد عن الإنضباط العسكرى، ويرجع ذلك إلى أن كل الرتب العسكرية يشغلها الأجانب من غير (الروم) الترك(٤).

وقد أدى هذا إلى اجتراء الأعراب ومهاجمتهم الدائمة لأطراف المدينة والقرى، وموكب الحج أحياناً. ويبدو أن هذه الحالة لم تتغير، فقد أشار إليها نيبور بعد ذلك(٥).

---

(١) Tietze, op. cit., p.52

(٢) يقوم البكرى عن مسلك هؤلاء الجند: إنهم «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ولا يأتمرون بأمر ولاتهم، ولا يمتثلوه، وصارلهم أسمطة وأطعمة غالية المقدار تُحمل إلى خيامهم آناء الليل وأطراف النهار، وتهديد الكشاف إن قصروا عن ذلك، بل ويسلكون بهم أسوأ المسالك، وصار المسلمون معهم فى أمره مريج، ليس لهم منه خلاص، بل أصبحوا فى غاية التعويج، صار أرذل الجند وأقلهم مقلدًا بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة، والخيول المسومة، والمرد الجميلة المزينة بأنواع الزينه المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول، فى لهو وفرح لايزول، وإن وجدوا ولدًا مقبول الصورة أخذوه من والده بالسيف وقد حصل منهم غاية الحيف».
ـ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ـ كشف الكربة في رفع الطلبة ـ تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد ٢٣ ـ ص ٣١١ عام ١٩٧٦م.
ـ أحمد شلبي عبد الغني الحنفي ـ أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات ـ الملقب بالتاريخ العيني ـ تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن ص ١٣، ١٤ المقدمة ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٧م.

(٣) Tietze, op. cit ., pp.53 : 56.

(٤) Ibid., p. 55.

(٥) نيبور المرجع السابق ص ٢١٧.

فساد الجهاز الإدارى فى مصر:

يسجل مصطفى على اختلال الأمور فى ديوان مصر عَمّاً كانت عليه فى زيارته الأولى، ويرجع ذلك إلى سوء اختيار كبار موظفى الدولة، مثل الدفتردار، ومستحفظان قلعة القاهرة، ويشير إلى أن هؤلاء كانوا يعينون فى بدايه الفتح من رجال البلاط من نفس الدرجة، كما كانت وظيفة مستحفظان وقفًا على الرجال الذين أمضوا فترة طويلة فى الخدمة العسكرية من الجاشنكيرية، وشغلوا وظيفة قول أغاسى فى مصر، ثم انحطت الأمور، فتولى هذه الوظائف الأفَّاقون من المرتشين، وغير ذوى الخبرة، والذين لم يسبق لهم خدمة أحد من العظماء، والذين يُطلق عليهم (مفلاجية) احتقاراً لشأنهم[١].

ويدلل على ذلك بأن يقدم عرضًا مفصلاً للبكوات الذين كانوا بمصر عند زيارته لها، فيقدر عددهم بثلاثين بك تقريبًا، ليس من بينهم من نشأ فى القصور السلطانية سوى ثلاثة من البوسنة، أولهم (بيرى بك)، والثانى (سنان بك الخصى)، وآخرهم (حسين بك المجنون). ثم يعرض بعد ذلك فى معرفة دقيقة بأسرار هذه الفئة لتفاصيل الأصول المنحطة لحوالى عشرين من البكوات أصحاب السنجقيات فى مصر، والذين حصلوا على مناصبهم بالرشوة والوسائل القذرة، ومنهم تارنجى بك، وبسطرمجى بك، وسنان بك جوشك، الذى عُرِفَ ـ لشدة ولَعِهِ بالصبيان المرد ـ بقائد جيش الغلمان، وقد حصل على وظيفة بالرشاوى التى حصل عليها من اليمن وغيرهم[٢].

وفى حديثه عن جشع الكشاف وتسلطهم على الفلاحين يقول: «إن من أشد الأمور غرابة تلك النزعة الاستبدادية التى يتسلط بها كشاف الأقاليم على أهل البلاد التعساء، فقد كان فى مقدور أحد الأوغاد من الجند، لايملك قوت يومه، أن يحصل على التزام إحدى الولايات مقابل أن يدفع ما عليها من أموال، وبذلك يصبح كاشفًا، فتراه يبادر إلى بيع وظائف الخادم والطاهى والحاجب وأمثالها لمن يدفع رشوة أكبر، ثم يطلق يده ويد جنده فى ظلم الناس، ويصبح هذا الجندى المفلس حاكمًا مطلق السلطة، من حقه أن يشنق من يريد بين يوم وليلة[٣].

(١) Tietze, op. cit., p .56.

(٢) Ibid., p. 57.

(٣) Ibid., p. 56.

ويسجل مصطفى على فساد القضاة أيضًا فى أثناء زيارته لمصر، فيتحدث عن يحيى أفندى قاضى مصر أثناء تواجده، وأنه عُين لقضاء دمشق، ثم انتقل إلى قضاء القاهرة بمساعدة الوزير الأكبر شغل زاده، وبرغم أنه اشتهر أثناء توليه القضاء فى دمشق بالعفة والعدالة فإنه عندما أصبح قاضيًا للقاهرة لم يُبْدِ عدلاً، ولم يتعفف عن رشوة، وركبه العزور، واتخذ لنفسه عشرة من جنود القلعة يرتدون لباسًا من اللباد يتقدمون موكبه، وبرغم جشعه الشديد وقبوله لأنواع الرشوة فإن الناس يؤكدون أنه برغم كل هذه السوءات أفضل مِنْ سَلَفِه(١). هذا وقد أكد المؤرخون المعاصرون كالجبرتى وأحمد كتخذا على فساد معظم رجال القضاء فى مصر، بدءًا من قاضى العسكر نفسه إلى قضاة النواحى، حيث أصبحوا يشترون مناصبهم من أصحاب الحق فى تعيينهم، ولذا عملوا على استغلال هذه المناصب فى جمع الأموال لتعويض ما دفعوه ثمنًا لهذه المناصب(٢).

ولاة مصر:

عرض الكاتب فى عجالة لكل العصور التاريخية فى مصر، وأشهر ولاتها وسلاطينها منذ فتحها عمرو بن العاص حتى الغزو العثمانى وانتصار السلطان سليم. ثم تَحدث بالتفصيل عن ولاة آل عثمان، وأولهم خاير بك، وهو يعرض لكل منهم بالوصف والنقد، فيتحدث عن نشأتهم، وأصولهم، وتربيتهم، وأثر هذه النشأة فى أخلاق كل منهم وتصرفاته، ونرى أنه صاحب معرفة عميقه برجالات الدولة، واطلاع على مجريات الأمور، وثقافة مكنته من أن يُقَيِّم هؤلاء الرجال فى وضوح وإيجاز شديدين، فيسجل أهم ميزة لكل واحد منهم، ونبذة عن أخلاقه، والفترة التى قضاها فى الولاية.

فهو يصف قاسم باشا بأنه كان ممتازَ الخُلُق، حصيفَ الرأى، ذا هيبة ووقار، وكان رحيم القلب... ويصف أحمد باشا الملقب بالخائن بأنه كان الباني الأصل، شديد العند والغباء، وأدى به ذلك إلى أن تمرَّد عليه الجند وقتلوه(٣).

(١) Tietze, op. cit.., p. 60.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ٢ ص ١٢٧، حوادث سنة ١٢٠٠هـ ـ ١٧٨٥م.

ـ أحمد كتخذا عريان (مخطوط) ـ الدرة المصانة ـ تحقيق د. انيال كرسيلوس، د. عبد الوهاب بكر ص ٢٠٥، ٢٠٦ القاهرة ١٩٩٢.

(٣) Ibid., p.70.

تاريخ العينى ـ المرجع السابق. ص ١٠٣.

ونراه يهتم بالإشارة إلى أن الوزير سليمان باشا كان أول من ولى مصر من خصيان القصر، ثم الوزير خسرو باشا الأخ الأكبر للالا مصطفى باشا فاتح قبرص وشيروان، وبطل معارك البوسنة، وقد أرسى قواعد الأمن بمصر حتى ترك الناس منازلهم مفتوحة، ولم يجرؤ لص على أن يمد يده للسرقة[١].

وعند حديثه عن على بك الملقب بالتخين، والذى دامت ولايته أربع سنوات وسبعة أشهر، عُين بعدها وزيرًا، وجمع خلال فترة ولايته على مصر سبعين ألفاً من القطع الذهبية، ويعلق على ذلك بأن هذا الرجل يُعَدُّ عادلاً قنوعاً إذا ما قُورن بما يفعله الولاة الآن ـ أى بعد ثلاثين عاماً تقريباً ـ عند زيارته الثانية لمصر ـ حيث لا يقنع من يتولى لمدة ستة أشهر بأقل من مائة ألف قطعة ذهبية، ثم تراه يشكو من فقر ولاية مصر[٢].

ويمتدح الوالى محمد باشا الألبانى الأصل، ويصفه بغزارة العلم، ووفرة الكرم والعدل.. كما يثنى على عدالة الوالى على باشا (القرافى) وعفته وعدله، والذى توفى بعد عام ونصف من الحكم، ولم يوجد بخزانته سوى أربع وستين قطعة من الذهب.

وفى حديثه عن الوالى محمود باشا، الذى كان واليًا على اليمن ثم عُزل، نجده يدمغه فى مكر بأن الرشوة العلنية قد شاعت علانية فى عصر السلطان سليمان على يديه، فقد كان يجمع الرِّشَا من الناس ليدفعها إلى السلطان، وانتهى الأمر بمقتله[٣].

ولايفوته أن يبلور التوجه العام، ورأى كبار رجال الدولة فى رفضهم واستنكارهم لتولى أحد العرب للوظائف المهمة، وذلك عند حديثه عن الوالى محمد باشا الشريف، الذى ولى على مصر سنة ١٠٠٤هـ ١٥٩٥م لمدة عامين وشهرين ويقول: «إنه عُين بإلحاح من الوزير الأعظم سنان باشا، برغم أنه كان غريبًا على الدولة، فقد منح ولاية العرب برغم معارضة غالبية كبار رجال الدولة والنبلاء».. ثم يورد قصيدة لشاعر يُدعى مولانا فهمى، يوضح فيها مدى خطورة توليه مثل هذا العربى الغريب لولاية مصر، ويتهم سنان باشا بعدائه للعقيدة والوطن.. ويضيف: أن هذا الشريف سرعان ما يعلن

(١) المرجع نفسه — Tietze, op. cit. p. 71.

(٢) Ibid., p. 71.
المرجع نفسه ص ١١١

(٣) Ibid., p. 72.
المرجع نفسه ص ١١٥ (وهو صاحب جامع المحمودية القائم بميدان القلعة).

أنه سليل النبوة، فيلتف حوله الناس، ويستقل بإمارة مصر، وفى هذا إيذان نهاية حكم بنى عثمان ونهاية دولتهم. ثم يؤكد أنه لايحق لهذا الرجل أن يكون واليًا، فهو قليل الخبرة، ولم يكن إنكشاريًا. ويعلق مصطفى بأن مولانا فهمى قد صاغ مخاوف الناس وخيالاتهم[١].

وهو بهذا يكشف عن مدى تعصبه للجنس التركى، وعنصريته، ونظرة التعالى التى كانت تسود فى تلك الآونة.

ثم يتحدث عن والى مصر عند مجيئه فى رحلته الثانية، وهو حسن باشا السكير، فيذكر أنه أمير موائد الخمر، يعشق الترف والغلمان المرد، ولكنه جواد كريم، وهو متقدم السن، ذوى خبرة وحنكة فى الحكم. وقد سقط ذكر هذا الوالى من تاريخ العين وقد كان مصطفى على مقيماً فى مصر أثناء توليته بعد عزل خضر باشا وتعرف به عن قرب[٢].

رؤيا مصطفى على الاقتصادية:

يختتم صاحبنا كتابه مرتدياً مسوح الحكماء، متخذًا من أقوال الإمام على رضى الله عنه منطلقاً لصياغة آرائه ومجمل رؤيته الاقتصادية وانتقاداته وملاحظاته، وهى فى مجموعها يكاد أن تكون شكوى مغلفة، أو رسالة مفتوحة موجهة إلى السلطان الأعظم.

ونراه يحمل هدفه فى قوله: «إن العائد الذى يُنْتَظَر فى ولاية غنية مثل مصر هو إن يعود غناها على الخزانة العامة للدولة، وأن تفوح شذى ثمارها لإثراء خزانة السلطان». ثم يعلق على ذلك بأن المتحصلات من ولاية غنية مثل مصر آخذَة فى التناقص والتقلص عاماً بعد عام، وذلك أن الولاة الجشعين يلتهمون متحصلاتها، ويقتطعون لأنفسهم ما يسمونه مال القهوة، كما يقتطع الكُشَّاف لأنفسهم ما يسمونه مال الطلبة، وما يصل إلى الخزانة السلطانية لايعدو ستمائة ألف قطعة ذهبية سنويًا، برغم أن ما يُفرض على الفلاحين من ضرائب يتزايد عاماً بعد عام، حتى عجزت الرعية عن تحمل هذا العبء المتزايد، مما دفعهم لهجر قراهم، وترك أراضيهم وحقولهم[٣].

---

(١) Tietze, op. cit. P. 75 - 74.

عَمَّرَ هذا الوالي مقام الإمام الحسين، وأقام محراباً بالجامع الأزهر ورمم الجامع وأصلحه، وأوقف شربة العدس علي المجاورين به. المرجع نفسه ص ١٢٦.

(٢) Ibid., p. 77.

لم يرد ذكر حسن باشا السكير عند أحمد شلبي وإنما أورد بعد خضر باشا علي باشا السلحدار، الذي قدم إلي مصر في صفر سنة ١٠١٠هـ (المرجع نفسه ص ١٢٦ ـ ١٢٧).

(٣) Ibid., p. 80.

ويضيف قائلا: إنه حينما تصل الأوامر السلطانية بزيادة الأموال فهم لايرسلون شيئاً مما اقتطعوه لأنفسهم، ولكنهم يجمعون العوائد المستوجبه للعام التالى، مما يضطر الفلاحين إلى بيع أدوات الزراعة نفسها تحت وطأة وسائل القمع والتعذيب من العسكر، وهذا يؤدى إلى خراب ريف مصر وقراها.

ثم يعود ليقرر ويؤكد على أن «جباية الضريبة مقدمًا سوف تؤدى بمرور الزمن وتوالى الولاة إلى أن تصبح قرى مصر قفرًا خالية من السكان، ولن يجد الحكام ما يسددون به رواتب الجند، ناهيك عن الأموال المستوجبة لخزانة السلطان، مما يجعل من المستحيل حماية الولاية والدفاع عنها، ويجعلها عرضة للوقوع فى يد الأعداء المتربصين بها»(١).

ثم يأتى بعد ذلك على تعديد نواحى الإسراف والتبذير التى رصدها فى مصر، فيذكر «أن الأغوات من الأحباش والنوبيين بأعدادهم الكبيرة، يحصلون على مبالغ طائلة، تتراوح ما بين عشر واثنى عشر قطعة ذهبية فى اليوم، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من النسوة اللائى يحصلن على رواتب تعرف بالعلوفة، وكل ما يفعلنه هو القيام على خدمة زوجات كبار رجال الولاية». ونراه هنا وكأنه يدعو السلطان إلى الأمر بتخفيض نفقات الدولة وإحكام الرقابة على هذه الفئات(٢).

وهو يعزو ما أصاب مصر من تدهور اقتصادى إلى تولى الخصيان السود لكثير من الأمور، وتزايد عددهم، وحصولهم على الرواتب السنية والعلوفات، برغم أن عددهم فى بداية الحكم العثمانى لم يزد على عشرين أو ثلاثين، ثم صار يستعصى على الحصر، وخُلعت عليهم الألقاب، وغمرهم الولاة بكرمهم، وهم يتولون الدشيشة، ويبددون ريعها الوفير. ويعضد ما ذهب إليه بما تنبأ به الإمام على رضى الله عنه بأنه إذا ساد الخصيان السود مصر فهذا طريق خرابها، حيث يقول: «إذا ركبت الخنافس على الطنافس فأبشروا بخراب مصر»(٣).

* * *

(١) Tietze, op. cit., p. 81.

(٢) Ibid., p. 81.

(٣) Ibid., p. 83 - 82.

خاتمة

بعد هذا الاستعراض لما كتبه مصطفى على نرى أنه لم يكن مجرد رحالة يسجل ما وقعت عليه عيناه من ظواهر، وشد انتباهه من العادات والتقاليد الاجتماعية، مما رآه غريبًا أو غير متعوَّد، ولكنه أقام من نفسه شاهدًا على عصره، مشاركاً فى تقييمه ونقده، راصدًا لحركة المجتمع المصرى على مدى قرابةَ نصف قرن من الزمان من تغيرات أصابته ما بين زيارته الأولى والثانية.

ولم يكتفِ برصد تلك العادات والتقاليد والأحوال السياسية والاقتصادية، ولكنه يُقَيِّمُهَا ويبحث عن مسبباتها وينقدها، وقد نراه قاسيًا فى نقده لبعض الظواهر الاجتماعية، متحاملا على المصريين والعرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت تحت السيطرة العثمانية، وهى نغمة عنصرية استعمارية متعالية سادت زمنًا طويلاً.

أمَّا نقده السياسى لأحوال الولاة والحكام والملتزمين وقادة الجيش وكبار موظفى الدولة، فهو برغم قسوته فقد أصاب كبد الحقيقة، وكشف عن حنكة وخبرة سياسية عالية، وإذا كنا نلحظ أن ما كتبه كان مغلفًا بحرصه على مصالح الباب العالى، فى محاولة لإثبات شدة ولائه وإخلاصه للسطان، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل أنه كان من الساعين غير مرة للحصول على إحدى الوظائف السنية فى ولاية مصر، وطاش مسعاه، مما زاد من حنقه وحرصه على كشف نقائض موظفى الديوان فى مصر، من رشوة، وحمق، وظلم للفلاحين، وسرقة لأموال السلطان، ولكنه فى النهايه يقدّم لنا صورة مفصلة بدقائقها وأسرارها، حيث يضع يده على نبض الحياة فى مصر مهما كانت دوافعه.

* * *

المنهج التاريخي فى كتابات المؤرخ العمانى حميد بن محمد بن رزيق

التجربة التاريخية فى مفهوم ابن رزيق:

من المؤكد أن ابن رزيق كان مدركاً لأهمية التجربة التاريخية، مقدراً دورها فى صياغة التاريخ العمانى، بحكم أن الرجل كان يملك قدراً هائلا من المعرفة التاريخية التى تؤهله لكتابة تاريخ بلده بطريقة علمية دقيقة. والتجربة التاريخية هى محور التاريخ ومادته الأساسية، ولذا فقد أدرك ابن رزيق خطورة المهمة بعد أن تسلح بالمعارف التى أهلته لخوض التجربة، مع قناعته الشديدة بأن الحقيقة التاريخية المطلقة أمر يصعب تحقيقه، بحكم أن التاريخ نتاج إنسانى يخضع - سواء فى صناعته أو كتابته - لكل عوامل الضعف الإنسانى، ومن ذا الذى يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة فى الماضى أو الحاضر[1].

إن الحقيقة التى يصل إليها المؤرخ حقيقة صحيحة نسبياً، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح، وابن رزيق كان واعياً لهذا المعنى، معترفاً بهذه الحقيقة حينما قال فى 'مقدمة واحد من أهم كتبه: أستغفر الله مما خالفتُ فيه الشرع، وحرفتُ فيه الأصل أو الفرع»[2].

وهذا لا يعنى أن ابن رزيق قد حرف شيئاً أو أغفل حقيقة معينة، وإنما المعنى العلمى أن الرجل كان مدركاً خطورة مهمته، مقدراً أن ما يقوم به هو من صميم الجهد البشرى الذى يخضع للخطأ والصواب، فالتاريخ ليس قوانين صارمة، أو قواعد ثابتة، وإنما يخضع غالباً إلى إحساس المؤرخ ودرجة تذوقه وعاطفته وتسامحه وخياله، بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين.

(١) د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخى، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٦، ص ٢١.
(٢) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر، د. محمد مرسى، سلطنة عمان، ١٩٧٧، ص ٢٠.

ومن الخطأ الشائع مقولة أن التاريخ يكرر نفسه، فلكل تجربة تاريخية خصوصيتها التى تميزها عن غيرها، قد تتشابه التجربة فى بعض الجوانب بدرجة أو بأخرى، لكن أن تصل إلى درجة التطابق فهو أمر لايمكن أن يكون مقبولا، اعتماداً على أن التاريخ فى حركته وتدافعه لا يعتمد على قوانين علمية تحدد خطواته، وإنما هو نتاج إنسانى، قد تتشابه التجارب أحياناً بدرجة أو أخرى، لكن يستحيل أن تتكرر التجربة بنفس دقائقها.

والتجربة التاريخية التى قدمها ابن رزيق من خلال كتابيه الشهيرين «الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين» و «الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان»[١]، تتميز بقدر هائل من الثراء، فالرجل يكتب عن بلده عمان ويملك مقومات المؤرخ، حيث الذاكرة المتدفقة بالمعرفة التاريخية، خصوصاً وهو يكتب عن دولة البوسعيديين، فالتجربة حية أمامه، بل هو قريب من صناعة التاريخ الذى ملأه فخراً وشموخًا حيث عمان وقد امتدت لتكون أول إمبراطورية آسيوية إفريقية فى التاريخ الحديث، والخلفية التاريخية لعمان غنية، وقد استوعبها الرجل بكل غناها وثرائها، ومن ثم فقد أدرك خطورة التجربة وأهميتها، ولذا فهى من أمتع التجارب التاريخية الجديرة بالكتابة، وعلى ضوء ذلك يمكن تسجيل عدة ملاحظات:

أولا - أن ابن رزيق قد عايش جزءًا من التجربة بنفسه حينما أرخ لدولة البوسعيديين، ولذا كانت معلوماته أكثر غزارة، وحينما ابتعد إلى الوراء لكى يكتب عن أئمة اليعاربة راح يسأل جيل الشيوخ ممن تتوافر فيهم درجة الصدق والموضوعية، مع اعتماده بشكل مباشر على كتابات سعيد بن سرحان الأزكوى[٢] وغيره، من خلال نقد الروايات وتحقيقها، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر بلغة سهلة، مع الاهتمام بالحوادث التاريخية بشكل دقيق، ولكن حينما ابتعد ابن رزيق إلى الفترات السابقة من التاريخ العمانى بدءًا من هجرات الأزد إلى عمان، ومروراً بالعصور الإسلامية المختلفة، بداية من عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ووصولا إلى عصر النباهنة فى عمان، فإن الرجل قد بذل جهدًا هائلاً من خلال متابعته لكل نصوص التراث شعراً ونثرًا، وقد أسعفته ذاكرته القوية الحافظة لجمع التاريخ واستنباط تفاصيله، وهى مهمة صعبة للغاية، لكن أشهد أن الرجل قد أداها بأمانة شديدة.

---

(١) الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، سلطنة عمان، ١٩٧٨.
(٢) كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة.

ثانيا - أن التاريخ عند ابن رزيق سلسلة متصلة الجذور عبر الزمن الممتد، ومن أجل أن يكتب عن البوسعيديين فقد راح يتتبع تاريخهم الطويل، منذ وصول الطلائع الأولى من الأزد إلى عمان، كل ذلك عبر حقب تاريخية يبدو أن كل واحدة منها تشكل وحدة تاريخية مستقلة، لكن القراءة الدقيقة لما كتبه ابن رزيق تؤكد أن التاريه العمانى متواصل الحلقات، ومن أجل معرفة تاريخ اليعاربة فلابد من الرجوع إلى عصر النباهنة، ودراسة دولة البوسعيديين لابد أن يسبقها معرفة أحوال عمان طوال عصرى النباهنة واليعاربة... الخ.

ثالثا - يعد ابن رزيق واحداً من جيل اعتبر المعرفة وحدة متكاملة، حيث تتداخل المعارف العربية والإسلامية، فالمغازى والسير جزء من علم الحديث، ومنهج المحدثين من افضل المناهج التى استخدمت لتحقيق الرواية التاريخية، والتراث الأدبى بنثره وشعره يقدم مادة تاريخية تعبر عن الواقع بشكل أو بآخر، وعلوم الفقه تقدم بُعْدًا حقيقياً للواقع الدينى والاجتماعى اللذين يشكلان الهوية الثقافية لأى بلد أو إقليم، وإعمالاً لكل هذه الثقافات فقد راح ابن رزيق يواصل كتابة التاريخ العمانى فى سلسلة متصلة الحلقات، وقد اسعفته ثقافة إسلامية واسعة، وفكر متقد، ونظرة شمولية للأشياء، وفى كل الحالات لم ينس الرجل أنه يؤرخ، ولذا فقد عنى كثيرًا بالتفاصيل التى تعد مادة تاريخية مهمة عند إعادة كتابة تاريخ عمان الدينى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى.

رابعا - لقد استطاع ابن رزيق أن يوظف التراث الأدبى لخدمة التاريخ بشكل دقيق، وخصوصاً فى الحقب التاريخية البعيدة، التي ندرت فيها المصادر التاريخية، حيث راح الرجل مستنبطاً من الأدب ما يصلح أن يكون تاريخاً، مع محاولة إعمال النقد المتاح، ولعله فى ذلك قد استفاد كثيرًا مما خلفه المسلمون الأوائل، وخصوصاً فى علم الجرح والتعديل، وقد كان الشعر مادة خصبة وغنية بالحوار التاريخى، وبحكم تذوقه للشعر وحفظه لكثير من نصوصه فقد راح يستشهد به، وهى طريقة استخدمها كل المؤرخين العرب حتى القرن التاسع عشر، ويبدو أن ذلك كان من مستلزمات المتنورين فى عصرهم[١]، حيث تقاس ثقافة الشخص بقدر ما يحفظ من التراث نثرًا وشعرًا، وكلما اقترب ابن رزيق فى كتاباته من التاريخ الحديث قلَّ اعتماده على الأدب كمصدر تاريخى.

---

(١) د. محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة، ١٩٤٩. ص ٥٨.

خامساً - إذا كان المقصود بمنهج البحث هو الخطوات التى يتبعها الباحث بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية، فإن ابن رزيق - وإن لم يكن قد استخدم المنهج بمعناه المتعارف عليه الآن - فإنه قد اقترب كثيراً من المنهج التاريخى حينما راح يقارن بين الروايات، ويناقش الرواة، ويرجح رأياً على آخر، معتمداً على منهج رواة الحديث أحياناً، وعلى مقدرته الذاتية، وثقافته الواسعة، ومعارفه التاريخية فى أحيان كثيرة.

سادساً - لقد اتبع ابن رزيق فى كتاباته ما يعرف فى منهج البحث التاريخى بالتأريخ حسب الموضوعات،وكتاب «القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين» يُعَدُّ نموذجاً لهذه الطريقة التى اتبعها كثير من المؤرخين المسلمين، حيث اعتمد المؤلف على فكرة التأريخ لعمان من خلال أسرة البوسعيديين التى أرجع جذورها إلى قبيلة الأزد، وهذه الطريقة قوامها الأشخاص، وتتميز هذه الطريقة بالاهتمام الخاص بالمسائل الأخلاقية والإدارية والعسكرية والدينية، حيث تنقسم المادة التاريخية حسب عهود الحكام والأئمة، على اعتبار أن أخلاق الحاكم وإدارته الصارمة هى من أهم عناصر التاريخ، وهذه الطريقة استخدمها اليعقوبى (٢٨٤هـ)، وكان معاصراً للطبرى، وكتابه فى التاريخ يقع فى جُزْأين: يتناول فى الجزء الأول تاريخ الأنبياء، وتاريخ الفُرس القديم، وتاريخ العرب فى الجاهلية.. الخ، وفى الجزء الثانى رتب التاريخ الإسلامى حسب الخلفاء، مع مراعاة تسلسل الأحداث، بداية من مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ومغازيه حتى وفاته، ثم تتبع تاريخ الخلفاء بنفس الطريقة(١).

واللافت للنظر أن معظم المؤرخين المسلمين قد اتبعوا هذه الطريقة، فها هو ذا المسعودى (٣٤٦هـ) - وقد تأثر باليعقوبى - وكتابه «مروج الذهب» يُعد صورة مكررة لما كتبه اليعقوبى، ونفس الطريقة استخدمها ابن قتيبة الدينورى (٢٧٠هـ)، وكتابه «المعارف» يعد مثلاً واضحاً للتأثير الذى أحدثه اليعقوبى، حيث يتبع ابن قتيبة طريقة الكتابة الموسوعية بدءاً من بداية الخليقة وانتهاء بعهد المعتصم، وكتابه «الأخبار الطوال» يعد صورة مكررة لتلك الطريقة(٢) وهى الطريقة التى كتب بها المؤرخون العمانيون من أمثال الأزكوى والسالمى والسيابى.

(١) د. عبد العزيز الدورى، نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٦٠، ص ٥١.
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٩٤.

سابعاً - لقد عنى ابن رزيق بالأنساب، لدرجة أنه راح يؤرخ لأسرة البوسعيديين من خلال جذورهم الممتدة إلى الأزد، ولم يكتف بمجرد الإشارة إلى هذه العلاقة، وإنما أخذ فى تأصيلها وتحقيقها بطريقة علمية من خلال تتبعه لهجرات الأزد معتمداً على مصادر عربية أشار إلى بعضها أحياناً[1]، وأغفل البعض الآخر فى كثير من الأحيان، ومن ثم فقد جاءت كتاباته عن نسب البوسعيديين وأصولهم سجلا وثائقياً لتاريخ عمان.

ويلاحظ أن ابن رزيق قد استقى معلوماته من مصادر متنوعة، بالإضافة إلى المصادر العربية القديمة فقد اعتمد أيضاً على جمع الروايات الشفهية وتحقيقها على طريقة المحدثين، مع الاهتمام بشكل ملحوظ بالتجربة التاريخية التى تعمق الإحساس بالذات، وتؤكد خطورة الاعتماد على الآخرين دون استنفار الإمكانات الذاتية كوسيلة لتحقيق الأهداف الكبرى، ولذا فقد حرص ابن رزيق على أن يستشهد بقصة امرئ القيس وخروجه إلى قيصر الروم يستنصره على المنذر بن ماء السماء اللخمى، وهى تجربة حقيقية دفع امرؤ القيس حياته ثمناً لها. وقد أورد ابن رزيق بعض الأبيات الشعرية التى تسجل هذا المشهد المأساوى على لسان امرئ القيس نفسه:

أجَارَتَنا إنَّ الخُطوبَ تنوبُ ... وإنى مقيمٌ ما أقامَ عسيبُ
أجارتنا إنَّا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيبُ
فإنْ تَصلِينَا بالقرابة بيننا ... وإنْ تهجرينا فَالَغريبُ غريبُ[2]

لقد كان ابن رزيق مغرماً بالتراث، ومن ثم فقد أورد كثيراً من التجارب التاريخية التى حفل بها سجل تاريخ العرب، ولعل ما ذكره عن المهلب بن أبى صفرة يعبر عن ثقافة تاريخية واسعة، استمد الرجل معارفه عنها من كتب التراث الأدبى وكتب السير والمغازى.

ومهما قيل من قصور ابن رزيق فى النقد والتحليل، فيكفى الرجل أنه خلف لنا تراثًا تاريخياً طائلا، إضافة إلى مقدرته على ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكاملين، مع عدم إغفال عامل الزمن، حيث لم تكن مناهج البحث التاريخى قد عمل بها فى الكتابات

(١) انظر: ابن رزيق، القول المبين فى سيرة البوسعيديين، مرجع سبق ذكره، ص٤، ص٨.
(٢) نفس المرجع السابق، ص١٦ إلى ص ٢٠.
حيث أورد ابن رزيق القصة كما وردت فى كثير من كتب التراث العربى.

التاريخية، وجميع المؤرخين العرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد تأثروا بمدرسة التاريخ العام، متخذين من مؤرخى القرن العاشر الهجرى ـ من أمثال ابن إياس ـ منهجاً لهم فى كتاباتهم، وكان الجبرتى وعبد الله الشرقاوى فى مصر خلال القرن الثامن عشر نموذجين لمثل هذه الكتابات، وجميع هؤلاء لهم يكونوا قد تعرفوا بعد على المناهج العلمية بمعناها المعاصر، ولم تكن لهم طريقة محددة فى الكتابة، سواء من حيث جمع المادة العلمية، أو من حيث عرضها وإعادة صياغتها، وجميعهم قد تأثروا بمنهج علماء الحديث، متخذين من الجرح والتعديل وسيلة لتحقيق رواياتهم وتأصيلها، وهى طريقة علمية لم تغفلها المناهج المعاصرة.

كتابات ابن رزيق كمصدر من مصادر التاريخ العماني:

يعد ابن رزيق واحداً من أشهر المؤرخين العمانيين، الذين أسهموا بجهد كبير فى تأصيل التراث العمانى، وليس صحيحاً أن الرجل نقد استمد شهرته بسبب ترجمة كتابه «القول المبين» إلى اللغة الإنجليزية فقط، تلك الترجمة التى قام بها المستر بادجر Bad-ger[(١)]، وإنما ترجع شهرة ابن رزيق إلى دقة رواياته، وإلى تنوع معارفه وانفراده بكتابة تاريخ البوسعيديين بطريقة علمية، حيث كانت له رؤية دقيقة فى الأحداث التى شارك فيها بنفسه، ولم يكتف بمجرد المعايشة، وإنما راح يسأل ويتحقق من مصادر معلوماته بطريقة علمية دقيقة، أما معارفه التاريخية السابقة لدولة البوسعيديين فقد استقاها من مصادر أصلية أشار إلى بعضها، مثل: ابن إسحاق، والواقدى، وابن هشام، والمسعودى، وابن دريد، وابن النحاس، وابن الشعثاء، ثم اعتمد بشكل أساسى وهو يؤرخ لعمان على كتاب «فى التاريخ» للشيخ محمد العداونى، وكتاب «كشف الغمة» لسعيد بن سرحان، وعلى كثير من المخطوطات العمانية التى اعتمد عليها ولم يشر إلى كثير منها.

وإذا كان ابن رزيق وهو يؤرخ لدولة البوسعيديين قد ذهب بعيداً إلى أنساب الأزد ومشاهير علمائهم وأئمتهم من العمانيين، مما قد يبدو للقارئ أن الرجل قد خرج عن هدفه الحقيقى، فإن ذلك يمكن أن يفهم على ضوء ثقافة ابن رزيق ومنهجه الذى اعتمد

---

(١)سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القبيسى، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص ٥.

عليه مستمداً مقومات ذلك كله من كتب التراث العربى، باعتبارها مصادره الأساسية، على اعتبار أن كتب الطبقات والأنساب تضم سير أشراف العرب حسب أنسابهم، وتتجدد العناية بالأنساب نفى سنوات الأزدهار والشموخ، ومن ثم فقد عنى العرب بأنسابهم، ثم كثرت عناية كتاب الطبقات والسير فى المشرق والمغرب بوضع معاجم لطوائف الرجال ولفروع العلوم عندما اتسعت آفاق المعارف، وأصبحت هناك ضرورة إلى وضعها، وتعد هذه المعاجم من المصادر المهمة للتاريخ الإسلامى، حيث تزود الباحث بمادة تاريخية خصبة.

وينسب إلى البلاذرى كتاب «أنساب الأشراف»، ويبدأ بذكر نسب نوح عليه السلام، حتى يصل إلى عدنان، ثم يتدرج إلى أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته حتى وفاته، ثم ينتقل إلى الحديث عن آل الرسول عليه السلام، بادئاً بأبى طالب وأولاده، وخصوصاً علىّ وأولاده، ثم يتحدث عن أبى العباس السفاح، وأبى جعفر، وخلفاء العباسيين حتى هارون الرشيد، ثم يعود لاستكمال رواية أنساب القرشيين[(١)].

وكتابة الأنساب على النحو الذى أداه البلاذى لم يعد يتناسب وأهمية تحقيق المعلومات التى يعنى بها المنهج العلمى فى الوقت الحاضر.

وإذا كان ابن رزيق قد استفاد كثيراً من كتب الأنساب وأخذ بمنهجهم فى بعض ما كتب، فإنه أفرد لنفسه طريقة خاصة، فالأخذ بطريقة الأنساب لديه تؤدى وظيفة واضحة، فهو يؤرخ لبلده عمان ولأئمتها وحكامها، ومن ثم فقد راح يتتبع جذورهم وأصولهم، رابطاً الماضى بالحاضر من خلال فهمه للتاريخ، على اعتبار أن حركته متصلة يصعب فهم ظواهرها بدون كشف مكنونها من خلال تسلسل الأحداث التى أخذ يحققها من خلال مصادرها فى كتب التاريخ والأدب بشعره ونثره، باعتبارهما مصدرين هامين، حيث يصور الأدب كثيراً من الأحوال الاجتماعية والدينية، كما يصور طباع وأخلاق الهيئة الاجتماعية الحاكمة، ولذا فقد قيل: إن «الشعر ديوان العرب»[(٢)].

---

(١) البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر)، فتوح البلدان، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٧.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٥٧.

د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣٥.

وابن رزيق قد تذوق الأدب وانتقى منه ما يصلح لكى يكون تعبيراً عن الواقع بمعناه الحقيقى، خصوصاً فى الفترات التاريخية التى لا تسعفه فيها المصادر التاريخية، مثل الحديث عن بنى المهلب، والحجاج بن يوسف... إلخ، وإذا كان ابن ررزيق قد حدد الهدف الذى دفعه إلى كتابة تاريخ البوسعيديين نزولا على رغبة السيد حمد بن سالم بن سلطان، إلا أن الرجل لم يكتف بكتابة تاريخ البوسعيديين فقط، وإنما عنى بتاريخ عمان عموماً، وتمكن بطريقة سهلة من الربط بين التاريخ الدينى والاجتماعى والسياسى من خلال منظومة أسلمت القارئ إلى الدخول فى تاريخ البوسعيديين دونما خلل أو تعارض، وكلما اقترب ابن رزيق من دولة البوسعيديين كانت رواياته موثقة، وشهاداته قاطعة. ولاشك أن معاصرة المؤرخ لأحداث زمانه تطبع رواياته التاريخية بطابع الصدق والدقة، فالمؤرخ الذى يعيش فى زمن قريب من الزمن الذى دارت فيه الأحداث التى يقوم بتأريخها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بشكلها الحقيقى.

والحقيقة أن كتابة التاريخ المعاصر تعتمد كثيراً على المعايشة والسماع والتحقق من مصادر متنوعة، وهى كلها أمور تحول دون وقوع المؤرخ فى الأخطاء، وشهادة ابن رزيق عن أسرة البوسعيديين شهادة جديرة بأن تكون مصدراً أساسياً لاغنى عنه لكل من يؤرخ لأسرة البوسعيديين.

وإعمالا لمنهج علماء المسلمين، الذى اعتمد عليه واحد من أهم المصادر الإسلامية[(١)]، يمكن اعتبار ما كتبه ابن رزيق صحيح فى حقيقته حيث توافرت فى الرجل كل الشروط الواجب توافرها فى من تنطبق عليهم شروط من يحتج بروايته كأن يكون عدلاً ضابطاً لما يرويه، مسلماً بالغاً، عاقلاً، سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة، حافظاً إنْ حدَّث من حفظه، ضابطاً لكتابه إن حدث من كتابه، ويعرف كون الراوى ضابطاً بأن تُقاس روايته بروايات الثقات المعروفين بالضبط والإتقان، وهى أمور توفرت كلها فى ابن رزيق.

وهكذا تبدو صعوبة دراسة التاريخ وتحقيقه ونقده، وعلى الرغم من ذلك فإن النقد

(١) يعنى مقدمة ابن الصلاح لمؤلفها (عثمان بن عبد الرحمن أبو عمرو تقى الدين)، أحد علماء التفسير والحديث والفقه، ولد ١١٨١م فى شرخان قرب شهر زور، ثم عمل فى الموصل وبيت المقدس ودمشق مدرساً لعلم الحديث، وتوفى ١٢٤٥م، وله مؤلفات كثيرة من أهمها «مقدمة فى علوم الحديث» و«الفتاوى وفوائد الرحلة» و «أدب المفتى والمستفتى».

التاريخي لا يثبت الحقيقة التاريخية كاملة، بل يساعد على بلوغها، ويضاعف من احتمال الصدق فيها.

وكتابات ابن رزيق ـ وخصوصاً ما كتبه عن اليعاربة والبوسعيديين ـ يمكن اعتبارها أقرب ما يكون إلى الحقيقة التاريخية، حيث تتفق رواياته مع كتابات المؤرخين الذين اعتمدوا على المنهج العلمي بشكل دقيق في كتاباتهم، إضافة إلى التوافق والتآلف والاتساق بين كل ما كتب، وتؤكد الحقائق التاريخية بعضها بعضاً، ويوجد بينها صلة وعلاقة تتسق بشكل متناغم.

وتقديراً من ابن رزيق لأهمية الحقيقة التاريخية فقد راح يتابع روايات من سبقوه من المؤرخين معتمداً على الإسناد في نقد الأخبار وضبطها، وهي ميزة انفرد بها، وقد اتبع طريقة علماء الحديث في تدارس الروايات بسندها المتصل قراءة وسماعاً وإجازة، ومهما قيل من قصور في طريقة النقد فيكفي الرجل أنه خلف ثروة تاريخية طائلة، وتمكن من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت، وأنه حرص قدر الإمكان على الصدق في القول والنزاهة في الحكم، فجاءت كتاباته مصدراً أساسياً من مصادر تاريخ عمان.

والحقيقة التاريخية عند ابن رزيق تؤدي وظيفة تتخطى مدلول التجربة العامة إلى التجربة الخاصة، فهو يكتب عن بلده عمان من خلال أئمتها وحكامها، واختياره لتلك الشخصيات ليس من قبيل المصادفة، وإنما الرجل قد انبهر بسيرة هؤلاء وتأثر بهم، والكتابة عنهم لا تعد تحيزاً لقضية بذاتها، وإنما جاءت كتاباته كأنها تمثل رصداً للواقع، مع شيء من التصرف أحياناً، ومن قبيل الأمانة العلمية، فقد راح ينقل نصوصاً كاملة من مصادر أصلية، كسرحان بن سعد الأزكوي، بداية من تأريخه للأزد وانتهاء بعصر اليعاربة، وكتاب الأنساب للعتبي، ولم يغفل الكتابة عن أوجه النشاط الإنساني العماني عموماً منذ عصر الرسول ﷺ، بدون أن يتابع إسهامات أهل عمان في الحضارة الإسلامية، ولعل المراجع لم تسعفه في هذا الجانب، إلا أنه درس البيئة العمانية والأئمة ودورهم في حركة التاريخ ومشكلات الحرب والسياسة، شارحاً أحوال المجتمع العماني، وعوامل قوته وضعفه بأسلوب سهل بسيط، فضلا عن عنايته بضبط الروايات وتحقيقها(١).

---

(١) د. محمد صابر عرب، المنهج التاريخي في كتابات سالم بن حمود السيابي، حصاد أنشطة المنتدى الأدبي بعمان، ٨٩/ ١٩٩٠، ص ٣٣٧.

والعقيدة الدينية هى محور القضية برمتها فيما كتبه ابن رزيق، ولعله وهو يكتب عن عمان خلال العصر الأموى[1] قد أدرك أن قضية الاتفاق والاختلاف مصدرها القرب أو البعد عن الدين، وبما أن الأمويين قد أباحوا لأنفسهم ما يتعارض مع أساسيات الشريعة الإسلامية، ولذا فقد كان على أهل عمان أن يعيدوا النظر فى علاقتهم بالأمويين انطلاقاً من دوافع دينية خالصة، ومن ثم كانت الحرب التى زلزلت أركان الأمويين إلى عصر عمر بن عبد العزيز الذى استعمل على عمان عدى بن أرطأة الفزارى، ثم عزله واستعمل بدلا منه عمر بن عبد الله الأنصارى[2]، واللافت للنظر أن ابن رزيق عند الحديث عن عمر بن عبد العزيز قد أبدى احتراماً وتقديراً له، وأورد له كثيراً من المناقب التى تنم عن عقلية واعية وفكر مستنير، مما يؤكد أن موقف العمانيين من الدولة الأموية كان محوره العقيدة الإسلامية وأن عدل عمر وسيرته الكريمة وزهده وورعه كل ذلك قد دفع بأهل عمان إلى الانصياع لحكمه، وتتفق كل مصادر التاريخ العمانى على أهمية فترة عمر بن عبد العزيز، الذى استجاب لشكاوى أهل عمان وعزل عدى بن أرطأة الذى اشتط فى حكمه وتجاوز على حقوق الناس.

وإذا كانت العقيدة الدينية قد طبعت فى كتابات ابن رزيق بطابع مميز فلا يمكن أن ننحى الدوافع الوطنية جانباً، لأن سيرة عظماء الرجال وتجاربهم قد سيطرت على كتاباته، بحكم أن النفس الإنسانية تميل دائماً إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال، وهو نوع من الحوار التاريخى بين الماضى والحاضر، حيث تكمن التجربة التاريخية، ومن ثم يتعرف الناس على حقيقة هؤلاء من خلال سيرتهم التى تلهب المشاعر الوطنية وتحفز الناس للاقتداء بهم.

ويجوز لنا أن نقول: إن الماضى يختلف وفقاً لظروف كل عصر، وإن للأمة الواحدة تاريخاً واحداً، لكن تتباين الآراء فى تفسيره، ولذا فلابد لكل عصر من أن يعيد كتابة التاريخ وفقاً لما قد يظهر من وثائق ومخطوطات تضيف شيئاً جديداً، وفقاً للمصادر وأدوات البحث، ومقدرة المؤرخ على التحليل والتفسير.

ومما يضاعف من أهمية كتابات ابن رزيق وهو يؤرخ لعمان فى عصر النباهنة على

(١) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢١.

وجه الخصوص، أنه أدرك جوهر التاريخ من خلال ثقافة واسعة نحت به منحى فلسفياً عميقاً، حيث راح يتعرف على علل الحوادث، وأسباب قيام الدول، وأسباب سقوطها، ومظاهر العمران فيها، ولعله كان متأثراً بفيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته الشهيرة.

وتُعد كتابات ابن رزيق عن نبهان بن فلاح وحروبه ضد القبائل العمانية[١]، نموذجاً لتأثير المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها، فكان أهل السيرة والمغازى والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلى، وهو عادة شخص عدل، له علم مباشر بالواقعة المروية، أو أخذها من بعض مظانها، ككتاب قديم ضاع، أو من بعض أهل البادية، وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام، وهذه الطريقة التى اعتمد عليها ابن رزيق ضمنت له صحة الأخبار المتصلة بالأحداث التاريخية فى جوانب كثيرة.

وإذا كان الإسناد عند ابن رزيق هو أساس نقد الأخبار، فقد كان أساس ضبط رواياته هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام، تنوهو ما يبدو واضحاً فى كل ما كتب.

وعلى سبيل المثال فهو يحدد نهاية عصر النباهنة بقوله: «ولما كان ليلة الأربعاء لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ثمان وستين وتسعمائة، دخل بركات بن محمد بن إسماعيل حصن بهلا، وأخرج منه عبد الله بن محمد القرن»[٢].

والرواية التاريخية عند ابن رزيق تخضع أحياناً لكثير من المأثورات الشعبية، شأنه فى هذا شأن كثير من المؤرخين المسلمين، والرجل من منطلق أمانته العلمية يرجع مثل هذه الروايات إلى مصدرها، مثل قصة الصراع الذى دار بين سليمان بن سليمان النبهانى ومحمد بن إسماعيل، وهى قصة تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، وإذا كان ابن رزيق قد أشار إلى أنه سمعها من أكثر من شخص[٣] غير أنه لم يحققها تحقيقاً يتناسب وأهميتها، ولعل المصادر لم تمده بملعومات وافية.

---

(١) ابن رزيق، الفتح المبين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥، ص ٢٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٠.

(٣) انظر: ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة نعمان، تحقيق عبد المنعم عامر، ص ٨٦.

ولعل ابن رزيق كان متأثراً بما كتب عن سليمان بن سليمان النبهاني، الذي أجمعت كل كتب التراث العماني على أنه كان رجلا متجاوزاً على حقوق الناس، وكان متظاهراً بالفسوق، ونهاية القصة أن محمد بن إسماعيل قد قتل سليمان أو صرعه إلى الأرض وداس على صدره، وبقى عليلاً إلى أن مات[١] (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م).

ولا خلاف في أن محمد بن إسماعيل قد قتل سليمان بن سليمان النبهاني، لكن الذي لايمكن أن يكون مقبولا ما قيل من أن سليمان هذا كان يمع هاتفاً يحدثه بصوت مسموع عن قرب نهاية دولته، وهو قول لايستقيم، لكونه رجلاً فاسقاً وفقاً لقول ابن رزيق نفسه، الذي أشار إلى أنه استقى هذه الروايات من مصادر شفوية. ومن الثابت عملياً أن الروايات الشفوية تتعرض كثيراً للتحريف والإضافة، وتتداخل مع الروايات الشفهية كثيرٌ من الأساطير، ويوجد قدر من الأساطير في تاريخ كل أمة، مثل أساطير قدماء المصريين، وأساطير الفرس، والهنود، والرومان، والصقالبة، والجرمان.

وفي عهود الحضارة تستمر هذه الأساطير الشعبية، وحينما تبدأ أمة من الأمم في تدوين تاريخها لا تنتهي مثل هذه الروايات الشفوية، وعلى ذلك تنشأ النوادر أو القصص المسماه بالأساطير، مثل الإشاعات والحكايات التي تتركز حول بعض الشخصيات أو الحوادث، وفي حياتنا اليومية تُؤخذ الأقاويل على أنها حقائق، أو ـ على الأقل ـ على أنها تحتوى على عنصر من الحقيقة، والصحيح أن الأقاويل والإشاعات ربما تحتوى على عنصر من الحقيقة، ولكنها ليست كل الحقيقة، وأحياناً قد يتعذر التمييز بين الحقيقة والخيال، إذ قد يكون الخيال قريباً من الحقيقة بحيث يصعب التفرقة بينهما[٢].

وعلى الرغم من كل ما سبق فإن ابن رزيق ـ وبأمانة متناهية ـ ينقل ما قرأه أو سمعه، وعندما تتعارض الروايات يرجح رأياً على رأى، بدون أن يقطع بأن ما قال به هو الحقيقة المطلقة[٣]، وعندما يتعرض ابن رزيق لقصة الإمام ناصر بن مرشد يعتمد بشكل أساسى على ما كتبه سرحان بن سعيد الأزوى، لدرجة أنه يستطرد كثيراً فيما ذكر عنه من كرامات.

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ص ١٣٥، ص ١٣٦.
(٣) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

وعلى الرغم من أن كرامات الأولياء مسألة مقطوع بصحتها، لكنَّ إقحامها فى مجال التاريخ أمر لا يعتد به ولا يقيم دليلا، وإنما الذى يمكن الاستناد إليه هو عدله وحرصه على مصالح رعيته، والتزامه الصارم فيما يتعلق بأمور دينه، ومقدرته الفذة فى جمع القبائل العمانية وتوحيد صفوفها ضد البرتغاليين، حيث استطاع ـ وبمهارة شديدة ـ أن يحقق انتصارات هائلة ضد الطامعين فى احتلال بلاده، وضد الرافضين للوحدة العمانية التى تعد الدعامة الأساسية لقوة عمان وهيبتها.

وإذا كان ابن رزيق قد أمدنا كثيراً بمعلومات عن ناصر بن مرشد، فإنه ترك كثيرًا من المسائل المهمة، ومن بينها الحروب التى كان يخوضها ضد البرتغاليين بعد ان أجهز عليهم الفرس والإنجليز فى هرمز ١٦٢٢، والتحصينات الهائلة التى أقامها البرتغاليون فى مسقط، ومطرح، ومقدرة ناصر بن مرشد بإمكاناته المتواضعة من أن ينزل بهم هزائم ارهقتهم، وشتَّتت من جهدهم.

واللافت للنظر تزامن سقوط هرمز ١٦٢٢، مع قيام دولة اليعاربة ١٦٢٤، وكيف قدر للإمام ناصر بن مرشد أن يخوض صراعاً مريرًا ضد الفرس والبرتغاليين معاً، بحيث لم يبق للبرتغاليين عند وفاته ١٦٤٩ غير التحصينات المشرفة على مسقط ومطرح[1].

وتعد المعلومات التى أوردها ابن رزيق على درجة كبيرة من الأهمية فيما يتعلق بناصر ابن مرشد، لكن جاءت معظم هذه المعلومات متناثرة افتقدت إلى الترابط والانسجام، ولعل أجمل ما قيل شعرًا ما قاله ابن رزيق وهو يصور صواع الإمام ناصر ضد البرتغاليين ودعاة التجزئة من بعض القبائل العمانية:

أبادَ المشركين بسيف عدلٍ ... وأهلَ البَغْى فاقتضبوا اقتضابَا
سَقَى أسيافَه عَلَقَ الأعادى ... فما ضرموا بدورهم قبابا
فِمنْ صور إلى صير ظُبَاه ... تصب دماً وتنمو الانصبابا

والحقيقة أن ما كتبه ابن رزيق شعرًا يعد تصويرًا رائعاً لطبيعة الصراع الذى خاضه الإمام ناصر ضد أعدائه على جبهتين: إحداهما على السواحل العمانية، والأخرى ضد

(١) د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربى، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٠٥.

القبائل الرافضة لفكرة الوحدة، وهي معارك شرسة خاضها الإمام بمهارة وعبقرية، وما كتبه عبد الله بن خلفان بن قيصر يعد تصويرًا جميلا، يحمل في طياته حقائق تاريخية، جسدت كفاح هذا الإمام الذى استطاع أن يوحد القبائل العمانية بعد تجزئة دامت لأكثر من ثلاثة قرون، ولعل أجمل ما قيل شعراً:

إمام الورَى قُمْ فى الطغاة مجاهدًا   فإنك منصورُ السرايا على العدَا
فلازلت للإسلام شمساً منيرة   ولازلت للظُلْمَاء حتفاً مؤكدا

ويقول فى قصيدة أخرى:

لقد سارَ الإمامُ على النصارَى   بمسكد فى جَحافله نهارا
بجيش عَمَّ أقطار الفيافى   به الآفاق قد كُسِيَتْ غُبارا
فهَدَم سُورَها ومَحَا بروجًا   مُشَيَّدَةً بها ومحَا ديارا
وأيقنتِ النصارى مذ أتاها   بِطَمْس حيث لم يجدوا فرارا[1]

لقد استطاع ابن رزيق أن يقدم رؤية تاريخية للإمام ناصر من خلال تصور دقيق لطبيعة الصراع ضد البرتغاليين، الذى اصطبغ بالنزعة الدينية التى ضاعفت من رغبة العمانيين فى الاستشهاد دفاعاً عن عقدتهم ووطنهم، وإن كان لم يستطع تفسير كثير من الظواهر التاريخية التى مكنت الإمام ناصر من تحقيق كل هذه الانتصارات.

وابن رزيق بحكم ثقافته الواسعة لم يكتف وهو يؤرخ لعصر اليعاربة بمجرد التجربة التاريخية فى عمان، وإنما راح يستشهد من التاريخ العربى والإسلامى بكثير من المأثور شعرًا ونثرًا، مقتبساً من القرآن الكريم أحياناً، ومن السنة النبوية وسيرة الرسول فى أحيان كثيرة، حيث يتداخل التاريخ فى القصص والسنة النبوية فى السير والمغازى، ومن عيون الشعر العربى، وحكايات العرب، يقدم ابن رزيق كل ذلك بطريقة سهلة ميسرة تنم عن تذوق رقيق، وحس مرهف، ورؤية شاملة للمعرفة، وتعد قصيدته الرائعة «الشعاع الشائع» كتاباً تاريخياً دقيقاً حرصاً منه على تسجيل تاريخ بلاده شعرًا، بحكم أن الشعر أسهل حفظاً من النثر، وأن الرجل ـ حرص على أن يكون تاريخ بلاده قصيدة شعرية يتغنى بها العمانيون، وهى تجربة جميلة حرص عليها معظم المؤرخين العمانيين،

(١) عبد الله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٧، ص ٢٧، ص ٢٨.

وهى تمثل مرحلة نثقافية قَلَّت فيها الفروق بين الأدب والتاريخ لكى يُعبرا معاً عن الواقع بكل تداعياته، وهى رؤية إنْ صحت فى عصر بذاته فلا تصلح فى كل العصور، وخصوصاً بعد أن انفصلت المعارف، وأصبح التاريخ علماً قائماً بذاته له أصوله العلمية والمنهجية التى تختلف كثيراً عن الأدب.

وعموماً فإن ما كتبه ابن رزيق يعد مادة تاريخية لا يُستهان بها لكل من يريد أن يقف على تاريخ عمان، والرجل بحكم ثقافته قد اجتهد فى أن يقدم دراسة وافية لتاريخ عمان من خلال كتابيه الشهيرين: «القول المبين فى سيرة البوسعيديين»، و «الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان». والمعلومات الواردة فى الكتابين تكاد تقريباً أن تكون مكررة، إلا أنه قد توسع فى الكتاب الأول عن دولة البوسعيديين، فى حين جعل الكتاب الثانى مقصوراً على الأئمة، بداية من الجلندا بن مسعود وحتى نهاية عصر اليعاربة، لكن كتاب «القول المبين» يتميز بقدر كبير من المعلومات، ورؤية علمية اعتمدت على تحقيق الرواية إعمالا لمنهج علماء المسلمين المعروف بعلم الجرح والتعديل، إضافة إلى معايشته لفترة مهمة من تاريخ دولة البوسعيديين، مما طبع رواياته بالدقة والموضوعية، وخصوصاً فى الفترة التى عايشها بنفسه، واستقى معلوماته عنها من واقع مشاهداته اليومية، مما ضاعف من أهمية كتاباته التى تُعد أساساً لا غنى عنه لكل من يريد الكتابة عن دولة البوسعيديين.

والقراءة العلمية لما كتبه ابن رزيق عن أحمد بن سعيد البوسعيدى (مؤسس دولة البوسعيديين) تقدم معلومات وافية عن أوضاع عمان الداخلية، وخصوصاً فيما يتعلق بالعلاقات بين القبائل، إضافة إلى كثير من التفاصيل عن الإمام أحمد بن سعيد، خاصة فيما يتعلق بعدله وتنزهه عن الصغائر، ومقومات شخصية، وكل هذه المعلومات قد استقاها من شخصيات عاصرت الإمام أحمد، مثل الشيخ معروف بن سالم الصايغى، والشيخ خاطر بن حميد البداعى، وغيرهما(١).

ولكن اللافت للنظر أن كتابات ابن رزيق قد خلت من أية معلومات عن كيفية قيام دولة البوسعيديين، وكيف استطاع الإمام أحمد طرد الفُرس من ساحل الباطنة ١٧٤٤م، وعمّا إذا كانت ثمة علاقة بين مبايعته إماماً، ونجاحه فى طرد الفرس.. وتجمع المصادر

(١) القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٢.

التاريخية على أنه بعد نجاح الإمام أحمد فى هزيمة الفُرس سارع بعقد اجتماع مع رؤساء وشيوخ القبائل فى الرستاق، وإعلانه عن رغبته فى قيام حكومة عربية، ودعا رؤساء القبائل إلى اختيار أحدهم إماماً، إلا أنهم فضلوا مبايعته، لأنه الرجل الذى يرجع إليه الفضل فى تخليص عمان من سيطرة الغرب(١).

وتجمع المصادر التاريخية أيضاً على أن أحمد بن سعيد قد استطاع إدارة البلاد من خلال سلسلة من القوانين التى استنها، وإرساء قواعد اقتصادية وقضائية وإدارية، وتكوين جيش منظم أشرف بنفسه على إعداده، وكل هذه أمور كانت جديرة بالاهتمام من ابن رزيق، غير أنه عنى كثيرًا بالحروب الداخلية التى استغرقت جهدًا كبيرًا من الإمام أحمد، وكانت موضع تقدير من كل القبائل العمانية، التى بهرتها كل تلك الإنجازات الضخمة(٢).

وتبدو أهمية كتابات ابن رزيق فيما يتعلق بفترة حمد بن سعيد بن الإمام أحمد ١٧٧٩/ ١٧٩٣، فلم يذكر الأزكوى فى كتابه الشهير «كشف الغمة» شيئاً عن حمد بن سعيد، ولم يشر إلى استقلاله بمسقط، ولا إلى جهوده فى توحيد القبائل العمانية، بل ذكر أن الإمام سعيد بن الإمام أحمد قد توفى فى حياة ابنه حمد، وهو ما يتعارض مع ما ذكرته المصادر التاريخية التى أجمعت على أن حمد هو الذى توفى فى عهد ولده، الذى رثاه فى قصيدة شهيرة مطلعها:

وافَى حِمامُك يا حبيبى بالعَجَل   نار تَوَقَّدُ فى الضمير وتشتعل(٣)

ويذكر مصدر عمانى آخر أن حمد بن سعيد بن الإمام أحمد كان ذا سمعة حسنة، واحبه أهل عمان، غير أنه لم يذكر شيئاً عن انفراده بحكم عمان، ما عدا الرستاق التى اتخذها والده مقرًا له(٤).

أما ابن رزيق فقد أضاف كثيرًا من المعلومات التى يفهم منها أن حمد بن سعيد بن الإمام أحمد قد تولى الإمامة فى زمن أبيه الذى تنازل له عنها طواعية بعد أن استقر به

(١) د. جمال زكريا قاسم، دولة البوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ - ١٨٦١، القاهرة ١٩٦٨، ص ٤٦.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٨.
(٣) عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى، إصدار شركة الزيت العربية الأمريكية، ص ١٦.
(٤) ابن رزيق، القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، ص ٤١٤.

المقام في الرستاق، واستقر حمد في مسقط، ثم ذكر كثيراً من التفصيلات عن صراعه مع عمه سلطان بن أحمد، وحروبه ضد كثير من القبائل التي راحت تتحين الفرص للاستقلال بولايتها بعيدًا عن سلطة الدولة، ويؤكد ابن رزيق أن الإمام حمد كان يعد العدة للتوسع خارج عمان، وكان دائم التفكير في ممبسة وبمباي، ولكن كان يرى أن ضمهما إلى عمان لن يتحقق إلا بعد أن يبرم صلحاً مع عمه سلطان بن أحمد، وهو ماتحقق بالفعل، لكن لم تسعفه المنية، فتوفي ما بين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٩٣[١]، وينفرد ابن رزيق بأنه المصدر الوحيد الذي أسعفنا بمعلومات وافية عن الإمام حمد بن سعيد، ويبدو أنه استقى هذه المعلومات من المعاصرين لتلك الفترة الذين أجمعوا على أن حمد ابن سعيد قد تميز بصفات أهلته لكي يكون جديرًا بإمامة عمان. وفي كتابات الشيخ السالمي إشارات كثيرة عن جهوده في جمع شتات القبائل العمانية، لكن ليس بصفته إماماً، ولكن بصفته نائباً عن والده الإمام سعيد بن أحمد[٢].

ويلاحظ على ضوء ما ذكرته المصادر العمانية التي أغفلت هذه الفترة المهمة من تاريخ عمان، أن الإمام سعيد بن أحمد قد قوبل بمعارضة شديدة من معظم القبائل العمانية، وأن كثيرًا من المدن قد استقل بها ولاتها، وأن محاولات قد بذلت لتنصيب قيس بن الإمام أحمد إماماً بدلا من شقيقه، وأن محمد بن خلفان بن محمد البوسعيدي قد انفرد بمسقط وضواحيها، وباتت إمامة سعيد بن أحمد عرضة لمخاطر كثيرة، ولعل حمد بن سعيد قد أدرك أن إمامة والده في الرستاق قاب قوسين أو أدنى من الضياع، ولذا فقد اتفق مع والده على أن يتخذ من مسقط مقرًا للحكم على أن يباشره بنفسه، وأن يبقى الوالد مقيماً في الرستاق، التي اتخذها مقرًا لإمامته، وأن يتولى حمد الذي عُرف بدهائه حكم عمان، وأن يمارس كل سلطاته في جميع الشئون بحكم ثقة أهل عمان فيه، بسبب ما كان يتمتع به من سمعة طيبة.

ويبدو أن ذلك قد حقق فوائد كثيرة، فقد نجح حمد بن سعيد في استرداد مسقط، وكل المناطق المجاورة لها بعد أن استبعد محمد بن خلفان، الذي كان قد استقل بها، وأقبلت القبائل العمانية على مبايعته، لكن ليس صحيحاً أن حمد قد نصب نفسه إماماً، لأنه ليس من المعقول أن يقدم على هذه الخطوة ووالده إمام في الرستاق.

(١) نور الدين السالمي، تحفة الأعيان لسيرة أهل عمان، جـ٢، ص ١٧٨.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢١٠.
(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٧٦.

والحقيقة أن ابن رزيق قد أشار إلى استقلال سعيد بن أحمد بالرستاق، وأن ابنه حمد قد تملك حصون عمان كلها، ولم يوضح هل تنازل الوالد لولده عن الإمامة أم أنه كان يحكم عمان نيابة عن والده، ولعل الاحتمال الثانى هو الأرجح، لأن علاقة الوالد بولده قد استمرت، وكان كلاهما يزور الآخر ويتشاوران فى شئون الحكم والسياسة مما يضاعف من قناعتنا بأن الإمام سعيداً كان إماماً فى الرستاق التى كانت عاصمة للإمامة وقتئذ، وأن «مسقط» قد أصبحت عاصمة للسياسة تدار بواسطة الابن الذى نجح بمهارة فى إدارة شئون البلاد بعد أن نجح فى كسب ود القبائل العمانية.

وعلى العموم فإن ابن رزيق على الرغم من أنه كان قريباً من هذه الفترة، وقد أورد معلومات كثيرة تعد على درجة كبيرة من الأهمية، فإنه لم يحسم هذه القضية وتركها رهن اجتهاد الباحثين والمؤرخين.

وبوفاة حمد بن سعيد استطاع سلطان بن أحمد انتزاع مسقط والمناطق المجاورة لها، ولم يعمل على عقد الإمامة لنفسه، وإنما ظل سعيد يقوم بها فى الرستاق[١].

وفى تاريخ دولة البوسعيد قضايا على درجة كبيرة من الأهمية، وعلى الرغم من معايشة ابن رزيق لها فإنه لم يتعرض لها، فى حين اهتم بجوانب أخرى مثل المشاكل الداخلية فى عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦)، والتى استغرقت فترة طويلة من حكمه، والتى تركت آثارها على علاقاته مع السعوديين الغاضبين عليه لمقتل حليفهم بدر بن سيف، والطامعين فى الاستيلاء على عمان، إضافة إلى ما واجهه السيد سعيد بن سلطان من محاولات الانفصال عن الدولة من عمومته وأبنائهم، وثورات القبائل، وقد تناول ابن رزيق الكثير من هذه الموضوعات بالتفصيل الدقيق بدون أن يذكر شيئاً عن موضوعات أخرى على درجة كبيرة من الأهمية، مثل علاقة السيد سعيد بن سلطان بالقواسم، ولم يوضح أيضاً موقف عمان من التنافس الإنجليزى الفرنسى وقتئذ.

وعلى الرغم من كل المشاكل التى واجهت السيد سعيد بن سلطان فإنه استطاع أن يثبت من نفوذه فى شرق إفريقيا، وبناء أول إمبراطورية آسيوية إفريقية فى تاريخ العرب الحديث، وكنا نأمل من ابن رزيق أن يوضح لنا كيف تم ذلك؟

---

(١) دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

وعلى العموم فقد أفادنا ابن رزيق كثيراً فى فهم التركيبة الاجتماعية للقبائل العمانية، ومقدرة السيد سعيد بن سلطان على احتواء التكتلات القبلية التى كادت أن تعصف بدولته.. إن قوة عمان تتمثل فى وحدتها، وكل فترات الازدهار عبر التاريخ العمانى تكمن فى مقدرة الحاكم على السيطرة على أطراف عمان ونفوذها، باعتبار ذلك هو مفتاح النصر الحقيقى، حدث ذلك فى عهد ناصر بن مرشد مع قيام دولة اليعاربة، وحدث ذلك فى عهد أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين، وحدث ذلك أيضاً فى عهد سلطان بن أحمد، وكان السيد سعيد بن سلطان أشد حرصاً على الاستفادة من هذه الدروس التاريخية، ولذا فقد استخلص ما كان لليعاربة من نفوذ فى مقاطعة نخل، ونجح فى انتزاع «صحار» بعد وفاة عمه قيس، وامتدت سيطرته على الرستاق العاصمة الدينية لعمان عقب وفاة سعيد بن الإمام ١٨٢١[(١)]، غير أنه لم يستطع أن يحافظ على هذه الاستراتيجية لفترة طويلة بسبب توسعاته فى شرق إفريقيا، إضافة إلى التحديات الخطيرة التى أحاطت به من جراء غزوات السعوديين، وتنافس الإنجليز والفرنسيين.

وعلى ضوء كل ما سبق فإنه من الصعب على ابن رزيق أن يكتب تاريخ عمان كاملاً، فإن ذلك فى حاجة إلى جهد هيئات علمية كبيرة، ولكن الرجل قد قدم جهداً مشكوراً يتناسب وإمكاناته العلمية، وأدوات البحث التى اعتمد عليها، من مخطوطات وروايات شفوية حرص المؤلف على الإشارة إليها كلما كان ذلك ممكناً، وما ذكره ابن رزيق ليس هو القول الفاصل فى تاريخ عمان، وخصوصاً فى كتاباته عن دولتى اليعاربة والبوسعيديين، فمن الواضح أنه اعتمد فى كتاباته على مصادر عمانية، سواء شفوية أو مخطوطة، ولم يتح له الاطلاع على المصادر البرتغالية، وكتب الرحالة والقناصل فى عصر اليعاربة، وكذا الوثائق الإنجليزية والفرنسية عن عصر البوسعيد، ومن ثم فقد اتسمت كتاباته عن هذين العصرين بالطابع المحلى، فمعلوماته عن القبائل والأئمة والحروب الداخلية غاية فى الأهمية، لكنه قليل التعرض للعلاقات الخارجية، وعمان بحكم موقعها الحساس دومًا لها علاقات تصالح وتصادم خلال تاريخها الطويل، ومعرفة وجهة النظر الأخرى تعد على درجة كبيرة من الأهمية، وما كتبه ابن رزيق يعد مادة تاريخية خصبة يمكن الاعتماد عليها فى ضوء الوثائق والمخطوطات وتوظيف ذلك

---

(١) Aitchison, A Collection of Treaties and Sands relating to India and Neighbouring Coutries,Vol.p.205.

كله بطريقة علمية تعتمد على النقد والتفسير والاستقصاء، وأعتقد أن ابن رزيق لو كان يعيش بيننا الآن لأعاد النظر في كثير مما كتب تقديراً منه للحقيقة التاريخية التي كان يهدف إليها.

وكتابات الرجل تتناسب تماما مع عصره، حيث لم يكن المنهج التاريخي قد استقرت قواعده بعد، وكانت الكتابة التاريخية تعتمد على مناهج المحدثين تحقيقاً ونقداً، ولذا فإن ما كتب يمكن النظر إليه على ضوء العصر الذي كتبت فيه ثقافة وفكراً ومنهجاً وتوثيقاً. . . الخ.

إعمال المنهج في الصيغة التاريخية:

يُعَرَّفُ منهج البحث التاريخي بأنه المراحل التي يسير عليها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية قدر المستطاع، وتتحدد القيمة العلمية للتاريخ المكتوب وفقاً لقدرة الباحث على الدرس والبحث، وقدرته على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر، وطريقته في استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وصياغتها، وابن رزيق قد انطلق من فكرة تواصل التاريخ وربط الماضي بالحاضر من خلال حركة تناسق وانسجام، بحيث تعد كل مرحلة مقدمة منطقية للمرحلة التي تليها بشكل متناغم يجذب القارئ ويدفعه إلى مواصلة القراءة.

وما كتبه ابن رزيق في كتابيه: «القول المبين»، و«الشعاع الشائع»، يعد مثالا واضحاً لإعمال هذا المنهج، حيث يبدأ في الكتاب الأول بأصل البوسعيديين وجذورهم الممتدة إلى قبيلة الأزد العربية الشهيرة[1]، واعتقاداً من ابن رزيق بأن الأسلوب المختصر ربما يحول دون فهم المراد، فقد أخذ بناصية الثقافة العربية، وراح يدلل من التراث العربي شعراً ونثراً على شموخ الأزد وكرمهم، وامتداد أصولهم عبر التاريخ العربي السحيق.

وبما أن ابن رزيق ذواقة للشعر، ملماً دقيقاً بتراث العرب، لذا فقد حرص على أن تكون صياغته للنص التاريخي مزودة برائحة ذلك التراث، ولذا فقد أتى بأجمل ما قاله العرب شعراً وخصوصاً شعر امرئ القيس الذي استشهد به ابن رزيق كثيراً وهو يتتبع أصول الأزد وأشهر رجالاتهم، ولعله كان يهدف إلى وضع الصيغة التاريخية في إطار فني لجذب القارئ ودفعه إلى تتبع الأحداث دون كلل أو ملل، أو أن ثقافته الأدبية

(١) القول المبين في سيرة البوسعيديين، مصدر سبق ذكره، ص٣.

التراثية قد طغت على ثقافته التاريخية، فتداخل الأدب فى التاريخ، وامتزج التاريخ بالقصص، مشيراً إلى مصادره التاريخية أحياناً، والأدبية فى أحيان كثيرة، فى محاولة جادة لمعرفة الأسباب والعوامل التى أدت إلى حدوث الوقائع التاريخية، والبحث فى تعليل الحوادث وإيضاحها، ولذا فقد راح يذكر عوامل خروج امرئ القيس إلى قيصر الروم يستنصره على المنذر بن ماء السماء[١].

ولم يكتف بمجرد ذكر الرواية التاريخية وتتبعها، وإنما أورد ما يمكن أن نسميه بالتجربة التاريخية، حيث أراد أن يقول: إن من استنجد بغير أهله ذل، ولا يمكن أن يكون ابن رزيق قد أورد مثل هذه القصة من باب التسلية فقط.

والمتتبع لما كتبه ابن رزيق - وخصوصاً فى كتابه «القول المبين» - يشعر بأن الرجل قد سلك منهجاً لايختلف عن منهج المؤرخين المسلمين الذين برعوا فى الكتابة عن بلادهم كنتيجة طبيعية لارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه، ويذكر المؤرخ أبو الحسن السلامى (ت ٣٧٤هـ) فى كتابه «أخبار ولاة خراسان» أن «من الواجب على صاحب المعرفة من أهلها أن يعلم جمل أبنائها، ويحفظ أيام أمرائها، لا شىء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه، ويكون كمن ترك الواجب وتبع النوافل»[٢].

وابن رزيق استجابة لدوافع دينية ووطنية فقد عنى بتاريخ بلده سياسة وإمامة وشعباً بطريقة سهلة اعتمد فيها على كتابات مؤرخين سابقين، ولعله قد قرأ المِقَّرى، وتأثر برسالة أبى على الحسن بن الربيع التميمى القيروانى إلى ابن حزم القرطبى، والتى جاء فيها «أنهم فى غاية التقصير، ونهاية التفريط؛ من أجل أن علماء الأمصار، دونوا فضائل أمصارهم، وخَلَّدُوا فى الكتب مآثر بلدانهم، وأخبار الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاء والعلماء، فأبقوا لهم ذكراً فى الغابرين، وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم فى ظله لايبرح، وراتب على كعبه لا يتزحزح، يخاف إنْ صنَّف أن يعنف، وإنْ ألَّفَ أن يخالف ولا يؤالف، أو تخطفه الطير، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، لم يتعب أحد منهم نفساً فى جمع فضائل أهل بلده، ولم يستعمل خاطره فى مفاخر ملوكه، ولا بَلَّ قلما بمناقب كُتَّابه ووزرائه، ولا سود قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه»[٣].

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٦.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٠٥.

(٣) المقّرى، نَفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، جـ٤، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٥٣.

واعتزازًا من ابن رزيق بعروبته فقد أخذ يتنقل بين مصادر التراث مستشهدًا بالقرآن أحياناً وبالأحاديث التى رواها جابر بن يزيد فى أحيان كثيرة، وبقصص العرب وحكاياتهم ومآثرهم فى معظم الأحيان.

ويبدو أن الرجل كان مدركاً طبيعة المهمة التى كان يقوم بها، وخصوصاً فى مجال تاريخ علماء الأزد وما خلفوه من تراث أسهم بشكل فَعَّال فى تكوين الحضارة الإسلامية، وقد تَمَلَّكَ الرجلَ قَدرٌ من الشموخ بسبب ما حفلت به كتب التراث من دور رائع للأزد، ومن ثم فقد أخذ يتتبع دورهم فى العلوم العربية والإسلامية كافة، غير أن ما يُؤخذ عليه أنه فى أحيان كثيرة يميل إلى تصديق كل المعلومات التى قرأها أو سمع بها، وهذا معناه أن كل مُدَوِّنى الأصول التاريخية لم يخطئوا على الإطلاق، ولم تخف عنهم خافية، وهذا شىء غير صحيح.

لعل من أساسيات المنهج التاريخى أن الشك نقطة البدء فى أى بحث علمى، وابن رزيق قد جمع كماً هائلا من المعرفة التاريخية، واعتمد فى نقدها على فراسته الشخصية، متسلحاً بمناهج المسلمين الأوائل فيما يتعلق بتحقيق الرواية، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرًا من المعلومات قد أوردها بدون تحقيق، مما يؤكد قناعته بصدقها.

ولا يعيب ابن رزيق أنه استشهد كثيراً بالشعر والادب، لأن الأدب عموماً يقدم لنا تصورًا عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية، إضافة إلى أن الشعر أدَّى دوراً مهمًا فى حفظ الأنساب والمآثر العربية، وهو سجل حافل لأيام العرب ووقائعهم، وهو يعين الباحث فى التاريخ على تصور ما كانت عليه الحياة، وكثيرًا ما يتضمن أسماء أعلام ووقائع وأحداث.

ولذا فإن ابن رزيق حينما عزم على كتابة تاريخ أئمة عمان شعرًا نزولا على رغبة أحد أصدقائه[1]، فإن ذلك كان فرصة لحفظ الوقائع والأحداث التاريخية، على اعتبار أن الشعر أسهل حفظاً من النثر، على الرغم من أنه لم يكتف بذلك، بل أخذ فى شرح القصيدة، بهدف توضح ما يصعب تناوله شعرًا.

(١) وهى القصيدة المسماه «الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان»، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر وزارة التراث القومى فى عمان، ١٩٧٨.

وعلى الرغم من أن المنهج التاريخي الحديث لا يأخذ بهذه الطريقة، بحكم أن الدراسة التاريخية تعتمد فى أساسها على النقد والتفسير والتحقيق، فإن ما أتى به ابن رزيق فى قصيدته هذه من شرح وتوضيح قد أكمل القصور الناجم عن كتابته تاريخ الأئمة شعراً.

والقارئ لشروح ابن رزيق يحار فى ثقافة الرجل الموسوعية، فهو يتنقل بنا بين علوم اللغة والحديث والتاريخ بطريقة سهلة ممتعة، تضفى على شعره قدراً من الجمال والدقة.

وبتواضع العلماء يعترف بأنه ليس شاعراً، ولكن مطلع قصيدته تنم عن مقدرة وتذوق وموسيقى وثقافة تجعل من الرجل قاسماً مشتركاً للباحثين فى مجال التاريخ والأدب والعلوم الإسلامية، ويقول ابن رزيق فى مطلع قصيدته:

عمان عن لسان الحال ردِّى جواباً منك لى، أرجو الجَوابَا
أما عين إليك لها دموع عَلَى مَنْ جسمهم أضْحَى تُرابَا

ولعل أجمل ما قيل:

أئمة أُمَّةٍ كانوا فَبانُوا كَغَيْمٍ صُبَّ فَانْقَشَع انْجِيَابَا
أقاموا العدل بالعزم المُفَدَّى إلى المعوج ينخفض انتصابا
سَقَوْا أسيافَهُمْ بِدَمِ الأعادِى وما أَصْدَوْا بِطَعْنِهِمُ الحِرَابَا

وابن رزيق قد نظم هذه القصيدة بعد أن ألف كتاب «القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين»[1].

وفى أحيان كثيرة يبدو أنه قد خرج عن هدفه الحقيقى ـ وهو التأريخ لأئمة عمان ـ حيث يأتى بمعلومات تاريخية ولغوية وفقهية قد تبدو بعيدة عن المعنى الذى يهدف إليه، إلا أنه ما يلبث أن يعود رابطاً ذلك كله بالمعنى الذى يقصده بطريقة سهلة جميلة، مما يدفعنا إلى القول بأن المنهج التاريخى ليس نظرية جامدة، وإنما هو قواعد مرنة، يمكن أن نختلف حولها، فلكل شيخ طريقة طالما أن الغاية واحدة، وهى الوصول إلى معرفة تاريخية أقرب إلى الواقع، قد يكون ذلك شعراً أو نثراً أو شعراً ونثراً معاً، وتدفق

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

معلومات ابن رزيق وثقافة عصره قد أملت عليه هذه الطريقة، التى ربما اختلفنا حولها. إن ما تركه الرجل يعد ثروة تاريخية لا يستهان بها، وعلى الباحثين الذين يعتمدون على منهج البحث الحديث أن يعيدوا ترتيب وتنسيق ما كتبه ابن رزيق، وأن يستخلصوا منه ما يصلح لكى يكون تاريخاً أو فقهاً أو أدباً.

وابن خلدون قد أدرك عامل الزمن واختلاف العصور حين أكد أنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها المؤرخون غفلتهم عن تبدل الأحوال بمرور العصور والأيام، واعتقادهم أن أحوال العالم فى عصرهم هى نفسها فى العصور الماضية لم تتغير، فيحكمون على الشخصيات التاريخية القديمة على أنها معاصرة لهم، فيقول: «ومن الغلط الخفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف عن الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال»[(١)].

فمن الخطأ البين أن نحكم على منهج ابن رزيق بنفس المقاييس التى نحكم بها على الكتابات المعاصرة، فلم يكن فى زمن ابن رزيق ما يمكن أن يكون منهجاً مستقلا للتاريخ، وإنما خضعت الكتابة التاريخية فى أكثر الأقطار العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر لاجتهادات شخصية وفقاً لثقافة كل مؤرخ وإمكاناته العلمية، ولم تكن هناك قواعد ثابتة إلا ما خلفه علماء الحديث من قواعد لتحقيق الرواية تصلح فى مجال الحكم على الرجال ورواياتهم، لكن لاتصلح فى تفاصيل تحقيق الأحداث التاريخية بمعناها العام.

وعموماً فإن ابن رزيق قد سد فراغاً كبيراً فى المكتبة التاريخية، فالدراسات التاريخية السابقة عليه مثل «كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة» للأزكوى[(٢)]، وما كتبه محمد بن عريق العدوانى.. الخ قد تميزت بالاختصار الشديد، بدون نقد أو تحقيق، إضافة إلى أن جميعها قد وقفت عند نهاية عصر اليعاربة، بعكس ابن رزيق الذى تناول تاريخ عمان كله تقريباً على طريقة الكتابات الموسوعية، صحيح أنه عنى بشكل ملحوظ بتاريخ عمان

(١) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٥٤.
(٢) كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القيس، نشر وزارة التراث القومى فى عمان، ١٩٨٠.

المحلى، لكن حتى هذه المحلية كانت من السمات الأساسية التى تميزت بها الكتابات التاريخية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ليس فى بلاد العرب فقط وإنما فى أوربا نفسها، حيث عنى المؤرخون بالتاريخ المحلى لبلادهم، مما أوقعهم فى عيوب ثلاثة: خطأ فى القصد، ونقص فى التصور، وعجز فى الطريقة، أما أن القصد كان خطأ فلأن التاريخ لم يكتب لذاته، بل كُتب لتأييد مصالح سياسية أو دينية، حتى فولتير لم يتورع عن تسخير علمه فى مناوأة رجال الدين[١].

وكانت كتابات الفيلسوف الإنجليزى «هيوم» عبارة عن نشرة من نشرات حزب المحافظين. أما أن التصور كان ناقصاً، فلأن المؤرخين الأوربيين قد أسرفوا فى نزعتهم المحلية والطائفية غير عابئين بغير بلادهم، وسيطرت عليهم العصبية الطائفية. غافلين عن ميادين أخرى كالاقتصاد والاجتماع والفن، وكانوا مسرفين فى أخذ الناحية الفردية من التاريخ، لأنهم كانوا يعنون بالملوك والملكات والقواد، بصرف النظر عن أحوال الشعوب وتأثيرها فى حركة التاريخ، وقد كانت كتاباتهم قاصرة، حيث سَلَّمَ المؤرخون بكثير من الأخبار بدون نقد أو تحقيق، ولم يعنوا العناية الكافية بجمع المصادر.

ويؤرخ لمدرسة النقد الحديث ابتداء من سنة ١٧٩٥، حين كتب العالم الألمانى «وولف» Wolf دراسته الشهيرة «مقدمة هوميروس»، التى لم تكن بحثاً تاريخياً، وإنما كانت بحثا لغوياً أدبياً توصَّل كاتبه من أن الإلياذة والأوديسة لم يكتبها هوميروس، واهمية ما كتبه «وولف» تكمن فى إمكانية استخراج معلومات مهمة وخطيرة من الوثائق القديمة متى درسناها بطريقة نقدية، وتلقف كثير من المؤرخين فى أوربا مذهب النقد الذى وضعه «وولف»، وظهر فى ألمانيا «ليوبولد فون رنكى» الذى توفى ١٨٨٦.

وفى فرنسا طبق مذهب النقد الحديث حينما تأسست مدرسة الوثائق ١٨٢١[٢]، ومن أقدم تلاميذها «جيرارد» Guerard، ولويس Quicherat وقد سار على نهجهما جبريل مونود Monod، وجوليان هافت Havet، ثم انتقلت مدرسة النقد من ألمانيا وفرنسا إلى إنجلترا، وتمثل ذلك فيما كتبه هنرى، هلام Henri, Hallam فى كتابه الشهير «تاريخ

(١) هونشو Pyoff J. C., Hearnshaw، ترجمة وتعليق عبد الحميد العبادى، سلسلة المعارف العامة، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٧٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٨٢.

إنجلترا الدستورى» (١٨٢٧)، ثم جاء إثْرَ هؤلاء الرواد عدد من العلماء قدروا أهمية المنهج العملى. ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الدراسات التاريخية فى أوربا وأمريكا قد قطعت شوطاً كبيراً معتمدة على قواعد النقد الحديث، فظهر فى إنجلترا وليم استبز Istubbs (١٨٢٥ - ١٩٠١) ومندل كريتون Griegnton (١٨٤٣ - ١٩٠١) وغيرهما.

وفى الولايات المتحدة ظهر جورج بنكروفت Bancroft (١٨٠٠ - ١٨٩١) وفرنسيس ليبير Lieber (١٨٠٠ - ١٨٧٢).

وهكذا لم تتبلور مدرسة النقد التاريخى بأصولها وقواعدها فى أوربا وأمريكا إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ولذا فإن ما كتبه ابن رزيق عن تاريخ عمان يعد جهداً مشكوراً، حيث تمكن من جمع المعلومات التاريخية، التى كانت مبعثرة فى ثنايا المخطوطات القديمة، وتمكن من تنظيمها وتحقيقها بما يتناسب وثقافة عصره وإمكاناته، وهو جهد لا يمكن تصوره إلا بالوقوف على صعوبة أدوات البحث المتاحة وقتئذ، وبمقارنة ابن رزيق بالمؤرخين المصريين فى نفس الفترة مع نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، نلاحظ أن تاريخ مصر قد اكتنفه الغموض، ولم يظهر مؤرخٌ يمكن أن نقول عنه إنه استطاع أن يرصد الواقع المصرى بدقة علمية، باستثناء الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى سجل الواقع بطريقة علمية من خلال كتابه الشهير «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار». أما مؤرخو مصر خلال العصر العثمانى فلم تتعد كتاباتهم عن مجرد الإشارة إلى وصول باشا جديد إلى مصر، أو قيام المماليك بعزله، أو تدوين الصراعات والفتن التى دارت رحاها بين الفرق العثمانية.

ومن الظواهر المشتركة لمؤرخى مصر خلال العصر العثمانى أنهم ضَمَّنُوا كتبهم قدراً كبيراً من المعارف العربية والإسلامية، بداية من ميلاد الرسول عليه السلام، ومروراً بالعصرين الأموى والعباسى.

وعلى ضوء كل ما سبق، فإن ما كتبه ابن رزيق جديرٌ بأن يُنظر إليه على ضوء العصر الذى كُتب فيه، وبمقاييس المصادر التى اعتمد عليها، ومن الظلم أن نحكم على كتاباته وفقاً للمناهج المعاصرة، التى لم تكن قد عُرفت حتى فى أوربا نفسها. وعلى

الأجيال الواعدة من شباب عمان أن يعيدوا ما كتبه ابن رزيق، وأن يستخلصوا ما يمكن أن يكون تاريخاً بالمعنى العلمي. وسيبقى ابن رزيق دوماً رجلاً مخلصاً لعقيدته ولوطنه، اجتهد قدر إمكاناته وظروف عصره، فكان ذلك كله ثمرة جهده وإخلاصه.

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ أبو ورده عبد الوهاب السعدنى (دكتور)، المؤرخون فى مصر فى العصر العثمانى إلى ظهور عبد الرحمن الجبرتى، دكتوراه غير منشورة، من قسم التاريخ والحضارة، جامعة الأزهر، ١٩٨٨.

٢ ـ أحمد حمود المعمرى، عمان وشرق إفريقيا، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان ١٩٨٠.

٣ ـ أحمد صبحى منصور (دكتور)، التاريخ والمؤرخون القاهرة، ١٩٨٤.

٤ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور)، دولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١، القاهرة ١٩٦٨.

٥ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور)، الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول، القاهرة ١٩٨٥.

٦ ـ ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخى، ٧ مجلدات، الدوحة، ١٩٦٧.

٧ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور) التاريخ والمؤرخون العرب، القاهرة، ١٩٨٧.

٨ ـ حميد بن محمد بن رزيق، القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، وزارة التراث القومى، سلطنة عمان، ١٩٧٧.

٩ ـ حميد بن محمد بن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، وزارة التراث القومى، سلطنة عمان، ١٩٧٨.

١٠ـ حسن عثمان (دكتور)، منهج البحث التاريخى، القاهرة ١٩٧٦.

١١ـ أرنولد ويلسون، الخليج العربى، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان.

١٢ـ أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، سلسلة أعلام العرب، عدد ٦٣، القاهرة ١٩٦٦.

١٣ـ سالم بن حمود السيابى، إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم، دمشق ١٩٧٦.

١٤ـ سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القيسى، سلطنة عمان، ن ١٩٨٠.

١٥ـ سعيد بن على المغيرى، جهنمية الأخبار فى تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، سلطنة عمان.

١٦ـ شركة الزيت العربية الأمريكية، عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى، القاهرة، ١٩٥٥.

١٧ـ شوقى عطا الله الجمل (دكتور)، علم التاريخ، القاهرة، ١٩٨٢.

١٨ـ شحاتة محمد إسماعيل (دكتور)، منهج البحث فى التاريخ اليونانى، القاهرة، ١٩٨٥.

١٩ـ صلاح العقاد (دكتور)، التيارات السياسية فى الخليج العربى، القاهرة ١٩٧٤.

٢٠ـ عبد الله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد القيسى، سلطنة عمان، ١٩٧٥.

٢١ـ نور الدين السالمى، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مجلدان، طـ٥، القاهرة، ١٩٧٤.

٢٢ـ هـ. أ. مارو، من المعرفة التاريخية، ترجمة جمال بدران، القاهرة، ١٩٧١.

٢٣ـ هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادى، القاهرة، ١٩٤٤.

* * *

ردود الفعل الدولية على اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت

تُعَدُّ اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت التى عقدت عام ١٨٩٩ بين بريطانيا والشيخ مبارك من أبرز الاتفاقيات السياسية فى تاريخ الكويت الحديث، والتى أدت دورًا مهمًا فى مجال العلاقات الدولية على المستويين المحلى والإقليمى ثم المستوى الدولى.

وانطلاقًا من سَعْيِ الباحث إلى تتبع ودراسة تاريخ الكويت الحديث فى محاولة لإعادة كتابة هذا التاريخ بصورة شاملة ومتكاملة، ومن خلال المصادر الأصلية المتمثلة فى الوثائق التى تمكن الباحث من الحصول عليها من دور الوثائق فى الجانبين العثمانى والبريطانى، إلى جانب مركز الوثائق التابع للديوان الأميرى فى دولة الكويت، فقد استطاع الباحث دراسة وتحليل وتقييم تلك الوثائق فى ضوء الظروف المحيطة بها، ومن خلال معطيات العلاقات الدولية فى تلك الفترة من تاريخ الكويت الحديث.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة ردود فعل الدول الأجنبية على عقد اتفاقية الحماية البريطانية على الكويت، وبخاصة كل من الدولة العثمانية والدول الأوربية التى كان لها مصالح خاصة فى الكويت، وذلك من أجل الوصول إلى جميع الحقائق التاريخية المتصلة بتلك المرحلة المهمة من تاريخ الكويت.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف تم تقسيم هذا البحث إلى أقسام أربعة، بحيث يمهد القسم الأول لهذا البحث بشرحٍ وتوضيحٍ لانعكاسات اتفاقية الحماية البريطانية على مكانة الكويت الدولية. فى حين يتناول القسم الثانى ردود فعل الدولة العثمانية، وهى الدول التى كانت تسعى دائماً لفرض نفوذها وسيطرتها على الكويت بكل الوسائل، ويبين هذا القسم ردود الفعل المستمرة العثمانية وتطورها من محالولات لكسب ود أمير الكويت بوسائل شتى، إلى استخدام القوة ضده عندما تفشل فى ذلك.

أما القسم الثالث، فيتابع موقع روسيا من الاتفاقية، ويوضح تضامنها مع الدولة العثمانية، وذلك سعيًا لتحقيق أهدافها الخاصة بالكويت، ومنها محاولة الوصول إلى منطقة الخليج، واختيارها للكويت كمحطة ومستودع للفحم، ونقطة نهاية لخط حديد كابنست.

كما يتعرض القسم الرابع إلى موقف ألمانيا ورد فعلها على اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت، ويوضح أن موقفها كان يتفق تماماً مع مصالحها الخاصة، وأن مساندتها للدولة العثمانية كان يهدف إلى المحافظة على مصالحها الخاصة فى الكويت، وبخاصة من سكك حديد برلين بغداد.

وتنتهى الدراسة بخاتمة موجزة تبين أبرز النتائج التى توصل إليها الباحث فى هذا البحث حول ردود فعل الدول الأجنبية على اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت، والتى تسببت فى حرمان تلك الدولة من تنفيذ تطلعاتها ومخططاتها فى الكويت.

تمهيد:

أحاطت الصعاب بالشيخ مبارك من كل صوب، وذلك نتيجة الطريقة التى تولى بها الحكم على إثر قتل شقيقه (الشيخ محمد الصباح) الحاكم، ومساعده (الشيخ جراح)، فقد استنكر أهل الكويت ذلك الأمر الذى لم يعتاده من قبل، فى الوقت الذى رفضت الدولة العثمانية الاعتراف فيه بالشيخ مبارك كحاكم للكويت، وساندت أبناء أخويه القتيلين للأخذ بثأر أبَوَيْهِم، واستخلاص الحكم من الشيخ مبارك، مما دفع الأخير إلى طلب الحماية من الدولة صاحبة النفوذ الأقوى فى المنطقة، بريطانيا العظمى، والتى ترددت فى قبول فرض حمايتها على الكويت، خوفاً من أن يحملها ذلك أعباءً إضافية مع الدولة العثمانية والدول الأوربية الأخرى صاحبة المصالح فى المنطقة، ولكن بريطانيا عادت وعَدَلَت عن موقفها بعد أن تأكد لها من خلال تقارير مسئوليها فى المنطقة أهمية الكويت، وما ستوفره اتفاقية الحماية لها من مصالح مهمة جداً.

وبعد أن تأكدت الحكومة البريطانية من الناحية القانونية من استقلال الكويت عن الدولة العثمانية أرسلت مقيمها السياسى فى الخليج العربى الكولونيل ميد Col. Meade، والذى عقد اتفاقية مع الشيخ مبارك بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٩٩م حيث تعهد الشيخ عن نفسه وعن خلفائه من بعده بألا يبيع ولا يؤجر أراضيه، ولا يستقبل ممثلى الدول الأجنبية إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية، فى حين تعهدت الأخيرة ببذل مساعيها الحميدة لحماية الكويت من الاعتداءات الخارجية، والسعى للحفاظ على ممتلكات الأسرة فى البصرة من تجاوزات الدول العثمانية.

وحرصت الحكومة البريطانية على سرية اتفاقيتها مع الكويت، ولكن ذلك لم يكن ممكنًا، وكان لابد أن تعرف الدول الأجنبية بهذهِ الاتفاقية التى لها تأثيرها العكسى على مصالحها فى الكويت والمنطقة، لذا فلم يكن من الممكن أن تقف هذه الدول (الدولة

العثمانية وفرنسا وروسيا وألمانيا) مكتوفة الأيدى تجاه هذه الاتفاقية، فكان لها ردود أفعالها العكسية تجاهها، ومساعيها الحثيثة لإفشالها، الأمر الذى سنتناوله فى هذه الدراسة.

انعكاس معاهدة الحماية على وضعية الكويت الدولية:

لم تكن التزامات الكويت تجاه بريطانيا ـ وفقاً لاتفاقية الحماية ـ غريبة عن الدول المستقلة فى العرف الدولى آن ذاك (١)، وقد طبقت الحكومة البريطانية على الكويت عبارة «إمارة مستقلة تحت الحماية البريطانية» فى كل الاتصالات الرسمية التى تجرى بشأنها (الكويت) مع الحكومات الأخرى، كالاتصالات التى أجرتها الحكومة البريطانية فى الفترة اللاحقة مع كل من الحكومة العراقية والحكومة السعودية، لتسوية المشاكل المعلقة بين كل من الحكومتين والكويت(٢).

وكان المسئولون البريطانيون فى المنطقة يفسرون عبارة «إمارة مستقلة تحت الحماية البريطانية» بأنها تعتمد على أن الحقوق البريطانية فى الخليج (العربى) والساحل لا ترتكز فقط على الاتفاقيات التى أبرمتها الحكومة البريطانية مع الحكام فحسب، وإنما على العرف والرضا، والعلاقات الوطيدة بين زعماء الخليج (العربى) كافة، وسلطان مسقط، وبين حكومة الهند(٣) (البريطانية).

وكان رأى الحكومة البريطانية بالنسبة لوضع الكويت الدولى بعد عقد اتفاقية الحماية معها هو بقاء الكويت كدولة محمية مستقلة تمامًا عن العراق ونجد(٤).

والحقيقة أن الحكومة البريطانية قد حددت إلى درجة كبيرة أسلوب تعاملها، وطريقة علاقاتها السياسية مع الكويت وبقية إمارات الخليج العربى باعترافها بسيادة حكام الإمارات المعنية، فأصبحت نظرتها إلى علاقاتها السياسية مع تلك الإمارات تختلف عن نظرتها إلى علاقاتها مع المحميات الأخرى التى كانت تُعتبر محميات شبيهة

---

(١) I.O.R/ 15 / 1 / 53/ 44 Conf. No. 124 Agency Kuwait, 1st Sept. 1918 to Civil Commissioner Baghdad.

(٢) رسالة الباحثة للدكتوراه ص ٢١٢.

(٣) F.O. 371 /16853 From Iraqi Minisrty of Foreign Affairs Baghdad, 26th Octh,1933. No. 739 of 23. 11. 1933.

(٤) F.O.371 / 18282 Record of meeting held at the Foreign Office on Aug. 12. 1931 to consider certain questions connected with Kuwait - Subject: Futher Status of Kuwait.

بالمستعمرات (Cononial - Protectorates) فى حين أطلقت على إمارات الخليج اصطلاح الدول المحمية (Protected States) وكان الفارق الأساسى بين وضع إمارات الخليج ووضع المحميات البريطانية الأخرى هو الاعتراف المسبق لحكام الإمارات الخليجية بالسيادة على أقاليمها التى ظلت مستقلة عن أراضى التاج البريطانى. كما اعترفت بريطانيا لهم بشبه استقلال محلىّ فى شئونهم الداخلية التى كانت تُدار من قِبلِهم مباشرة[١].

ومما زاد الوضع السياسى للكويت وإمارات الخليج العربى غموضاً عدم وجود نص صريح فى اتفاقيات الحماية لهذه الإمارات مع بريطانيا يشير إلى إخضاع الإمارات للنفوذ البريطانى، ولكن نظام الحماية البريطانية عليها تطور نتيجة للممارسة والاستمرار من قبل بريطانيا فى تسيير الشئون الخارجية للإمارات، وبالتالى تحمل المسئولية عنها فى علاقاتها الدولية[٢].

وإذا كان تحمُّل بريطانيا المسئولية عن الكويت وإمارات الخليج العربى بالنسبة لعلاقاتها الخارجية يجعلها من الناحية القانونية ناقصة السيادة، فلابد من التفريق هنا بين حالة التخلى عن السيادة أو نزعها من الإقليم، وحالة إبقاء السيادة عليه مع تعليقها، ففى الحالة الأولى لايمكن استرجاع السيادة المفقودة، أما فى الحالة الثانية فإن السيادة المعلقة يمكن استرجاعها بعد انتهاء السبب الذى دعا إلى تعليقها، وهو وجوب الحماية ودواعيها والحاجة إليها، والدليل على ذلك هو استرجاع الكويت وإمارات الخليج العربى لسيادتها المعلقة بعد إعلان رغبة كل من حكام الإمارات والحكومة البريطانية فى إنهاء العلاقات التعاقدية الخاصة. وعلاقات الحماية التى تربط هذه الإمارات ببريطانيا وقد تحقق هذا فعلاً فى يونيو ١٩٦١ بالنسبة للكويت، وفى أواخر عام ١٩٧١ بالنسبة لإمارات الخليج العربى[٣].

فإن نظام الحماية على الكويت وإمارات الخليج العربى بصورة عامة لم يُفرض فرضاً، وإنما تطور ضمناً، وثبتت جذوره نتيجة لمطالبة حكام الإمارات أنفسهم باستمراره، كوسيلة للحفاظ على وجود واستقلال كياناتهم التى كانت بريطانيا قد اعترفت لهم

(١) د. حسين محمد البحارنة، دول الخليج العربى الحديثة ص ٣٣ ـ ٤٥.
(٢) د. حسين محمد البحارنة، المصدر السابق ص ٤٥.
(٣) د. حسين البحارنة المصدر السابق ص ص ٤٥ ـ ٤٦.

بالسيادة عليها[١]. ويشير السير كوكس المقيم السياسى فى الخليج إلى أن غالبية السكان فى الكويت يفضلون إشراف بريطانيا على بلادهم[٢]. وذلك بالإضافة إلى رغبة الحكام، غير أنه فى الواقع لم يكن ذلك صحيحاً، فقد كان سكان الكويت يتعاطفون مع دولة الخلافة الإسلامية ويفضلون الارتباط بها على الارتباط ببريطانيا. وكان ذلك التعاطف ناتجًا عن انتمائهم الدينى، مما كان له تأثير روحى كبير عليهم وعلى بقية سكان الخليج نحو التمسك بالدولة العثمانية.

وإذا أردنا أن نتعرف على وضعية الكويت وإمارات الخليج العربى الأخرى بالنسبة لبريطانيا فلابد من الرجوع إلى دليل الخليج الفارسى (العربى) الذى أعدته وزارة الخارجية البريطانية[٣] والذى أكدخضوع حكام الخليج للسيادة البريطانية لدرجة كبيرة، فعلى الرغم من قلة تدخل بريطانيا فى شئونهم الداخلية فإنهم خضعوا للنفوذ البريطانى فيما يتعلق بشئون علاقاتهم الخارجية[٤].

وعند التركيز على وضعية الكويت الدولية فى أعقاب خضوعها للنفوذ البريطانى المتأتى من اتفاقية الحماية المعقودة فى ٢٣ يناير ١٨٩٩ نجد أن بريطانيا كانت تعترف للكويت بوضع خاص أكثر امتيازًا من إمارات الخليج العربى، وذلك لأسباب كثيرة أهمها:

إن اتفاقية الحماية معها لم تتضمن التزامًا صريحًا يمنع حكام الكويت من ممارسة حقهم فى عقد معاهدات مع الدول الأجنبية كما هو الحال بالنسبة للإمارات الأخرى[٥].

ولعدم ارتباط الكويت بالعمليات البحرية فى جنوب الخليج خلال النصف الأول من

---

(١) من الملاحظ أننا نضطر فى أحيان كثيرة إلى الخوض فى وضعية إمارات الخليج العربى تبعًا لاتفاقيات الحماية فى حين أن المقصودة بها الكويت. وذلك لأن انعكاس تلك المعاهدات واحد بالنسبة لجميع الإمارات مع بعض التميز بالنسبة للكويت.

(٢) CF. Handbook Prepared under the direction of Great Britain, Foreign Office, Historical Section Persian Gulf. No. 67. London 1920.

(٣) كان إعداد الدليل بقصد أن يسترشد به المندوبون البريطانيون فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس عام ١٩١٩م، ويسمى كل منشور فى هذا الدليل باسم دليل الصلح.

(٤) F.O. 371 / 5270 from Sir Cox to Secretary of State for India 14th Dec. 1920.

(٥) رسالة الباحثة للدكتوراه منشورة بعنوان «الكويت فى ظل الحماية البريطانية». الكويت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م. ص ٢٠٧.

القرن التاسع عشر فإنها لم تكن طرفًا فى أى من المعاهدات التى فرضت قيودًا بريطانية على إمارات الخليج العربى الأخرى(١).

وازداد وضع الكويت تَمَيُّزًا فى فترة الحرب العالمية الأولى، وذلك بصدور تعهد بريطانيا فى ٣ نوفمبر ١٩١٤، ذلك التعهد الذى يقضى باعتبار الكويت حكومة مستقلة تحت الحماية البريطانية، وذلك فى مقابل قيامها بمهاجمة المواقع العثمانية فى «صفوان» و«أم قصر» و«البصرة» واحتلالها(٢).

ويفسر البعض اعتراف الحكومة البريطانية بالكويت مستقلة تحت الحماية البريطانية بأنه لا يعنى أن تصبح الكويت محمية (Protectorate) وإنما يعنى تأمينها من نتائج أعمال حربية تقوم بها لصالح بريطانيا فى فترة الحرب، وتحترم الأهداف السياسية لشيخ الكويت حين ذاك. فهى حماية مقصورة على نتائج معينة تؤديها الكويت بمعاونة بريطانيا، ولاتمس شخصيتها الدولية، بل إن بريطانيا فى مقابل ذلك ستدعم الكويت وتحميها من الأخطار الخارجية(٣). والحقيقة أن بريطانيا قدرت أهمية الكويت التى تقع فى رأس الخليج، وقدرت أن هذه النقطة لا يمكن إغفالها عند بحث السياسة العامة التى ستتبناها تجاه الإمارة(٤).

ومن هذا نرى أن الاتفاقيات التى وقعت بين الشيخ مبارك والحكومة البريطانية فى الفترة الواقعة بين ١٨٩٩ ـ ١٩١٤م كانت هى الأساس الذى بنيت عليه وضعية الكويت الدولية منذ تلك الفترة حتى حصولها على استقلالها عام ١٩٦١م، كما أنها هى العمود الذى ارتكزت عليه العلاقات البريطانية الكويتية وسيرتها طوال تلك الحقبة من الزمن، والتى زادت على الستين عامًا، وأنها جميعا لا تسلب الكويت سيادتها واستقلالها، وإنما أدخلت عليها بعض القيود والاشتراطات، ولكونها وضعت لمواجهة ظروف قائمة فى وقتها فإنها ليست ذات صفة دائمة، وذلك ما أقرته الحكومة البريطانية ضمنًا لدى ولاية كل حاكم جديد، إذ أنها كانت تلتزم له بما تعهدت به من قبل لِسَلفه، ما دام الحاكم الجديد يلتزم نحوها بما التزم به سلفه. وبهذا نجد أن الكويت كانت تمثل كيانًا سياسياً

(١) رسالة الباحثة للدكتوراه (المنشورة) ص ٢٠٩.

(٢) F.O. 371 / 10005 Tel form the Viceroy to Secretary of state for India 12th Dec. 1923.

(٣) رسالة الباحثة للدكتوراه ٢١٠.

(٤) India office $\frac{\text{B. 395}}{\text{P. 4224/ 26}}$ Kuwait from 1908 - 1928, 1st Oct. 1928.

مستقلا حائزًا على صفات السيادة فى العُرْف الدولى، شأنها فى ذلك شأن بقية إمارات الخليج العربى بل إنها كانت متميزة عن هذه الإمارات بأن بريطانيا منحتها وضعًا خاصًا يُعَدُّ أكثر امتيازًا، وبالتالى أكثر استقلالا وسيادة[1].

ردود الفعل الدولية على اتفاقية الحماية المعقودة بين بريطانيا والكويت:

كرَّست اتفاقية الحماية الكويتية البريطانية (٢٣ يناير ١٨٠١) النفوذ والمصالح البريطانية فى الكويت، وأبعدت ما سواها من الدول المتنافسة، والمتطلعة لإقامة مصالح لها فى الكويت، مثل الدولة العثمانية، وألمانيا، وروسيا، فكان لابد أن يكون لهذه الدول ردود فعل قوية على تلك المعاهدة، وأن تتصدى مجتمعة بجدية ونشاط لمواجهة ماستجد من نفوذ ومصالح بريطانية فى الكويت، فى محاولة لوضع مصالحها ومشاريعها التى كان من الصعب تحقيقها فى ظل النفوذ البريطانى. وتعاونت هذه الدول مع بعضها فى مواجهة بريطانيا، ومحاولة تأكيد النفوذ والسيادة العثمانية فى الكويت حتى تتمكن كُلٌّ منها من تحقيق مصالحها وتطلعاتها فى الكويت من خلال ذلك النفوذ، كما عملت كل واحدة من هذه الدول منفردة. وبجهودها الخاصة من ناحية أخرى، فى محاولة التصدى للنفوذ البريطانى فى الكويت، وذلك فى محاولات حثيثة للتخلص من النفوذ البريطانى فى الكويت، الذى كان يمثل الحاجزَ الرئيسى الذى يحول دون وضع مشاريع تلك الدول حيز التنفيذ.

ولما كان لكل واحدة من تلك الدول استراتيجية ومخططات خاصة فى الكويت، لذا فسنتناول مواقف هذه الأطراف كل طرف على حدة، حتى نتمكن من بحثه بصورة واضحة.

أولا - ردود فعل الدولة العثمانية:

بالرجوع إلى الوثائق العثمانية المتعلقة بالموضوع تبين أن موقف الدولة العثمانية وردود فعلها على اتفاقية الحماية البريطانية جاءت مغايرة لما توقعته بريطانيا (من خلال وثائقها) التى أظهرت أن الدولة العثمانية كانت لها ردود فعل قوية وعنيفة تجاه الشيخ مبارك الصباح لتوقيعه اتفاقية الحماية مع بريطانيا إلى درجة توقع المسئولون البريطانيون معها

---

(١) رسالة الباحثة للدكتوراه ص ٢٠٩ - ٢١٦.

احتمال توجيه هجوم عثمانى على الكويت، فأنذروا المسئولين العثمانيين بوجوب الامتناع عن مثل هذا الهجوم. كما فوضت الحكومة البريطانية نائب الملك فى الهند إصدار التعليمات للقوة البحرية البريطانية لمنع الهجوم المتوقع. ولكن أوكنور(Sir N. Oconor) السفير البريطانى فى الأستانة اقترح توجيه إنذار للباب العالى قبل القيام بأعمال عسكرية(١). غير أن الدولة العثمانية لم تلجأ إلى الشدة واستعمالة القوة مع الشيخ مبارك فى أول الأمر، بل راحت تحاول استمالته وكسبه، ليبقى على ولائه للدولة العثمانية وتحويله عن الميل إلى بريطانيا، والتباحث معها لربط بلاده بها. وذلك ما نجده فى المكاتبات الرسمية العثمانية التى تبين أن المجلس المخصوص(*) اهتم بالموضوع بصورة كبيرة وعقد عدة جلسات بصدد محاولة استمالة الشيخ مبارك وصرفه عن الاستجابة إلى مؤامرات الإنكليز ومخططاتهم لإثارة الشيخ ضد الدولة العثمانية. وأكد المحلى المخصوص على ضرورة العمل على مواجهة تلك المؤامرات البريطانية والتصدى لها، لأن المحافظة على الكويت ضد كل تجاوز أجنبى أمر غاية فى الأهمية بالنسبة للدولة العثمانية، نظراً لما لموقع الكويت من أهمية بالغة(٢).

وخوفًا من نتيجة المؤثرات والتحريضات البريطانية، وما سيترتب على نجاحها من أضرار جسيمة على الدولة العثمانية، فقد رأى المجلس المخصوص وجوب العمل على إحباط المخططات الأجنبية، بالسعى لاستمالة الشيخ مبارك، لذلك قرر ترشيح نقيب أشراف البصرة (السيد رجب النقيب) لإيفاده إلى الشيخ مبارك من أجل إسداء النصح إليه، وإقناعه بالميل إلى جانب الدولة العثمانية، وعدم الالتفات إلى تأثير الإنكليز وتحريضهم. وذلك باستخدام الحمية الدينية فى سبيل التأثير على الشيخ مبارك(٣). وقد استصوب السلطان العثمانى إجراءات المجلس المخصوص بشزن العمل على الحفاظ على الكويت، واستحسن كل التدابير التى اتخذت بهذا الشأن، وأجاز اختيار نقيب أشراف

---

(١) F.O. 78 / 5114 From Sir Nichola O'conor to Lord Salisbury - (Secret) No. 228.

(*) المجلس المخصوص هو مجلس يتكون من كبار المسئولين العثمانيين من نظار (وزراء) ووكلاء وقضاة وغيرهم ليكون مجلساً استشارياً للسلطان.

(٢) صورة مضبطة المجلس المخصوص المتعلقة بمحضر اجتماعه بتاريخ ١٤ شعبان ١٣١٣هـ والموافق فبراير ١٨٩٦م ملف رقم ٧٨ ص ٤م.

(٣) كتاب من المجلس المخصوص إلى الباب العالى بتاريخ ١٧ جمادى الأولى ١٣١٨هـ / ١٨ آب (اغسطس) ١٨٩٩م ملف ٧٨ ص ٥م.

البصرة ليقوم بمهمة استمالة الشيخ مبارك ونصحه بوسائل اللين[١]، ولقد أبدى السلطان العثمانى اهتمامًا كبيرًا بموضوع الكويت، وضرورة الاجتهاد فى كسب الشيخ مبارك وملاينته، واستعمال الأساليب الودية معه، لكى يبقى على ارتباط الكويت بالدولة العثمانية، ويرفض المخططات البريطانية الرامية لفصلها عنها. وإن على النقيب أن يسعى لاستمالة الشيخ مبارك (بكلام مؤثر ولسان مناسب) إلى غير ذلك من وسائل الملاطفة والتحبيب[٢].

ولم تقتصر محاولات الدولة العثمانية لكسب الشيخ مبارك على التودد إليه بالكلام الطيب المناسب، بل راحت تعده بأحسن الجزاء فى الدنيا، من ذلك رضاءُ السلطان عليه، ومَنحه لقب مير ميران (أمير أمراء)، ووساماً يتناسب مع مكانته، وإعادة مخصصات الكويت من التمور التى كانت جارية أيام أسلافه وقُطعَت بوفاة الشيخ محمد، وأحسن الثواب فى الآخرة برضاء البارى (سبحانه وتعالى)[٣]. وفى مقابل ذلك لم تطلب الدولة العثمانية من الشيخ سوى تقديم عرض حال أو كُتاب، يرفعه للسلطان، يفيد فيه عن قوة ارتباطه بمقام الخلافة وطاعته لها.

وقد قام النقيب بالمهمة، وعاد بالعرض حال المطلوب من الشيخ مبارك، وأرفقه بكتاب منه يسترحم السلطان فيه منح الشيخ مبارك رتبة (ميرميران) ووساماً، وإعادة مخصصاته من التمور، وبالرغم مما أظهره الشيخ مبارك من استجابة للدولة العثمانية، وتأكيد ولائه لها فإنه استمر على علاقته مع بريطانيا التى رسختها اتفاقية الحماية، وألزمته بالحفاظ على الارتباط ببريطانيا وعدم التعامل مع أى طرف خارجى حتى لو كان الدولة العثمانية نفسها إلا بإذن بريطانيا.

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الدبلوماسية والملاينة الذى اتبعته الدولة العثمانية ـ فى سبيل الحفاظ على الكويت وإبعاد النفوذ البريطانى ـ لم يقتصر على الشيخ مبارك وحده،

(١) كتاب رئيس كتاب السلطان (حضرة الشهريار) قصر يلدز الهمايونى ـ دائرة رئيس الكتاب ـ رقم ٦٢٢٩ ص ٣ بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٣١٧هـ الموافق ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٩م.

(٢) كتاب من رئيس كتاب السلطان (عن السلطان) بتاريخ ٧ رمضان عام ١٣١٧هـ، الموافق٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩م.

(٣) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب رقم ٤٤٦٦ ص ٦ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة الموافق ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٠م.

وإنما تعداه إلى بريطانيا نفسها، حين استخدمت الدولة العثمانية ذات الأسلوب لإظهار تمسكها وعدم تنازلها عن الكويت لأى جهة أخرى، ويتضح ذلك فى رسالة السلطان عبد الحميد الثانى للسفير البريطانى فى الآستانة فى ٤ سبتمبر ١٨٩٩م، والتى أظهر فيها تقديره لأهمية الخليج (العربى) بالنسبة للمصالح البريطانية، وطرق تجارتها إلى الهند، وأنه بناء على ذلك فإن الدولة العثمانية لن تسمح لأى دولة أوربية ـ عدا بريطانيا ـ بالحصول على امتيازات تجارية فى الخليج، ولكنها فى الوقت ذاته ليست مستعدة للتنازل عن البصرة أو الكويت أو القطيف أو البحرين(١).

ولكن الدولة العثمانية عندما وجدت أن أسلوب الملاينة والدبلوماسية لم يُجْدِ نفعاً تحولت عنه واستبدلته بأسلوب القوة والشدة، فاتضحت الاستعدادات العثمانية لمهاجمة الكويت وفقًا لما ذكره الكولونيل (ميد) المقيم السياسى البريطانى من أنه علم باتجاه أربع فرق للمشاة والمدفعية فى طريقها إلى البصرة(٢). ولابد أن يكون هدف تلك القوات الكويت، مما دعا بريطانيا إلى الاستعداد للدفاع عن الكويت بواسطة أسطولها البحرى فى الخليج، وفى سبتمبر عين العثمانيون مديرًا للميناء فى الكويت، وذلك ضمن محاولاتهم إيجاد أدلة عينية لتبعية الكويت لهم. فما كان من بريطانيا إلا أن أصدرت تحذيراً للحكومة العثمانية، أوضحت فيه بأن لبريطانيا علاقات ودية مع الشيخ مبارك، وأنه إذا ما حاولت الدولة العثمانية إقامة إدارة جمارك بدون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية فإن ذلك سيُقابل بعدم الرضا من جانب الحكومة البريطانية(٣).

وردًا على التحذيرات البريطانية للحكومة العثمانية بشأن الكويت استنكرت الأخيرة بشدة تدخل الحكومة البريطانية بينها وبين أحد أتباعها (وفقًا لادعاء الدولة العثمانية) وذلك فى مذكرة من رئيس كُتاب السلطان (المتحدث الرسمى باسم السلطان) ردًا على احتجاج السفير البريطانى على إرسال العساكر إلى الكويت. وأكد رئيس كُتاب السلطان فى مذكرته إجابة ناظر الخارجية للسفير البريطانى، بأن من حق الدولة العثمانية الصريح

(١) F.O. 78 / 5114 From O'conor to Foueign Office, No. 442, 4th sep. 1899.

(٢) F.O. 78 / 5144 Sicretary to Covernment of India to Lord Geoge Hamilton, 2 September 1899.

(٣) F.O. 78 / 5174 Memorandom on Kuwait Confodential, Foreign Office (secret) 29 Oct 1901.

أن ترفض تدخل أى دولة أجنبية واعتراضها على أى إجراء أو تدابير، تنوى الدولة العثمانية اعتمادها لتأمين حقوقها ومنافعها فى مكان بعيد عن أملاكها[١].

وتؤكد مذكرة أخرى من رئيس كتاب السلطان: «أن الكويت ونجداً من أجزاء الممالك المحروسة العثمانية، ولا يحق للسفير البريطانى التدخل كلما توسعت الدولة العثمانية اتخاذ ترتيبات عسكرية هناك، وأن قيام السفن الحربية البريطانية بالمظاهرات على السواحل النجدية يُعَدُّ محاولة للتأثير على أفكار أهلها، ولذلك فإن الدولة العثمانية لن تسكت عنها أو تقابلها بعدم الاهتمام، وأنه ينبغى العمل على اتخاذ الوسائل الممكنة لصيانة حقوق ومنافع الدولة، والسعى بالقوة لمواجهة الحكومة البريطانية، والتصدى لها بهذا الشأن لمنع تكرار ما يخل بحقوق ومنافع الدولة العليا (العثمانية) والامتناع عن التمادى فى ذلك»[٢].

ومن هذا المنطلق فإن الدولة العثمانية لم تكتف بمواجهة الشيخ مبارك بالقوة فى إطار مساعيها لتأكيد تبعية الكويت لها، وإنما راحت تواجه بريطانيا باحتجاجات شديدة اللهجة لمجرد محاولة الأخيرة استخدام الطرق الدبلوماسية من خلال إصدار تحذيرات بواسطة سفيرها فى الأستانة للحفاظ على الوضع الراهن، وعدم التعدى على الشيخ مبارك، والتجاوز على بلاده، وبالرغم من إصرار الحكومة البريطانية المستمر على أن تظهر للدولة العثمانية أن أى خطوة عدائية تتخذها ضد الكويت ستُقابَل بعدم الرضا من قبل الحكومة البريطانية[٣] فإن الدولة العثمانية قامت من جانبها بمحاولات كثيرة للضغط على الشيخ مبارك بكافة الوسائل[٤]، ومن ذلك قيامها بإعادة تعيين حمدى باشا واليًا على البصرة، فكان هذا التعيين عملا غير ودى بالنسبة للشيخ مبارك، وذلك بسبب موقف حمدى باشا المعارض منه، فلقد ساند أبناء شقيقيه خلال ولايته الأولى، فأيد جميع مطالبهم، وحث الباب العالى على ضرورة احتلال الكويت بالقوة، ونبه إلى خطر الاعتراف بمغتصب يهدف إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية.

---

(١) مذكرة من تحسين باشا رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ دائرة رئيس الكتاب، رقم ٤١٦٦ ص ٢ بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٣١٧هـ المصادف ١١ أغسطس (آب) ١٨٩٩م.
ملاحظة: «السنة المالية العثمانية هى السنة الرومية وتبدأ بشهر آذار / مارس».

(٢) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب، رقم ٩٧٢٧ ص ٢٣.

(٣) F.O. 78 / 5174 Memorandom on Kuwait Confidential, Foreign Office, 29 Oct. 1899.

(٤) F.O. 78 / 5114 From Ser O'conor to the Marquis Salisbury No. 440 - Secret 13 Sep. 1899.

وقد انتهزت الدولة العثمانية فرصة ضعف الشيخ مبارك بعد هزيمته فى معركة الصريف أمام ابن الرشيد (مارس ١٩٠١) فأبرق الباب العالى إلى مشير بغداد ليبلغه بأن منطوق المعاهدات الدولية ينص على: «أن المناطق التى ترفع العلم العثمانى، أو يوجد بها مركز عسكرى، أو مأمور حكومة، فليس للدول الأخرى حق التدخل فى شئونها». وأراد مشير بغداد تنفيذ هذا الأمر بالقوة، غير أن «محسن» باشا (والى البصرة الجديد) نصحه بالتريث[(١)]، ونصح الشيخ بالذهاب معه إلى (الفاو) ليعلن طاعته برقيًا للباب العالى، ففعل الشيخ بعد أن اتصل بالمقيم السياسى البريطانى فى الخليج سرًا، وأخذ موافقته على ذلك، وقد قبلت الدولة العثمانية طاعة الشيخ، وكف مشير بغداد عن مهاجمته، غير أن الشيخ رفض السماح لقوات عثمانية بالمرابطة فى الكويت، واستمر ينتهج سياسة مستقلة عن الدولة العثمانية، التى لم تطمئن إلى ولائه، فأرسلت السيد رجب النقيب (نقيب أشراف البصرة) يحمل إنذارًا بوجوب خروج الشيخ مبارك من بلاده إلى الأستانة، أو إلى حيث يشاء من ولايات الدولة العثمانية، على أن تجرى له الدولة راتبًا شهريًا يعيش منه، فإن لم يطع دخل الجند من عرب ابن الرشيد وأخرجوه بالقوة[(٢)].

وعلى الفور اتصل الشيخ مبارك بالمقيم السياسى البريطانى فى الخليج، طالباً منه الإسراع بإعلان الحماية البريطانية التى كانت سرية آن ذاك، وفى الوقت نفسه اتصل الشيخ بالقنصل الروسى العام فى بغداد لنفس الغرض. ولكن الحكومة البريطانية لم تقتنع بإعلان الحماية، نظرًا لما سينتج عن ذلك من مشاكل دولية، وما سيؤدى إليه من زيادة جهود الدول الأخرى فى محاولة السيطرة على الكويت[(٣)].

وظلت الدولة العثمانية على رأيها فى محاولة فرض أدلة عينية لنفوذها وسيطرتها على الكويت، وذلك بتحريض من الدول الأجنبية، صاحبة المصالح فى الكويت، وهى كل من ألمانيا، وروسيا، وفرنسا، وهذا ما أشار إليه رئيس كُتاب السلطان فى مذكرة له حول هذا الموضوع حين ذكر: «أن حكومة فرنسا تنبه إلى ضرورة إكثار ما يُعَبِّر عن رسوخ

---

(١) الوثيقة رقم ١٨ منالمجموعة م ف ٢ ـ وثائق حكومة الهند ـ فى المكتبة المركزية للدولة. مارس ١٩٠١م.
(٢) الوثيقة رقم ٢٦ ـ مجموعة م ف ٢ ـ وثائق حكومة الهند ـ المكتبة المركزية للدولة.
(٣) F.O. 78 / 5173Col. Kemball to Secretary to Government of India No. 11. 23 April 1901.

الملكية العثمانية من آثار، وتشاركها الدولة الألمانية فى الإعراب عن ذلك. فالمنطقة عثمانية، ولا ينبغى التخلى عن التعبير عن حق الحكومة السنية فى الحكم بإنشاء الدوائر الحكومية. وأن فى التغاضى عن نصح هاتين الدولتين اللتين تريدان خير الدولة العثمانية، وعدم الالتفات والاعتناء بآرائهما من محاذير عدم الجهر بتبعية الكويت للدولة العثمانية، وعدم تأكيد حقوقها هناك. وبناء على ذلك تدارس مجلس الوكلاء المخصوص قضية إنشاء الدوائر الحكومية الرسمية العثمانية المقتضى تأسيسها فى الكويت، بناء على الإرادة السنية الصادرة عن مقام الخلافة العلية»[١].

وقد استعدت بريطانيا لمواجهة الإجراءات العثمانية المعادية للشيخ مبارك، فعمدت إلى إرسال سفنها الحربية إلى الكويت، حيث وصلت السفينة (بيرسوس) بتاريخ ١٨ أغسطس ١٩٠١، والسفينة (سفنكس) فى ٢١ أغسطس وعلى ظهرها المقيم السياسى البريطانى الذى قابل الشيخ مبارك بحضور قبطانى السفينتين البريطانيتين، فأبلغ الشيخ بأن بريطانيا لاترغب بإعلان الحماية، ولكنها ستؤيده وتحميه إذا حافظ على المعاهدة المعقودة بين بلديهما، وسوف تمنع إنزال القوات العثمانية إلى الكويت، ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة بواسطة السفن البريطانية. وهذا ما قام به بالفعل قائد السفينة البريطانية (بيرسوس) حين منع قائد زحاف من إنزال قوات إلى الكويت وأجبره على مغادرتها[٢].

وقد تلقت الحكومة البريطانية احتجاجًا على ما قامت به السفينة (بيرسوس) من كل من السفيرين العثمانى والألمانى فى لندن. حيث أشار الأول إلى أن اتفاقية عام ١٨٩٩ غير صحيحة، لأنها عُقدت مع مسئول تابع للدولة العثمانية. فردت الحكومة البريطانية على احتجاجات السفيرين بأنها لا ترغب فى تغيير الوضع القائم فى الكويت[٣].

أخذت الدولة العثمانية تعد العدة لمهاجمة الكويت، وقامت بإغراء (سعدون باشا) شيخ المنتفق وحاكم جنوب الزبير على مهاجمة الكويت، كما وصل قاسم باشا (قائد القوات العثمانية فى العراق إلى البصرة فى طرقه لمهاجمة الكويت بناء على أوامر الأستانة[٤].

---

(١) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب ـ رقم ٢٢٦٦ ص ٨ بتاريخ ١ ربيع ٩-١٣٠ هـ الموافق ٤ تموز (يوليو) ١٩٠١.

(٢) الوثيقة ٢٥ ـ مجموعة ـ م ف ٢ ـ وثائق حكومة الهند.

(٣) لوريمر المصدر السابق ص ص ١٥٤٤ ـ ١٥٤٧.

(٤) د. جمال زكريا قاسم المصدر السابق ص ص ٢٦٣ ـ ٢٦٩.

فصدرت الأوامر إلى السفن الحربية البريطانية فى الخليج بالاستعداد لمجابهة أى هجوم عثمانى على الكويت[١].

وبالرغم مما توجهه الدولة العثمانية للشيخ مبارك من ضغوط فإنه استطاع كسب ود بعض مسئوليها الذين مالوا إلى جانبه، وراحوا يبررون اتجاهه إلى بريطانيا بسبب ما يلقاه من مسئولى الدولة العثمانية من تهديدات ومضايقات[٢]، وهو الأمر الذى أشار إليه والى البصرة الجديد (محسن باشا) فى كتابه إلى الباب العالى.

ومن ناحية أخرى احتجت الدولة العثمانية على تصدى قائد السفينة البريطانية (بيرسوس) لقائد زحاف وإشارته إلى أن الكويت تحت الحماية البريطانية. وهذا ما دعا السلطان إلى إصدار إرادته لعقد اجتماع (للمجلس المخصوص)[٣]، على أن يرفع تقريره إليه فى اليوم ذاته. ويدعى رئيس كتاب السلطان بأن الكويت جزء من الممالك الشاهانة، وملكية الدولة بتمامها مصدق عليها، ومؤيدة بالمعاهدات الدولية ويضيف رئيس الكتاب مبينًا بأن كلام قائد السفينة البريطانية مخل بحقوق السلطنة السنية، وأن كلامه لا يمكن قبوله[٤].

وهكذا أتاحت اتفاقية الحماية البريطانية الكويتية الفرصة للدولة العثمانية للادعاء بتبعية الكويت الفعلية لها، مستغلة فى ذلك حرص بريطانيا على سرية اتفاقيتها مع الشيخ، ومستندة إلى تشجيع صديقتها الحميمة ألمانيا، ودفعها لها لتأكيد نفوذها فى الكويت فى حين ثبت لنا بصورة أكيد لا تدعو للشك ـ ومن خلال الوثائق البريطانية والعثمانية معًا ـ استقلال الكويت عن الدولة العثمانية، وأنها كانت أشبه بالجمهورية[٥]. حتى أن مدحت باشا (والى بغداد) عندما أدخل إليها تنظيماته ـ قبيل حملة الأحساء

---

(١) وثيقة ٢٧ ـ مجموعة م ف ٢ ـ وثائق حكومة الهند ـ المكتبة المركزية.

(٢) صورة للأصل لبرقية الشفرة الواردة من ولاية البصرة إلى الباب العالى ـ دائرة الصدر الأعظم ـ مكتب مكتوبى ـ مستعجل جدًا ـ من محسن باشا بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٠١م ص ١٠ م ٢.

(٣) المجلس المخصوص: هو مجلس استشارى للسلطان مكون من كبار المسئولين من وزراء ووكلاء وقضاه وغيرهم.

(٤) مذكرة رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ فى ١٤ جمادى الأولى ـ ١٥ أغسطس (آب) ١٩٠١.

(٥) مذكرات مدحت باشا (ترجمة حاله) وثائق وزارة الخارجية الكويتية.

الشهيرة عام ١٨٧١م - قدر ميل أهل الكويت إلى الاستقلال، فاعتبرها سنجقًا عثمانيًا مستقلاً استقلالاً ذاتيًا[(١)].

هذا وقد استنكرت الحكومة العثمانية ما جاء على لسان قائد السفينة البريطانية (بيرسوس) وأمرت سفارتها فى لندن بتقديم احتجاج للحكومة البريطانية[(٢)]. ولكنها توقفت عن اتخاذ إجراء حاسم[(٣)]، ورأت عدم الحاجة إلى إرسال العساكر إلى الكويت، لأنها وجدت أنه ليس هناك ما يستوجب إرسالهم بعد نفى وزير الخارجية البريطانية لوجود أى نوع من الحماية البريطانية على الكويت، وتأكيده اعتراف بلاده بالسيادة العثمانية عليها.

غير أن الشكوك ظلت تراود الدولة العثمانية بشأن ما ذكره قائد السفينة الحربية البريطانية، لاسيما بعد وصول مذكرة من الصدر الأعظم تبين المعاملة التى لقيها نقيب أشراف البصرة ورفاقه، من قِبَلِ قائد السفينة البريطانية، وقد أرفق بمذكرته كتابًا من نائب القنصل الروسى فى بغداد، وكذل برقية من قائد البحرية العثمانية فى البصرة، وهما تشيران إلى ادعاء قائد السفينة البريطانية بوجود بند فى معاهدة موقعة بين بريطانيا والدولة العثمانية، ينص على جعل الكويت دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية[(٤)]. وتنفى الدولة العثمانية على لسان رئيس كُتاب السلطان هذا الادعاء، وتؤكد أنه لا صلة ولا أساس لمثل هذه المعاهدة، بل على العكس من ذلك أصرت الدولة العثمانية على الدوام على أن الكويت جزء من الممالك (المحروسة الشاهانية)، وأن حق التبعية يعود للدولة العلية، وأنه إذا كانت الدولة العثمانية قد قررت الامتناع عن إرسال العساكر إلى

---

(١) كتاب من مدحت باشا إلى الصدر الأعظم.

(٢) مذكرة المجلس المخصوص الموجهة إلى السلطان بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٣١٩هـ، الموافق ١٥ آب (أغسطس) ١٩٠١، وتحمل توقيعات الصدر الأعظم (خليل رفعت إبراهيم) وناظر الخارجية (أحمد توفيق إسماعيل) ورئيس مجلس الشورى، وناظر البحرية قائد المعسكر، وناظر العدل، وشيخ الإسلام، ومستشار الصدارة، وغيرهم كثيرين.

(٣) مذكرة من رئيس كُتاب السلطان - قصر يلدز الهمايونى - رقم ٣٦٧٤ - بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٣١٩هـ ٢٣ أغسطس (آب) ١٩٠١.

(٤) كتاب من رئيس كتاب السلطان - قصر يلدز الهمايونى - رقم ٦٧٧٠ ص ١٤ فى ٥ رمضان ١٣١٩هـ / ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠١.

الكويت فإن فى هذا القرار بداهة الاحتفاظ بحقوق الدولة العثمانية هناك وعدم حدوث أى طارئ يخل بها[(١)].

وقد جرت مفاوضات طويلة بين لندن وإسطنبول تعرضت خلالها الحكومة البريطانية لضغط السفارتين الروسية والألمانية[(٢)]. وكانت المفاوضات تنتهى بين بريطانيا والدولة العثمانية عند كل أزمة حول الكويت بالاتفاق على احترام الوضع الراهن. ولكن مفهوم الوضع الراهن مختلف بين الدولتين، فبالنسبة لبريطانيا تفسر الوضع الراهن على أنه الإبقاء على حالة الكويت المستقلة عن الدولة العثمانية، فى حين تفسره الدولة العثمانية على أنه الاحتفاظ بتبعية الكويت التى تدعيها[(٣)].

ومضت الدولة العثمانية فى محاولاتها للانتقام من الشيخ مبارك، فشجعت ابن الرشيد وساعدته ماديًا وعسكريًا لتنفيذ عدائه للشيخ مبارك، مما أدى إلى توقع حملة مشتركة من العثمانيين وابن الرشيد إلى الكويت. لذلك استعدت القوات البحرية البريطانية للدفاع عن المدينة، الأمر الذى دعا العثمانيين إلى نصح ابن الرشيد بعدم مهاجمة الكويت، خوفاً من تصدى القوات البحرية البريطانية للدفاع عن شيخ الكويت، وإقامة حماية فعلية، تخل بالوضع الراهن[(٤)]. غير أن الدولة العثمانية احتجت على استعدادات القوات البحرية البريطانية لحماية الكويت وإنزال المدافع إلى البر، واعتبرته أمرًا يُغاير الائتلاف الواقع بين الدولتين، وينافى ضمان العهود الدولية للممالك العثمانية[(٥)].

وكالعادة يتضح الإصرار العثمانى على رفض أى تصرف من قبل بريطانيا ترى فيه الدولة العثمانية تَعَدِّيًا على حقوق السيادة التى تدعيها على الكويت، والتى لم تظهر إلا بعد عقد الشيخ معاهدة الحماية مع بريطانيا، وذلك فى الوقت الذى تواصل فيه الدولة

(١) كتاب من رئيس كتاب السلطان قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب ـ رقم ٩٧١٥ ـ ص ٥٢.

(٢) F.O. 78 / 5173 from O'conor to Foreign Office, Telegram, 23 August 1901.

(٣) كتاب رئيس السلطان إلى الصدر الأعظم ـ قصر يلدز الهمايونى ـ رقم ٨٠٣٧ ص ٩ فى ٢٣ شوال ١٣١٩هـ، الموافق ٢٠ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢.

(٤) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ رقم ٧٥٠١ ص ٢٥ فى ٢ شوال ١٣٢٠هـ / ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠١.

(٥) رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ رقم ٧٦١٤ ص ٩ بتاريخ ٨ شوال ١٣١٩ / ٥ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢.

العثمانية ممارسة ضغوطها على الشيخ مبارك للرضوخ لها والاعتراف بسيادتها. وتعددت وسائل الدولة العثمانية بهذا الصدد، فمرة تستخدم ابن الرشيد، وأخرى تساعد أبناء شقيقي الشيخ (أبناء الشيخين محمد وجراح) ومرة ثالثة تحاول إيجاد أدلة عينية على تبعية الكويت لها، ثم تعد العدة لمهاجمتها عسكريًا، ولكنها كانت تجد بريطانيا فى مواجهتها دائمًا، حيث تقف إلى جانب الشيخ وتدافع عنه فى مقابل تعديات العثمانيين، ولما لم تنفع الدولة العثمانية كل وسائل القوة لتأكيد سيادتها على الكويت وإرغام شيخها على الخضوع لتبعيتها عادت إلى محاولة استعمال اللين مع الشيخ، ورأت إدخال الشيخ «خزعل» كوسيط بينها وبينه. وحتى هذه المحاولة لاستمالة الشيخ مبارك لم تُجْدِ نفعًا مع الشيخ مبارك الذى كان قد التزم بجميع تعهداته مع بريطانيا بموجب اتفاقية الحماية الموقعة فى ٢٣ يناير ١٨٩٩م. لذلك عبر السلطان عن رأيه (على لسان رئيس كتابه) بأن الإنكليز فى تمادٍ مع مرور الزمن، فبدلا من الانسحاب من الكويت فإنهم يتمادون فى تجاوزاتهم، وإن الوضع يشير إلى أنهم سيتمادون فى ذلك بصورة أكبر، وبما أن نفس الوضع جارٍ فى اليمن، لذا ينبغى اتخاذ التدابير السريعة المتحتم على الدولة اتخاذها لحفظ حقوقهم[١].

وتنفيذاً لأوامر السلطان بوجوب مواجهة تمادى الإنكليز وتجاوزهم على أملاك الدولة العثمانية اتخذت الدولة إجراءات من قبلها لحفظ حقوقها، ففيما يتعلق بالكويت بادرت الدولة العثمانية إلى تقليص نفوذ الكويت فى المناطق الشمالية التابعة للكويت. وذلك إمعاناً من الدولة العثمانية فى مضايقة الشيخ مبارك حليف الإنكليز، وخدمة لحليفتها ألمانيا، التى فكرت فى اختيار «خور عبد الله» نهاية لخط حديد برلين ـ بغداد[٢]، فبعثت الدولة العثمانية حاميات عسكرية للإقامة فى أم قصر وبوبيان وصفوان. كما أنشأ العثمانيون محطات للبريد فى بوبيان وأم قصر، ولا شك أن ألمانيا كانت وراء تلك التحركات. وقد أرسلت الحكومة البريطانية السفينة الحربية (سفنكس)، لاختبار صحة هذه المعلومات. فأكد قائدها وجود الحاميات، ولكن لم يستمر وجود تلك الحاميات أكثر من أسبوعين[٣].

---

(١) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئاسة الكتاب ـ رقم ١٧٩٠ ص ٢٤، فى ٢٠ ذى الحجة ١٣١٩هـ، الموافق ١٧ آذار (مارس) ١٩١٢م.

(٢) Chirol, the Problem of Asia. P. 233.

(٣) Frazer, India under Curzon and after P. 102.

وفى مارس من نفس العام، زيدت حاميات البصرة فى محاولة لاحتلال الصبيحية ومنطقة مجاورة لرأس خور الصبية، بحجة تبعيتها لها، ودخولها فى حدود ولاية البصرة، فاحتج الشيخ على ذلك التجاوز العثمانى لحدوده. ومما يلفت النظر أن بريطانيا، بالرغم من أنها رأت فى احتلال الدولة العثمانية لتلك المناطق خرقًا لسياسة الإبقاء على الوضع الراهن، التى تبرر مطالبتها لها، بإنهاء هذا الاحتلال، فإنها لم تفعل سوى إبلاغ الباب العالى بأنها ترجو ألا يكون فى احتلال هذه الأماكن ما ينقص من حقوق شيخ الكويت(١). وصرح لانسداون Lord Lsnsdowne وزير الخارجية البريطانى «بأن مصالح بريطانيا فى الكويت لا تتعدى خليج الكويت، بما فى ذلك ميناء الكويت، أى أنه ليس لبريطانيا مطامع فى المناطق الداخلية، وأن بلاده على استعداد للتفاوض مع الأتراك لتحديد مناطق النفوذ البريطانى بالنسبة لخليج الكويت فقط»(٢). ومع ذلك لم يُرضِ هذا التصريح الدولة العثمانية، ورد عليها توفيق باشا ناظر الخارجية «بأنه فى الوقت الذى استعصى فيه على بريطانيا مقاومة التقدم الروسى فى إيران أخذت تركز على الكويت(٣).

ونتيجة لموقف الحكومة البريطانية السلبى من الشيخ مبارك أثناء أزمته تعرضت السياسة البريطانية فى المنطقة إلى نقد شديد، حتى من مواطنيها وصحفها، كما أن موقفها فت فى عضد الشيخ، وجعله يتجه إلى العثمانيين لكسب تأييد كبار موظفيهم، وفى مقدمتهم نورى باشا والى البصرة. وراح يبين لهم بأنه إنما اتجه إلى بريطانيا بعد أن رفض الأتراك مساعدته(٤).

وأخيرًا عدلت بريطانيا من موقفها حين أعاد أوكونر على توفيق باشا الاتفاق السابق بين حكومتيهما لأجل المحافظة على الوضع القائم، ذاكرًا أن بلاده اجتهدت فى المحافظة عليه، فى حين عملت السلطات العثمانية على إزعاج الشيخ مبارك. وأوضح أوكونر أن لبلاده مصالحَ سياسية واقتصادية فى الخليج العربى، لذلك فعليها تقع تبعية المحافظة على هذه المصالح(٥).

(١) F.O. 78 / 5251 Memorandum by the marquis of lansdowne, Kuwait Confidential 20 March 1902.

(٢) F.O. 78 / 5251 Memorandum by the Marquis of lansdowne, Kuwait Confidential 20 March 1902.

(٣) F.O. 78 / 5251 from Oconor to Lord Lansdown. No. 84 Feb 1902.

(٤) F.O. 78 / 5251 From Mr. Wratislaw to Sir O'conor No. 31 March 1902.

(٥) F.O. 78 / 5251 Sir N. O'conor No. 144. 28 March 1902.

ورأى كيرزون(Loid Curzon) أن المناقشات الدبلوماسية لا تُجْدِى، ويجب الدفاع عن الكويت بصورة صريحة[١]. وأيده المسئولون البريطانيون، وأوفدوه لإعلان الحماية على الكويت فى نوفمبر ١٩٠٣م، وتقليدالشيخ وسام نجمة الهند، ومنحه لقب السير[٢].

وكان لانسداون قد صرح فى بداية عام ١٩٠٣ فى مجلس العموم البريطانى بأن شيخ الكويت خاضع للحماية البريطانية، وله مع بريطانيا اتفاقية خاصة[٣]. وهذا أول اعلان رسمى بالحماية البريطانية، وأوصت الحكومة البريطانية بضرورة انسحاب الأتراك من الأماكن التى سبق أن وضعوا فيها حامياتهم، وأن تحل محلها قوات الشيخ. ووعدت الشيخ بمساعدته فى إنشاء مركز عسكرى فى جزيرة بوبيان لموازنة الحاميات العثمانية فى أم قصر، ولكن الشيخ خَشِىَ مغبة ذلك، واكتفى بالطلب بأن تتردد السفن البريطانية على ميناء الكويت وخور عبد الله من آن لآخر[٤].

وكلفت بريطانيا أول وكيل سياسى لها فى الكويت (عُين فى يونيو ١٩٠٤م) بإجراء مسح لحدود الكويت، وأرسلت وفدًا من الخبراء الجيولوجيين ليساعده فى هذه الغاية. فاحتجت وزارة (نظارة) الخارجية العثمانية على هذا الإجراء لدى السفير البريطانى فى الآستانة، الذى أجاب بأن مجئ البعثة لمجرد القيام ببعض التدقيقات التجارية وكشف واستنباط الأحوال الطبيعية للمياه الجوفية، بدون أن يوكل إليهم مهمات أو صلاحيات تنطوى على فكرة توسيع الحدود[٥].

وهكذا يتبين أن الدولة العثمانية لم تتغاضَ عن أى إجراء تقوم به بريطانيا فى الكويت لإثبات استقلالها عن الدولة العثمانية، ولتأكيد ما حصلت عليه من نفوذ من خلال معاهدة الحماية. ولكن الدولة العثمانية اضطرت فى النهاية ـ وأمام إعلان بريطانيا الرسمى لمعاهدة الحماية ـ أن ترضخ للأمر الواقع. وكانت هذه المعاهدة ضربة موجهة

---

(١) From Lord Curzon to lord George Hamoliton, May 1900 correspondance of lord Cron with Lord Hamilton Part II Vol. xx. 51018 India office library.

(٢) Craves the life of sir Percy cox. p 247.

(٣) د. جمال زكريا قاسم ـ المصدر السابق ص ٢٨٤.

(٤) Memorandum of Information recived during May 1905 (India) office Pol & Ex. files. vol. 35 of 1904 file 1855 Paris.

(٥) كتاب من رئيس كُتاب السلطان (حضرة الشهريار) ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب ـ رقم ٢٨٧٣ ص ٢٦، بتاريخ ١٨ ذى القعدة ١٣٢٢، الموافق (كانون الثانى) يناير ١٩٠٤م.

للدولة العثمانية التى لم تستطع الحفاظ على ما تدعى تبعيته إليها أمام بريطانيا التى سيطرت بشكل مطلق على المنطقة. وأخيراً تضطر الدولة العثمانية للدخول فى مفاوضات مع بريطانيا حول تقسيم مناطق النفوذ فى المنطقة، وتعترف بشرعية كل الاتفاقيات التى عقدتها بريطانيا مع الكويت، وبأن الكويت يشكل قضاءً عثمانيًا مستقلاً استقلالاً ذاتياً عن الدولة العثمانية، وذلك فى الاتفاقية البريطانية ـ العثمانية الموقعة عام ١٩١٣ بين الدولتين، والتى لم تترك للدولة العثمانية أى نفوذ أو مظهر من مظاهر السيادة فى الكويت.

موقف روسيا من اتفاقية الحماية البريطانية للكويت:

لم يكن توقيع اتفاقية الحماية بين الكويت وبريطانيا ليمضىَ بدون إثارة ردود فعل قوية لروسيا، نظراً لتقديرها لأهمية الكويت بالنسبة لمصالحها ومشاريعها فيها، ولنفوذها فى المنطقة، ولاسيما أن روسيا كانت تخطط لإقامة مشاريع حيوية فى الكويت، لذا فقد أثارت قضية الحماية البريطانية على الكويت تناقضات كبيرة بين روسيا وبريطانيا. ولما كان الروس مدركين لطبيعة موقف كل من بريطانيا والدولة العثمانية من الكويت، لذا سعوا لمساندة الأخيرة فى تصديها لما استجد من نفوذ بريطانى فى الكويت فى أعقاب عقد اتفاقية الحماية، بل وإلى دفع الدولة العثمانية لتثبيت نفوذها فى الكويت، متضامنين فى ذلك مع كل من فرنسا وألمانيا صاحبة المشروع الشهير لخط الحديد المقرر إيصاله إلى الكويت على الخليج العربى، ولكى يتسنى لروسيا تحقيق غايتها فى مقاومة النفوذ البريطانى فى الكويت وضعت نصب أعينها وجوب الحصول على معلومات كافية عن الكويت وعن المشاريع البريطانية فيها(١)، فأوفدت مبعوثيها وممثليها(٢) إلى الكويت، مغلفين مهمتهم بالرغبة فى التجارة أو مكافحة الطاعون، فى حين كانت الكويت خالية من هذا المرض، كما أن أولئك المبعوثين لم يكونوا تجاراً فى حقيقتهم(٣). وتؤكد الوثائق البريطانية بأنهم كانوا على اتصال مستمر بالسلطات العثمانية فى البصرة، أو بالسلطات

(١) د. بدر الدين الخصوصى: النشاط الروسى فى الخليج العربى ١٨٨٧ ـ ١٩٠٧م. مقال منشور فى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ العدد الثامن عشر ـ السنة الخامسة، أبريل ١٩٧٩م ربيع الثانى ١٢٩٩ ص ص ١١٣ ـ ١٤٠.

(٢) مثل أورفانسوف Ovanessof وعباس البوف، وعبد الله، وغيرهم، ومعظمهم من مواطن القوقاز.

(٣) Cunsul Wratislaw to Acting Consul -Ceneral Melvill. No. II. Bussorah Feb, 25, 1899 Enclosure 2 in No. 78.

المركزية فى الأستانة[١]. وإلى جانب تلك البعثات الروسية كان القناصل الروس فى كل من بوشهر وبغداد على اتصال مستمر بالشيخ مبارك للتعبير عن استيائهم وقلقهم من النشاط البريطانى القائم فى الكويت.

ولقد احتجت روسيا رسميًا على إبرام بريطانيا لاتفاقية الحماية عام ١٨٩٩م، لأن من شأن تلك الاتفاقية إحباط المخططات الروسية هناك، لاسيما مايتعلق منها بمشروع خط حديد (كابنست) ومحطة الفحم، ولذلك اتهمت روسيا بريطانيا بخرق اتفاق الوضع الراهن فى الخليج[٢].

وازدادت المعارضة الروسية للنفوذ البريطانى فى الكويت على إثر إيعاز بريطانيا لشيخ الكويت بإبدال العَلَم العثمانى على مقر حكمه بِعَلَم جديد للكويت[٣].

ولم يقتصر السخط الروسى على النفوذ البريطانى الضارب فى الكويت على الموقف الرسمى فحسب، بل تعداه إلى الصحافة الروسية[٤].

وحاولت روسيا إفشال معاهدة الحماية وإسقاطها، فقدم القنصل الروسى فى «بوشهر» إلى الكويت عام ١٩٠١ لمفاوضة الشيخ مبارك، وعقد اتفاقية معه تكون أكثر ملائمة من الاتفاقية التى عقدت مع بريطانيا. غير أن الشيخ مبارك أبدى اعتذاره للقنصل الروسى ورفضه لمقترحاته، بسبب موقف حكومته المؤازر للحكومة البلجيكية فى فارس، ومساعدتها لها لبسط سيطرتها على الجمارك الفارسية، وعلى الأخص فيما يتعلق بالمحمرة. فأجابه القنصل بأن ما قام به البلجيكيون فى المحمره أمر لا يختلف عمًّا يقومون به فى بقية مدن فارس، كبندر عباس، وبوشهر، فرد عليه الشيخ مبارك بأن المحمرة تختلف عن سواها من مدن فارس، لأنها لم تكن فارسية، بل عربية من الممالك العثمانية، يحكمها عرب من «بنى كعب»، وإن أمير بنى كعب الشيخ خزعل بن جابر مراد هو صديقه الحميم الذى لا يمكن أن يجرى اتفاقًا مع أية دولة ما لم يشترك معه فى ذلك الاتفاق، لأنهما يد واحدة، وبلد واحد، فوعده القنصل الروسى بتقديم المساعدة اللازمة[٥].

---

(١) Government of India to Lord G. Hamilton Telegraphic, Feb. 9. 1898. Enclosurra 2 in No. 30.

(٢) Government of India to Lord G. Hamilton Telegraphic, Feb. 9. 1898. Enclosurra 2 in No. 30.

(٣) لوتسكى، تاريخ الأقطار العربية ـ مترجم ص ٤٢٣.

(٤) Sir C. Scott to the Marquess of Landsdowne No. 365 st Petersburgh.

(٥) د. بدر الدين الخصوص ـ المصدر السابق ـ ص ص ١٢٠ ـ ١٢١.

ولم يكتف الروس بالاتصال بالشيخ مبارك ومحاولتهم إغراءه للميل إليهم، ونبذ المخططات الإنكليزية، وتقديم الوعود له ببذل كل التسهيلات والمساعدات له، وحمايته والحفاظ على استقلال بلاده[١]، بل راحوا يحرضون العثمانيين لإيجاد أدلة عينية من موظفين ودوائر وحاميات عسكرية فى الكويت، لتأكيد نفوذهم عليها، ورد خطر النفوذ والتحركات البريطانية فيها[٢].

وفى نطاق المساعى الروسية الرامية لمقاومة النفوذ البريطانى فى الكويت، واصلت روسيا حثها للدولة العثمانية للتصدى لذلك النفوذ، فأشار السفير الروسى فى الآستانة زينوفيف Zinovyev على الباب العالى بوجوب رفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية فى لاهاى[٣].

ومضت الاستراتيجية الروسية فى تنفيذ خططها بهذا الشأن، فوضعت برامج أكثر فاعلية لها، ونشطت الدبلوماسية الروسية فى تنفيذها، وعليه فقد شهدت الفترة التالية نشاطاً روسيًا غير اعتيادى، أطلق عليه لوريمر تسمية «سلسلة من المظاهرات البحرية الروسية التى تستهدف أغراضًا سياسية». ويحدد لوريمر بداية تلك السلسلة بظهور الطراد الروسى (جيلاك Gilyak) فى الخليج عام ١٩٠٠، حيث زار بندر عباس، وبوشهر، والبصرة، والكويت، والمحمرة[٤].

ويذكر المؤرخ السوفيتى لوتسكى أن الطرادات لم تنقطع بعدئذ عن التردد على مياه الخليج[٥].

ولم تكن الحكومة البريطانية بغافلة عن التحركات الروسية فى الخليج، واتصالات قناصلها مع شيخ الكويت، حتى أن السفن الحربية البريطانية كانت تتعقب الطراد الروسى جيلاك فى جميع الموانئ التى رَسَا فيها. وتابعت السلطات البريطانية تحركات

(١) Government of India to Lord G. Hamilton Telegraphic, Jan. 8. 1902. Enclosurra in No. 6.

(٢) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ رقم ٢٢٦٦ ص ٨ بتاريخ ١ ربيع ١٣٠٩هـ، الموافق ٤ تموز (يوليو) ١٩٠١.

(٣) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب ـ رقم ٧٨٧٧ ص ٢٠ بتاريخ ١٦ شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٣ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢م.

(٤) د. مصطفى عبد القادر النجار ـ دراسات فى تاريخ الخليج العربى المعاصر ص ٧٣.

(٥) Lubsy: OP C, t. p. 336

الروس المتعلقة بإرسال قناصلها وسفنها إلى الكويت، فى محاولة من بريطانيا للتعرف على أهداف تلك الزيارات المتكررة، ومجمل ما دار خلال المباحثات بين الجانبين الروس والكويتى[١].

وبعد زيارة الطراد الروسى جيلاك إلى الكويت زار طراد روسى آخر الكويت، وهو الطراد (اسكولد Askold)، ثم ثالث هو (فارياج Varyage) عام ١٩٠٢، وكان برفقة الطراد الفرنسى (انفيرتية). وقد اقتصرت أغراض زيارة السفينتين الروسيتين على المجاملات وتقديم الهدايا. وبعد ذلك قام القنصل الروسى فى البصرة بزيارة عمل للكويت فى نهاية ذلك العام (ديسمبر ١٩٠٢) على ظهر إحدى السفن الحربية الروسية، حيث أجرى مباحثات مع الشيخ مبارك، واستفسر منه عمًّا إذا كانت أى من السفن البريطانية قد جاءت إلى الكويت، كما تساءل عن مدى معرفة الشيخ بالاتفاق الذى تم بين الألمان والبريطانيين حول مد الخط الحديدى الألمانى إلى الكويت[٢].

ومضت روسيا على تصميمها فى محاولة التّصدى للنفوذ البريطانى فى الكويت، فلم يهدأ لها بال إثر عقد الشيخ مبارك اتفاقية عام ١٨٩٩م مع بريطانيا، وسعت بشتى الطرق لكى تثنى الشيخ عن سياسته الموالية لبريطانيا، وتقدمت بعدة عروض لكسب الشيخ، فعرض السير أوماتيكوف Omatiuikoif خدماته على الشيخ أثناء زيارته للكويت فى مقابل حصول بلاده على امتياز ملاحى، غير أنه لم يَحْظَ من الشيخ بنتيجة. كما تباحث المقيم السياسى الروسى فى بوشهر مع الشيخ فى إمكانية عقد معاهدة معه، غير أن الشيخ رفض جميع تلك العروض. ولكن روسيا لم تيأس، وأخذت تتحين الفرص لإقناع الشيخ مبارك بالتعامل معها، فلما تأزمت العلاقات بين الشيخ مبارك والسلطات العثمانية عام ١٩٠٠ لم تَفُتْ روسيا الفرصة، حيث أجرى قنصلها فى بغداد عدة اتصالات مع الشيخ مبارك[٦].

---

(١) Consul Wratislaw to Sir N. O'conor. No. I Confidential Bussorah Jan, 3. 1903. No. 24.

(٢) Koweit Agent to Lieutenant; General Kemball (Trandlation19th Ramazon 1320 (Dec. 20. 1902) Enclosure 2 in No. 31.

(٣) مذكرة من رئيس كتاب السلطان ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئيس الكتاب ـ رقم ٧٨٧٧ ص ٢٠ بتاريخ ١٦ شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٣ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢م.

(٤) د. مصطفى عبد القادر النجار ـ دراسات فى تاريخ الخليج العربى المعاصر ص ٧٣.

(٥) Lubsky: OP C, t. p. 336.

(٦) د. مصطفى النجار المصدر السابق ص ٧٤.

ولم تنفك روسيا عن ممارسة شتى الأساليب للوصول إلى الكويت، فواصلت سفنهم زياراتها المتكررة، حيث زارت السفينة الحربية الروسية (بويارين Boyarin) الكويت فى مارس ١٩٠٢، ثم بعث الروس بإحدى سفنهم الحربية إلى الكويت فى ١٢ سبتمبر ١٩٠٤م(١). حاملة رسالة للشيخ مبارك يعبر فيها الروس له عن استعدادهم التام لضمان حكمه إذا ما تصالح مع العثمانيين، واستقبل فى مدينته القناصل الروس والفرنسيين(٢).

وعندما فشلت كل الجهود الروسية الرامية لكسب الشيخ مبارك وتحويله عن الإنكليز أرادت روسيا أن تنتقم لنفسها، ولمّا كانت مدركة أن بريطانيا وراء رفض الشيخ مبارك لعروضها ومحاولاتها، لذلك حاولت ـ ردًا على اتفاقية الحماية البريطانية الموقعة مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ ـ الاستيلاء على ميناء بندر عباس، بما فيه الجُزر الواقعة فى مضيق هرمز، فى محاولة لجعل هذه المنطقة نهاية لسكة حديد كان من المأمول أن تنشئها عبر فارس، وكان اشتعال حرب «البوير» فرصة ملائمة لروسيا لكى تقوم بتنفيذ تلك الخطة»(٣).

وفى نطاق تحركات روسيا ضد بريطانيا فى المنطقة ـ رداً على اتفاقية الحماية البريطانية الكويتية ـ ضغطت روسيا على حكومة طهران كى تضع جزءًا من عوائد إقليم «فارس» على الخليج العربى تحت إشراف روسيا، وفاءً لديون الشاه لسنة ١٩٠٠، ولكن بريطانيا هددت الشاه بأنها ستتخذ الخطوات الحازمة لحفظ مصالحها، مما جعله يتردد فى قبول الأمر(٤).

وبالرغم من فشل محاولات الروس فى التأثير على الشيخ مبارك، فإن اتصالاتهم أصابت السلطات البريطانية بقلق بالغ، وأزعجتهم بشكل فاق ما سببته التحركات الفرنسية فى الكويت، وذلك نتيجة اعتقاد حكومة الهند الراسخ بأن المخططات الروسية كانت أقوى من كل أغراضها، كما كانت باعثًا لكل تحركاتها السياسية.

---

(١) د. بدر الدين الخصوصى، المصدر السابق ص ١٢٢.

(٢) Letter received by Shikh Mubarak.Dated I Rajab,1322 H. Sept. 12, 1904 (Translation), Enclosure 3 in No. 133.

(٣) د. جمال زكريا قاسم، المصدر السابق ص ٤٠١.

(٤) لورير، دليل الخليج جـ ١ ص ٥٥٨.

ومهما يكن الأمر، فإن المخططات والتحركات الروسية ـ ردًا على اتفاقية الحماية البريطانية للكويت فى ٢٣ يناير ١٨٩٩م ـ لم تحقق أغراضها، فلا هى استطاعت التأثير على الشيخ ليتحول عن البريطانيين إليها (روسيا)، ولا حتى نفعت محاولاتها لحث الدولة العثمانية على التصدى للنفوذ البريطانى المستجد فى الكويت، وانتهى الأمر باعتراف كل الأطراف بجميع الاتفاقيات.

موقف ألمانيا من معاهدة الحماية البريطانية علي الكويت:

فاقت ردود الفعل الألمانية على اتفاقية الحماية للكويت سواها من الدول صاحبة المصالح فى المنطقة، بما فى ذلك الدولة العثمانية صاحبة السيادة الاسمية، وروسيا صاحبة خط حديد كابسنت، ومحطة الفحم. وكان أمرًا طبيعيا أن تكون ردَّة فعل ألمانيا على تلك الاتفاقية قوية، فقد كان الهدف الأول لإيصال مشروع خط حديد برلين ـ بغداد إلى ألمانيا واختيار الكويت نهاية له. هو نسف المصالح البريطانية فى شرق البحر المتوسط ومصر، والعراق، والهند[١]. كما لم يُرْضِ ألمانيا أن تحل بريطانيا فى الكويت محل حليفتها وصديقتها الدولة العثمانية (الرجل العريض) والتى أخذت بيدها وحلَّت مشاكلها من مالية وعسكرية، وخطوط مواصلات، من أجل إبقائهما على قيد الحياة، والاستفادة منها فى الوصول إلى المنطقة، والحصول على مصالحها فيها. لذلك كانت ألمانيا وراء كل التحركات والأعمال التى قامت بها الدولة العثمانية للتصدى للمخططات البريطانية فى الكويت، وكانت ألمانيا تحث الدولة العثمانية وتدفعها لتثبيت نفوذها فى الكويت، وإيجاد أدلة عينية على سيادتها هناك، ونصحت كل من ألمانيا وروسيا الدولة العثمانية ببذل مساعيها ومحاولاتها لإقامة دائرة للعوائد، ومكتب للبرق، بالوسائل السلمية[٢].

كذلك تضامنت ألمانيا وفرنسا فى الإشارة على السلطات العثمانية بضرورة إحداث إدارات حكومية فى الكويت، كإدارة الجمارك، وإدارة الميناء، وغيرها، بالسرعة الممكنة، لوضع أساس لنفوذ الحكومة العثمانية هناك. ونبهت الدولتان إلى وجوب الإكثار مِمّاً يعبر عن رسوخ الملكية العثمانية، وضرورة الإعراب عن ذلك علانية. وتشير ألمانيا إلى أن المنطقة عثمانية (حسب ادعائها) ولا ينبغى التخلى عن التعبير عن حق الحكومة

---

(١) رسالة الباحثة للدكتوراه (المنشورة) الكويت فى ظل الحماية البريطانية ص ٢٩.

(٢) F.O. 78 /5173 From Tawfik Pasha to Foreign Office, London 29 August 1901.

العثمانية فى الحُكم بإنشاء الدوائر الحكومية، لأن فى الإغماض عن ذلك وعدم الالتفات والاعتناء بحقوق الدولة العثمانية، والجهر بتبعية إلكويت لها خطراً على مركزها ونفوذها فى الكويت والمنطقة بأكملها[١].

وكردة فعل أولية للحكومة الألمانية على اتفاقية الحماية الكويتية البريطانية أمرت سفيرها فى الآستانة بإعلان وجهة نظرها، التى تتلخص فى أن إعلان الحماية البريطانية أمر يتنافى مع قرارات مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨. ونظراً للمصالح الألمانية فى الكويت، ومستقبل خط سكة حديد برلين - بغداد، فإن الحكومة الألمانية سوف تعد هذا العمل خطوة غير ودية. فأجابه السفير البريطانى بأن الحكومة البريطانية لا تنوى إعلان الحماية على الكويت، شريطة الا تجبرها الحكومة العثمانية بأعمالها على ذلك.

كما قابل السفير الألمانى فى لندن الكونت (مترنيخ Cont Metternich) وكيل وزارة الخارجية البريطانية (السير توماس ساندرسون Thomas Sanderson) لتأكيد وجهة نظر حكومته القائلة بأن الكويت جزء من الإمبراطورية العثمانية، وأن معاهدة عام ١٨٩٩ غير شرعية، لأنها عُقدت مع تابع للدولة العثمانية. فرد ساندرسون بأن ليس فى نية حكومته الإخلال بالتوازن الدولى فى المنطقة[٢].

ومن ناحية أخرى فقد قابل السفير البريطانى فى بزلين (فرانك كاسيل Frank L. Kasselle) (الدكتور روسن Dr. Rosen) المستشار فى وزارة الخارجية الألمانية، وتباحث معه حول مستقبل خط حديد بغداد، والأحوال العامة فى الإمبراطورية العثمانية، خاصة فى العراق والكويت، وقد بين السفير للمستشار أن الكويت تابعة للسلطان من الناحية الفنية فقط، ولكنها فى الحقيقة تتمتع باستقلال تام، وقد سبق لها أن تصرفت كبلد مستقل فى العلاقات الدولية. غير أن الدكتور روسن عَلّقَ بأن شيخ الكويت تابع للسلطان[٣].

وفى محادثة بين السفير الألمانى فى لندن مترنيخ، والمركيز لانسداون وزير الخارجية البريطانية - والتى أرسلها الماركيز إلى السير فرانك لاسيل (السفير البريطانى فى

(١) مذكرة من رئيس كتاب السلطان (تحسين) - قصر يلدز الهمايونى - مكتب رئيس الكتابَ / رقم ٢٢٦٦ ص ٨، بتاريخ ١ ربيع ١٣٠٩هـ، الموافق ٤ تموز (يوليو) ١٩٠١م.

(٢) F.O. 78 /5174 Foreign Office to Viceroy. 9 September 1901. Jo. 65.

(٣) F.O. 78 / 5173. Lord Lanndowne report to Lord Salisbury on the German Railway Scheme. No. 191, July 1901.

الآستانة» ـ أشار السفير الألمانى إلى أن بلاده تعد الكويت جزءاً من الأملاك العثمانية، وعضدها فى ذلك فقرة من مؤلف اللورد كيرزون عن (فارس والمشكلة الفارسية (جـ ٢ ص ٤٦٢). فأوضح الماركيز لانسداون رأيه حول ما ذكره السفير الألمانى بأنه لا يمانع فى إعطاء السلطان بعض السيادة على الكويت، مع إلباسها طابعًا من الغموض، ولكنه أكد أن حكومته تعارض بشدة أن يغتصب الباب العالى سلطات لم تكن مُمَارَسَة من قبل على الشيخ[1].

وقد فوض السير لاسيل بأن يستخدم أسلوبًا على غرار رسالةالسير أوكونر بتاريخ ١ / ٤ / ١٩٠٠، مبينا أن الحكومة البريطانية لا تنوى تغيير الوضع القائم، إلا إذا اضطرتها الدول الأخرى إلى ذلك. وكان هذا الرد قد أُعدَّ لاستعمال ملك بريطانيا ردا على استفسار الإمبراطور الألمانى منه حول وضع الكويت[2].

وفى مذكرة أعدها لانسداون لاستخدام الملك، وسلم نسخة منها إلى مترنيخ، الذى أرسلها بدوره إلى الإمبراطور الألمانى ـ أكد لانسداون استقلال الكويت عن الدولة العثمانية. فأشار مترنيخ إلى كلام أوكونر عام ١٩٠٠ حول عدم رغبة الحكومة البريطانية فى التدخل فى سيادة السلطان على مناطق نفوذه، ـ ومنها الكويت ـ فنفى اللورد لانسداون أن تكون سيادة السلطان قائمة على الكويت، وأوضح أن للسيادة وصفًا محدودًا لدى شيخ ينتمى إلى طبقة المتمتعين بقدر كبير من الاستقلال الفعلى فى المنطقة، الأمر الذى وجدت معه بريطانيا أن من الضرورى إقامة علاقات مباشرة مع الشيخ، بفرض حماية على بلاده، ولتأمين التجارة البريطانية. وبرغم استعداد بريطانيا للحفاظ على الحالة الحاضرة (للوضع الراهن) فإنها لاتستطيع أن تقبل محاولات الدولة العثمانية لفرض شروط على شيخ كان متحرراً منها فى الأصل. وأن بريطانيا تعد طرح هذه المسألة مجرد مناقشة ودية ومباشرة مع الباب العالى. وأبلغ الكونت مترنيخ بالتأكيدات المتبادلة بين بريطانيا والدولة العثمانية حول الحفاظ على الوضع القائم[3].

---

(١) F.O. 78 / 5113 From the Marquess of lansdoune to Sir. F. Lascelles 26 October 1900.

(٢) F.O. 78 / 8113 Extract. From Memorandum on Question Which may be mentioned by the German Emperor to the King.

(٢) F.O. 78 \ 5173, Koweit, Confidential, No. 1. The Marquess of Lonsdoune to Sir F. Lascelles. (No. 304 confidential) Foreign Office September 11, 1901.

وبذلك أعطى الألمان أهمية خاصة وإضافية للكويت، بالرغم من أن الأخيرة كانت على المسرح السياسى الدولى منذ فترة طويلة، ولكن يمكن القول بأن هناك أربعة أمور استجدت على مسرح الأحداث، أكسبت الكويت تلك الأهمية الفائقة، وأحدثت مجابهة فعلية بين بريطانيا والقوى المنافسة الأخرى وهى:

- المشاريع الروسية فى الكويت، لاسيما مشروع كابنست للخط الحديدى ومحطة الفحم.

- التقدم الألمانى من خلال سكة حديد بغداد.

- معاهدة الحماية البريطانية عام ١٨٩٩ وما تبعها من امتيازات واحتكارات بريطانية فى الكويت.

- النزاع بين الكويت وأمير نجد من جهة، وبين الكويت والدولة العثمانية من جهة أخرى.

ومن الثابت أن بريطانيا لم تعترف بالكويت جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانى، ولكنها اعترفت بوجود علاقات خاصة بين الشيخ والسلطان العثمانى، ولكنها لم تعلن استقلال الكويت، واتفاقيتها معها فى بداية الأمر نتيجة ظهور الخطر الألمانى، وخشية الدخول فى أزمة سياسية معقدة مع فرنسا وروسيا وألمانيا بتهمة خرق بريطانيا لمعاهدة برلين(١). وهو الأمر الذى حدث بالفعل من قبل ألمانيا حين أعلن سفيرها فى برلين بأن معاهدة الحماية لعام ١٨٩٩م أمر يتناقض مع قرارات مؤتمر برلين ١٨٧٨م.

ودأبت ألمانيا على الوقوف فى وجه بريطانيا دفاعًا عَمًّا تدعيه من حقوق السيادة للدولة العثمانية فى الكويت. ومن ذلك ما قامت به ألمانيا من احتجاج على منع قائد السفينة البريطانية (بيرسوس Perseus) لقائد السفينة العثمانية (زحاف) من إنزال قوات إلى الكويت، فأشارالسفير الألمانى فى لندن (مترنيخ) فى ٣ سبتمبر ١٩٠١م إلى أنه إذا كان بالتهديد باستخدام القوة منعت الحكومة البريطانية السلطان من إنزال قوات إلى الكويت فإنها بذلك (بريطانيا) ترفض الاعتراف بسيادة السلطان التى تعهدت بعدم الإخلال بها فى هذه المنطقة، وإن الحكومة الألمانية اعتبرت أن الكويت - بلا منازع - جزءًا من الأراضى

(١) د. محمود على الداود، الخليج العربى والعلاقات الدولية جـ ١، ١٨٩٠ - ١٩١٤، ص ١٦٧.

المملوكة للسلطان. فأعاد السير توماس ساندرسون تعهدات اللورد لانسداون من أن بريطانيا لاترغب فى تعكير الوضع الحاضر[١].

وفى الحقيقة كانت الدولة العثمانية دائمًا ـ وبتحريض من ألمانيا ـ هى التى تخل باتفاقية الوضع الراهن، فى حين ترد بريطانيا على ذلك بالوسائل الدبلوماسية، أو تضطر لاستعمال مظاهر القوة[٢]. كما قابل السفير الألمانى فى لندن وزير الخارجية البريطانية حول الموضوع ذاته مستفسرًا عَمَّا جاء على لسان قائد السفينة البريطانية بيرسوس لقائد زحاف من أن الكويت تحت الحماية البريطانية، فنفى وزير الخارجية البريطانية ذلك، مشيرًا إلى أنه لابد أن يكون قد وضع خطأ فى كلام قائد السفينة الحربية البريطانية، أو أن يكون هناك سوء فهم، وما الكويت إلا جزء من الدولة العثمانية، ولاداعى أصلا وقطعًا لأى مداخلة أو حماية أجنبية عليها[٣].

ونظرًا لانزعاج بريطانيا من موقف ألمانيا المعادى لمعاهدة الحماية وللنفوذ البريطانى فى الكويت، ودفعها للسلطات العثمانية لخلق المشاكل أمام بريطانيا هناك، فإنها استغلت حاجة ألمانيا لموافقتها على مد خط حديد برلين ـ بغداد، بعد أن رفض الشيخ مبارك التفاوض مع البعثة الألمانية، مؤكدًا وجوب الرجوع إلى الحكومة البريطانية[٤] ـ فأبلغت بريطانيا الحكومة الألمانية بمعاهدتها مع الشيخ، وذلك حين اجتمع أوكونر السفير البريطانى بالسفير الألمانى فى الآستانة (فون مارشال) Baron Von - Marchall وأبلغه بأن من صالح القائمين على مشروع الخط الحديدى أن يعرفوا أن الحكومة البريطانية لديها اتفاقٌ مع شيخ الكويت لايتعارض مع الموقف الراهن، لكنه يمنع الشيخ من منح أى امتياز فى أراضيه لأى دولة أخرى قبل الحصول على موافقة الحكومة البريطانية[٥].

ولقد جرت محاولات تبناها السفيران البريطانيان فى كل من الآستانة وبرلين، لأجل تقوية العلاقات مع ألمانيا، للوصول إلى حل مُرْضٍ لقضية الامتيازات الألمانية فى

(١) وثيقة رقم ٢٣ مجموعة م ف ٢ ـ من وثائق حكومة الهند ـ المكتبة المركزية للدولة، تقرير شامل عن أحوال الكويت فى الفترة من ١٨٧١ / ١٩٠١ ـ إعداد المكتب الخارجى، بتاريخ ١١ / ٩ / ١٩٠١م.

(٢) رسالة الباحثة للدكتوراه (المنشورة) ص ٢٥.

(٣) مذكرة من رئيس كتاب السلطان تحسين باشا ـ قصر يلدز الهمايونى ـ مكتب رئاسة الكتاب رقم ٣٦٧٤ ـ ص ١، بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣١٩هـ، الموافق ٢٣ أغسطس (آب) ١٩٠١م.

(٤) F.O. 78 / 5114 Memorandum from Sir O'connor to Col Meade and Consul Wratislaw 27th Jan. 1900.

(٥) F.O. 78 / 5114 From Sir O'connor to Foreign office, 12 Jan, 1900.

الإمبراطورية العثمانية، ومدى تأثيرها على النفوذ البريطانى فى الخليج العربى والعراق(١). وكان من نتيجتها أن اعترفت ألمانيا بالنفوذ البريطانى فى الكويت على لسان السفير الألمانى فى الآستانة، الذى أوضح أن ألمانيا لا ترغب فى الحصول على أية حقوق للسيادة فى الكويت، وإنما انحصرت أهمية الكويت بالنسبة لها باعتباره النهاية المقترحة لخط حديد برلين ـ بغداد. وأن الاتفاق حول هذا المشروع سيكون مع بريطانيا(٢).

ولكن تأخذ الحماية البريطانية على الكويت وضعها الطبيعى والرسمى، فقد أرسل (كيرزون) نائب الملك فى الهند رسالة إلى الإمبراطور الألمانى، ذكر فيها أن حكومته وقعت اتفاقية مع شيخ الكويت، وأنها لاترغب فى التدخل فى سيادة السلطان العثمانى، أو تغيير الوضع الراهن. ولكن بشرط ألا تُمَسَّ المصالح البريطانية فى الخليج، أو تُعْطَى أية دولة حقوقًا على أرض الكويت. كما أن بريطانيا لا ترغب فى عرقلة السُّبُل أمام الحكومة الألمانية لمد خط الحديد، بل تشترط أن تكون المفاوضات من أجل الوصول إلى اتفاق بهذا الشأن مع الحكومة البريطانية(٣).

وهكذا تضطر الظروف الدولية بريطانيا إلى إفشاء اتفاقيتها مع الشيخ، فتجد الدول الأوربية نفسها أمام أمر واقع، وتعترف بهذا الوضع الجديد.

على أن هذه الاتفاقية كانت بصفة خاصة ضربة موجهة للدولة العثمانية، تهديدًا لنفوذها فى الخليج العربى والعراق(٤)، فقد كانت الدليل الواضح على عجز السلطان عن الدفاع عن الأراضى التى تمتد إليها سلطته، أو يدعى السيادة عليها(٥).

* * *

(١) F.O. 78 / 5114 form Lord Curzon to German Emperor, October 1901.

(٢) F.O. 78 /5113 From Frank Lascelles to Foreign Office 15 Jan, 1900.

(٣) رسالة الباحثة للدكتوراه (المنشورة) ص ٣١.

(٤) المصدر السابق ص ٣١.

(٥) د. عبد العزيز نوار ـ المصالح البريطانية فى أنهار العراق، ص ص ١٩١ ـ ١٩٤.

قائمة المراجع والمصادر

أولا ـ وثائق غير منشورة:

١ ـ وثائق عثمانية:

- صورة مضبطة مجلس النظار (الوزراء) العثمانى المتعلقة بمحضر اجتماعه بتاريخ ١٤ شعبان ١٣١هـ / الموافق فبراير ١٨٩٦م، ملف ٧٨م.
- كتاب رئيس كُتاب السلطان (حضرة الشهريار)، قصر يلدز الهمايونى، دائرة رئيس الكُتاب رقم ٦٢، بتاريخ ٢ شعبان عام ١٣١٧هـ، الموافق ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٩م.
- كتاب ناظر الأمور الداخلية إلى الصدر الأعظم، الباب العالى دائرة الأمور الداخلية، مكتب مكتوبى، ١٥ شوال ١٣١٧ هـ، الموافق ٣ شباط (فبراير) ١٨٩٩م.
- مذكرة رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايونى، مكتب رئيس الكتاب، رقم ٤٤٦٦ ص ٦ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٣١٨هـ الموافق ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٠.
- كتاب من المجلس المخصوص إلى الباب العالى، بتاريخ ١٧ جمادى الأولى ١٣١٨هـ، الموافق ١٨ آب (أغسطس) ١٨٩٩، ملف ٧٨ ص ٥م.
- كتاب من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايونى، مكتب رئيس الكتاب، بتاريخ ٧ رمضان ١٣١٧هـ الموافق ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩م.
- مذكرة من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايونى، مكتب رئيس الكتاب، رقم ٤١٦٦ ص ١٢، جمادى الأولى ١٣١٧هـ، الموافق ١١ آب (أغسطس) ١٨٩٩.
- مذكرة من رئيس كتاب السلطان رقم ٧٩٢٧، ص ٢٣، قصر يلدز الهمايونى، دائرة رئيس الكتاب.

- مذكرة من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب رقم ٢٢٦٦ ص ٨، بتاريخ ١ ربيع الأول ١٣٠٩هـ، الموافق ٤ تموز (يوليو) ١٩٠١م.
- صورة للأصل لبرقية الشفرة الواردة من ولاية البصرة إلى الباب العالي، دائرة الصدر الأعظم، مكتب مكتوبي، مستعجل جدا، من محسن باشا، بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٠١ ص ١٠م ٢.
- مذكرات مدحت باشا (ترجمة حالة) وثائق وزارة الخارجية الكويتية.
- كتاب من مدحت باشا إلى الصدر الأعظم، ولاية بغداد إلى الباب العالي، دائرة الصدر الأعظم.
- مذكرات المجلس المخصوص إلى السلطان، بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٣١٩هـ / ١٥ آب (أغسطس) ١٩٠١م، وتحمل توقيعات إلى الصدر الأعظم (خليل رفعت) ناظر الخارجية (وأحمد توفيق إسماعيل) رئيس مجلس الشورى، وناظر البحرية، وقائد العسكر، وناظر العدل، وشيخ الإسلام، مستشار الصدارة، وغيرهم كثيرين.
- مذكرة من رئيس كُتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب، رقم ٢٦٧٤ ص١، بتاريخ٢٢ جمادى الأولى ١٣١٩هـ الموافق ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٠١م.
- كتاب من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب، رقم ٦٧٧٠، ص ١٤، بتاريخ ٥ رمضان ١٣١٩هـ، الموافق ٣١ كانون أول (ديسمبر) ١٩٠١م.
- كتاب من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب، رقم ٩١٧١٥ ص ٥٢.
- كتاب رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب، رقم ٨٠٣٧ ص ٩، بتاريخ ٢٣ شوال ١٣١٩هـ، الموافق ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢م.
- مذكرة من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب، رقم ٧٥٠١ ص ٢٥، في ٢ شوال ١٣٢٠هـ، الموافق ١٩كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٢م.
- كتاب من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايوني، دائرة رئيس الكتاب، رقم ١٩٧٠ ص ٢٤، في ٢٠ من ذي الحجة ١٣١٩هـ، الموافق ١٧ آذار (مارس) ١٩٠١م.

ـ مذكرة من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايونى، دائرة رئيس الكتاب، رقم ٧٩٧٧ ص ٢٠، بتاريخ ١٦ شوال ١٣١٩هـ، الموافق ١٣ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢.

ـ كتاب من رئيس كتاب السلطان، قصر يلدز الهمايونى، دائرة رئيس الكتاب، رقم٧٨٧٣ ص ٢٦، بتاريخ ذى القعدة ١٣٢٢هـ، الموافق كانون الثانى (يناير) ١٩٠٤م.

٢ ـ الوثائق البريطانية :

(أ) وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة في مكتب السجلات العامة في لندن :

Public Record Office:

F.O. 78 / 5113	1897
F.O. 78 / 5114	1899
F.O. 78 / 5173	1901
F.O. 78 / 5174	1901
F.O. 78 / 5251	1901
F.O. 60 / 599	
F.O. 371 / 6853	1933
F.O. 371 / 5220	1920
F.O. 371 / 10005	1923
F.O. 371 / 13070	1928
F.O. 371 / 8292	1931

(ب) وثائق القسم السياسى والسرى :

Political & Secret Library:

(سجلات وزارة الهند) :

India Office Library

1 - Secret letters and Enlosures for India.

2 - Secret letters to India.

3 - Political and Secret letters from the persian Gulf.

4 - Enclosures to Bombay Secret letters.

5 - Peria and Persian Gulf.

6 - Bombay Secret letters recieved.

7- Home Correspondences.

ويحوى هذا القسم مجموعة مهمة جدا لدارسى تاريخ الخليج، هى : R / 15 Persian Gulf وتقع وثائق الكويت هنا تحت هذا الرقم.

وأهم الوثائق التى رجعنا إليها فى هذا القسم ما يلى:

R/ 15 / 53/ 44

I.O.L/ 18 / B. 395.

P. 4224

L / P / 5 / 3

L / P / 5 / 10

L / P / 5 / 18

L / P / 5 / 11

(جـ) وثائق حكومة الهند (مترجمة) ومصنفة فى الكتب المركزية للدولة:

١ ـ وثيقة رقم ٢، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

٢ ـ وثيقة رقم ٦، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

٣ ـ وثيقة رقم ٧، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

٤ ـ وثيقة رقم ٩، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

٥ ـ وثيقة رقم ١٠، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

٦ ـ وثيقة رقم ١٨، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

٧ ـ وثيقة رقم ٢٥، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ /. ٣ / ١٨٩٧م.

٨ ـ وثيقة رقم ٢٧، المجموعة م ف ٢، بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٨٩٧م.

ثانياً ـ قائمة المصادر والمراجع العربية:

١ ـ د. جمال زكريا قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٤م.

٢ ـ حسين الشيخ خزعل، تاريخ الكويت جـ ٢ بيروت ١٩٦٣م.

٣ـ حسين محمد البحارنة، دول الخليج الحديثة، مؤسسة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٧٣م.

٤ـ خالد سعود الزيد، الكويت فى دليل الخليج، د.ص.ج لوريمر، القسم التاريخى، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨١.

٥ ـ د. سيد نوفل، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ـ القاهرة، ١٩٦٠.

٦ ـ سيف مرزوق الشملان، من تاريخ الكويت، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩م.

٧ـ عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، بيروت، ١٩٧١م.

٨ ـ د. فتوح عبد المحسن الخترش، سالدانها، ج، التاريخ السياسى للكويت فى عهد مبارك، دراسة وثائقية مقارنة بالمؤرخين المحليين، مطبوعات جامعة الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٩ ـ د. فؤاد سعيد العابد، سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٨٥٣ ـ ١٩١٤م، جـ ٢، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٠ ـ لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، القسم التاريخى، جـ ١، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، الدوحة، ١٩٦٧م.

١١ ـ نوفسكى، تاريخ الأقطار العربية (مترجم) دار التقدم، موسكو، ١٩٧١.

١٢ ـ محمود على الداود. الخليج العربى والعلاقات الدولية، جـ ١٨٩٠ ـ ١٩١٤م، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٠.

١٣ ـ د. مصطفى عبد القادر النجار:

ـ التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربى، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة، ١٩٧٨م.

ـ دراسات فى تاريخ الخليج العربى المعاصر، معهد البحوث والدراسات العربية، البصرة (١٩٧٥م).

١٤ـ د. ميمونة خليفة الصباح:

ـ رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان: «العلاقات الكويتية فى الفترة بين ١٨٩٦ ـ ١٩٣٩» قدمت لجامعة الكويت عام ١٩٧٥م.

ـ رسالة دكتوراه منشورة تحت عنوان «الكويت فى ظل الحماية البريطانية» الكويت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

المقالات المنشورة فى الدوريات العربية: .

١ ـ د. جاكلين إسماعيل: سياسة بريطانيا فى الخليج والكويت فى القرن التاسع عشر، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السادس عشر، السنة الرابعة، تشرين أول (أكتوبر) ١٩٧٨م / ذى القعدة ١٣٩٨هـ.

٢ ـ د. بدر الدين عباس الخصوصى: النشاط الروسى فى الخليج العربى ١٨٨٧ ـ ١٩٠٧، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثامن عشر ـ السنة الخامسة، ربيع الثانى ١٣٩٩هـ، الموافق أبريل ١٩٧٩م.

٣ ـ سجل الكويت اليوم، دائرة المطبوعات والنشر لحكومة الكويت، عام ١٩٧٥م.

المراجع والمصادر الأجنبية:

١ ـ - Frazer. L: - India under Curzon and After, London, 1911.

٢ ـ - Craves (phillip) The life of Sir percy Cox, Lomdon, 1951.

٣ ـ - Chirole Velentine, The problem of Asia, London 1903.

٤ ـ - Hay (Rupert): The Persian Gulf States, washington M.E. Institute 1959.

٥ - Hand Book Prepared under the direction of Great Bribain, Foreign office, Historical section Persian Gulf, No.67 London 1920.

٦ ـ - Lutsky: Modern History of Arab Corntries,Noscow, 1969.

٧ ـ - Whigham (N.J.) The Persian Problem, London1903

* * *

صالون الأميرة نازلى فاضل(١)

من المهم لكل من يؤرخ للحياة الفكرية فى مصر الحديثة ويتطرق لينابيع حركة التنوير، وما نتج عنها من تأثير الاّ يتجاهل الصالونات الأدبية، أو تلك الأندية الأرستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى والفكر فى مصر، من كُتَّاب، وخطباء، وشعراء، ومفكرين، وسياسيين، وصحفيين، وغيرهم، وتدفعهم إلى التسابق فى مضمار الرقى الفكرى والتمدن، والتى كان من أبرزها صالون الأميرة نازلى فاضل، وصالون إسماعيل صبرى، والمجالس التى كانت تعقد فى منازل على باشا مبارك، ولطيف باشا سليم، وسعد زغلول، وغيرهم، وما أعقب ذلك من ظهور صالونات مشهورة مثل صالون «مىّ» الذى ظل موضوعًا محبباً ومثيرًا لدى العديد من المثقفين والقراء، وصالون «العقاد» الذى احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل، ودارت فيه موضوعات شتى من التاريخ، والأدب، والفلسفة، والفن، والسياسة، والفكاهة.

(١) ابنة الأمير مصطفى فاضل، نجل إبراهيم باشا، ابن محمد على، وشقيق الخديو اسماعيل، والذى كان يعتبر نفسه أحق منه بعرش مصر، لذلك ظل مناوئاً له حتى اضطره الخديو فى نهاية الأمر إلى التنازل عن جميع ماله بالقطر المصرى من الأملاك وغيرها. للتفاصيل يمكن الرجوع إلى دار الوثائق: محافظ أبحاث: محفظة ١٣٥ تحت عنوان «تراجم محمد على والعائلة» وإلى جانب ذلك كان من دعاة الحرية والدستور والثائرين فى وجه الاستبداد فى عاصمة الدولة العثمانية، فطالب بالدستور فى عهد السلطان عبد المجيد، لدرجة أن أطلق عليه البعض «أبو الأحرار». ونتيجة ليأسه من العمل السياسى وفشل مؤامراته ضد الخديو إسماعيل انصرف إلى العلم والأدب، فحوّل قصره إلى مدرسة، كما كانت مكتبته الخاصة من أكبر المكتبات فى مصر، مما جعل له منزلة خاصة فى قلوب المثقفين المصريين. وتميزت الأميرة نازلى منذ نشأتها بالذكاء والدهاء والجمال الفتّان، وقد اتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية نتيجة لتزوجها من سفير الدولة العثمانية فى لندن، وبعد وفاة زوجها عادت إلى عاصمة الخلافة، حيث ضاق بها السلطان عبد الحميد ذرعاً لعلاقتها بجماعة تركيا الفتاة، فاضطرت للإقامة فى مصر فترة، حيث ضاق الخديو عباس الثانى بها ذرعًا أيضاً، ثم رحلت إلى تونس، وتزوجت من السيد خليل بو حاجب نجل قاضى المحكمة الشرعية بتونس، ولما لم يطلب لها المقام هناك استقرت فى قصرها بالقاهرة =

ومع أن صالون الأميرة نازلى كان يعد من أبرز الصالونات فى مصر واشدها تأثيراً فى الحركتين الأدبية واليساسية[١] خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر، أمثال «شريف باشا»، و «رياض باشا»، و «سلطان باشا»، و «لطيف باشا سليم»، و «عمر باشا لطفى»، و«شاهين باشا»، وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التى عُرفت باسم جمعية حلوان السرية، ثم الحزب الوطنى بعد ذلك[٢].

وعلى الرغم من ذلك، ومع أن هذا الصالون قد أدّى دوراً مهماً فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده، تلك الجماعة التى تبدأ جذورها منذ حضور الأفغانى إلى مصر خلال سبعينات القرن الماضى، وازدهرت بفكر ونشاط محمد عبده، الذى قاد حركة التفاهم بين السلفية والتحديث... ومع أن هذا الصالون قد ضم بين جنباته قاسم أمين، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوى، وأحمد فتحى زغلول، وإبراهيم المويلحى، وأديب إسحاق، وعلى يوسف، وحسين رشدى، وغيرهم من قادة الرأى والفكر والسياسة الذين كانت لهم أدوار بارزة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر... ومع أن هذا الصالون كان يضم بين جنباته كبار المسئولين الإنجليز أمثال: إيفلين بارنج (لورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر، وهارى بويل السكرتير الشرقى، وكبار رجالات الاحتلال فى مصر، أمثال المستشرق رودنالد ستورز وغيره.

... ومع كل ذلك فإن هذا الصالون وصاحبته كانا من مظاليم التاريخ، فلم يحظيا باهتمام من أحد، ولم يُبرز أهمية دراستهما أحدٌ، خاصة أن هذه الأميرة كانت تُنسب إلى الأسرة المالكة المعزولة، كما أنها كتبت بعض المقالات فى الصحف الأجنبية ضد المصريين[٣].

---

* إلى أن ماتت فى نهاية عام ١٩١٣.
انظر: أوراق محمد فريد، المجلد الأول، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ ـ ١٩١٩ القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ص ١٣٣، ومصطفى عبد الرازق: أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده، مجلة الشباب، العدد الأول، فى ١٧ فبراير ١٩٣٦.

(١) عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية فى مصر حـ٣، وإبراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق، القاهرة، دار الفكر العربى ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى، ١٩٨٠ ص ٣٠ ـ ٨١.

(٣) للأميرة حديث نشره جرفيل Guerville الأمريكى فى كتابه الذى نُشر فى لندن عام ١٩٠٥، تحت عنوان New Egypt، وصفت فيه الشباب المصرى بالخمول والكسل، كما أن لها حديثاً نُشر فى الإيجبسيان جازيت عام ١٩٠٩، ذكرت فيه أن الشباب المصرى لا يساوى ثمن الحبل الذى يشنق به، مما أهاج بعض الجرائد المصرية ضدها. انظر: المقطم فى ٢٦ فبراير ١٩٠٩.

وكانت على علاقة بالإنجليز لقد تربت الأميرة نازلى على النمط الأوربى، وتثقفت بالثقافة الغربية، وكانت تتكلم الفرنسية كإحدى بنات السين ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع، هذا إلى جانب أنها كانت تُحسن اللغات الإنجليزية، والتركية، والعربية. وكانت كما يذكر محمد فريد تقابل الرجال على العادات الأوربية، وتحيى ليالى موسيقية فى دارها، و«تكثر من شرب الخمر ـ خاصة الشمبانيا ـ على الطعام، بل وقبل كل طعام»[١]. يضاف إلى ذلك أنها كانت «تتداخل فى القضايا مقابل سمسرة تأخذها باسمها، أو باسم القضاء»[٢].

لقد كان قصر الأميرة نازلى مجتمعاً للعظماء وقادة الرأى، وصفوة أهل العلم والأدب، من أجانب ومصريين، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولم يقتصر صالونها على تدارس الشعر والأدب، بل كانت تُحَلُّ فيه عظائم الأمور، وتعقدٌ.

ففى صالونها كانت تمحص مسائل الإصلاح الاجتماعى، وأحوال المرأة المصرية، وتتدارس طرائف العلوم والآداب، والفنون الجميلة، وخلاصة الفكر الراقى.

وفى صالونها كانت تشجع أصحاب المواهب والكفاءات المتميزة التى حملت راية التنوير الفكرى فى مصر، كما كانت تناقش الكتب الأوربية التى كانت تهاجم مصر[٣]، وتخاطب الصحافيين، وترسل بآرائها إلى الجرائد.

وفى صالونها دافعت عن أحمد عرابى وثورته، ولم تمل الكلام عن نزاهة أغراضه، ومما قالته عنه: إنه لم يكن جنديًا فحسب، لأن قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك ولو كان رجلاً عنيفاً لأخذ توفيقاً مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رءوسهم، وصار أميرًا على البلاد[٤].

وفى صالونها تولدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى، حيث قربت منها العديد من رجالات مصر السياسيين وغيرهم، امثال جمال الدين

(١) انظر: أوراق محمد فريد، المجلد الأول، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ ـ ١٩١٩، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٨ ص ١٣٣.

(٢) يذكر محمد فريد أنها تداخلت فى قضية السيدة «ليلة هانم» مقابل مبلغ كبير أخذت به كمبيالات عليها، وأنها أرادت توكيله فى هذه القضية، ولكنه رفض، لأن سببها غير شرعى للتفاصيل؛ انظر: أوراق محمد فريد ص ١٣٤.

(٣) من أمثلة ذلك كتاب «سر تأخر المصريين» لدار كور الفرنسى.

(٤) بلنت: التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر، ص ٥١٦.

الأفغانى، ومحمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمد فريد، وأحمد فتحى زغلول، وإبراهيم الهلباوى، وإبراهيم المويلحى، وحسين رشدى، وغيرهم.

وقد يرجع السبب فى ذلك أنها كانت تنتمى إلى فرع من الأسرة الحاكمة، كان يدعى أحقيته بولاية العرش، لذلك فإنها كثيراً ماناوأت الخديو إسماعيل، ووقفت بجانب مناوئيه، أمثال جمال الدين الأفغانى أثناء وجوده بمصر، وخلال تواجده بالآستانة، كما كانت تتجسس للسلطان العثمانى على الخديو عباس الثانى، وعليه كذلك للإنجليز(١). يُضاف إلى ذلك أنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة، مما أدى إلى سخط السلطنة عليها(٢).

وقد توثقت علاقة الأمير نازلى بالأفغانى لدرجة أن قال عنها: إنها «تمثال الكمال والجمال، حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى، والمقام الأسنى»(٣).

كما حاول أن يطلب لها من السلطان «وسام الشفقة المرصع(٤) ولكنه لم يفلح فى ذلك.

كما توثقت علاقة الأميرة بالشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه ببلاد الشام إلى القاهرة فى عام ١٨٨٨، خاصة بعد أن علم بمساعيها لدى الخديو توفيق، واللورد كرومر، ورياض باشا رئيس النظار وقتئذ فى إصدار العفو عنه، فتردد على صالونها، وتوثقت علاقته بها(٥) مما كان له أثره العميق فى حياة الشيخ نفسه ويشهد على ذلك خطاب لها بالفرنسية أرسلته إلى الشيخ، ليس عن طريق البريد، ولكن عن طريق رسول تقول فيه(٦):

Cher Ami..

Je Vous Prie de Venir me Voir Ce Soir Aprés 7h.

Je regrette d' aVoir manqué Votre Visite hier

---

(١) أوراق محمد فريد ص ١٣٤، ومذكرات سعد زغلول جـ١ ص ٦٤.

(٢) الرائد المصرى: العدد ٢٨ فى ١٨ ديسمبر ١٨٩٦ ص ٢٩٣ تحت عنوان: «البرنسيس نازلى هانم».

(٣) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده جـ١، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ، ص ٨٩٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه جـ١، ص ٤١٨، ٨٩٤.

(٦) نشر هذا الخطاب الأستاذ عثمان أمين خلال تعليقه على مقال الشيخ مصطفى عبد الرازق «أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده»، موضحاً أن الخطاب كتب على غلاف بالعربية «عزتلو شيخ محمد عبده حضر تلرى». الرسالة، العدد ١٩٠، فى ٢٢ فبراير ١٩٣٧.

Votre amie Sincére

(NaZli)

وترجمته:

صديقى العزيز..

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة. أنا آسفة إذا فاتتنى رؤيتك أمس.

صديقتك المخلصة

«نازلى»

ومعنى ذلك أن أمر الصداقة بين الشيخ والأميرة أصبح واضحًا، وأن الأمير خصت الشيخ بمكانه مميزة، وأنها كانت تجلّه.

ومع أن الشيخ محمد عبده لم يكن راضياً عن اشتغال الأميرة بالسياسة، وأنه كان يفضل لها أن توجه عنايتها بتأسيس أعمال تفيد فى تهذيب البنات وتعليمهن، فإنه لم يستطع إقناعها بذلك، ومع أنه كان لايجاريها فى آرائها السياسية، ويفضل الصمت على مجاراتها فى أحاديثها، فإنها كانت تغضب منه وتطالبه بالاشتراك فى الحديث، ولما يتحدث تتعارض آراؤه مع آرائها، لدرجة أنه قال لها يومًا: «إنْ سكتُ لا أُرضيك، وأن تكلمت لا أرضيك، فكيف العمل؟»[1].

وعلى أى حال فقد استطاعت الأميرة أن تؤثر فى أفكار الشيخ محمد عبده فى وجوه ثلاثة، أوْضَحهَا الشيخ مصطفى عبد الرازق وهى:

١ ـ على الرغم من عداوة الشيخ محمد عبده للإنجليز وكتاباته الملتهبة ضدهم[2] خاصة فى جريدة العروة الوثقى التى أصدرها بالاشتراك مع أستاذه الأفغانى فى باريس، فقد استطاعت الأميرة عن طريق علاقتها الوطيدة به أن تخفف من عداوته لإنجلترا، وأن تقربه من صديقها كرومر، لدرجة أن تلاشت من صدره عداوة إنجلترا، وأصبح يجهر فى كتاباته بدورها فى تنظيم أمور مصر، كما أعلن عن مهادنته للإنجليز[3]، موضحًا أن

(١) محمد رشيد رضا: المرجع السابق جـ١، ص ٨٩٥.

(٢) Blunt: Secret History of the English Occupation in Egypt P. 489.

(٣) Safran, N: Eghpt in Search of Political Community, OXFORD University Press, 1961, P. 62.

إصلاح الأمة لايتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستنارة، وتكوين أفرادها علمياً وفكريًا، وأنه لايمانع فى الاستعانة بالإنجليز على نوال بعض الإصلاح، ولو أدى ذلك إلى معاداة الخديو[١].

يُضاف إلى ذلك أنه قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث، وأباح للعقل المصرى أن يفكر غير متحرج ولا متحفظ فى أمور الدين والسياسة والاجتماع، وعرض كل شىء للنقد، واستخلاص وجه الحق فيه، برغم أى قيود أو ظروف[٢].

٢ ـ إلمامه فى كتاباته بموضوعات لم يتعرض لها قبل تعرفه على الأميرة، ففى مقاله «الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها» قام بتقريظ فوائد حفظ هذه الآثار، وأجاز للرسامين عملها، بقوله: «إن الرسم ضرب من الشعر الذى يُرَى ولايسمع، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يُرى»[٣]. وقوله: «وأما إذا نظرت إلى الرسم ـ وهو ذلك الشعر الساكت ـ فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسّك»[٤]. وقوله: «فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها»[٥].

وهذا الكلام ما كان يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه.

٣ ـ إن أسلوبه الكتابى فى أواخر أيامه كان يميل إلى الدعابة والخفة، كما فى الفصول التى كتبها عن سياحاته[٦].

ومع أننا نضيف إلى ماذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق أن عناية الشيخ بإتقان الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة، فإننا نرى أن المبالغة فى تأثير الأميرة على الشيخ محمد عبده إلى هذا الحد قد يبعدنا عن الموضوعية بعض الشىء.

---

(١) أوراق محمد فريد ص ١١٩.

(٢) الدستور، العدد ١٣٣١ فى ٢٣ / ٩ / ١٩٤٩، تحت عنوان «الدكتور طه حسين يلخص لأهل الباكستان حياتنا العقلية فى مصر».

(٣) رشيد رضا: المرجع السابق حـ٢، ص ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٩٩.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مصطفى عبد الرازق: أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده.

حقيقة أن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم، ووقف للإنجليز بالمرصاد، وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى وغيرها هجومًا عنيفًا، وأنه بعد أن قابله الأمير تغير موقفه تجاههم، ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخة، وأن التجارب صقلته وحنكت أفكاره. حقيقة أن بعض عظماء الرجال برزت عبقريتهم فى منبت العطف والتأثير النسائى، وأن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة، ولكن ليس إلى الحد الذى ينسبه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه، وطالب الحاكم بإصدار دستور عادل لحكم بلاده.

وعلى أى حال فإن تأثير الأميرة على رجالات مصر لم يتوقف عند الشيخ محمد عبده، بل تعداه إلى آخرين، فقد أدت دوراً مهمًا فى حياة سعد زغلول، وقاسم أمين، كما كانت لها علاقات مع محمد فريد وغيره.

أمَّا عن سعد زغلول فقد توثقت علاقته بالأميرة عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده، فاتخذت منه وكيلاً لها، وأتاحت له فرصة الاختلاط بأوساط الطبقة الأرستقراطية، وبالعديد من الشخصيات المهمة، وشجعته على تخطى الحاجز الاجتماعى، ونصحته بدراسة الحقوق وضرورة تعلم الفرنسية، وقربته إليها لدرجة أن ترددت الشائعات بقرب زواجه منها(١).

ومن خلال صالونها التقى سعد بإيفيلين بارنج (لورد كرومر)، وبفضل مساعيها لدى كرومر عين سعد مستشاراً فى الاستئناف(٢)، كما كانت جواز المرور فى اقترانه من صفية فهمى، كريمة مصطفى باشا فهمى، رئيس مجلس النظار، وأكثر المسئولين المصريين تأييداً للإنجليز، وذلك فى السادس من فبراير ١٨٩٦(٣). ثم رشحته بقوة وتصميم ليكون أول وزير مصرى للمعارف، مع أنه من أسرة فلاحية مصرية.

صحيح أن تزكية نازلى وحدها لم تكن لتكفى فى التأثير على المعتمد البريطانى كرومر لولا كفاءة سعد، ولكن من أين عرف سعد؟ إنه تعرف عليه فى صالونها(٤).

(١) عباس حافظ: بطل النهضة المصرية الكبرى سعد زغلول باشا، القاهرة، د. ت ص ٦٣.
(٢) أوراق محمد فريد: المجلد الأول، ص ١١٩.
(٣) يرفض عباس العقاد هذه الفكرة، ويذكر أن الأميرة لم تكن ترتاح إلى هذا الزواج، ولم تساعد على إتمامه. انظر: سعد زغلول سيرة وتحية، القاهرة، مطبعة حجازى، ١٩٣٦ ص ٥٢٨.
(٤) مذكرات سعد زغلول، جـ١، ص ٦٤.

وبالنسبة لقاسم أمين فقد استطاعت الأميرة «نازلى» تغيير مفهومه عن المرأة، فبعد أن عاد من فرنسا إلى مصر كتب كتاباً بالفرنسية عنوانه Les Egyptiens (المصريون) للرد على مطاعن الدوق الفرنسى داركور Duc de Darcount القاضى بالمحاكم المختلطة[١]، وفيه دافع عن الحجاب، وندد بالداعيات إلى السفور واشتراك المرأة فى الأعمال العامة، وهاجم المرأة المصرية، وقلل من قدرها، ووصفها بالضعف والانغلاق، وطالبها بالقبوع فى المنزل والاقتصار على شئون الدار، وعدم الخوض فى الحياة العامة، خاصة أن مصر لا تزال تعيش فى حالة من التخلف. يضاف إلى ذلك أنه أخذ فى كتابه سلسلة من المقالات فى جريدة «المؤيد» كانت تحت عنوان «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ»[٢].

ولما كانت الأميرة «نازلى» تمثل النهضة النسائية المصرية فى ذلك الوقت، فقد رأى محمد عبده وسعد زغلول وآخرون أن ماكتبه قاسم أمين يعد تعريضًا جارحاً بالأميرة، ونتيجة لذلك كلفوا «فارس نمر» صاحب المقتطف بالرد عليه، فبدأ كتابه سلسلة من المقالات لنقد كتاباته عن المرأة لم تنل رضاهم، ولما طالبوه بالتوقف عن الكتابة طلب منهم الحصول على الإذن بذلك من الأميرة، وقد توسط سعد زغلول لدى الأميرة فى هذا الشأن، ثم أحضر قاسم أمين للاعتذار لها، فقبلت اعتذاره وبعد ذلك أخذ يتردد على صالونها، فرآها سافرة تناقش محمد عبده، وعلى يوسف، والمويلحى وغيرهم مناقشة عميقة فى أمور مصر الداخلية، وفى الشئون العالمية[٣]. كما وجد فيها امرأةتدافع عن نساء مصر، وتجادل الكُتّاب الأوربيين جهاراً بدون حرج، مما جعلها تزداد فى عينيه اقتناعًا، وارتفع مقامها لديه، مما جعله يغير رأيه، ويتحول من النقيض إلى النقيض، ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلها[٤]. وبدأ يكتب فى المؤيد مدافعاً عن حقوق المرأة، وضرورة تحريرها من الجهل والتخلف، وأن تخرج من قوقعتها، كما طالب

---

(١) وضع كتابًا عن مصر ونُشر فى باريس عام ١٨٩٣ تحت عنوان L' Egypte et les Egyptiens انتقد فيه المجتمع المصرى انتقادًا لاذعًا، وصور فيه حياة مصر والمصريين بألوان قاسية، مس فيها عاداتهم ودينهم.

(٢) نشرت فى الفترة بين عامى ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨، وتضمنت تسعه عشر مقالاً دارت حول ثلاثة عناصر، فالمقالات السبع الأول كانت حول المال، والمقالات السبع الثانية، كانت حول أسس التربية السليمة، أما المقالات الخمس الأخيرة والتى أسماها أخلاق ومواعظ فقد دارت حول موظفى الدولة. وقد طغت فكرة التربية على كل هذه المقالات.

(٣) السياسة الأسبوعية، فى ٥/ ٥/ ١٩٢٨، مقال للأستاذ عبد العزيز البشرى.

(٤) د. ماهر فهمى حسن: قاسم أمين، القاهرة، ١٩٦٤ ص ١١٧.

بسفورها وخروجها إلى العمل إذا اضطرتها الظروف[١]، بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب[٢]، وقد جمعت هذه المقالات بتأييد ومباركة نازلى فاضل، والشيخ محمد عبده فى الكتاب المسمى «تحرير المرأة»، الذى صدر فى عام ١٨٩٩ وتسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق، وإثارة العديد من المعارك الفُكرية الضارية.

وقد أكد دور «نازلى فاضل» فى إصدار هذا الكتاب ماذكره داود بركات فى مقال له بالأهرام من أن «قاسم أمين» هدف من تأليف كتاب تحرير المرأة إلى إرضاء نازلى فاضل، وتصحيح خَطَئِهِ فى حقها[٣]. كما أكد دور محمد عبده ماردّدته «الجريدة» بأن محمد عبده كان صاحب هذه الفكرة[٤]. وما ذكره صاحب الأعمال الكاملة لقاسم أمين حول ما تردد من أن الشيخ محمد عبده شارك فى تأليف هذا الكتاب، ثم وضع على غلافه اسم قاسم زمين تجنبًا للحرج، والعاطفة الضارية التى يمكن أن تهب عليه، وخاصة أنه الشيخ الأزهرى الكبير، الذى كان يحمل منصب مفتى الديار المصرية[٥].

وقد استند مَنْ رَدَّدَ هذه المقولة على أن الأمور الدينية التى عالجها الشيخ محمد عبده فيما يختص بحقوق المرأة قد تناولها قاسم أمين بالبحث فى الناحية الاجتماعية، كما أكدوا أن آراء قاسم أمين لقيت تأييدًا تامًا عند الشيخ محمد عبده، واستندوا فى ذلك إلى الاجتماع الذى حدث فى جنيف فى عام ١٨٩٧ بين الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، ولطفى السيد، وقاسم أمين، وأخذ الأخير يتلو على الإمام بعض فصول من كتابه عن تحرير المرأة، فكان يوافق على ما فيها، ويضيف إليها بعض الفقرات[٦].

وإلى جانب ذلك استندوا إلى ماذكره أحمد شفيق فى كتابه «أعمالى بعد مذكراتى» إلى رغبة قاسم أمين فى ألاّ يصدر الكتاب باسمه فقط، بل بالاشتراك مع آخرين، وأن «قاسم أمين» عرض عليه أن يشاطره العمل فى تأليف الكتاب، ولكنه امتنع عن تلبية

(١) نشرت أولى هذه المقالات فى ١٥ مايو ١٨٩٩، والثانية فى ٢٠ مايو، والثالثة فى ٢٨ مايو.
(٢) مجلة الحديث، يناير ١٩٣٩، ص ٨٨، ٩٢.
(٣) الأهرام، فى ٤ مايو ١٩٢٨.
(٤) الجريدة، فى ٢٦ أبريل ١٩٠٨.
(٥) قاسم أمين: الأعمال الكاملة ـ تحقيق محمد عمارة ـ بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ١٣٣.
(٦) درية شفيق وإبراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من محمد على إلى الفاروق، القاهرة، مكتبة الآداب ١٩٤٥ ص ٧٤ ـ ٧٥.

طلبه لسببين: **أولهما:** عمله الحكومى الذى لا يسمح له بالتفرغ لمسألة يعلم أن تأليف كتاب فيها لا ينتج الثمرة المرجوة.

وثانياً: يقينه بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة[1].

وعلى أية حال، فعلى الرغم من استبعادنا فكرة اشتراك الشيخ محمد عبده فى تأليف هذا الكتاب خاصة أن أسلوبه الإنشائى أقرب إلى أسلوب قاسم أمين فيه إلى أسلوب محمد عبده، فإننا لا نستبعد أن يكون الشيخ قد أضاف إليه بعض الفقرات والاقتباسات المأخوذة من أمهات الكتب فى الفقه الإسلامى، وخاصة أن ثقافة قاسم أمين الدينيه لم تكن قد بلغت الإحاطة بمثل هذه الأمور الفقهية.

وهكذا يتضح أن فكر قاسم أمين كان قد تطور وتغير على يد هذه الأميرة، ومن خلال صالونها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن كتاب تحرير المرأة كان انتصاراً لأفكارها، وإرضاءً لتطلعاتها، وترديداً لما كان يدور فى حجرات صالونها.

وبالنسبة لعلاقة الأميرة نازلى بمحمد فريد فلم تكن طيبة فى أول الأمر، حيث هاجمها على صفحات الجرائد لتمجيدها للإنجليز، ثم لآرائها المعادية للمصريين، حيث تم الصلح بينهما، وقابلها فى تونس، حيث دعته فى دارها بحمام الأنف، وبالمرسى، وأكرمته، وقد قال عنها فريد: «كنا على طرفى نقيض فى السياسة، ولكنها كانت تحترم آرائى». ولكن هذه الصداقة لم تدم بينهما طويلاً، خاصة أنها كانت تكره مصطفى كامل وتتهمه بالمتاجرة فى الوطنية، ونظراً لاختلافهما حول هذه النقطة توقفت عن الهجوم على مصطفى كامل فترة، ولكنها بعد أن علمت بمرضه دعت عليه بالموت أمام فريد، فغضب منها وقاطعها، ولم يقابلها بعدها قط، على الرغم من صلته المتينة بها[2] ومشاركتها له فى أفراح أسرته[3]، ووقوفها بجانب التماس العفو عن إبراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى[4].

لقد تعرض الكثيرون للأميرة نازلى بالتشكيك، بحجة أنها كانت إنجليزية الهوى

(١) انظر: «أعمالى بعد مذكراتى»، القاهرة، ١٩٤١ ص ٣٥٢.

(٢) أوراق محمد فريد: الجزء الأول، ص ١٣٤.

(٣) حضرت على سبيل المثال زواج ابنته فريدة، وابن أخته أحمد كمال.

(٤) مذكرات سعد زغلول جـ٣، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠، ص ١٤٥٧ ـ ١٤٥٨.

والتفكير، وأن كبار الإنجليز فى مصر كانوا من روّاد صالونها، ومن أصدقائها الخصوصيين[١].

ولأن كلمتها كانت ذات تأثير لدى قصر الدوبارة، ومع كل ذلك، وعلى الرغم من نقدها للمصريين، فهل يمكن أن نتجاهل أن الشيخ محمد عبده كان يحترم عقليتها، ويرى فى صالونها خيراً، وأنها خدمت الوطنية المصرية ـ بقصد أو بغير قصد ـ من خلال معاضدتها لسعد زغلول[٢]، وأنها كانت من أوائل مَنْ شاركن فى حركة التنوير الفكرى وإيقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسرة الراقية، وأنها ـ بخيرها وشرها ـ اشتركت فى صُنع بعض زعماء مصر، أمثال سعد زغلول، وقاسم أمين. ففى صالونها تم صقل الزعامات المصرية وتطوير بعض مفاهيمها، فلم تظهر نزعة الشيخ محمد عبده إلى تحسين احوال المرأة وتلافى ما فى حياتها البيئية من النقائص إلا بعد مقابلته للأميرة، وتأثره بأفكارها، ولم تظهر زعامة سعد وتتألق بعد تأخرها على المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا إلا بين الباشوات فى صالون الأميرة، وبعد مصاهرته للطبقة الأرستقراطية.. ولم تتغير نظرة قاسم أمين عن الحجاب ولم يدعو إلى تحرير المرأة إلاَّ بعد مقابلته للأميرة، التى تميزت جلسات صالونها بجذب الزعامات المصرية المعتدلة فى ثقافتها ووطنيتها.

وهكذا استطاعت هذه الأميرة التى كانت تفوق أكثر أهل عصرها من أبناء الشرق فى الاشتغال بالسياسة، والاهتمام بمسائل بنات جنسها، أن تسوس مواهب رجالات مصر، وأن تؤدى دورها الطليعى فى الحياة الفكرية المصرية، وأن تُهَيِّئ المناخ الفكرى لحركة التغيير التى كانت تترقبها مصر، حتى وافاها الأجل فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٣[٣].

* * *

(١) عبد الخالق لاشين: سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤، القاهرة، دار المعارف ١٩٧١ ص ٣٥.

(٢) الهلال: عدد سبتمبر ١٨٨٢، مقال للدكتور السيد فهمى الشناوى تحت عنوان «صالون نازلى هانم» ص٤٦.

(٣) المقتطف جـ٤ يناير ١٩١٤ ص ٩٩.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً ـ الوثائق:

دار الوثائق القومية بكورنيش النيل بالقاهرة.

محافظ أبحاث: محفظة ١٣٥، تحت عنوان «تراجم محمد على والعائلة».

ثانياً ـ المذكرات:

١ ـ أوراق محمد فريد: مذكراتى بعد الهجرة، المجلد الأول ١٩٠٤ ـ ١٩١٩، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨.

٢ ـ مذكرات سعد زغلول جـ١ ـ تحقيق عبد العظيم رمضان، القاهرة، الهيئة العامة الكتاب ١٩٨٧، جـ٣، ١٩٩٠.

ثالثاً ـ المراجع العربية:

أحمد شفيق: أعمالى بعد مذكراتى، القاهرة، ١٩٤١.

درية شفيق وإبراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من محمد على إلى الفاروق، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٤٥.

عباس حافظ: بطل النهضة المصرية الكبرى سعد زغلول باشا، القاهرة، د. ت.

عباس العقاد: سعد زغلول سيرة وتحية، القاهرة، مطبعة حجازى، ١٩٣٦.

عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ٣، إبراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق، القاهرة، دار الفكر العربى.

عبد الخالق لاشين: سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١.

عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠.

قاسم أمين: الأعمال الكاملة ـ تحقيق محمد عمارة ـ بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ماهر فهمى حسن: قاسم أمين، القاهرة، ١٩٦٤.

محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده جـ١ القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ.

رابعاً ـ المراجع الأجنبية:

- Blunt, W: Secret History of the English Occupation of Egypt, London 1907.

- Safran, N: Egypt in Search of political Community, Oxford university Press, 1961.

خامساً ـ الدوريات:

ـ الأهرام: مايو ١٩٢٨.

ـ الجريدة: أبريل ١٩٠٨.

ـ الحديث: يناير ١٩٣٩.

ـ الدستور: سبتمبر ١٩٤٩.

ـ الرائد المصرى: ديسمبر ١٨٩٦.

ـ الرسالة: فبراير ١٩٣٧.

ـ السياسة الأسبوعية: مايو ١٩٢٨.

ـ الشباب: فبراير ١٩٣٦.

ـ المقتطف: يناير ١٩١٤.

ـ المقطم: فبراير ١٩٠٩.

ـ المؤيد: ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨.

ـ الهلال: سبتمبر ١٩٨٢.

الجمعية الخيرية الإسلامية

منذ تأسيسها حتى الحرب العالمية الثانية

من ١٨٩٢ - ١٩٣٩

كانت مصر فى أواخر عصر إسماعيل تعانى الكثير من آثار الاستبداد، وفى وسط ذلك الجو ظهر النديم، فاهمًا سياسيًا لحقيقة أوضاع مصر، من خلال مخالطته لأصحاب الفكر والمثقفين، حتى أن ذلك الفهم السياسى، ملأ نفسه حماسًا وثورة على تلك الأوضاع الاستبدادية التى تعانى منها مصر، وما تبع ذلك من عيوب اجتماعية فى البلاد، ومادار فيها من ظلم وفساد، أدى إلى عدم مواكبة مصر للتقدم الأوربى، وأدى إلى ضعف همم المصريين، نتيجة لما رأوه من حكم الخديوى وأسرته وطبقته ومن حولهم، ممن كانوا يسلبون وينهبون خيرات مصر.

لكك ذلك اتخذ النديم من الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى ومدرستها أرضًا لغرس ما يريد أن يزرع ويحصد، عن طريق تعليم الناشئة، وفق الأسس السياسية والاجتماعية، من خلال دراستهم العلمية الأدبية.

وبعد القضاء على جمعية النديم لم تتكرر تلك التجربة الفريدة، وظلت البلاد تعانى من نقص فى العمل الخيرى السَّاد لأوجه نقص خدمات الدولة، التى كان منها عدم عنايتها بتربية وتعليم الفقراء، وإعانة المحتاجين، وقلة الخدمات المقدمة للمرضى، نتيجة لبروز النقص فى مستشفيات الدولة... الخ، حتى جاءت الفرصة المواتية لإقامة جمعية خيرية أخرى لمواجهة تلك الأوضاع ـ مصادفة ـ كما سيتبين فيما بعد، فاغتنمها قادة الفكر والرأى فى البلاد.

الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى:

فللوصول إلى الجمعية الخيرية التى يتناولها البحث، لابد من المرور على الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى، فبرغم عدم التواصل الزمنى بينهما، فالارتباط الفكرى ربما يوحدهما، وإن كانت أدواته وأساليبه مختلفة ومتغيرة، تبعاً للفترة نالتى نشأت فيها كُلاً منهما، وترجع نشأة الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى إلى عبد الله النديم، الذى ولد بالإسكندرية، ثم تردد على الجامع الأزهر، والمنصورة وغيرها، ثم عاد إلى الإسكندرية فى أوائل عام ١٨٧٩، وهنالك أخذت شمس حياته السياسية فى الظهور، وكانت أولى خطواته فى ذلك السبيل، أن اجتمع بصديقيه: محمد أفندى أمين، باشكاتب محكمة أسيوط الأهلية، ومحمد واصف أفندى محرر جريدة العدل، وكانا وقتئذ من مؤسسى جمعية مصر الفتاة، حيث كان الأول نائب رئيسها، والثانى كاتب أسرارها، وتَعَرَّفَ ليلة احتماعه بهما على كثير من أعضاء هذه الجمعية، وشرع فى بث أفكاره، ثم رأى أن جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة، فأقنع صديقيه بالانفصال عنها فانفصلا، وتبعهما كثير من أعضائها، ثم شاورهما فى إنشاء جمعية علنية، تسعى فيما يعود على الوطن بالمنفعة، فاستصوبا رأيه. وشرع منذ ذلك الحين فى تأليف قلوب أهل الإسكندرية[١].

ويذكر النديم أنه كان يصرف الوقت مفكرًا فيما يجلبه الحكام من المقت، وأنه كان يكتب الكثير وينكر على أهل البلاد رضاهم بالإستبداد، ويؤكد أنه كلما نبه عاقلاً أسكته، ولذا لم يجد طريقًا لتنبيه الوجهاء والأمراء إلا بعصبية يكونها من الفقراء، فأخذ فى تأليف الجمعية الإسلامية بموطنه الإسكندرية، حيث اجتمع له أحد عشر رجلا، وأخذ فى إذاعتها[٢].

بعد تأليفها فى ١٨ أبريل عام ١٨٧٩[٣]، وتم افتتاحها فى عهد الخديوى إسماعيل بعد جهد وعناء طويل "وقد وضعت أساسها على فعل الخير[٤].

---

(١) الهلال، عدد ١١، ١/ ٢/ ١٨٩٧. ص ٤٠٣. عبد الله النديم، وقد أرجع البعض سبب ابتعاد النديم عن جمعية مصر الفتاة الخيرية، إلى أسباب عديدة، منها: سيطره غير المسلمين عليها، مما جعله يؤسس فى مواجهتها جمعية إسلامية خالصة وعلنية، راجع: على شلش، مصر الفتاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٨.

(٢) محمد أحمد خلف الله، عبد الله النديم ومذكراته السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٤٩.

(٣) على شلش، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٤) المرجع السابق. ص ٤٩، وقد خطب النديم فى افتتاحها خطبة رن صداها فى الإسكندرية. راجع: أحمد بهاء الدين، أيام لها تاريخ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٩٦٧ ص ٣٠.

ومن هنا فقد تألفت الجمعية الإسلامية فى أواخر عهد إسماعيل، والقلوب واجفة، والأفكار مضطربة، واستمر ذلك الوضع حتى ولاية محمد توفيق باشا، فهدأت الأفكار، فقام النديم يثبت دعائم دعوته، حتى ظهرت الجمعية بمساعية فى ثوب الائتلاف، وكانت هى أول جمعية إسلامية أسست فى القطر المصرى، وكانت ترمى إلى غرض واحد، وهى تربية الناشئة، وبث روح المعارف فيهم لترقية الأفكار وتطهير الأخلاق(١)، أى أنها كانت ترفع مبادئ أعمال الخير والتعليم(٢).

واستحسن محمد عبده الإقدام على إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية، وتأييد الحكومة لها، حيث قابل الخديوى رجالها، وأجاب التماسهم بأن يصير ولى العهد رئيسًا عامًا للجمعية، وعندما عرض قانون الجمعية على ناظر الداخلية أقره، وبعث به إلى نظارة المعارف باعترافه وقبوله، وأصدر الأمر بتقرير الجمعية، «غير أنه لم يغض الطرف عمّاً يلزم العموم نفعها، وهو مراعاة وحدة التعليم، وأن تكون موضوعات التعليم فيها مستمدة مع مافى المدارس الأميرية، ليتأتى قبول تلاميذها فى المدارس العالية، ليتمتعوا بتتميم دروسهم فيها، ونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون»(٣).

ويتبين مما كتبته نظارة الداخلية إلى نظارة المعارف فى شأن الجمعية الخيرية بالإسكندرية فى عام ١٨٨٠، أنه ليس بخافٍ ما نهض إليه الموفقون من أهل البر والإحسان من ذوات وجوه الثغر الإسكندرى، فى إنشاء جمعية لتعليم العلوم واللغات والصنائع النافعة، كما أنشئوا المكاتب التعليمية، ويتبين أيضًا مما كُتب أن قانون الجمعية قرر إنشاء مستشفى ومكتبة ودار ضيافة، وقرر أن من شئونها مواساة الأرامل، وتربية الأيتام، ومساعدة المصابين وقرر كذلك أن رئاستها العمومية كانت لولى العهد، وأوضح ما كُتب أن هذا المشروع من محاسن الأعمال المطابقة لأفكار الخديوى، لذا وجب قبول الجمعية وتقريرها ومعرفتها بالاسم الذى عنونت به، ولزم «تحريره لسعادتكم إخطارًا

(١) الهلال، عدد ١١، ١/ ٢/ ١٨٩٧. ص ٤٠٣، وأيضًا: جورجى زيدان، بناة النهضة العربية، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ ص ١٥٤.

(٢) جاكوب لاندو، الحياة النيابية والأحزاب فى مصر من ١٨٦٦ ـ ١٩٥٢، ترجمة سامى الليثى، مكتبة مدبولى، القاهرة، بدون تاريخ. ص ٢٠٨.

(٣) السيد محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، جـ٢، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٢٦. ص ٤٩ – ص ٥٠، وكان ناظر الداخلية وقتها.رياض باشا.

بذلك لتقوموا بما ينبغى. . . حيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم، مما جعلها تحت سلطة المعارف وملاحظاتها»(١).

وعلى ذلك أنشئت الجمعية الخيرية رسميًا فى الإسكندرية(٢)، فكانت جمعية علمية أدبية، برغم أن الباعث على إنشائها روح سياسية اجتماعية، وكانت هذه الجمعية تتبادل الخطب ليلا فى الموضوعات العلمية والتاريخية(٣).

وأنشأت تلك الجمعية مدرسة لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء مجانًا، وسعى النديم حتى أكسبها رئاسة ولى العهد، مما كان أدعى لنشاطها(٤)، حيث كان إنشاء المدرسة من أهم أغراض الجمعية الخيرية الإسلامية، لتعليم الناشئة على نمط غير النمط الجاف الذى كانت تسير عليه مدارس الحكومة، ببث روح الوطنية والشعور القومى، إلى جانب مبادئ العلوم التى تعلمها تلك المدارس وقتها، وكان ذلك هدفًا جديداً دعا إليه الشعور القومى الذى كان فى طور التكوين(٥) فكانت أول مدرسة مصرية إسلامية تؤسس لذلك الهدف، وتفتتح على قواعد فعل الخير.

وتكفل النديم بتعليم الإنشاء والأدب فيها، وتمرين طلابها على الخطابة والتمثيل، كما مثل وتلاميذه بعض الروايات الناقدة لبعض العيوب الاجتماعية، مما يعنى خروجه بالمدرسة إلى الحياة العامة، فقد مثل فى بعض الملاهى العامة، التى منها «تياترو زيزينيا»، الذى مثل فيه روايتين من إنشائه هما، «الوطن وطالع التوفيق» و «العرب»، حضرهما الخديوى توفيق، ونجح فيهما النديم نجاحاً أعلى شأنه(٦).

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨١ - ص ٨٢، وقد حصلت الجمعية الخيرية بالإسكندرية على مبلغ ٢٠٠ جنيه من نظارة المعارف كإعانة لها فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٠، دار الوثائق القومية، وثائق مجلس النظار، محفظة ٣/ ١، شركات وجمعيات، ملف ٧ص ٥٨.

(٢) وقد ذكر جورجى زيدان أنها أنشئت سنة ١٨٧٨، على حين تؤكد غالبية المراجع أنها أسست سنة ١٨٧٩ راجع جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، جـ٤، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧. ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ويبين النديم أنه لما رأى فى الناس جبناً، احتال على ذلك بجذب وزيرهم رياض الذى أعجب به، فكان يتبرع كل عام بخمسة وعشرين جنيهًا، ثم قرر للجمعية فى كل سنة ٢٠٠ جنيه من ديوان المدارس الأميرية، فزالت طباع الجبن من الناس، وصارت الجمعية فرعًا من الحكومة، راجع: محمد أحمد خلف الله، المصدر السابق. ص ٥٢.

(٤) الهلال، عدد ١١، ١/ ٢/ ١٨٩٧. ص ٤٠٤.

(٥) أحمد أمين، زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨. ص ٢١٤، وافتتحت المدرسة بحفل جمع الأمراء والوجهاء والوزراء والمحافظ ومأمور الضبطية، وجمله من أمراء الجهادية، وقام النديم فيهم خطيبًا.

(٦) محمد أحمد خلف الله، المرجع السابق، ص ٥١.

وقد بين فى الرواية الأولى ماهو جار فى البلاد من الظلم والفساد، ووجوب النظر فى تقديم الأمم، والبحث فيما يحرك السهم[١] ولذا كان لهما وقع حسن فى نفس الخديوى توفيق، مما بعثه على أن يدفع من ماله الخاص مائة جنيه مساعدة للجمعية[٢] وقد عدت المسرحية الأولى من أولى المسرحيات عن الوطن، الذى يبدو فيها شخصية تنادى بالتعاون بين المصريين، والإصلاح الاجتماعى، والوحدة الوطنية، مع مهاجمتها لتفكك المجتمع وعدم ارتباط طبقاته ببعضها، أما مسرحيه العرب فقد دعت إلى القيم الإنسانية، كالشهامة، والمروءة، وكيف يمكن الوصول إليها[٣].

تم سعى رجال المدرسة إلى توسيع دائرتها، فأستحضروا لها فضلاء المعلمين من العرب والأجانب، وجعلوا النديم مديراً لها، فوضع لها منهجًا محكمًا، فذاعت شهرتها، حتى وصل عدد طلابها إلى أكثر من ثلاثمائة فى فترة وجيزة، ممَّا جعل نظارة المعارف ترتب لها ٢٥٠ جنيهًا فى كل عام.

حتى أن النديم ذكر فى ذلك الصدد، أنه نبه الأفكار وفتح الأنظار، وتقرب إلى الخديوى، حتى أعطاه مدرسة البحرية لتلاميذ الجمعية، وأمره أن يمد للجمعية فرعًا فى القاهرة، وأن يقيم وكيلاً له لذلك الفرع يكون كفيلاً به، فكتب توكيلا بذلك إلى محمد بك زكى، أمين التشريفات[٤].

ولما زادت شهرة الجمعية وسمعتها، جعل النديم لها حفلة كل جمعة، وأطلق الخطابة لكل خطيب، وفتح المحاورة لكل محاور فى تلك الحفلات، حتى بلغت شهرتها وصيت مدرستها ـ على قِصَرِ مدتها ـ مالم يبلغه غيرها فى فترة طويلة، وربما يرجع ذلك إلى ما نالته من التفات كل من الخديوى توفيق وابنه عباس، وما كان يبذله النديم من العناية فى عقد الحفلات العامة فى بهو المدرسة أو خارجها[٥].

---

(١) المرجع السابق. ص ٢١٥.
(٢) الهلال، عدد ١١، ١/ ٢/ ١٨٩٧ ص ٤٠٤.
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى، تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة، مطبعة الجبلاوى، القاهرة، ١٩٧٣. ص٣٣.
(٤) محمد أحمد خلف، المرجع السابق. ص ٥٠. ويرجع سعى النديم للحصول على تلك المدرسة، لما تتمتع به من اتساع وموقع رائع.
(٥) الهلال، عدد ١١، ١/ ٢/ ١٨٩٧. ص ٤٠٤.

وظلت المدرسة والجمعية تتقدمان حتى أوجس رياض خيفة من النديم بما بلغه من أحد الذوات، فعزم على فض الجمعية وتشتيت رجالها، فوسوس إلى بعض الذوات من الأعضاء وجعلهم للنديم أعداء، يعارضونه فى كل موضوع حتى يترك الجمعية بنفسه، ففطن النديم لهذه الدسيسة، ولذا لايَنَ أعداءه فى الجمعية، حتى اجتمع برياض باشا فى مصر، فوجده قد أضمر له شرًا، فنافقه حتى أخذ منه إذنًا بجريده التنكيت، لتكون لسانه إذا ترك الجمعية، ثم أوعز الخديوى إلى النديم بإعادة رواية الوطن ، وهو يعلم بسعى رياض ويفطن، ولما هيأ النديم التلامذة وأعلن الناس بتشخيصها، سعى حسين فهمى وأحمد رفعت وغيرهما لتعطيل توزيع التذاكر، ولذا لم يحضر الحفلة إلا القليل، ومن هنا فقد نجح مخططهم، ولذا فقد ذكر النديم أنه «لما أصبحت أعلنتهم بالفراق، فإن المبادئ قد تمت، والدعوة قد عمت، وقامت الأفكار الخامدة، واتجهت إلى جهة واحدة»[١].

وبرغم ذلك فإن البعض قد ذكر أن الحسد جر بعض ذوى النفوذ إلى الإيقاع بالنديم، فَفُصِلَ من الجمعية، وأُقيل من إدارتها، نتيجة لحدوث فسادٍ بالجمعية تسبوه إليه[٢] وذكر البعض الآخر أن النديم استقر على رأس المدرسة والجمعية، حتى بداية الثورة العرابية، فانفصل عنها وانضم للثورة، فانفرط عقدها[٣] ومع ما فى تلك الآراء من وجاهة فإننا نميل إلى الأخذ بكلام النديم، الذى لم يستبعد الحسد منه.

ومن كل ذلك يتبين أن النديم قد قصد من وراء تلك الجمعية والمدرسة أهدافًا سياسية مغلفة بأهداف خيرية، لتحريك الناس ضد الاستبداد، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسة السيئة التى كانوا يعيشونها، ومن هنا كان تركه الجمعية لينشئ التنكيت، بعد أن نفخ فى الجمعية والمدرسة من روحه، التى انتشرت على الناس بفكره الجديد، فكانت أول انطلاقة منه إلى صفوف الشعب.

---

(١) محمد أحمد خلف الله، المرجع السابق ص ٥٢.

(٢) أحمد تيمور، تراجم أعيان القرن الثالث عشر ـ أوائل الرابع عشر، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤. ص ١٧.

(٣) جورجى زيدان، المرجع السابق ـ ص ٨٣.

فكرة الجمعية الخيرية الإسلامية الثانية:

ترجع فكرة إنشاء هذه الجمعية إلى أن مشعوذًا روسيًا - (حاوى) - حضر إلى مصر، وربح منها بألعابه الغريبة ألوفًا كثيرة من الجنيهات، فخصص دخل آخر ليلة منها لإعانة فقراء البلد، كما هى عادته فى كل بلد يزوره، حيث كان يعطى ذلك للجمعيات الخيرية، لهذا أعطى دخل آخر ليلة فى مصر لمحافظ العاصمة إبراهيم رشدى، ليوصله إلى جمعيتها الخيرية، المفترض أنها إسلامية(١). باعتبار أن غالبية المصريين مسلمون.

ولم يشأ المحافظ أن يوزع ذلك الدخل على الفقراء، بل استشار بعض كبار المصريين، فأحستهم تلك الاستشارة وذلك الموقف بأن من أكبر العار على مسلمى مصر، أن ليس فيها جمعية خيرية لمواساة فقرائهم وإعانتهم على معيشتهم وتربية أولادهم، فى حين أن لجميع طوائف البلاد جمعيات خيرية، فألفوا فى عام ١٨٩١(٢) لجنة من نخبة رجال مصر الداعين لرقيها وتقدمها سُميت لجنة فقراء المسلمين الوطنيين، برئاسة المحافظ إبراهيم رشدى ورعاية الخديوى، وأقامت حفلة بحديقة الأزبكية، فى يوم ١٩ أكتوبر ١٨٩٢، لمساعدة الفقراء(٣).

وبعد فترة رغبت تلك اللجنة أن تكون جمعية دائمة للاستمرار على هذه الشعائر الوطنية باسم الجمعية الخيرية الإسلامية(٤)، وكان من أعضاء تلك اللجنة سعد زغلول(٥)، ومحمد فريد(٦)، ومعهم عمر لطفى، واخوه أحمد لطفى(٧)، ومحمد عبده، وحسن باشا عاصم، وأحمد حشمت، ودرويش السيد أحمد(٨).

---

(١) السيد محمد رشيد رضا، تأريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، جـ١، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٢٦. ص ٧٢٧ - ص ٧٢٨.
(٢) الهلال، عدد ٤، ١/ ١٢/ ١٨٩٢. ص ١٣٠. الجمعية الخيرية الإسلامية.
(٣) دار الوثائق، وثائق مجلس النظام، محفظة ٣/ ١، شركات وجمعيات، ملف٧، الجمعية الخيرية الإسلامية. ص١، خطاب إلى أحمد زكى باشا سكرتير مجلس النظار، مرفق به قانون الجمعية الخيرية الإسلامية.
(٤) ومن هنا لم يكن غريبًا أن نجد بعض خطابات الجمعية يحمل عنوانها، أنها تأسست فى سنة ١٨٩١، اعتمادًا على الاعتراف بلجنة الفقراء تلك، وقد كان مقر تلك اللجنة والجمعية فى بداية تكوينها وعملها ١٥ ش الغورى بمصر، راجع: وثائق مجلس النظار، محفظة ٣/ ١، شركات وجمعيات، ملف ٧، ص ٢، وأيضًا قانون الجمعية الخيرية الإسلامية وبه مقدمة عن كيفية اليفها، وهو كتيب مودع بذلك الملف، وقد طبع فى مطبعة المؤيد، القاهرة، ١٩٠٦.
(٥) عبد الخالق لاشين، سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩٤٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١.
(٦) عبد الرحمن الرافعى، مصر البعث الوطنى، حـ٣، عدده، سلسلة دراسات قومية، مركز النيل للإعلام، القاهرة، ١٩٧٩. ص١١١.
(٧) عبد الرحمن الرافعى، نقابات التعاون الزراعى، مقدمة الكتاب بقلم احمد لطفى، مطبعة النهضة الأدبية، القاهرة، ١٩١٤. ص٣.
(٨) السيد محمد رشيد رضا، المرجع السابق. ص ٧٢٨.

ولتلبية رغبتهم تلك كان عليهم أن يضعوا للجمعية قانونًا أو لائحة تنظمها وتبين أغراضها وتضبط إيقاعها، ولذا فقد وضع حسن عاصم مشروعَ نظامها، وعرضه على: محمد عبده، وسعد زغلول، وأحمد حشمت، ودرويش السيد أحمد، ثم أقره هؤلاء بعد البحث فيه[١] وبعد إعدادهم للقانون قاموا بطبعه وتوزيعه على أعضاء اللجنة ليروا رأيهم فيه[٢].

وعلى ذلك اجتمعت اللجنة التى كانت تمثل الجمعية العمومية للجمعية الخيرية الإسلامية فى ٢٠ نوفمبر عام ١٨٩٢ برئاسة إبراهيم رشدى محافظ القاهرة، وتحت رعاية الخديوى، ووافقت على مواده، وقررت عرضه على نظارة الداخلية لترى رأيها فيه، فرفعته مع رسالة منها إلى النظارة فى ٢١ نوفمبر عام ١٨٩٢[٣] وفى ٤ ديسمبر ١٨٩٢، رد مصطفى فهمى ناظر الداخلية على اللجنة، مبينًا أنه اطلع على اللائحة التى سنتها الجمعية الخيرية الإسلامية، ومشيرًا إلى أن تشكيلها وإيجادها كان له من حسن الواقع ما ابتهجت له النفوس، وموضحًا أنها حققت ما كانوا يأملونه من الإحساسات الوطنية والتعاون على الأعمال الخيرية[٤].

وبذلك اعترف بالجمعية الخيرية الإسلامية رسميًا، فأُنشئت بناء على إرادة سَنية من الخديوى، وبإقرار من نظارة الداخلية، ورئيس مجلس النظار، حيث قوبلت وحولت لجنة فقراء المسلمين الوطنيين، وطوعت قانوناً بعمل لائحة لها، كما كانت سابقاً بعضوية لجنة الفقراء، وبرئاسة إبراهيم رشدى محافظ القاهرة ورعاية الخديوى.

وجعلوا المبلغ الذى وهبه المشعوذ الروسى رأسَ مالٍ لتلك الجمعية، حيث كان يزيد على ألف جنيه، وهو مبلغ كبير بالقياس إلى تلك الفترة، وقرروا أن تقيم الجمعية احتفالات فى حديقة الأزبكية، تمارس فيه أنواع اللهو المباح، والشعوذة، ويكون دخولها بتذاكر تباع لإعانة الجمعية[٥]، بالإضافة إلى موارد أخرى حددتها اللائحة لتكون رأسَ مالٍ ودخلاً للجمعية كى تستطيع مزاولة نشاطها.

---

(١) السيد محمد رشيد رضا، المرجع السابق. ص ٧٢٨.
(٢) الهلال، عدد ٤، ١/ ١٢/ ١٨٩٢ ص ١٣٠.
(٣) دار الوثائق، وثائق مجلس النظار، محفظة ٣/ أ، شركات وجمعيات، ملف ٧، ص ٥ مقدمة قانون الجمعية الخيرية الإسلامية.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) السيد محمد رشيد رضا، المرجع السابق. ص ٧٢٨.

لائحة الجمعية:

بينت مواد لائحة الجمعية الخيرية الإسلامية، أنها شُكلت بالقاهرة تحت رعاية الخديوى بغرض مساعدة فقراء المسلمين بالقطر المصرى، والإعانة على تربيتهم، وأنه لا يجوز لها التكلم فى الموضوعات السياسية ولا المناقشة فى الموضوعات الدينية، وبينت أنها تقبل فى عضويتها كل مسلم متمتع بالحقوق المدنية، يقدم طلباً بذلك لمجلس إدارتها، ويدفع لها جنيهين مصريين سنوياً على الأقل، وأوضحت تلك اللائحة أنه يقوم بأعمال هذه الجمعية جمعيتها العمومية ومجلس الإدارة، وتختص الجمعية العمومية بانتخاب أعضاء مجلس الإدارة فى المواعيد المقررة، واعتماد حسابات الجمعية السنوية، والنظر فى المشروعات التى تقدم لها وتقرير ما تراه فيها[١].

وأوضحت مواد تلك اللائحة أنه يدير أعمال الجمعية ويقوم مقامها مجلس إدارة مؤلف من خمسة وعشرين عضواً تنتخبهم الجمعية العمومية بالأغلبية لمدة خمس سنوات، وتعين منهم الجمعية أميناً للصندوق، ثم ينتخب مجلس الإدارة من أعضائه رئيساً، ووكيلين، وكاتم أسرار، ويقوم مقام الرئيس عند غيابه أحد الوكيلين، ويُقَوِّم أكبرهما سناً، وتكون الانتخابات بالقرعة السرية، ولا يصح انتخاب أعضاء الإدارة إلا من بين أعضاء الجمعية الذين يدفعون سنوياً أربعة جنيهات على الأقل، ويُغَيِّر مجلس الإدارة فى كل سنة خمسة من أعضائه بالقرعة فى الأربع السنين الأولى، وبعد ذلك يكون التغيير سنوياً على الأقدم فالأقدم، وأجازت اللائحة تكرار انتخاب أعضاء مجلس الإدارة الذين انقضت مدتهم[٢].

وقد وضعت مادة بين ثنايا اللائحة عُدت أساس نجاح الجمعية المالى، واستمرارها، حيث أكدت على أن نصف الدخل السنوى للجمعية يُضاف إلى رأس المال لأجل الاستغلال، والنصف الآخر يكون أكثره لتعليم أولاد الفقراء وتربيتهم، وأقله لإعانة من تثبت عند الجمعية حاجتهم[٣]، فلم تجز اللائحة فى أى حال من الأحوال لمجلس الإدارة أن يستهلك أكثر من صافى نصف الإيراد فى السنة، والباقى يستعمل للاستغلال بالطرق الشرعية[٤].

---

(١) دار الوثائق القومية، وثائق مجلس النظار، محفظة ٣/أ، شركات وجمعيات، ملف ٧، لائحة الجمعية الخيرية الإسلامية ص٢. وقد كان درويش سيد أحمد كاتب سر مجلس إدارتها منذ بداية عملها.

(٢) المرجع نفسه. ص٣.

(٣) محمد رشيد رضا، المرجع السابق. ص ٧٢٨.

(٤) دار الوثائق القومية، وثائق مجلس النظار، محفظة ٣/أ، شركات وجمعيات، ملف ٧، لائحة الجمعية الخيرية الإسلامية ص٤.

ويرجع ذلك إلى ضعف ثقتهم بأهل البلاد، فى أن يمدوا الجمعية بالاشتراك السنوى، وكان من دلائل إصابتهم فى إساءة الظن أن كثيراً من خيار المشتركين ومن أعضاء مجلس إدارة الجمعية أيضًا، كانوا يماطلون فى دفع الاشتراك، بل يمتنعون عنه[١] وهو ما سنشير إليه فيما بعد.

كما أوضحت اللائحة أن الجمعية الخيرية الإسلامية تقبل جميع التبرعات، وبينت أن كل من رتب على نفسه سنويًا أقل من جنيهين مصريين يعد مساعدًا للجمعية[٢].

وقد واظب سعد زغلول وغيره من أعضاء الجمعية، كحسن عاصم، ومحمد عبده.. الخ، للترويج لها ولنشاطها، فقد كان سعد زغلول يقابل الأمراء والقناصل ليوزع عليهم تذاكر احتفالات الجمعية السنوية[٣] على حين عمل محمد عبده من خلالها على تحقيق إصلاح أخلاقى اجتماعى، يذكى بين أفراد الأمة روح الاعتماد على النفس، وتعويدهم الاجتماع لأجل التعاون، وإشعار قلوب أغنيائهم عاطفة الرحمة والإحسان على الفقراء[٤].

ومع عطاء نخبة رجال مصر لتلك الجمعية، وعملهم لتقدمها وانتشارها، فإنها لم تسلم مع هذه الدقة فى تنظيمها وإدارتها ـ من كيد بعض أعدائها الذين سعوا لدى سلطة الاحتلال لأجل إيقاف نشاطها، فاتهموها بأنها تساعد ثورة المهدى فى السودان ١٨٨٢ ـ ١٨٩٨ بالمال، وقدموا فى ذلك الشأن مستندات مختومة بختم مزور للجمعية ، مما أدى إلى تفتيش إدارة الجمعية، وكان محمد عبده فى ذلك الوقت غائبًا عن البلاد، ولما حضر أقنع اللورد كرومر بأن باطن الجمعية كظاهرها، وليس فيه أدنى شائبة للسياسة وأكد له أنه مستعد لتحمل كل تبعة تثبت عكس ذلك، وما كان أحد غير محمد عبده يتجرأ على ذلك، حتى أن اللورد كرومر صار يدفع إعانة للجمعية فى كل عام[٥]، مما

(١) المرجع السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) عبد الخالق لاشين، المرجع السابق. ص ٤٠.
(٤) عثمان أمين، رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده، طـ٢ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥. ص ٥٢ ـ ص٥٣.
وأيضًا: المقتطف، جـ ٣٠، عدد ١١، ١/ ١١/ ١٩٠٥، ص ٩١٧ ـ ص ٩١٨.
(٥) محمد رشيد رضا، المرجع السابق. نص ٧٢٩، أيضًا: المنار، جـ٨، عدد ١٧، ٣١/ ٨/ ١٩١٥. ص ٤٩٠، وكذا: المنار، تنجـ ١٥، عدد ٢، ٩/ ١٢/ ١٩١٢، ص ٩٢٥.

يوضح مدى عزيمة محمد عبده ومن ثبت معه من أصحابه، ويبين من جهة أخرى أنه لولا دوره هذا لكان قد قضى على تلك الجمعية فى مهدها.

محمد عبده والجمعية الخيرية الإسلامية:

بالاحتلال الإنجليزى فى ١١ يوليو ١٨٨٢، انتهت الثورة العرابية بنفى قادتها ومثقفيها، ومنهم محمد عبده، الذى ظل بعد عودته يعيش فى الظل، حتى اتسمت الفترة من ١٨٩٠ إلى أن توفى بأنها مرحلة اعتدال فى رأيه ومواقفه[١]، وربما كانت تلك هى الخبرة التى خرج بها من الثورة العرابية[٢].

وبرغم ذلك فقد كان محمد عبده يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس، حتى يوجه التعليم الوجهة التى يريدها، حتى يصلح النفوس بالتوسع فى التاريخ الإسلامى، وبث مبادئ الدين الصحيح، ولما يئس من ذلك، وجه جهده إلى الجمعية الخيرية الإسلامية يضع لتلاميذها مناهجهم الدراسية، ويؤلف لهم تفاسير أجزاء القرآن[٣]. الخ، مما يبين أن تلك الجمعية ومدارسها قد استخدمت كالجمعية السابقة، أداة لتنفيذ سياسات وطنية، فكانت كقارب لتمرير فلسفات كبيرة، سواء عند النديم وجمعيته، أو محمد عبده ومن أتى بعده فى الجمعية التى بين أيدينا، التى لابد من القول أيضًا بأن خطها الفكرى لم يحمل ثورية الجمعية الأولى.

فلقد وقف محمد عبده على رأس الداعين إلى الإصلاح كوسيلة حتمية للحصول على الجلاء، فتحصن بشعار الإصلاح العقيدى فى الدين، وفى مناهج التعليم، ومن هنا كان محمد عبده صاحب الموقف الوسط، وإمام المعتدلين فى فلسفة الإصلاح التدريجى، حيث التزم بالنهج التعليمى، لإصلاح الأمة الإسلامية عن طريق التعليم والتربية الدينية الإسلامية[٤].

---

(١) و. س. بلنت، الأفغانى ومحمد عبده، ترجمة على شلش، كتاب الهلال، عدد ٤٢١، يناير، القاهرة، ١٩٨٦. ص ٧٢ ـ ص ٨٦.

(٢) - P. M. Hiolt (editor): Political Social change in modern Egypt (Arther Goldschmidt. J. R., the Egyption nationalist party 1892 - 1919) London, 1968, p 312.

(٣) أحمد أمين، المرجع السابق ص ٣٣٨.

وأيضاً: - P. J. Vatikiotis, the history of Egypt, London, 1980. P 197.

(٤) نعمان عاشور، بطولات مصرية، كتاب روز اليوسف، عدد سبتمبر، القاهرة، ١٩٧٣. ص٥.

ولما كان محمد عبده من المؤسسين للجمعية الخيرية الإسلامية، وكان له من العمل فيها ما يجعله من أبرز أعضائها، حيث كان يحض الأمراء والأثرياء على الاشتراك فيها، ويحصل فى بعض الأحيان قيم الاشتراكات بنفسه، فقد عمل ما فى وسعه لارتقائها واتساع نطاقها، حيث كان يرى أن تعويد المسلمين الاجتماع للتعاون، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان على الفقراء فائدة من أكبر فوائد الجمعية[١].

وفى عام ١٩٠٠ انتخب محمد عبده رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية بعد إبراهيم رشدى، فزاد اجتهاده فى خدمتها، وقد ظل رئيسًا لها منذ ذلك التاريخ حتى وفاته[٢]. وقد ساعده فى موقعه هذا حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيرية الإسلامية ومدير مدارسها، مما دفعه إلى أن ينفخ فى أعضائها من روحه الإصلاحى[٣] وخاصة أنه كان يتولى منصب مفتى البلاد[٤] وهو المنصب الذى ساعده أيضًا على أن ينشر فكره التعليمى[٥] عبر الجمعية الخيرية[٦] واستشارة القوم له فى كل عمل كبير يقومون به[٧].

ومما يبين نجاح الجمعية تنفى عهد رئاسته لها زيادة إيراداتها، حيث كانت فى عام ١٩٠٠ (٤٤٣٠ جنيهاً) فارتفعت إلى ١٠٣٩٥ فى عام ١٩٠٥، وكذا زيادة عدد مدارسها من ٤ إلى ٧ مدارس فى تلك الفترة، وتبعًا لذلك ارتفع عدد التلاميذ فيها من ٣١١ تلميذًا إلى ٧٦٦ تلميذًا، وارتفع عدد الأطيان التى تملكها الجمعية فى نفس الفترة من ٢٨٠ فدانًا إلى ٥٣٣ فدانًا[٨].

نشاط الجمعية التعليمى:

احتفل بأول امتحان لمدارس الجمعية فى عام ١٩٠٠، وكان لامتحان تلاميذ مدرسة مصر القاهرة، وكان محمد عبده قد تولى رئاسة الجمعية وقتها، وقد حضر الاحتفال ماهر باشا محافظ مصر، وكثير من العلماء والأعيان، وبين محمد عبده فى ذلك الحفل أن

(١) المقتطف، جـ٣، عدد ١١، ١/ ١١ / ١٩٠٥. ص ٩١٧ - ص ٩١٨.
(٢) Nadav safran, Egypt in search of political Community, London, 1961, p 62.
(٣) المنار، جـ٨، عدد ١٣، ٣/ ٨/ ١٩٠٥. ص ٤٩٠ - ص ٤٩١.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) أحمد أمين، محمد عبده، مؤسسة الخانجى، القاهرة، ١٩٦٠. ص ٧٩.
(٦) جاكوب لاندو، المرجع السابق. ص ٢٠٨.
(٧) الهلال، عدد ١٠، ١/ ٨/ ١٩٠٥. ص ٥٥٦، وأيضًا: جورجى زيدان، بناة النهضة العربية. ص ٨٦.
(٨) السيد محمد رشيد رضا. المرجع السابق. ص ٧٣٠. وأيضًا: المنار، عدد ١٨، ١٩/ ٧/ ١٨٩٨ ص ١٤٣.

عبد العزيز آل سعود
والسياسة البريطانية فى الخليج العربى
فى الربع الأول من القرن العشرين

مقدمة:

فى مطلع القرن العشرين كانت الأحوال العامة فى الجزيرة العربية والخليج العربى تتلخص فى بعض الوحدات السياسية التالية:

كان عبد العزيز آل سعود قد أصبح أميرًا على نجد، بعد أن بسط نفوذه، فيها وجعل من مدينة الرياض عاصمة له، فى حين كان ابن الرشيد أميرًا على جبل شمر وعاصمته مدينة حايل، غير أن عبد العزيز آل سعود انتصر على ابن الرشيد فى موقعة البكيرية، واستطاع بذلك أن يكسب الجولة الأولى من الصراع بين الرجلين، ثم نجح (فيما بعد) من ضم إمارة حايل ومنطقة جبل شمر نهائيًا، بعد أن اضطر أميرها طلال بن الرشيد إلى التسليم.

أما فى جنوبى الجزيرة فقد بسط الإدريسى سيطرته على عسير، أما المناطق الأخرى المطلة على الخليج العربى، مثل الكويت، والبحرين، ومسقط، وقطر، وحضرموت، فقد بقيت تحت سيطرة حكامها العرب، غير أن النفوذ الحقيقى كان للإنجليز الذين كانوا يهدفون للسيطرة على المنطقة وإبعاد أى نفوذ آخر عنها. وكانت الدولة العثمانية تحاول عبثا - أن تنشط فى بعض المناطق العربية، مثل محاولة دعم نفوذها فى الأحساء، ومساعدة ابن الرشيد فى حايل قبل هزيمته على يد عبد العزيز آل سعود. . . . .

فى تلك الأثناء أيضاً كانت حُمَّى الاستعمار قد انتابت الدول الأوربية الكبرى بعد أن كانت هذه الدول فى نهاية القرن التاسع عشر مشغولة بتدعيم كيانها وتثبيت وحدتها،

وظهرت فى الوجود دولتان تجديدتان أصبحتا فى عداد الدول الأوربية الكبرى هما: ألمانيا وإيطاليا. ووجه رؤساء هذه الدول سياسة بلادهم نحو استعمار أراضٍ جديدة، أو إنشاء مناطق نفوذ لسد حاجات بلادهم الاقتصادية أو الاستيلاء على قواعد بحرية جديدة، ورفع مهابة الدولة وزيادة نفوذها، وكانت السياسة الألمانية فى عهد إمبراطور ألمانيا وليام الثانى (١٨٩٠ ـ ١٩١٤م) تعتمد على كسب صداقة السلطان العثمانى، ومحاولة التودد إلى المسلمين عامة، بل إنه أعلن بأنه حام وصديق للمسلمين، وذلك لكى يجد مخرجًا له لبسط نفوذه فى الشرق، فعمل على مساعدة الدولة العثمانية بتدريب جيشها وتسليحه، وتوطيد علاقاته معها، كما عمل جاداً بالفعل لتنفيذ خط حديد برلين ـ بغداد بامتداده إلى البصرة على الخليج العربى، ليصل النفوذ الألمانى بذلك إلى الشرق عامة، ومنطقة الخليج بصفة خاصة، وفى هذا تهديد للصالح البريطانية فى هذه المنطقة التى كانت بريطانيا تحاول احتكارها لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، وخاصة أن الشركة الإنجليزية للبترول حاولت أن تتحكم فى تلك الأجزاء واعتبرتها مركزًا مهمًا لنشاطها فى استخراج الزيت. كما أن الوجود الألمانى عن طريق الدولة العثمانية فى هذه المنطقة كان يهدد المصالح البريطانية فى منطقة المحيط الهندى، الشريان الحيوى لبريطانيا فى الهند وبلاد الشرق الأقصى.

وكانت حكومة الهند البريطانية هى التى تقوم بتنفيذ السياسة البريطانية فى تلك الجهات، كما كانت تعمل على تنفيذ برامج حكومة لندن وتوجيهاتها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية فى بلاد الشرق بوجه عام. لذلك حرصت حكومة الهند البريطانية على إقصاء أى نفوذ دولى فى الخليج العربى، سواء يتمثل فى الدولة العثمانية أو حليفتها ألمانيا، كما كانت تراقب بحذر التطورات السياسية فى داخل الجزيرة العربية، بعد النجاح الكبير الذى أحرزه عبد العزيز آل سعود بعد أن ثبت نفوذه فى نجد وما حولها، وبعد انتصاره الأول على ابن الرشيد فى البكيرية، الأمر الذى جعله يرنو ببصره إلى منطقة الخليج، مما أزعج السياسة البريطانية، خاصة أن عبد العزيز آل سعود فى ظل التوجه الإسلامى أعلن عن عزمه زيارة مسقط والساحل فى ذلك العام (١٩٠٤م)، فخشيت بريطانيا أنه بذلك يعيد سياسة أسلافه بفرض الزكاة والتوجه الإسلامى على مسقط وغيرها، مثلما كان الحال فى عهد الإمام عبد الله بن فيصل عام (١٨٨٦م).

وكما سبق القول، فإن السياسة البريطانية ممثلة في حكومة الهند البريطانية كانت تعمل على دعم نفوذها ووجودها في الخليج، وتجد تبريراً لذلك تحت ستار ودعوى أنه تكافح القرصنة وتجار الرقيق، وأنه بذلك حققت سياسة ما أسماه اللورد كيرزون «السلام البريطاني عن طريق سلسلة من المعاهدات مع شيوخ وأمراء ساحل الخليج العربي»(١)، فاكتسبت بريطانيا بذلك وضعًا متميزًا، لدرجة أن أصبح المقيم البريطاني في الخليج الحاكم الفعلي في هذا النطاق، إنْ ظلت عازفة عن سياسة التدخل في الظهير العربي(٢)، ولذلك نرى أن بريطانيا كانت تحول دون تدخل الشيخ مبارك حاكم الكويت في سياسة الصحراء حتى لايتدخل الأتراك بصورة نشطة في الكويت، وقد فطن عبد العزيز آل سعود إلى هذه الناحية برغم قناعته التامة بأن الوجود العثماني في منطقة الأحساء وجودٌ هش، ومع ذلك فهو يكاد يخنق مراميه(٣).

لكل ذلك وما عداه بدأ اهتمام عبد العزيز آل سعود بمنطقة الخليج العربي(٤)، وركز جهده وفكره للقضاء على الهيمنة الأجنبية وتدعيم السلطة العربية في الخليج.

تلك هي مقدمة هذا البحث الذي يبرز الدور الكبير الذي اضطلع به عبد العزيز آل سعود لإبعاد النفوذ الأجنبي عن المنطقة العربية، وفرض الهيبة والسيادة العربية والإسلامية.

مما تقدم يتبين لنا أن الحكومة الهندية البريطانية أصبحت تنظر إلى طموحات عبد العزيز بن سعود في الخليج بعين الحذر، خشية أن يؤدي ذلك إلى إلحاق الضرر بالرعايا البريطانيين المقيمين من جهة، وحدوث تضارب بين القبائل العربية المتحالفة مع بريطانيا من جهة أخرى.

ولذلك اعتبر السفير البريطاني في القسطنطينية أن ثمة نتائج خطيرة ستنشأ من إعادة تكوين سلالة (سلفية ـ وهابية) على حد قوله ـ حاكمة على يد عبد العزيز، وأن المسألة ستصبح أكثر تعقيداً إذا اعترفت به الحكومة العثمانية، واعترف من جانبه بسيادة

---

(١) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩ ـ ١٩٤٧. دراسة وثائقية، ط أولى ١٩٨١م، دار المريخ، الرياض ص ٨٠.

(٢) حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي. ط أولى، دار المريخ، الرياض ص ٢٣٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٨.

(٤) Kumar, Ravinder: India and the persian Gulf Region 1858 - 1907. PP. 200-201.

السلطان، ثم إن السياسة البريطانية حتى ذلك الوقت كانت منقسمة على نفسها، فالخارجية البريطانية اتخذت خطًا بعدم التورط مع حكام نجد فى أى علاقة، فى حين كانت حكومة الهند تريداتخاذ عدة تدابير، من بينها توجيه تحذير بعدم التدخل فى عمان أو الساحل المتصالح، فضلا عن تقديم مساعدة عسكرية من السفن البريطانية فى الخليج إلى الشيوخ هناك فى حالة الضرورة وفرض حظرٍ صارمٍ على استيراد الأسلحة للكويت وغيرها، وإن كان ثمة خشية من هذا الإجراء الأخير أن يمتد هذا الحظر إلى الأسلحة المستوردة للرعايا البريطانيين(١).

لكن جاءت زيارة عبد العزيز للأحساء فى أغسطس ١٩٠٥م مفاجأة كاملة، فلقد مكث هناك بضعة أيام، وقام باستدعاء الأهلى وبث فيهم بيانًا، ولم يستطع أحد الاعتراض عليه. ثم عين ثلاثة شيوخ لسماع شكوى الأهالى، ونشر السلام بين البدو، وصالح بين العجمان والقبائل الأخرى، واتخذ موقفًا حازماً بعقوبة أى شخص يرتكب جريمة السرقة(٢)، مما يعنى أنه حرص على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى الأحساء قبل أن تصبح تحت سيطرته الفعلية بثمانى سنوات. ثم أنه فى تحركاته السريعة لجمع شمل ما تفكك من أجزاء الجزيرة العربية كان حريصًا على أن يستعيد كل ما كان تابعًا للدولة السعودية الأولى والثانية.

ومما يلفت النظر طاعة العسكر الترك لأوامره، ويبدو أن ذلك جاء كرد فعل لتأثير التسوية التى كان أبرمها الإمام عبد الرحمن بن فيصل، والد عبد العزيز فى (صفوان) مع مسئول عثمانى، والتى تم الاعتراف فيها بوضع عبد العزيز الجديد فى (نجد) وبقبوله للسيادة العثمانية فى مناطق أخير، بمعنى أن تكون إمارة القصيم كمنطقة حاجزة بين «حائل» و «نجد»(٣)، فليس من المستبعد أنه عَدَّ وجود الترك فى الأحساء أمرًا لايثير القلق بحكم العلاقة الجديدة، والتى استطاع عبد العزيز توظيفها بذكاء، إذا استمال إليه شيوخ القبائل من مُرَّة وبين هاجر، ودخلوا فى طاعته.

غير أنه يبدو أن لتلك الزيارة أثرها فى العام التالى ١٩٠٦م ضد الترك فى

(١) F. O. 406/27: India Office to Foreign Office No. 31-6662 India Office, Feb 22, 1906.

(٢) F. O. 406/27: Inc. 10 in No. 31: From Khalid-Bin Abdulah-es-Soueidin to Sheikh Zaeed-bin Khalifa 27th Jemad es Sani 1323/August 29, 1905.

(٣) Kumar, Ravinder: or. cit P 204.

«الهفوف»، حينما نظر الناس بعين الريبة إلى المطلب التركى حينما شرعوا فى أخذ إحصاء رسمى للسكان وللأغنام فى واحة الأحساء، فرفضوا تنفيذ ذلك، مما كان مدعاة لأن تركز القوات العثمانية قواتها فى قلعة «الهفوف»، نبعد أن تم إخلاء المخافر الأمامية العسكرية التركية[١].

وفى أعقاب زيارة عبد العزيز للأحساء قام بزيارة أخرى لقطر، وأرسل عدة رسائل إلى الرؤساء المتصالحين، عبر فيها عن نيته لزيارة أقاليمهم فى ربيع عام ١٩٠٦م[٢]، وجاء فى رسالته إليهم: «إن بلادنا طيبة بمشيئة الله. إنى أكتب لأخبركم بأننى حضرت إلى هذه الأجزاء بسبب الخلاف الذى وقع بين قبيلة يام «عجمان». زرت قطر وانجزت مصالحة بين المختلفين، وعاقبت المذنبين. كان هناك اقتراح بالبقاء للبت فى بعض الأمور ولكن حرارة هذا البلد ساخنة جداً، وأننى عزمت بمشيئة الله زيارة هذه الأجزاء حينما يأتى الربيع، هدفى من ذلك البت فى بعض الأمور. وأننى أعتقد أنه من المرغوب فيه إخباركم بذلك، وسوف يزودكم حمد الحربى بتفاصيل أكثر»[٣].

مما تقدم يتبين لنا أن عبد العزيز حرص على ممارسة بعض السلطة والنفوذ على هذه البلاد من خلال هذه التحركات، ويحاول فى الوقت نفسه جس نبض بريطانيا فى الخليج بالوقوف على رد الفعل نتيجة إطلالته على ساحل الخليج.

حقًا، تلقى شيوخ الهناوية فى كل من أبى ظبى ودُبَىّ هذه الرسائل بنوع من القلق، خشية الحد من سلطتهم، وفى المقابل إتاحة الفرصة لشيوخ الغافرية للقيام بالتخلص من حكم شيوخ الهناوية (حكام أبى ظبى ودبى) الذى زاد على عشرين عامًا. فلا غرابة أن اعتبر الشيخ ابن خليفة الأمر خطيراً[٤] ولاسيما أن الشارقة وأم القوين قد أيَّدَتَا خصوم الشيخ زايد، فالغافريون أصبحوا فى مقاومة موحدة لزايد، ومن الممكن أن ينظروا إلى

---

(١) F. O. 406/28: India Office to Froeign Office. Inc. in No. 35. Memorandum of Information received during the Month of April 1906, regarding external Affairs relating to Arabia.

(٢) F. O. 406/28: Ibid: Enc. 1 in No. 31. Government of India to Mr. Morley. Forst William, Jan. 11, 1906.

(٣) F. O. 406/27. Enc. 9 in No. 31. from Abdul-Aziz-Bin Abdul Rahman-Bin Saood, to the chief of Oebai. 20th Jemad el Sani 1323 (August 22. 1905).

(٤) سمور، زهدى عبد المجيد: الوضع السياسى فى ساحل الصالح البحرى ١٨٥٦ - ١٩١٤ رسالة دكتوراة غير منشورة آداب القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٢٦.

طلب ابن سعود بترحاب كبير، لذلك كان الشيخ زايد متشوقًا للغاية كى تتخذ حكومة الهند خطوات من شأنها الحيلولة دون تحرك عبد العزيز تجاه الساحل المهادن، وأن تصدر الأوامر إلى شيوخ الغافرية بالألا يقعوا تحت تأثير عبد العزيز(١).

والملاحظ أن حكومة الهند البريطانية في تعاملها مع هذه الأزمة كانت تتسم بالحذر، فهى لا تريد الاحتكاك معه مباشرة، ففضلت استطلاع رأى شيخ الكويت، بحكم صداقته مع عبد العزيز، عمًّا إذا كانت تطلعات أمير نجد للساحل المهادن جادة، وأن على الشيخ جابر تثبيط همته، خاصة أن هؤلاء الرؤساء مرتبطون بمعاهدات مع حكومة الهند(٢).

لكن الخارجية البريطانية لم تكن مطمئنة لمثل هذا الإجراء غير المباشر مع عبد العزيز، وأنها ترى من الأجدى توجيه تحذير إليه فى حالة ظهوره على الساحل(٣)، وفى نفس الوقت يتم توجيه تحذير آخر إلى الرؤساء المتناحرين، وحتى لا تتضرر المصالح التجارية البريطانية على الساحل من جراء التضارب بينهم وبين عبد العزيز(٤) فكان لابد من وضع حد لأن تقارب محتمل يمكن أن يحرزه عبد العزيز على الساحل.

كذلك تابعت الخارجية البريطانية بقلق بالغ انتصار عبد العزيز على ابن الرشيد فى حائل، باعتبار أنها قلعة إمارة نجد، ما يتيح الفرصة أكثر لإعادة الحكم السلفى فى قلب الجزيرة العربية، ومن ثم تعزيز الأهمية المتزايدة لعبد العزيز، مما يستلزم مراقبة علاقاته مع شيخ الكويت والرؤساء المهادنين بحذر أكبر(٥)، ولا سيما أن هذا الانتصار قد قلب رأساً على عقب تصورات شيخ الكويت لتعامله مع كل من عبد العزيز وابن الرشيد، إذ كان من رأيه أن يكون لعبد العزيز «نجد» ووادى الدواسر فقط، ولابن الرشيد حائل وجبل شمر، فى حين اختص الشيخ مبارك لنفسه الكويت وعنيزة وبريدة وسدير والوشم، فضلا عن التحكم فى القبائل التى تحتل هذه الأماكن، وذلك من خلال تصوره لتعاهد ثلاثى تقدم به فى أثناء محادثاته مع المقيم فى الخليج العربى(٦).

(١) F. O. 40 6/27: Inc. in No. 46: From Major Cox to Government of India - Bushire, Feb. 4, 1906.

(٢) F. O. 406/27: Ibid.

(٣) F. O. 406/28: Inc. in No. 15 Mr. Morley to Governor - Gerneral the Earl of Minto. India office April 13. 1906.

(٤) F. O. 406/27: India office to Foreign office 10543, March 24, 1906. also see: F. O. 406/28/ Inc. in No. 6A. Mr. Morley to Government of India. India office, April 9, 1906.

(٥) F. O. 406/28: Sir N. O' Conor to Sir Edward Grey (No. 292) Constantinople, May 1, 1906.

(٦) F. O. 407/28: Inc. 2 in No. 25. Note of a conversation between the Resident in th epersian Gulf and Sheikh Mubarak of Koweit, dated March 7, 1906.

ولكن حكومة الهند رفضت بشدة أى تورط لشيخ الكويت فى أمور وسط شبه الجزيرة العربية[١]، وذلك على الرغم من التسليم بأن محاولات الشيخ بين عبد العزيز وابن الرشيد إنما هدفها منع الحرب التى تهدد رفاهية إقليم الشيخ وتجارته[٢]. غير أن انتصار عبد العزيز أفسد على شيخ الكويت خطته، خاصة عندما أعلن نفسه حاكماً لكل الشرق، وأرسل عدة رسائل إلى القسطنطينية وولاة البصرة وبغداد والحجاز وشريف مكة ينبئهم فيها بما أحرزه من انتصار[٣].

كان من الطبيعى ألاَّ تطمئن الدولة العثمانية لهذه التطورات الجديدة، إذ أنها كانت تؤيد ابن الرشيد وتمنحه مخصصات منتظمة حرصت على استمرارها لنجله متعب[٤]، فى حين أعطى عبد العزيز أوامره إلى كل القبائل فى نجد بالكف عن الاتصال مع الرسميين الأتراك والقوات التركية، والتوقف عن حمل بريدهم وإمدادتهم، وذلك بلغة تهديد بعقاب صارم إذا لم يمتثلوا تمامًا لأوامره. وبالفعل استجاب أولئك الذى كانوا لا يزالون يساعدون الترك، فأبلغوا ضباطهم بأنه ليس لديهم ما يفعلونه معهم فى المستقبل، وأنهم سيكفون عن حمل بريدهم ومؤنهم[٥]، الأمر الذى يعنى عرقلة الاتصالات بين القوات التركية من جهة وتوفير السيطرة المتنامية لعبد العزيز من جهة أخرى.

وإذ كان عبد العزيز لم يَقُم بزيارة الساحل المتصالح مرة أخرى فإن رسالته المهذبة إلى الشيخ مبارك قد أكدت على أكثر من معنى، فهو يؤكد على أن أهل عمان كانوا متوافقين مع آل سعود منذ أن كانوا فى الكويت، وأنه إذ يعترف بإرساله عدة رسائل لكنها لاتحمل أى ضرر، ولكن ربما كان هناك شىء لم يُولِه مزيداً من الحذر[٦]. وفى الواقع كان ذلك براعة سياسية من عبد العزيز، فهو لايريد الصدام مع بريطانيا فى الخليج، لأنه كان يريد أن يتفرغ لبناء قوة كبيرة فى قلب الجزيرة العربية، حتى يستطيع

(١) F. O. 406/32: India Office to Foreign office. 33052. India office, Oct 3, 1907.

(٢) F. O. 406/32: Inc. in No. 9. Government of India to Mr. Morley. Simla, Sep. 26, 1907.

(٣) F. O. 407/28: Sir No. O'Conor to Sir Edward Grey (No. 400 Cofid.). therapia, June 11, 1906.

(٤) F. O. 406/28: Sir. N'O Conor to sir Edward Grey (No. 413) therapia, June 18, 1906.

(٥) F. O. 406/28: India office to Foreign office Inc. 2 in No. 37 political Agent, Koweit, to Major Cox. Feb. 25, 1906.

(٦) F. O. 406/28: India Office to Foreign Office. Inc. 2 in No. 37. political agent, Koweit, to Major Cox. Feb. 24, 1906.

الظهور مرة أخرى على ساحل الخليج، حيث وضع نصب عينيه استرداد الأحساء، لأنه أدرك أهمية وجود منفذ لبلاده على البحر مع تأمين طرق القوافل البحرية التى تعرضت للكثير من الاعتداءات(١).

وفى ٩ مايو ١٩١٣م تهيأت الفرصة لعبد العزيز لإحكام قبضته على الأحساء، بعد أن استسلم المتصرف التركى وجنود الحامية، فمنحهم الأمان، حيث تركهم يرحلون إلى البحرين(٢)، وإنْ حاولوا الارتداد مرة ثانية إلى القطيف تارة، والعقير تارة أخرى، غير أنهم فشلوا، فاحتج عبد العزيز على تلك التحركات فى مياه البحرين لدى السلطات البريطانية فى الخليج(٣). هكذا أصبحت سيطرة عبد العزيز على الأحساء بمثابة قوة عازلة بين النفوذ العثمانى فى شمال الخليج وبين إمارات الساحل المهادن.

لكن من الثابت أن شيخى أبى ظبى ودبى أثيرت مرة أخرى مخاوفهما، فقررا دعوة أنصارهما من زعماء البدو لمواجهة أى نشاط سعودى قادم، خاصة أن عبد العزيز ضم إلى ممتلكاته صحراء شاسعة، شملت الجافورة وواحة جرين(٤). فقام الشخ حمدان بن زايد حاكم أبى ظبى بتعزيز قواته، واستيراد كميات كبيرة من السلاح والذخيرة، إلا أنه حينما ظهر اتخذت بريطانيا احتياطاتها لمنع أى تقدم سعودى لمنطقة الساحل العمانى، فعادت الطمأنينة للشيخ(٥)، إذ حرصت بريطانيا على ألاَّ يقع الصدام بين أى القوى الحليفة معها وبين عبد العزيز، درءًا لوقوع المشاكل(٦).

وليس بخافٍ أن عبد الله بن جلوى حاكم الأحساء السعودى قد سعى لتحقيق تطلعات عبد العزيز فى السيطرة على الساحل العمانى، والمقاطعات العمانية المستقلة عن سلطنة مسقط، لاسيما أن قبائل البريمى والظاهرة كانت تميل إلى الدعوة السلفية، وفى عداء مع الإباضية(٧). وأصبح على بريطانيا التمسك بسياسة موحدة للخليج، على أساس

(١) محمد عرابى نخلة: تاريخ الأحساء السياسى ٨١٨ ـ ١٩١٣. منشورات ذات السلاسل، الكويت ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣.
(٣) F. O. 371/1820: 22067 Minute by A. P., 20 May 191
(٤) جمال قاسم (الدكتور) الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ ـ ١٤٥، طـ أولى ١٩٨٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
(٥) المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
(٦) عبد العزيز عبد الغنى (الدكتور): السلام البريطانى فى الخليج العربى ١٨٩٩ - ١٩٤٧ دراسة وثائقية. دار المريخ، الرياض ١٩٨١م، ص ١٧٣.
(٧) المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

أنه يمثل كيانًا سياسيًا واحدًا، إذ اقتضت دواعى الأمن الربط بين كل أجزاء الخليج لكى تتحقق السيطرة الفعاله عليه(١)، وذلك مع الحفاظ على ممتلكات تركيا فى آسيا(٢)، والتى أكدتها اتفاقية ٢٩ يوليو ١٩١٣م، كما اعترفت فيها كل من بريطانيا وتركيا على أن الجزأين الساحلى والداخلى الغربى، والممتدين من الشمال إلى الجنوب من نقطة كائنة فى البر الرئيسى حيال جزيرة زخنونية، حتى الدرجة(٢٠) من خط العرض فى صحراء الربع الخالى، إنما يختصان بسنجق نجد(٣).

وفى الواقع لقد أراد عبد العزيز تقاربًا مع بريطانيا بتخفيف غلواء المطالب التركية، وذلك لإدراكه أن المعاهدة البريطانية التركية تعتبره ضمناً من رعايا الدولة العثمانية. فهو لايريد قيودًا تركية تحكم قطعًا من نمو وتطور دولته الناشئة، إذ كانت اشترطت عليه شروطاً رفضها فى البداية، وكانت على النحو التالى:

(أ) القبول مجدداً بالحاميات التركية فى الإقليم وساحل الأحساء كما كانت سابقاً.

(ب) تعيين القضاة وسائر الموظفين العدليين بفرمانات مباشرة يصدرها السلطان.

(جـ) أن يدفع ضريبة سنوية قدرها (٣٠٠٠) ليرة تركية.

(د) إحالة جميع المراسلات من الدول الأجنبية أو من ممثلها إلى السلطات التركية تتصرف فيها كيفما تشاء.

(هـ) إبعاد جميع التجار والوكلاء من الإقليم.

(و) التعهد بألاً يمنح أية امتيازات لأية شركات أجنبية(٤).

من الواضح أن بريطانيا وجدت فى الشروط الثلاثة الأخيرة تعارضاً مع مصالحها فهى لابد أن تشكل حاجزًا فى التعامل بينها وبين عبد العزيز، فلا غرابة أن احتجت على تلك البنود الثلاثة الأخيرة، وحددت مطالبها بدورها على النحو التالى:

١ ـ ألاً يتدخل عبد العزيز فى أراضى أو سياسات الإمارات العربية فى الخليج، وفى جملتها الساحل المتصالح وقطر.

---

(١) إيمان محمد عبد المنعم عامر: سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٩١٤ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة ـ جامعة القاهرة ١٩٨٤، ص ١٧ - ١٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٢.

(٣) F. O. 391/3390: Momorandum on British Commitments to Bin Saud. Special 7, Nov. 18, 1918.

(٤) F. O. 371/3390: Ibid

٢ ـ أن يساعد فى التقيد بالهدنة البحرية وتأييدها، أن قمع القرصنة وقطع دابر الأعمال العدوانية.

٣ ـ أن يساعد على قمع تهريب الأسلحة.

٤ ـ السماح للتجار البريطانيين بالدخول إلى القطيف بدون قيود، ومعاملتهم معاملة حسنة[١].

وإذا كان عبد العزيز قد وقع معاهدة مع والى البصرة ممثلاً عن الدولة العثمانية فى ١٥ مايو ١٩١٤م، حيث قبل بصيغة القسطنطينية، فإنه أدرك أنها لاتجرؤ على تنفيذها، ولكنها وُضعت لحفظ ماء الوجه، ثم أنه برر إقدامه على الاتفاق بأنه كان تمهيدًا للتخلص من ربقة العثمانيين، فى الوقت الذى ازداد فيه حرصه على جمع شيوخ الجزيرة العربية فى سياسة موحدة ضد الترك[٢].

وليس صحيحاً أن السلطات البريطانية لم تكن تدرك من أمر هذا الاتفاق شيئاً، حتى تسربت أخباره[٣]، فالثابت أن عبد العزيز أطلع بنفسه الممثلين البريطانين على مسودة الاتفاق الذى كان الأطراف يحاولون حمله على القبول به، وطلب فعلا الوساطة البريطانية، كما أنه فى ٩ مارس ١٩١٤م، قدمت وزارة الخارجية مذكرة إلى حقى باشا الذى كان يجرى آنَ ذاك مفاوضات فى لندن باسم الحكومة العثمانية، أوضحت فيها حراجه موقف حكومة صاحب الجلالة بالنسبة لعبد العزيز، واستشهدت بالشروط التركية دون ذكر المصدر، الذى أفاد بهذه المعلومات، مما كان موضع دهشة للجانب التركى[٤].

والواقع أن الاتصالات بين عبد العزيز وبريطانيا لم تنقطع، بل إنها ازدادت بعد إعلان الحرب بين تركيا وبريطانيا فى ٣١ أكتوبر ١٩١٤م. ولم يلتزم عبد العزيز بتنفيذ المادة ١٢ من معاهدته مع تركيا، التى كانت تلزمه بتقديم قوة تعاون قواتها الخاصة، إذا طلبت منه ذلك فى حالة نشوب حرب بينها وبين دولة أجنبية، فالملاحظ أنه تحاشى المساعى التركية لإقامة تعاون عسكرى بينه وبين ابن الرشيد، فزاد تبعًا لذلك حرص بريطانيا على التقارب معه من خلال تكثيف الاتصالات، بهدف مساعدتها على حفظ

---

(١) F. O. 371/3390: Ibid.

(٢) عبد العزيز عبد الغنى (الدكتور): المرجع السابق ص ١٧٧ ـ ١٧٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٧٨.

(٤) F, O. 371/3390: Memorandum on British commitments to bin Saud. Special 7, Nov. 18, 1918.

السلام فى شبه الجزيرة العربية، إذا حدث عدوان تركى يؤدى إلى الحرب. كما طلبت منه التعاون مع شيخى الكويت والمحمرة لانتزاع البصرة من الأتراك، أو على الأقل الحيلولة دون وصول الإمدادات إلى البصرة، مع اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة لمنع سلب التجار البريطانيين أو نهب ممتلكاتهم فى مدينة البصرة وما جاورها. وفى مقابل هذا التعاون تتعهد بريطانيا بالتصدى لأى عدوان من الأتراك ضده، بما فى ذلك صد أى هجوم بحرىٍ على ساحل الخليج، كما أنها على استعداد للاعتراف به كحاكم مستقل على نجد والأحساء، والدخول معه فى مفاوضات لعقد معاهدة بهذا الشأن[١].

وإذا كان عبد العزيز قد رحب بهذه الخطوط العامة، مؤكدًا من جانبه على بذل جهوده لتعزيز المصالح المشتركة لجميع الأصدقاء، فإنه اعتبر الوثيقة البريطانية رسالة غامضة، لم تحدد ما إذا كانت التأكيدات مقصورة على الحرب الراهنة فقط، أم أنها تشمل المستقبل أيضًا، «فلا يمكن اعتبارها صكاً ملزماً للفريقين فى المستقبل» فاعتبر التعاون المقترح إنما هو مرهون بفترة استمرار الحرب[٢]. ومن هذا المنطلق شعرت بريطانيا أن عبد العزيز لاينوى التخلى عن موقفه القيادى فى الحرب، حتى يبرم معاهدة معها، فهو لا يخطو خطوة أخرى نحو جعل القضايا أكثر سهولة بالنسبة لها أو أكثر صعوبة بالنسبة للترك.

كانت مطالب عبد العزيز واضحة وصريحة، فهو يريد اعترافاً بريطانياً بمركزه، فتقر الحكومة البريطانية بأن «نجدًا» و «الأحساء» و «القطيف» والمناطق المجاورة لها والمرافئ الخاصة بها على ساحل الخليج العربى، إنماتخصه، وأنها بلاد آبائه وأجداده، وأنه حاكمها المستقل، ومن بعده أولاده والمنحدرون منهم بالوراثة، وأن تلك المناطق هى بلاد مستقلة، ولايحق لأى دولة أجنبية التدخل فيها، كما لايسمح لأى أجنبى بالاستيلاء على شبر واحد من أراضيها، وأنه يتعهد بحماية السواحل والمرافئ الواقعة تحت سلطته من كل عدوان على رعايا الدولة البريطانية، وأولئك الخاضعين لحمايتها. كذلك أبدى استعداده لفرض حظر على تهريب الأسلحة والذخيرة، سواء كانت على يد حكومة أو بواسطة تجار من جميع المرافىء الواقعة تحت سلطته، على شرط أن توفر له الحكومة البريطانية احتياجاته منها. ثم تأكد على استمرار إخضاع جميع السلطات القانونية القائمة فى

(١) F. O. 371/3390: Ibid.

(٢) F. O. 371/3390: Ibid.

أراضيه، وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، على أن تطبق على جميع المقيمين، سواء كانوا من رعاياه أو من رعايا البلدان المتاخمة(١).

حقًا إنه من منظور المصلحة البريطانية ليس هناك أعباء ثقيلة تُضاف على عاتق بريطانيا فى المنطقة تبعاً لمطالب عبد العزيز، بل إنها كانت تطمئن لازدياد قوته وغلبته على منافسيه، مما يساعدها فيما إذا دُعيت للعمل كوسيط بين شيوخ العرب على ساحل الخليج للاستعانة به لاعتبارين:

الاعتبار الأول:

أن سيطرته شديدة على القبائل البدوية، ما يمكن أن تمنح زخماً (دفعاً) عظيماً للتجارة عبر مرافئ الخليج العربى. ثم أنه من الممكن تحويل بعض التجارة المارة فى مرافىء البحر الأحمر إلى الخليج العربى.

الاعتبار الثانى:

النفوذ الكبير الذى يتمتع به عبد العزيز لدى الرأى العام الإسلامى داخل أراضى الجزيرة العربية، ما يمكن أن يزداد عند تفكك الدولة العثمانية وتصبح خلافة السلطان العثمانى أمرًا مشكوكاً فيه.

لذلك جرت التصورات البريطانية على التركيز على المناطق الساحلية التى أصبحت فى قبضة عبد العزيز على عدة أسس لعل أبرزها:

(أ) استقبال ممثل للحكومة البريطانية إمَّا فى عاصمته وإمَّا فى مرفإٍ بحريّ، أو فى كليهما معًا إذا شاء.

(ب) جباية الرسوم الجمركية بمعدلات معقولة، مع الأخذ فى الاعتبار المعدل السائد فى البحرين والكويت.

(جـ) السماح للسفن التجارية البريطانية بزيارة مرافئه.

(د) الموافقة على إقامة مكتب للبريد، وربما أيضًا مكتب للبرق فى مينائه، عندما يحين الوقت لذلك(٢).

---

(١) F. O. 371/3390: Ibid.

(٢) F. O. 371/3390: Ibid

وفى ٣٠ يناير ١٩١٥م أرسل مكتب الهند إلى الخارجية البريطانية برقية احتوت على عدد من الملاحظات المهمة، إذ جاء فيها:

«إن الرغبة فى إبرام معاهدة مع الأمير عبد العزيز لاتنبع فقط من مقتضيات الساعة التى توجب كسب صداقته بأى ثمن، بل كذلك للوضع العام الذى سينشأ فى الخليج نتيجة للحرب الراهنة، خاصة زوال الحكم التركى من البصرة، الأمر الذى أخذته حكومة حضرة صاحب الجلالة على عاتقها، فالمتوقع أن تخلو الساحة لابن سعود، فيصبح السيد المطاع، ليس على وسط الجزيرة العربية فحسب، بل كذلك على الرقعة المستطيلة من الساحل، ولا مندوحة للدولة المسيطرة على الخليج من أن تجرى معه تسوية عملية للحفاظ على الأمن والسلام، ولذا فالمدى الذى يجب أن تقابل به مطالبه ينبغى أن يقاس، ليس فقط بالخدمات الفورية التى سيؤديها، بل كذلك على احتكار ما يملك من طاقة على الإضرار فى حالة انتصاره، وهو بلاشك سيمارس ذلك إذا تم التخلى عنه بصورة نهائية»[1].

إذا كانت الخارجية البريطانية، قد أعطت الضوء الأخضر بإبرام معاهدة مع عبد العزيز فإنه يلاحظ الإشارة فيها بتوصية على أن تشتمل على فترة تلزمه بعدم التدخل فى الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان والأقاليم المحايدة، التى تحت حماية الحكومة البريطانية، وذلك فى إطار الحفاظ على السلام البحرى الذى أرادت بريطانيا توسيع مفهومه ليشمل السلام البرى أيضًا لشبه الجزيرة العربية بتوسيع النظام المهادن البريطانى، والذى اعتُبر التجربة الأولى بل والأصعب من العلاقة المهادنة[2]. وإذا كانت معاهدة ١٩١٥م قد أبرمت بصفة مؤقتة، فلم يقصد بها أن تكون جامعة مانعة من جهة، كما عُدَّت بمثابة هدنة من جهة ثانية، ثم انها أعطت بريطانيا من جهة ثالثة الحق فى أن تكون الحكَم فى حالة نشوب منازعات بين عبد العزيز وجيرانه المرتبطين بمعاهدات معها، فكان كل التركيز على الحدود الشرقية لممتلكات عبد العزيز.

استمرت حكومة الهند البريطانية فى توطيد علاقاتها مع عبد العزيز من خلال المبعوثين، واستطاعت بذلك أن تمنع من اتساع ممتلكاته على حساب الإمارات العربية فى

---

(١) F. O. 371/3390: Ibid.

(٢) F. O. 371/3390: Ibid.

الخليج[١]، كما حالت دون مد سيطرته على شيوخ الساحل، وذلك بتشديد السيطرة البريطانية عليهم[٢]، فهى فى الواقع تريد الحيلولة دون وضع عبد العزيز فى مركز يمكنه من قلب ميزان القوى فى الجزيرة العربية، لحد عدم تزويده بالأسلحة إلاَّ بالنَّذْرِ اليسير[٣].

كانت وجهة النظر البريطانية تربط ما بين تنامى قوة عبد العزيز من ناحية، وإخضاعها لساحل الخليج العربى من ناحية أخرى، ذلك أن قوة وسط شبه الجزيرة العربية بقيادته من شأنها أن تحل العديد من المصاعب، وتجعل الإمارات الساحلية أكثر اعتماداً على بريطانيا عمَّا هى عليه، فيرى الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين أن الكويت والبحرين والساحل المتصالح وعمان سوف تعيش فى رعب إزاء جارها القوى، ومن ثم يسهل قيادته اتبعًا لرغبات الحكومة البريطانية، ولاسيما أنه فى أعقاب الحرب الكبرى الأولى أخذت تلك الإمارات الساحلية تردد أيضًا الأحاديث عن حقوق الأُمَم الصغيرة، لذا فإن مثل هذه الأقاويل ستذهب أدراج الرياح، وسيكونون هم أول الصائحين إذا تهددهم جارهم القوى.

فلا غرابة أن تلك الإمارات الساحلية سوف ترحب دائمًا أكثر من أى شىء بالحرب غير الحاسمة والمدمرة بين عبد العزيز وابن الرشيد، لذلك فإنه إذا أصبح عبد العزيز يمثل القوى جميعًا فى الجزيرة العربية، فمن المأمول لبريطانيا ازدياد نفوذها بقوة بين الإمارات الساحلية. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن معظم تلك الإمارات لديها طموحات لزيادة أراضيها على حساب الداخل. فعلى سبيل المثال كان الشيخ عبد الله بن عيسى يرنو ببصره للسيطرة على الأحساء وقطر بمساعدة بريطانيا. غير أن هذه الأخيرة لم تشأ الاعتراض على دفع البحرين لـ ٥٠٠٠ جنيه إنجليزى لعبد العزيز شهريًا (كزكاة) ـ مما يعنى تأييد بريطانيا له، وموافقتها على هذا الالتزام، إذ أنها كانت حريصة على ألاَّ تضايق هذه الإمارات عبد العزيز تحت ستار الحماية البريطانية لها[٤].

من الملاحظ إطلالة للنفوذ السعودى فى البحرين ابتداء من عام ١٩٢٢م، خاصة فى

---

(١) جمال قاسم: المرجع السابق ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق ص ٤٢.

(٣) F. O. 371/3389: Decyrher 51. Sir Wingett to Foreign Office. Cairo. 7 Jan. 1918.

(٤) B. 349 Arabia: Political situation in Nejd Memorandum by political Agent, Bahrain, 12 th August 1920.

ظل وجود قلاقل قبلية ضد الشيخ عيسى، ونشاط ملموس من قبل وكيل عبد العزيز فى البحرين ـ القصيبى ـ الذى كان يرعى أيضًا أولئك الدواسر النجديين هناك، والذين فتح لهم عبد العزيز «القطيف» للجوء إليها عقب الاضطرابات التى نشبت فى عام ١٩٢٣م فى سوق المنامة بين الشيعة والسنة، الأمر الذى اضطر معه عبد العزيز إلى القدوم إلى «الهفوف» ليراقب عن كثب تطورات الأحداث(١). لكن بريطانيا كان عليها إما التحلى بالصبر وإما التوسط بين عبد العزيز والقوى الحليفة لها على الساحل إذا ما شجر أى خلاف. ففى هذه المرة أراد المقيم البريطانى فى الخليج ـ الكولونيل تريفور ـ تذكير عبد العزيز بالمادة السادسة من معاهدة ١٩١٥م، التى تنص على عدم مداخلته فى الشئون الداخلية للإمارات العربية على الخليج، ومن بينها البحرين، مُطالبًا أن يعمل كل ما فى وسعه بألاَّ يسىء الدواسر استخدام الدمَّام كقاعدة للإغارة على البحرين، وأن من الأوفق إسكانهم فى الجبيل، وإذا كان ذلك قد تم بصفة وقتية، فالملاحظ أنهم عادوا مرة أخرى إلى البحرين، واستردوا بعض ممتلكاتهم فى المنامة والبِدْع(٢).

كذلك كان الحال بالنسبة إلى قطر، إذ كانت ضمن الأراضى التى حاول ضمها داخل أرضيه، برغم أن إنجلترا كانت تعتبرها دولة حدود عازلة بين المناطق التالية لعبد العزيز ومنطقة البحرين، إذ أدخلتها فى حيز المشيخات المتصالحة فى نوفمبر ١٩١٦م(٣). فاعتناق أهل قطر للسلفية بالإضافة إلى المنازعات التقليدية بين قطر والبحرين جعل شيوخ قطر ينظرون إلى عبد العزيز على أنه حامٍ لهم(٤)، فلا غرابة أن أدخل عبد العزيز «قطر» فى امتياز النفط للشركة الشرقية والعامة فى عام ١٩٢٢م، ما كان مثار اعتراض من قبل «السير كوكس»، فى مؤتمر العقير فى العام نفسه، إذ كان من رأيه أنه لابد من أخذ رأى الحكومة البريطانية بصدد ذلك، على أساس أن «قطر» منفصلة عن الأراضى السعودية بخط يمتد بين سلوى وخور العديد، ولو أن ذلك لم يمنع من أن يتلقى عبد العزيز الزكاة السنوية المعتادة التى كانت تُعَدُّ دلالة على التبعية(٥).

(١) جمال قاسم: المرجع السابق ص ٢٢٥ – ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ – ٢٣٢.
(٣) عبد العزيز عبد الغنى: المرجع السابق ص ١٩٦.
(٤) المرجع السابق ص ٤٢.
(٥) المرجع السابق ص ٢٧٨.

أيضًا حينما أراد عبد العزيز إنعاش موانيه فى الجبيل والقطيف والعقير عن طريق حمل رعاياه على الاكتيال والانصراف عن المسابلة من موانىء الكويت، لحرصه على توفير عائد جمركى، ولاسيما أن الكويت كان المستفيد الوحيد من مرور التجارة إلى «نجد» فلم تستطع بريطانيا فرض أى حل، فكلا الجانبين يرتبط معهما بمعاهدة، ثم إن الكويت رفضت عقد اتفاق يقضى بالمناصفة على العائد الجمركى بين البلدين، وذلك على الرغم من ظهور اتجاهات من بعض تجار الكويت لإجابة مطلب عبد العزيز، حتى يستمر الاتصال والتعامل التجارى بين البلدين مما اضطر عبد العزيز لفرض ضريبة على سفن الغوص الكويتية التى كانت تأتى إلى موانيه فى الأحساء خلال مواسم الغوص على اللؤلؤ، فزادت تبعاً لذلك إيرادات جمارك الأحساء إلى عشرة أضعافها، ولم يحسم الخلاف إلا فى الأربعينيات، بناء على توسط بريطانيا من خلال محادثات مطولة[(١)].

وإذا كانت مشيخات الساحل تقوم أيضًا بتأدية الزكاة إليه دلالة على الولاء، فإن بعض المشايخ من بنى نعيم، وبين ياس، وبنى قتب، امتنعوا فى عام ١٩٢٥م عن تأدية هذه الزكاة، فأرسل عبد الله بن جلوى تهديدًا إلى شيخ أبى ظبى، إذ كان لايريد أن يخسر ولاءات الشارقة ورأس الخيمة، كما لايريد أن يخسر ولاءات بعض القبائل، مثل آل شميس ـ وهم فرع من النعيم ـ بحكم أنهم سلفيون[(٢)].

على العموم لقد فرض عبد العزيز وجوده على الساحة، وامتازت الفترة الأولى من بداية إطلالته الخاطفة على الأحساء فى عام ١٩٠٥م تحتى استرداده لها فى عام ١٩١٣م بتنامى قوته التى جعلت الدولة العثمانية فى حاجة إلى احتوائه، فى حين نجد أن بريطانيا التى نأت كثيرًا عن التعامل معه وعدم التورط فى شئون وسط الجزيرة العربية انقلب مفهومها رأسًا على عقب فى الفترة الثانية، مع إرهاصات الحرب الكبرى الأولى، ليتسع مفهومها فى السلام البحرى للخليج ليشمل الظهير الداخلى بما أسمته السلام البرى. فلقد أدركت بما لايدع مجالا للشك أن اكتساب تحالف مع عبد العزيز سيحقق لها غايتين هما:

الغاية الأولى:

أن يلتزم بعدم الاعتداء على حلفائها فى الخليج.

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر نفس المرجع ص ١٠٦ - ١٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

الغاية الثانية:

ازدياد تمسك هؤلاء الحلفاء بالوجود البريطاني، إذ أن تعاظم قوته من شأنه أن يذيب إمارتهم في كيان دولته، وهو أمل كان يراود عبد العزيز كثيرًا في تحقيقه، واضطر إلى الوقوف عند حد أَخْذِ «الزكاة» منهم كدلالة على الولاء والتبعية، والتي فضلت بريطانيا استمرارها كمظهر مادي، على عكس عبد العزيز الذي كان ينظر إليها كمظهر سياسي.

كذلك كان التأثير السلفي في أجزاء كثيرة من الساحل الخليجي يشكل مظهرًا آخر من مظاهر الولاء، مما كان لايرضي بأن حال بريطانيا، لأنه يعني ازدياد النفوذ السعودي، فكان عليها ضبط العلاقات السعودية مع هذه القوى الحليفة لها، ولو أنه في كثير من الأوقات كانت لا تقيده هذه الالتزامات، من منطلق حرصه على ألاَّ يفقد الصلة بهذه المناطق التي كانت مجالاً للنفوذ من قبل أسلافه.

* * *

الخاتمة

والآن نخلص إلى القول بأن سياسة عبد العزيز آل سعود قد نجحت تماماً فى تدعيم موقفها الأخوى الصادق تجاه منطقة الخليج، وأن تخطو خطوة مهمة فى سبيل دعم رؤساء القبائل والمشايخ فى تلك الجهة، لتأكيد التعاون، ونشر أولوية الوفاق والوحدة، الأمر الذى أدى إلى ترسيخ دعائم الوحدة والمحبة بين الزعماء والمشائخ على ساحل الخليج وبين عبد العزيز آل سعود الذى نشر نفوذه وسيطرته بصورة واسعة، بعد أن نجح نجاحاً كبيراً فى القضاء على خصومه وأعدائه فى الداخل، ما جعل السياسة البريطانية تفكر فى كسبه إلى جانبها تجاه المتغيرات الدولية التى طرأت على المنطقة إقليمياً ودولياً، فأصبحت بريطانيا تعجب بصلابة عبد العزيز وبفكره الثاقب، خاصة بعد أن انضمت إليه القبائل العربية فى أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية، لحنكته السياسية، وقيادته الواعية، ونهجه الإسلامى القويم، ولتدبيره للأمور بحكمة واقتدار.

ومما تقدم نلاحظ أن بريطانيا التى كانت تحاول إبعاد عبد العزيز آل سعود عن منطقة الخليج لتكون منطقة نفوذ خالصة لها، نراها الآن ـ برغم أنها كانت تخشى قوته وشدة بأسه ـ تعمل جاهدة لكسب صداقته والتقرب منه. وكان موقف عبد العزيز من ذلك أنه يريد أن يستفيد من المواقف الجارية، ويحاول استغلال تلك المواقف بحنكة وحكمة، وبرغم أنه وافق على صداقة بريطانيا فى تلك الأثناء، وهو ما عُرف باسم «سياسة الوفاق والتراضى»، فإن ذلك كان براعة منه وسياسة حكيمة، لأنه فى تلك الأثناء كان يريد أن تكتمل دعائم دولته لمواجهة أعدائه المتربصين له بالداخل، وفى نفس الوقت كان يهدف إلى تقوية موقفه فى منطقة الخليج، وكسب كل مشايخ المنطقة إلى صفه لتأكيد التعاون العربى، وترسيخ أسس الوحدة العربية والأخوة الإسلامية فى ظل إيمان القبائل العربية وزعمائها بقيادته، وإيمانها الراسخ بإخلاص نواياه وأهدافه ومراميه التى ترمى إلى

التماسك والتآلف، الأمر الذى جعل عبد العزيز آل سعود يعمل فى ظل تلك الروح على إبعاد النفوذ الأجنبى بالطرق الحكيمة والوسائل التدريجية، ذلك أن طريقًا يسلكه غير هذا الطريق سيؤدى إلى زعزعة الأمن والاستقرار فى المنطقة، ويقود إلى التفرقة والشتات، ويؤدى إلى التفكك والحرب والتمزق، لذلك وفى ظل تلك الظروف الحرجة ظل عبد العزيز يقود السفينة بحذر وحكمة وتؤده، وبقوة إرادة ومضاء عزيمة، قدماً نحو تحقيق سياسته الرامية إلى جمع الكلمة العربية، وتوحيد الصف، وتقوية علاقاته مع زعماء القبائل ومشايخ الخليج، لاعتقاده الراسخ أن ذلك التعاون سيقود فى النهاية إلى تحقيق آمال الأمة فى الاستقلال والوحدة، وسيقضى فى النهاية على الهيمنة الأجنبية والسيطرة البريطانية بطريقة واعية وهادئة، وفى نفس الوقت سيتمكن من خلال ذلك من تحقيق أهدافه بالقضاء على خصومه وأعدائه، وهو مانجح فيه تماماً عندما اكتمل بناء دولته بقيام المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٤م.

* * *

Inclosure in No. 6.

Colonel Surtees to Sir N. O'Conor.

(No. 36.)

Sir, *Constantinople, July 1, 1906.*

I HAVE the honour to request that you will be so good as to forward, for the information of the military authorities, the following résumé of the actual military and political condition of affairs in the Yemen:—

At the death of the Imam, Mohammed-el-Din, of the family of the Zeiditi, in 1904, two candidates for the Imamship appeared on the scene, viz., Yahya Hamid-el-Din, the son of the above-mentioned Imam, and Said Mohammed-el-Haschim-el-Dajani, the latter being a man of some 60 years of age, capable, educated, and Chief of the tribe of Dajan, which is located in the Sa'ada country.

The chief tribes of the Yemen, however, chose as Imam Yahya, who on the death of his father assumed the additional name of Hamid-el-Din (but is known by the Turks as Mohammed Yahya), and marched against Said Mohammed-el-Haschim-el-Dajani, conquered him, and compelled him to relinquish his claim to collect taxes from neighbouring tribes.

When Marshal Feizi Pasha in last September retook Sana'a, Mohammed-el-Dajani rebelled against the Imam, hoping that the Turks would reward him by nominating him Imam of the Yemen.

Several fights took place between the partisans of the Imam and of Mohammed-el-Dajani, finally resulting in the advantage of the latter. These hostilities were frequently interrupted by intrigues conducted by both parties against the Turks, and also by intrigues between the Turks and El Dajani against the Imam.

It seems that Yahya wrote a long letter to El Dajani exhorting him to come to terms and to operate jointly with him against the Turk, their natural enemy; but the Imam of Sa'ada (El Dajani) rejected the offer, refusing to admit a rival in the Imamship, arguing that it was not hereditary, but should be held by a member of the Zeiditi who was over 40 years of age (a condition unfulfilled by Yahya), and that the Imam should not only be the most learned in the doctrines of Islam, but also the most valiant in war. Moreover, El Dajani challenged his rival to a theological dispute, undertaking to recognize Yahya's authority should it be decided that the latter had vanquished him.

Yahya did not accept these proposals. El Dajani then developed a conciliatory attitude towards the Turkish Government, and applied for a small pecuniary subsidy and some munitions of war, promising if such were granted to fight against Yahya. This offer was submitted to Constantinople for the decision of the Sultan, by whom it was not unfavourably received, since a *modus vivendi* with Yahya appeared impossible, not only because of his unconciliatory demeanour, but because of the unbending attitude of the Zeiditis, who do not recognize in the Sultan the Commander of the Faithful, alleging that this title is vested in the Zeid Arabs, who are descended from the Prophet, whereas the Sultan is a Turk and not an Arab. On the other hand, to arrive at an arrangement with El Dajani did not appear to present insuperable difficulties, since the latter did not aspire as Yahya did to the Caliphate.

It seems that the Sultan's reply—characteristic of the usual yielding diplomacy, which trusts no one—was received about a month since by the Yemen authorities, and was to the effect that the pecuniary subsidy could be granted if the Yemen authorities considered it advisable, but that the request for arms could not be acceded to, as, if El Dajani should be victorious against Yahya, there was no guarantee that he would not appear at the head of the Zeiditi in arms against the Imperial troops.

Meanwhile, the whole country continues to be in a state of anarchy. The highland Arabs are at present occupied in agricultural pursuits (the harvest is reported to be abundant) and are tranquil, but the struggle will shortly recommence.

The military situation shows no sign of improvement. Feizi Pasha is still at Sana'a, but with the scant forces available is unable to undertake any expedition, whilst discipline deteriorates and mutinous acts are prevalent.

About the middle of last month some Redif companies of the garrison of Imran left their post and marched to Sana'a, where they clamorously urged their claim to be discharged as some of their comrades at Sana'a had been.

Feizi Pasha caused these men to be paraded and addressed them, requiring them to return to their duty, but many refused to listen to him, and spread themselves over the city. Shortly after this the Pasha received information that the mutineers intended

to force one of the town gates of Sana'a by night and to march out thence to Hodeida, where they hoped to obtain possession of a ship and set sail from the Yemen.

The Marshal thereupon concentrated some reliable troops with artillery near the gate, and when the column of mutineers approached, opened fire. Many were killed, the remainder being made prisoners, and eventually distributed amongst the loyal battalions; only a very few contrived to escape, and these have probably joined Yahya.

It would seem that the Porte has decided to gradually withdraw from the Yemen all the remaining Redif battalions, and to send only recruits as reinforcements; 17,000 are required.

Information received from Smyrna states that these are to be supplied from this year's levy, from which only the most robust are chosen, and a proportion of two-thirds of those presenting themselves at Smyrna are destined for the Yemen.

I have, &c.
(Signed) H. CONYERS SURTEES, *Colonel, Military Attaché.*

[23214] No. 7.

Sir N. O'Conor to Sir Edward Grey.—(Received July 9.)

(No. 449.)
Sir, *Constantinople, July 3, 1906.*

WITH reference to my despatch No. 400, Confidential, of the 11th ultimo, I have the honour to forward herewith a despatch from His Majesty's Acting Consul at Jeddah, respecting the state of affairs in the Nejd and Bin Saood.

I have, &c.
(Signed) N. R. O'CONOR.

Inclosure in No. 7.

Acting Consul Mohammed Hussein to Sir N. O'Conor.

(No. 34.)
Sir, *Jeddah, June 19, 1906.*

I HAVE the honour to report that news has come here that Bin Saood has lately given orders to all the Arab Sheikhs and tribes in Nejd to desist from keeping communication with the Turkish officials and troops, and to stop carrying their mails and supplies, under a threat of severe punishment if his orders were not complied with.

The Sheikhs of tribes who were till now helping the Turks in Nejd have informed the military officers who are with the Turkish troops there that they will have nothing to do with them in future, and that they will not carry their mails and supplies.

This information was sent by the officer in command of the Turkish troops in Nejd to Medina, and was telegraphed to Constantinople, wherefrom order has been given to the Military Mutessarif, who is still in Medina, to march with 600 troops and two guns to the help of the Turkish troops now in Nejd, and take the necessary steps to keep the lines of communication open.

It is also reported that the son of Bin Rashid has also gone out to attack Bin Saood, and has asked the Turkish troops to co-operate with him.

I have, &c.
(Signed) MOHAMMED HUSSEIN.

[23435] No. 8.

India Office to Foreign Office.—(Received July 10.)

THE Under-Secretary of State for India presents his compliments to the Under-Secretary of State for Foreign Affairs, and, by direction of Mr. Secretary Morley, forwards herewith, for the information of the Secretary of State, copy of (1) Secret

line. Government of Bombay therefore recommend that either (1) Resident at Aden should first address Mutessarif of Taiz; or (2) a formal representation regarding violation of frontier involved in levy of these dues at Al Doka should be made to Porte. We propose to authorize former alternative subject to your approval.

Inclosure 2 in No. 23.

Mr. Morley to Government of India.

(Telegraphic.) P *India Office, May 2, 1906.*

AFFAIRS in Aden hinterland. Your telegram dated the 25th April.

Before any communication is made to the Turkish authorities I should like to consider the papers and to receive your opinion on the question whether the dispute is such as to require our intervention. It is possible that matter, which seems to be one of local interest, may involve no international complications. At present I am not sufficiently informed as to the nature or mode of collection of the dues collected on behalf of the Mudir of Mafalis.

[16699] No. 24.

Treasury to Foreign Office.—(Received May 15.)

Sir, *Treasury Chambers, May 14, 1906.*

I AM directed by the Lords Commissioners of His Majesty's Treasury to acknowledge the receipt of your letter of the 18th ultimo, transmitting a copy of the India Office letter of the 3rd ultimo with reference to the provision of a steam-launch for the use of the Political Agent at Koweit.

In the absence of any recommendation from Secretary Sir Edward Grey, my Lords assume that the India Office proposal has not received his concurrence.

I am, &c.
(Signed) G. H. MURRAY.

[17038] No. 25.

India Office to Foreign Office.—(Received May 18.)

THE Under-Secretary of State for India presents his compliments to the Under-Secretary of State for Foreign Affairs, and, by direction of Mr. Secretary Morley, forwards herewith, for the information of the Secretary of State, copy of inclosures in a letter from the Foreign Secretary to the Government of India, dated the 26th April, relative to affairs at Koweit.

India Office, May 17, 1906.

Inclosure 1 in No. 25.

Major Cox to Government of India.

(Confidential.) *Bushire, March 18, 1906.*

HAVING spent three days at Koweit during last week, I have the honour to submit, for the information of Government, a few observations regarding the present aspect of affairs there.

I met Sheikh Mubarak on three occasions, and on the 7th instant had a lengthy interview with him at the Agency, for the details of which I beg reference to the attached Memorandum drawn up for me by Captain Knox, who was likewise present.

It will be seen that during it several topics were touched upon, some of which are subjects of separate correspondence.

2. The trend of our conversation regarding the affairs of Central Arabia, which was started by Sheikh Mubarak, is of some significance. The possibility of the Ruler of Koweit smoking the calumet of peace with Bin Rashid, and Mubarak's own vision—

of a three-cornered compact between himself, Bin Rashid, and Bin Saood, which would in practice probably be found to amount to a defensive alliance for resistance to Turkish expansion in Nejd and Hassa, is an interesting, if somewhat utopian, prospect to contemplate.

It is to be feared, however, that Sheikh Mubarak's own ambitions, as indicated in the second of the conditions suggested by him to Bin Rashid, are likely to form the chief obstacle to such a development.

On the other hand, there is no doubt that in the course of the strife of the last few years both Bin Saood and Bin Rashid must have been brought to realize what a strong position the Ruler of Koweit, territorially situated as he is, occupies both strategically and politically in relation to them, and they evidently see the advantage of maintaining friendly relations with him.

In connection with Bin Saood's doings, I may remark it is possible that his recent telegram to the Porte was sent to disarm suspicion preparatory to some further move, as recent reports from Bahrein show that the Turks are now having trouble at Hofuf, in which it seems possible, if not probable, that Bin Saood has had an indirect hand.

3. As for Sheikh Mubarak's attitude towards ourselves, I do not consider that on the whole it gives any present cause for dissatisfaction or anxiety; rather the contrary. As long as the practical expression of his sentiments in regard to us undergoes no change, the improvement of the relations between Mubarak and the Turkish authorities at Bussorah, within reasonable limits, is rather a convenience to us than otherwise. The Shiekh's treatment of our Agent, and his invariable demeanour towards myself, could not be more satisfactory and sensible than it is. He has always treated Captain Knox exceedingly well; more so than ever lately, and it is a matter of satisfaction to me as it will, I am sure, be to Government that our Representative seems clearly to have gained Sheikh Mubarak's personal regard, and that he is visited freely in a friendly way by many of the Sheikh's subjects. He is thus making useful influence of a kind which seems to be all we require at present and which we can legitimately cultivate.

It is only in regard to the Arms question that the position at the present moment leaves much to be desired, and this is partly owing to the fact that the general question of the Gulf arms traffic is *sub judice*. I do not know quite what line to take with the Sheikh in the event of our having an exhaustive change of views in this connection, and until I am sure of our intentions it seems better for me to keep off the subject and avoid any specific discussion with him.

4. The question of the conveyance of the Turkish postal bag to Al Hassa, of which a good deal has been said, has, I think, been somewhat misunderstood, and I concur with the Political Agent in thinking that there is nothing in the existing working arrangement which need cause us to take exception to, or be exercised by, Sheikh Mubarak's connection with it.

Inclosure 2 in No. 25.

Note of a Conversation between the Resident in the Persian Gulf and Sheikh Mubarak of Koweit, dated March 7, 1906.

ON the 7th March, 1906, at 4 P.M., the Sheikh of Koweit returned the informal visit paid by the Resident on the previous day.

The present interview lasted about an hour and a-half, and Sheikh Mubarak was friendly and cordial as usual.

The Sheikh informed the Resident that he thought he would be interested to hear that he had lately, on the 24th February (29th Zi-ul-Haj), received a letter from Bin Rashid, couched in friendly language and proposing that Sheikh Mubarak should be on the same terms of friendship with him as the Rulers of Koweit had been with his uncle and grandfather before him. The Sheikh said that he had replied to Bin Rashid that he, Mubarak, was a man who loved peace and quietness, and would welcome friendly relations with him, provided that Bin Rashid would keep within his own boundaries and not harass his neighbours, and was really sincere in his desire for peace.

The Resident, in the way of friendly interest, asked how peace could be arranged between the two; whether a personal meeting would be necessary or whether trusted messengers would be sent.

The Sheikh replied that it would be done by correspondence, and that a meeting

would be unnecessary. He proceeded to sketch the terms on which, in his opinion, a reconciliation between him and Bin Rashid could be considered practicable.

These were :—

1. That Bin Rashid should have Chhaffa (Kaffa) and Hail, and the Bedouins of Jebel Shammar.

2. That he, Bin Sabah, should have Koweit, Aneyza, Boreyda, Sedeyr, and Washm, and should control the tribes occupying them.

3. That Bin Saood should have Nejd and the Wadi Dowasir.

The Resident asked if Sheikh Mubarak thought that he would be able to keep the parties to their agreement with himself and with one another; and the Sheikh replied that he could.

The Resident then asked whether, under such circumstances, Bin Rashid would have sufficient income to enable him to live without harrying his neighbours, and Sheikh Mubarak replied that he would have Hail and Chhaffa, the Zakat of Shammar, and the produce of forays on the Harb and Aneyza tribes between Hail and Medina.

Asked what view the Turks would, in his opinion, take of this triple alliance, Sheikh Mubarak replied that they would undoubtedly regard it with disfavour.

The Resident then asked whether the relations between Sheikh Mubarak and Bin Saood continued the same as formerly; to which Sheikh Mubarak replied that they did, and that Bin Saood still listened to his advice. Major Cox then thanked the Sheikh for his co-operation in ascertaining the truth regarding Bin Saood's alleged intention to visit Oman.

Mubarak rejoined that Seyyid Feisal of Muscat had also written to him, and that he had told his Highness that there was no cause for apprehension, and that Bin Saood had quite enough to do where he was for some time to come.

A reference was then made to the long telegram sent from Bushire to Constantinople through Jasim-bin-Thani on behalf of Bin Saood. Sheikh Mubarak was asked what inference he drew from the fact that Bin Saood had not consulted him before, and regarding its dispatch. The Sheikh said that he had received full details from Bin Saood's messenger, Massad-bin-Suwailim, who sent the telegram, but admitted that he had heard nothing on the subject direct from the Bin Saood family or from Abd-ur-Rahman. He thought this was because the telegram had been inspired by Sheikh Jasim-bin-Thani, of whom he spoke in no very favourable terms.

Sheikh Mubarak next mentioned that Nasir-bin-Mubarak of the El Khalifah family had just been paying him one of his periodical visits and had only left a couple of days before. He continued that Nasir had told him of his meeting with Captain Prideaux, and had gone on to ask him (Sheikh Mubarak) to put in a good word for him to the Resident, with a view to a reconciliation being effected between himself and Sheikh Esa.

Sheikh Mubarak agreed with the Resident in thinking that Sheikh Esa would resent any overtures on behalf of Nasir Mubarak, and that it would be difficult to alter the latter's circumstances during Sheikh Esa's lifetime.

The Resident then introduced the topic of the flag and ships' articles to be carried by Koweit vessels.

It may be mentioned here that the Resident had brought with him a specimen flag of the pattern previously selected by Sheikh Mubarak with the addition of the word "Koweit" in Roman letters as well as Arabic.

The "Articles" were read over to the Sheikh, and it was explained that it was proposed that the English translation should be verified by the signature of the Political Agent, and this the Sheikh considered would be an advantage. Sheikh Mubarak approved of the "Articles" with the exception of the item "Name of Nakhoda." To this he objected, as the Nakhodas were always changing.

The Sheikh then inspected the flag, and after doing so said that he would lay before the Resident what appeared to him the objections to the use of the flag as now shown him, and that then, if the Resident did not consider the objections of any weight, he would be prepared to order his subjects to adopt the new pattern.

The Sheikh then explained his objections at some length. He recited his grievances against the Turks and their oppression in the matter of his Fao date gardens and their ingratitude for all he had done in their behalf. He clearly showed that he considered that all the trouble he experienced at their hands was due to his friendly attitude towards the British Government.

He said in conclusion that he would accept the flag as it stood if we would give him

a written guarantee to protect him against any consequences that might arise to him from its use.

It proved, on further inquiry, that it was the addition of the English characters to which he objected. The reason for this addition was thoroughly explained to him, but the explanation did not remove his objections, and he was therefore told that the European lettering was only a useful addition and not an essential, and he then expressed himself as quite ready to adopt the flag, without the English letters, and combined with the "Articles," for use by his subjects.

Sheikh Mubarak next informed the Resident that Bin Rashid had sent a messenger to Meshed Ali, who had laid hands on all the money belonging to Yusuf-bin-Brahim in that place.

Sheikh Mubarak then went on to explain that he too had claims against the house of Bin Brahim; that account books, in Arab merchants' dealings, were the only evidence, and that the deposits belonging to himself in the hands of Abdul Aziz-bin-Brahim, the present Representative, amounted to 1,30,000 rupees, and that the advances against him were 70,000 rupees, showing a balance of 60,000 rupees in his favour.

He said that Abdul Aziz at present resided at Surat, in the Bombay Presidency, and would certainly contest the claim, and that he (Sheikh Mubarak) would be glad of assistance from the Resident to enable him to obtain a settlement of the accounts and the payment of the balance due to him. He said he would be glad to appoint an Agent who would take the account book to Bombay for examination.

In this connection Sheikh Mubarak seemed to be only putting forward a feeler and did not make any definite proposals.

In conclusion, the Resident asked Sheikh Mubarak whether he could inform Government that his affairs generally were, as they seemed to be, in a satisfactory and prosperous condition. Mubarak replied that they were. Asked, "as regards the Turkish authorities?" he rejoined "yes, just at present they are satisfactory, but it costs me £ T. 1,500 a-year in douceurs to their officials to maintain that position."

The Sheikh then expressed his gratitude for the amount of British protection received; declared that the peace and rest he now enjoyed were, he knew, the result of British support; and that he desired no other or better protectors. He concluded by referring to the pleasant relations which existed between himself and the British Representative.

[17040] No. 26.

India Office to Foreign Office.—(Received May 18.)

THE Under-Secretary of State for India presents his compliments to the Under-Secretary of State for Foreign Affairs, and, by direction of Mr. Secretary Morley, forwards herewith, for the information of the Secretary of State, copy of inclosures in a letter from the Foreign Secretary to the Government of India, dated the 12th ultimo, relative to the Political Officer at Dthala.

India Office, May 17, 1906.

Inclosure 1 in No. 26.

Government of Bombay to Government of India.

Sir, *Bombay Castle, March 19, 1906.*

WITH reference to paragraph 2 of Mr. Holland's letter dated the 8th February, 1906, I am directed to state that the Bombay Government have adopted the suggestion made in paragraph 2, and have gazetted the Political Officer at Dthala as a Political Agent.

2. I am to request that the necessary orders may issue to the Inspector-General of Ordnance, Southern Circle, to meet his indents for flags.

I have, &c.
(Signed) E. W. EDGERLEY.

[6662] No. 31.

India Office to Foreign Office.—(Received February 24.)

Sir, *India Office, February 22, 1906.*

WITH reference to my letter of the 29th April, 1904, as to the affairs of Nejd, I am directed by Mr. Secretary Morley to inclose, to be laid before the Secretary of State for Foreign Affairs, copy of a further Secret letter from the Government of India on the subject of a visit which the Wahabi Amir Abdul Aziz-bin-Saood is reported to be intending to make to the Pirate Coast and Muscat in the coming spring.

It will be observed that on the 5th December, 1905, the Government of India authorized inquiries being made of the Sheikh of Koweit as to Bin Saood's intentions, but that the result has not yet been reported. In the meanwhile, the Government of India, in view of the serious consequences which would ensue if Bin Saood should succeed in establishing his ascendency over the Trucial Chiefs or the Sultan of Muscat, suggest that he should be approached, either through the Sheikh of Koweit or the Sultan of Muscat or other suitable channel, with a view to ascertaining whether he is prepared to stand by the Declaration * of his predecessor not to oppose or injure British subjects residing in his territories, and not to interfere with the Arab tribes in alliance with the British Government. In regard to this I am to observe that the Declaration made in 1866 was not proposed, or even formally accepted, by the British Government, and it contained a reference to the claim of the Wahabis upon the customs of Muscat. The Government of India further suggest that, in the event of Bin Saood's failing to give the necessary assurance, he should be warned that any attempt on his part to interfere in Oman or on the Pirate Coast would be regarded as an unfriendly act, and that suitable measures would be taken to frustrate it. These measures, in the opinion of the Government of India, might consist either of a more stringent embargo on the import of arms at Koweit and elsewhere, or, in the case of necessity, of actual armed assistance from British ships to the Sheikhs threatened.

The serious consequences which might arise from the re-establishment by Bin Saood of the Wahabi dynasty throughout the centre of Arabia were referred to in the despatch from His Majesty's Ambassador at Constantinople, No. 373 of the 16th May, 1904, and the question is further complicated if, as appears to be the case, Bin Saood has been recognized by the Turkish Government and has acknowledged the suzerainty of the Sultan. It will be observed that the Government of India consider that it would be useless and undesirable to bring pressure to bear on Bin Saood through the Turkish authorities.

So far as Muscat is concerned, I am to observe that the French Government is, conjointly with the British Government, interested in its independence, and in the event of interference by the Wahabis with the Trucial Chiefs the measures proposed by the Government of India might not be effective. For instance, such control as we may be able to exercise over the importation of arms into Arabia is limited to arms imported by British subjects. The questions raised by the Government of India are thus complicated, and in view of our desire to refrain from any entanglements with the Rulers of Nejd, it seems desirable to take no steps, in the absence of any urgent necessity caused by Wahabi action, until His Majesty's Ambassador at Constantinople has been consulted on the proposal to approach Bin Saood otherwise than through the Turkish authorities.

The suggestion of the Government of India that in the event of Bin Saood's failing to give satisfactory assurances a more stringent embargo should be placed upon the traffic in arms appears to raise a further difficulty by conveying the implication that, in the contrary event, the Government of India would be prepared to acquiesce in the import of arms by the Sheikh of Koweit. Mr. Morley is aware that in June 1904 † it was decided to defer measures which were then under consideration for preventing the import of arms into Koweit. He would, however, be reluctant to approve any permanent departure from the established policy of His Majesty's Government of maintaining an effective control over the arms traffic in these waters.

I have, &c.

(Signed) A. GODLEY.

---

* See Declaration of the Wahabi Amir, dated the 21st April, 1866 (Aitchison's Treaties, vol. x, p. 116).

† See Sir T. Sanderson's letter of the 21st June, 1904.

Inclosure 1 in No. 31.

Government of India to Mr. Morley.

(Secret.)

Fort William, January 11, 1906.

Sir,

WE have the honour to forward, for your information, a copy of the correspondence regarding a proposed visit of Abdul Aziz-bin-Abdul Rahman-bin-Saood to the Pirate Coast and Oman, and to invite a reference to the correspondence ending with Mr. Brodrick's Secret despatch, dated the 29th April, 1904, on the subject of our relations with the Wahabi dynasty.

It will be seen that Abdul-bin-Saood, who has been staying in El Katr, has addressed letters to the Trucial Chiefs expressing his intention of visiting their territories in the spring, and that the Chief of Abu Dhabi has conferred personally on the subject with the Sultan of Muscat, who is much agitated at the idea that the Amir of Nejd may possibly visit Oman. His Highness considers that, should Abdul Aziz make his appearance anywhere on the shores of Oman, it would be the signal for all the Ghaferi tribes to rise against him.

2. Reports from our local officers in the Persian Gulf seem to point to the recent reassertion by the Wahabi dynasty of its former position in Nejd acquiring a permanent character. The cessation of hostilities in Nejd has left Bin Saood free to expand in other directions, and the visit of Sheikh Zaid of Abu Dhabi to Muscat shows that the situation is actually the cause of some anxiety to the Trucial Chiefs, of whom the Sheikh of Abu Dhabi is the most important. We therefore consider it very necessary that a course of action should be concerted at an early date, so that we may be prepared for developments. On being apprised of Bin Saood's intention to visit the Pirate Coast and Oman in the ensuing spring, we directed Major Cox to ascertain the facts from Sheikh Mubarak of Koweit. We desire, however, to point out how very serious to our prestige and influence the consequences might be if Bin Saood should attack the Pirate Coast Chiefs or the Sultan of Muscat, or succeed in extending his influence over them, and how important it is that we should prevent, as far as lies in our power, such a contingency, especially now that the Wahabi Amir has recognized the suzerainty of the Sultan.

3. In our Secret despatch dated the 24th March, 1904, we contemplated the possibility of having to revive the Treaty relations which existed with the Wahabi Amirs in case Bin Saood should succeed in establishing and extending his ascendency. Now that the latter has come into power, and has given out that it is his intention to extend his influence towards Oman and the coast generally, it seems to us desirable to ascertain whether he is prepared to stand by the engagement of his predecessors not to oppose or injure British subjects residing in his territories, and not to interfere with the Arab tribes in alliance with the British Government. His Majesty's Government will no doubt agree with us that it would be both useless and undesirable to bring pressure to bear on Bin Saood through the Turkish authorities, since his proceedings at El Hassa and Nejd, as reported in the recent diaries from the Persian Gulf, indicate that he would not be likely to pay any attention to the remonstrances on their part, while we should be serving Turkish interests by involving ourselves in complications with the Wahabi Amir. We would therefore suggest that, if His Majesty's Government see no objection, this inquiry be made from Bin Saood through Sheikh Mubarak of Koweit or the Sultan of Muscat, or other suitable channel, and that he be warned, in the event of his unwillingness to give the necessary assurances or to declare his intentions as affecting British interests in Oman or along the Arab coast, that any attempt on his part to interfere in that locality, or with the Chiefs and their subjects, would be regarded as an unfriendly act, and that suitable measures would be taken to frustrate it. These might amount, in our opinion, to a more stringent embargo on the import of arms at Koweit and elsewhere on the Arabian coast of the Gulf, or even, in the case of an attack being imminent, to actual armed assistance from British ships to the Sheikhs threatened, as might be necessary.

We have, &c.

(Signed) MINTO.
KITCHENER.
A. T. ARUNDEL.
DENZIL IBBETSON.
H. ERLE RICHARDS.
J. P. HEWETT.
E. N. BAKER.
C. H. SCOTT.

Inclosure 2 in No. 31.

Captain Trevor to Government of India.

Bushire, October 15, 1905.

I HAVE the honour to forward, for the information of the Government of India, translation of the inclosed news-letter which I have received from the Residency Agent, Shargah, reporting, *inter alia*, the movements of the notorious Mohamed Abdul Wahab, of Darein, in Katif district.

Inclosure 3 in No. 31.

Residency Agent, Shargah, to Major Cox.

(Translation.) *Shargah, September* 15, 1905.

ON the 11th Jamadi Thani 1323 (13th August, 1905) the Chief of Debai proceeded to the village of Hatta for the purpose of repairing a spring for irrigation of date-trees, &c. He returned to Debai on the 23rd Jamadi Thani (25th August, 1905), and it appears that he has appointed one of his men, named Abdullah-bin-Bauker, who belongs to the Lariyeh Ajam tribe, to look after the spring.

On the 14th Jamadi Thani (16th August, 1905) Mohamed-bin-Abdul Wahab arrived at Debai by the mail-steamer from Bombay.

When he landed at Debai from the mail steamer the Chief of Debai's *locum tenens* fired a salute of two guns and hoisted his flag on the Government House. This Mohamed-bin-Abdul Wahab is a merchant and deals in pearls, but he is a resident of Darein, in the district of Katif, and a Turkish subject. He visits Bahrein, Katr, and Bombay.

It appears that Mohamed-bin-Abdul Wahab is the bearer of presents sent to all the Chiefs of the (Pirate) Coast from Abu Dhabi to Um-el-Kowein, by a Banin named Nakandas Jowerjin, residing at Bombay.

Every Sheikh has been sent a silver tray, weighing 130 miskals, and one pair of binoculars, and one brocade shawl with a letter. I beg to forward herewith a copy of one of the letters for your information.

Mohamed-bin-Abdul Wahab arrived at Shargah on the 21st Jamadi Thani (23rd August, 1905). The Chief of Shargah fired a salute of two guns and hoisted his flag on the Government House, and entertainments were given in his honour by the Chief of Shargah and some of the inhabitants of that place. He remained at Shargah for three days and handed to the Chief the presents sent with him by Nakandas Banin, adding a small bundle containing silk cloth, abba (cloak), a watch, &c. He then returned to Debai. On embarking on the boat at his departure for Debai, he distributed 500 rupees amongst the servants of the Chief of Shargah.

The Chief of Ajman had sent two dromedaries to Mohamed. He, however, did not accept them, and returned them to the Chief, sending 100 rupees as a present at same time from himself to the Chief. The Chiefs of Shargah and Debai had each sent two dromedaries to Mohamed Abdul Wahab. He accepted them and dispatched them to Bahrein by the mail-steamer.

Mohamed-bin-Abdul Wahab tried to bring about a reconciliation between the Chief of Shargah and his uncle Sheikh Salem-bin-Sultan. The latter, however, did not agree that the reconciliation should be effected through him (Mohamed), saying, "You are a foreigner, and an understanding should be made by one who should (always) be present to see that it is not infringed."

I have heard that a friendship exists between the Headman of Fujeira and Sheikh Salem-bin-Sultan, and that the former has invited the latter to come to Fujeira as his guest and has prepared for him some presents in the shape of dates, &c., and awaits Sheikh Salem's arrival at Fujeira.

It appears that, if no reconciliation is effected between the Chief of Shargah and Sheikh Salem, the latter will join the Headman of Fujeira and Zed-el-Helali, the Head of Shehiyeen, against the Chief of Shargah and take possession of the villages belonging to the latter in the mountainous districts of Ras-el-Kheima and Shargah. But this fact has not become public as yet.

Most of the inhabitants of Shargah and Ras-el-Kheima inwardly desire to be ruled by Sheikh Salem-bin-Sultan. If the latter attacks Ras-el-Kheima and Shargah even

with only 100 men, the townspeople will join him. But Sheikh Salem is an old man and does not like fighting and quarrels, and only desires means of subsistence from the Chief of Shargah; but the Chief does not agree to grant him the same, and I think that, if the case remains in this state, Sheikh Salem will take some measures to involve the Chief in trouble. Mohamed-bin-Abdul Wahab gave Sheikh Salem-bin-Sultan 400 dollars and twenty bags of rice as a present.

Inclosure 4 in No. 31.

Nakandas Jowerjin to the Sheikh.

(Translation.) *15th Jemadi-ul-Awal*, 1323 (*July 19*, 1905).

YOU have of course heard the news of the marriage of (my) son Subbagh. We have sent marriage gifts to some of our friends. As you are one of the most respectable friends of ours, we send you, through Sheikh Mohamed-bin-Abdul Wahab Pasha, a present, viz., a silver tray and a pair of binoculars, which I request you to accept and oblige us.

My son Subbagh sends you salaams.

Inclosure 5 in No. 31.

Extract from the Diary of the Persian Gulf Political Residency for the Week ending October 15, 1905.

Shargah.

13. *October* 5, 1905.—Abdul Aziz-bin-Saood has addressed letters to the Trucial Chiefs in which he announces his visit to El Katr and his having effected reconciliation between the El Murrah, Beni Hajir, and Ajman tribes. He also expresses his intention of visiting the Chief's territories in the spring. He left El Katr and went to the watering-place Azarnookeh.

14. Chief of Abu Dhabi is reported to have sent the letter received by him from Bin Saood to the Sultan of Muscat, and he himself proposes to go to Muscat to confer with His Highness on the subject. The Residency Agent, Shargah, has been instructed to keep a careful watch and report future developments.

Inclosure 6 in No. 31.

Extract from the Diary of the Persian Gulf Political Residency for the Week ending October 22, 1905.

Shargah.

1. *September* 27, 1905.—Sheikh Zaeed-bin-Khalifa, Chief of Abu Dhabi, came to Debai on the 23rd September with a view to endeavouring to effect a reconciliation with his wife, who recently left him and went to live at Debai with her father. The latter is Sultan-bin-Naser Sweidi, whom Sheikh Zaeed has been trying to settle at Zoara (a disputed peninsula between Shargah and Ajman). Sheikh Zaeed's mother was a relative of Sultan-bin-Naser.

2. The Chiefs of Shargah, Ajman, and Um-el-Kowein came to Debai to see Sheikh Zaeed, and matters about which there were disagreements between them were discussed. Sheikh Zaeed asked the Chief of Um-el-Kowein to refrain from entering into any relations with the Bedouins, assuring him that if he was afraid of them he would support him against them. The Chief of Um-el-Kowein, though he inwardly wishes to maintain his relations with the Bedouins, especially the Beni Kutb, has accepted Sheikh Zaeed's advice. The Chiefs then returned to their territories, where they were visited by Sheikh Zaeed later on.

Inclosure 7 in No. 31.

Captain Trevor to Government of India.

Bushire, October 20, 1905.

I HAVE the honour to forward, for the information of the Government of India, a translation of a report which I have received from the Residency Agent at Shargah, together with the inclosures. From the latter it will be seen that Abdul Aziz-bin-Abdul Rahman-bin-Saood visited Katr during the hot weather, and that he proposes to visit the Arab Coast and Oman in the spring. These facts were briefly noted in the Diary of the Persian Gulf Political Residency for the week ending the 15th October, 1905, and it was stated that the Chief of Abu Dhabi proposed to confer with His Highness the Sultan of Muscat on the subject.

2. I have now heard that Sheikh Zaeed-bin-Khalifa duly visited Muscat, and that the Sultan is much agitated at the idea that the Amir of Nejd may possibly visit Oman. His Highness considers that, should Abdul Aziz make his appearance anywhere on the shores of Oman, it would be the signal for all the Ghaferi tribes to rise against him.

3. I think it is unlikely that Bin Saood will endeavour to visit the Pirate Coast and Oman, but the appearance of the Wahabi Amir in this quarter would certainly cause trouble, and I think that steps should be taken to prevent his making any such visit, should it appear later that he seriously contemplates doing so.

I therefore submit this report, with the request that the Government of India will be pleased to favour me with instructions as to what action should be taken should such a contingency arise.

Inclosure 8 in No. 31.

Residency Agent, Shargah, to Major Cox.

(Translation.)

October 5, 1905.

I BEG to forward herewith a copy of a letter from Abdul Aziz-bin-Abdul Rahman, Amir of Nejd, to the Chief of Debai. He has addressed similar letters to the other Chiefs.

Herewith is also inclosed copy of a letter from Khalid-bin-Abdulla-es-Soweidi, residing at Katr, to the Chief of Abu Dhabi, and of the letter from Amer-bin-Shaban, of Beni Hajir, to the Chief of Abu Dhabi. They all contain reports regarding the aforesaid Abdul Aziz-bin-Abdul Rahman.

The Chief of Abu Dhabi has dispatched the letter received by him from Abdul Aziz-bin-Abdul Rahman, to His Highness Syed Fysel, Sultan of Muscat, and intends proceeding to Muscat by the mail-steamer which is due at Debai from Bussorah on the 6th October, 1905. I have learnt from the Chief of Abu Dhabi that he intends to confer with His Highness Syed Fysol regarding the proceedings of Abdul Aziz, Amir of Nejd, who will probably visit the Arab Coast.

Inclosure 9 in No. 31.

Abdul-Aziz-bin-Abdul-Rahman-bin-Saood to the Chief of Debai.

(Translation.)

20th Jemad-es-Sani, 1323 (August 22, 1905).

OUR state is good, by God's grace.—I write to inform you that I came to these parts in consequence of the disagreement which had taken place between the Yam tribe (*i.e.*, Ajman).

I visited Katr, and effected a reconciliation between them, and punished the offenders.

I proposed to stay there to look into certain affairs, but it became too hot—the heat of this country is well known—and I will, if God please, visit these parts without fail when the spring comes. My object in doing so is to look into certain affairs. I thought it desirable to inform you of this.

Hamad-el-Hareibi will furnish you with further particulars.

Inclosure 10 in No. 31.

Khalid-bin-Abdullah-es-Soweidin to Sheikh Zaeed-bin-Khalifa.

(Translation.) *27th Jemad-es-Sani*, 1323 (*August* 29, 1905).

I HAVE received your esteemed letter, and was glad to hear of your welfare. Sheikh Hamadan's letter has been received and gladdened me.

I write to furnish you with the news of Bin Saood and the Bedouins. After his arrival at El Ha-sa, he remained there for several days, and he was given a grand entertainment. He summoned them (the inhabitants) and issued bills on them. No one could reject the bills. He has appointed three Sheikhs at El Hassa for hearing complaints and imprisoning people. The Askers (Turkish soldiers) were obedient to his orders. He made peace between the Bedouins. And Bin Saood will take action against whomsoever found guilty of having committed robberies.

Masyad and Nawleh-bin-Sherim of Al Murreh, Bin Shaban of Beni Hajir, and Mansour-bin-Ghanim of Kheyarin came to him and were reconciled with him. He made peace between them and Ajman and other tribes, and proceeded to a watering-place named Avarnoukeh to-day.

Mansoor-bin-Ghanim came to me, gave me this news, and brought me a complimentary letter from him informing me of this arrangement.

After the peace was made, the representative of Mari (Al Murreh) went to Baccj, and that of Beni Hajir proceeded to Amij.

As regards Ali-bin-Ahmed (El Khalifa of Bahrein), the Christians summoned him to Bushire, and told him either to remain as before, that is to say, as a wicked man (Shaki), or to undergo five years' imprisonment at Muscat. He preferred to undergo imprisonment, and proceeded to Muscat.

Inclosure 11 in No. 31.

Amer-bin-Shaban to the Chief of Abu Dhabi.

(Translation.) [*Undated.*]

I BEG to inform you that I visited Abdul Aziz-bin-Abdul Rahman-bin-Saood and found him to be a highly qualified person like his relatives, or rather superior. I was reconciled to him; and he made peace between me and the Ajmans and others.

By God, O Zaeed! my eyes did not fail to see the trays, tents, house furniture, coffee-pots of Constantinople make, belonging to Bin Rashid (which were with Bin Saood). Your turn has come now.

He said, "O Amer, by God! I will explore the country belonging to my father and grandfather, from Muscat to Jealan."

O Zaeed, I saw that he turned his eyes (towards you). I asked him whether he had a good intention or a bad one. He said he would act upon God's will. I said, "Zaeed is the Imam of the Arab Coast and has relations with your people at Katif and El Hassa, and this fact is not hidden." He said he would do everything properly. He is a man of high account. As to El Hassa, by God! the day he made his entry there, his men took charge of the Local Administration, and he deprived that place of all its valuables.

Inclosure 12 in No. 31.

Extracts from the Diary of the Persian Gulf Political Residency for the Week ending October 7, 1905.

Muscat.

20. SHEIKH ZAEED-BIN-KHALIFA, the Chief of Abu Dhabi, arrived at Muscat on the 18th by steam-ship "Madura," accompanied by his son and Sultan-bin-Dhiyab; His Highness the Sultan, with Saiyid Muhammad-bin-Turki, met him on the steamer.

Inclosure 1 in No. 34.

French Consul, Muscat, to British Consul, Muscat.

Mascate, le 20 *Avril*, 1906.

AFIN de terminer la question de l'application de la sentence arbitrale de La Haye dans l'affaire des boutriers Mascatais Français, et comme conclusion de nos entretiens sur ce sujet, j'ai l'honneur de vous adresser sous ce pli un projet de Règlement élaboré par moi dont je vous serai obligé de vouloir bien transmettre le texte à Londres avec les observations que vous jugerez utiles d'y ajouter. De même serai-je particulièrement heureux de communiquer à Paris tout projet de Règlement similaire que vous voudrez bien m'envoyer.

Nos deux Gouvernements, à l'aide de ces documents, seraient par suite en mesure d'établir un Règlement définitif.

Veuillez, &c.
(Signé) R. LARONCE.

Inclosure 2 in No. 34.

Projet de Règlement concernant l'application de la sentence prononcée par le Tribunal Arbitral de La Haye le 8 Août, 1905.	*Remarks by His Majesty's Consul at Muscat upon the French Consul's plan for applying the sentence of the Court of Arbitration.*
ARTICLE 1. Les sujets du Sultan qui sont autorisés à l'avenir à arborer le pavillon Français sur leurs navires jouissent dans l'Oman du même traitement et des mêmes droits que tous les autres sujets de Sa Hautesse.	
Art. 2. En principe les personnes autorisées à arborer le pavillon Français sur leurs navires sont celles dont la liste a été dressée par le Consulat de France à Mascate, et remise au Consulat d'Angleterre le 4 Mars, 1906, à moins de modifications pouvant résulter du décès de ces personnes ou du retrait par la France de l'autorisation.	2. Impossible, as, supposing every owner to have received authorization for one dhow between 1863 and 1892 (for which we are obliged to take the word of the French), only those would be entitled to retain it who had actually the same boat sailing under the French flag at the time The Hague sentence was pronounced, and his number of boats could not be increased subsequently according to our reading of the terms of the Award (*vide* Mr. Graham's despatch of the 8th August, 1905, to which I was referred for guidance by the Government of India in their telegram of the 21st November last), and my list and remarks on that of the French.
Art. 3. Les propriétaires de boutres battant pavillon Français pourront en toute liberté vendre leurs navires, ou en acheter d'autres sans que leur droit au pavillon Français puisse être contesté.	3. There would be no objection to the proprietors selling their dhows, but the reply to (2) applies to the question of their replacement. If this concession is made, the purchase of a new dhow should at the most only be allowed to replace one lost or sold.
Art. 4. Les boutriers qui ont le droit d'arborer le pavillon Français ne pourront transmettre ce droit à leurs héritiers, descendants ou collatéraux, les boutres dont ceux-ci obtiendraient ainsi la possession arboreront le pavillon du Sultan.	

Art. 5. La juridiction du Sultan sera applicable dans l'Oman à tous les propriétaires de boutres battant pavillon Français, ainsi qu'aux capitaines et aux membres de l'équipage; toutefois pour les crimes et les délits ou contestations, ayant eu lieu à bord en haute mer ou dans les eaux territoriales de l'Oman, et en général partout où le droit d'inviolabilité est réservé, la compétence restera au Consul de France, ou à défaut à son représentant, ou aux officiers de la Marine Nationale. Si le crime ou délit est établi, le coupable sera remis au Sultan.

5. This should not be accepted; the views of His Majesty's Government, having been already communicated to the French, should be adhered to.

This clause throws much light upon the manœuvre reported in my letter, dated the 16th November, 1905.

Art. 6. Les dispositions du présent Règlement, après approbation des Gouvernements Français et Anglais, seront communiquées, ainsi que le texte de la sentence, par voie d'affiches, aux sujets du Sultan.

6. A clause should be added to the effect that infringement of the arrangement come to by any of His Highness' subjects would be severely punished. The owners should be allowed to give up their authorization when they please.

Mascate, le 20 Avril, 1906.

(Signé) R. LARONCE.

[18432] No. 35.

India Office to Foreign Office.—(Received May 29.)

THE Secretary in the Political Department presents his compliments to the Director of Military Operations, and begs to forward herewith, for his information, copy of Memorandum of external affairs relating to Arabia, the North-East Frontier, Burmah, Siam and China, for the month of April 1906.

India Office, May 29, 1906.

Inclosure in No. 35.

Memorandum of Information received during the Month of April 1906, regarding External Affairs relating to Arabia.

[NOTE.—This Memorandum is based upon reports the accuracy of which it is not always possible to guarantee.]

ADEN.

(SEE paragraph 4 of the Memorandum for March 1906.) On the 20th April, 1906, the Secretary of State was informed that the Resident at Aden had reported that the local British officials would place no hindrance in the way of the Italian recruiting agents, but that the Sultan of Shehr and Mokalla, who derived considerable profit from the trade which passed between his port of Mokalla and the Mijjertain and the Ben Adir coasts, was, not unnaturally, averse to any action in the matter which might be construed into co-operation with the Italians in an endeavour to coerce the inhabitants of the coast district concerned.

2. (See paragraph 8 of the Memorandum for February 1906.) On the 7th April the Resident at Aden telegraphed that Major Jacob had reported further fighting between the Abdali and Subaihi tribes near Al Anad, and that further trouble was brewing near Nobat Dakim. One Sallam, a minor Abdali Chief, who had recently quarrelled with the Sultan, appeared to be at the bottom of the trouble. The Resident was calling upon the Abdali Sultan to restore order and to take Sallam prisoner, if possible.

3. On the 25th February, 1906, the Resident at Aden reported that a party of the Barhemi tribe of the Subaihis had recently made a raiding expedition into Turkish territory, and looted eighty-five camels from the Hakami, Hatema, and Kawassama tribes in the vicinity of Moza. Orders have been given for the immediate restitution of the camels.

TURKISH ARABIA.

4. (See paragraph 7 of the Memorandum for March 1906.) The Resident at Aden reported, on the 25th March, 1906, that Major Jacob had heard from a Turkish deserter that Kunkaban was still in possession of the Turks who were, however, besieged at Imran, Hajja, and Tawila, and were losing ground. Ahmed Feizi Pasha was still at Sanaa. The Military Attaché at the Embassy at Constantinople had an audience with the Ottoman War Minister on the 30th January, 1906, and in the course of conversation, his Excellency stated that it was true that Liwa Riza Pasha had been killed, and that there had been a slight disaster near Shehara, but that the statement that there had been a loss of one and a-half battalions was a gross exaggeration. The Vali was said to have reported to Constantinople that the rebels had begun to move their forces, together with the guns captured from the Imperial troops from Shehara, towards Firket-el-Azr. Both the Vali and the Commander-in-chief are said to have demanded the dispatch of a Nizam division with fresh drafts, and they have also asked for a battery of the new pattern of quick-firing guns with 20,000 rounds of ammunition and four howitzers. A despatch from General Feizi Pasha speaks of fifty guns having been captured by the rebels at Shehara, half of which were subsequently recaptured. The Resident at Aden, writing on the 1st April, 1906, reported that the Marshal, Feizi Pasha, was said to have applied to be relieved on the plea of old age, his real reason being the shortness of money and supplies. The Taiz authorities were said to be attempting to disarm the tribes in their vicinity. Sir N. O'Conor reported on the 28th February to the Secretary of State for Foreign Affairs that there was reason to believe that there had lately been a considerable amount of friction between the Commander-in-chief of the forces in the Yemen and the Special Commission of Inspection under Ferik Ferid Pasha. The Commission apparently endeavoured to interfere with Feizi Pasha's conduct of the military operations, but the Commander-in-chief succeeded in compelling them to retire from Sanaa to Hodeidah, whence they had been striving to obtain permission to return to Sanaa.

5. (*General.*—(*Vide* paragraph 15 of the Memorandum for March.) In connection with the recent attack on Messrs Lynch's depôt at Marghil, the Naval Commander-in-chief telegraphed on the 4th March that His Majesty's ship "Lapwing" had been ordered to proceed to Bussorah from Bushire.

PERSIAN GULF.

6. *Muscat.*—(*Vide* paragraph 21 of the Memorandum for March 1906.) On the 9th April, a telegram was received from His Majesty's Secretary of State for India consenting to the unconditional loan of 20,000 rupees to the Sultan of Muscat. The telegram was repeated to Major Cox on the 24th April, and he was directed to advance the money, if it was still considered desirable to do so. He was requested to furnish the Government of India with his opinion as to the manner in which the repayment of the loan should be made.

7. On the 27th March a letter was received from Major Cox stating that M. Goguyer was preparing to build a house on the site of certain go-downs which had been purchased by a servant of his. The Sultan of Muscat had assured Major Grey that the sale of the property to M. Goguyer's servant had been genuine. There was little doubt, however, that M. Goguyer had advanced the money.

8. (*Vide* paragraph 17 of the Memorandum for March 1906.) A dispute has arisen between M. Goguyer and Ali Musa over the importation of arms. Large quantities of arms and ammunition have been landed at Muscat and Koweit.

9. *Koweit and Nejd.*—(*Vide* paragraph 23 of Memorandum for March 1906.) Early in March, Major Cox had a lengthy interview with Sheikh Mubarak at the Koweit Agency. The Sheikh expressed himself as grateful for British protection which had ensured peace and rest to his State; and testified to the pleasant relations which existed between himself and Captain Knox. He stated that at present his relations with the Turkish authorities were satisfactory, but confessed that it cost him £ T. 1,500 a-year in

douceurs to Turkish officials to maintain that position. Major Cox considers that as long as the practical expression of the Sheikh's sentiments in regard to us undergoes no change, the improvement of the relations between Sheikh Mubarak and the Turkish authorities and Bussorah, within reasonable limits, is rather a convenience to us than otherwise. Major Cox notes Captain Knox seems to have gained the Sheikh's personal regard, and that he is visited freely in a friendly way by many of the Sheikh's subjects.

10. The Political Resident announced in a telegram, dated the 25th April, that the Sheikh of Koweit had informed the Sheikh of Mohammerah that the Ibn Rashid and his immediate following had been surprised and annihilated by Ibn Saood. The telegram has been repeated to the Secretary of State.

11. (*Vide* paragraph 22 of Memorandum for February 1906.) His Majesty's Secretary of State telegraphed on the 14th April, approving of the Government of India's proposal that a warning should be given to the Trucial Chiefs to the effect that the Government of India would not view with complacency the intrigues of any of them with Ibn Saood. Major Cox has accordingly been authorized to convey the warning.

His Majesty's Government have accepted the view of the Government of India that a warning to Ibn Saood would be necessary, if he were to carry out his reported intention to visit the Pirate Coast and Oman. They consider, however, that it would be better that such warning should be conveyed to him only in the event of his appearing upon the coast, and that it should then be conveyed to him direct by the British Government rather than through the Sheikh of Koweit or the Sultan of Muscat. It is proposed that, in the event of a warning being necessary, a vessel of war should meet Ibn Saood at one of the places along the coast, which he proposes to visit, and that he should be given clearly to understand that no tampering with the engagements and Conventions of the Trucial Chiefs will be allowed.

12. *Bahrein.*—(*Vide* paragraph 21 of Memorandum for September 1905.) With reference to Major Cox's letter of the 9th September, on the question of obtaining reparation for the murder of certain Bahreinis by the Behaih tribe, the Government of India recommended to the Secretary of State, in January last, the adoption of one of two possible alternatives:—

(1.) To press for compensation from the Porte for the outrage committed by the Behaihs in its territory; or,

(2.) To drop the case.

His Majesty's Government have decided to accept the second alternative, and do not propose to pursue the matter any further, so far as the Turkish Government are concerned. They consider, however, that the Sheikh of Bahrein may be advised that a further remedy lies in his own hands, as he is competent to exclude from Bahrein members of any tribes which are in a position to exercise pressure upon the Behaih to induce them to come to terms. Finally, they desire that the Sheikh should be informed that His Majesty's Government will not countenance any excessive action on his part in pursuance of this policy.

13. (*Vide* paragraph 29 of Memorandum for February.) In reply to the Secretary of State's inquiry as to how the case of the Persian subject who had committed an offence in Bahrein harbour should be dealt with, the Government of India telegraphed, on the 6th April, that the practice is for the Political Officer to dispose of such cases, the representative of the Sheikh being present. It was stated that, as the Persian Government had recently been notified formally that the Island of Bahrein was under British protection, there appeared to be no reason why the Political Officer should not follow the ordinary practice, especially as the offence in question was committed in connection with a British vessel. The Political Officer's action could be justified on the ground that he exercised jurisdiction either delegated by the Sheikh or derived from his position as Representative of the protecting Power. Major Cox reported on the 21st April that the offender, having restored the money stolen, had been released by the Political Agent on bail in anticipation of sanction.

14. In January last the crew of a Persian dhow bound for Bahrein complained to Captain Prideaux that, their boat having been driven by stress of weather into the anchorage of Abu Dhaluf, on the north-western extremity of the Katr Peninsula, they were ill-used by the Sheikh and people of the place, and the cargo of the boat was forcibly removed and appropriated by the villagers. Captain Prideaux proceeded to Abu Dhaluf on board His Majesty's ship "Sphinx," and summoned the Sheikh to reply to the accusation made against him. The Sheikh at first refused to comply, but on

being threatened with punishment he eventually appeared at Bahrein. He made a statement before Captain Prideaux to the effect that a quarter of the cargo of the boat in question had been given to some of his subjects by the boatmen in return for assistance, and that the rest of it had been purchased from the Persians by the people of Kair. As no British or Bahrein interests appeared to have been involved in the case, the Government of India intimated to the Political Resident that Captain Prideaux would have been better advised had he refrained from action until he had obtained the orders of the Government of India.

15. *Hassa.*—Events are reported from Hofuf which appear to have much excited the populace against the Turks. The disturbances originated on account of an announcement made by the Turks of their intention of taking a census of the people and cattle of the oasis of Hassa. The people regarded the proposal with suspicion, and refused to allow it to be carried out. The Turkish military outposts in Hassa are said to have been evacuated, the troops being concentrated in the fort of Hofuf.

16. *Miscellaneous.*—(*Vide* paragraph 31 of Memorandum for February.)—On the completion of his inquiry in the Persian Gulf, Dr. Thomson returned to India and had an interview with Sir Louis Dane, Secretary to the Government of India in the Foreign Department, at Agra on the 2nd April. He expressed himself as still of opinion that a quarantine station on any of the islands at the mouth of the Persian Gulf was quite unnecessary. Both Henjam and Ormuz would be, in his opinion, unsuitable for such a station, and he thought that if the Conference of 1903 had been aware of the sanitary arrangements introduced under the auspices of the British Government at the Persian ports from Bunder Abbas to Mohammerah, and those now existing at Muscat, Bahrein, and Koweit, they might probably have waived the question of a new quarantine station.

17.—(*Vide* paragraph 30 of Memorandum for February 1906.) M. Hatinoglou informed His Majesty's Vice-Consul, Bushire, that the Sponge Syndicate had, three months ago, sent out a Greek captain, with instructions to visit all localities in the neighbourhood likely to yield sponges. He added that the captain had since left for Europe in order to engage Greek divers. He will return with them and with diving apparatus in about two months, and will start operations at the Islands of Ormuz, Larak, Kishm, and Lingah, and, lastly, at Kharg Island. At the latter place, according to M. Hatinoglou, some extraordinarily large petrified sponges had been found.

(Signed) R. E. HOLLAND.

Simla, May 1, 1906.

[18079] No. 36.

Sir Edward Grey to Sir F. Bertie.

(No. 288.)

Sir, *Foreign Office, May 29, 1906.*

THE French Ambassador inquired on the 25th instant whether the Regulations to be applied to the Muscat dhows in accordance with the decision of the Court of Arbitration at The Hague had been approved, as some time had elapsed since the French Consul at Muscat had submitted them to the British Consul there.

M. Cambon was informed to-day that the negotiations in progress between Major Grey and M. Laronce do not appear to have as yet resulted in a satisfactory understanding, but that His Majesty's Government are awaiting a further report on the subject.

I am, &c.
(Signed) EDWARD GREY.

[18516] No. 37.

India Office to Foreign Office.—(Received May 30.)

THE Under-Secretary of State for India presents his compliments to the Under-Secretary of State for Foreign Affairs, and, by direction of Mr. Secretary Morley, forwards herewith, for the information of the Secretary of State, copy of inclosures in a letter from the Foreign Secretary to the Government of India, dated 26th April, relative to the reported desire of Bin Saood to visit Oman.

India Office, May 29, 1906.

Inclosure 1 in No. 37.

Major Cox to Government of India.

(Confidential.)

Sir,

Bushire, April 5, 1906.

IN continuation of my letter, dated 23rd February last, I have the honour to attach copy of a note addressed by Captain Knox to me from camp on the 25th February last, in which he gives the purport of the reply said to have been addressed to Sheikh Mobarek by Bin Saood in connection with the latter's reported desire to visit Oman.

I have, &c.
(Signed) P. Z. COX.

Inclosure 2 in No. 37.

Political Agent, Koweit, to Major Cox.

Camp Rasul Arz, February 25, 1906.

I WENT to see the Sheikh this morning, and his Secretary handed me the copy of the following letter from Bin Saood to Sheikh Mobarek. I note below the translation:—

"May God prolong your life! Your Excellency knows from beforehand that the people of Oman have been our correspondents from the day that we were in Koweit, and it is true that we have sent to them letters and correspondence to them, but, by God, it was not intentional [? with any ulterior motive], and we did not mention in it any affairs in which we saw any harm, but there may have been something which we were not careful over. God forbid that there should be harm in it, and we have before written to your Excellency and Abooshahr; you know—may God preserve you!—that we are a little deficient in our knowledge of titles and how to answer them; and we fear [? to write] something that may not be suitable to their rules. We do not know them that we should write to them according to their desire, and we expect that from your kindness. We hope from God that He will prolong your existence, and salaam."

N.B.—I have not seen the original, but I have no reason to suppose that this is not genuine.

[18790] No. 38.

India Office to Foreign Office.—(Received June 1.)

THE Under-Secretary of State for India presents his compliments to the Under-Secretary of State for Foreign Affairs, and, by direction of Mr. Secretary Morley, forwards herewith, for the information of the Secretary of State, copy of inclosures in a letter from the Foreign Secretary to the Government of India, dated the 19th April, relative to affairs in the Aden Hinterland.

India Office, May 31, 1906.

Inclosure 1 in No. 38.

Government of Bombay to Government of India.

Sir,

Bombay Castle, March 9, 1906.

WITH reference to my letter dated the 23rd February, 1906, I am directed to forward herewith, for the information of the Government of India, copy of a Memorandum from the Political Resident, Aden, dated the 25th idem, and of its inclosure, being notes of an interview between Captain Hancock and Imad-bin-Ahmed, Sheikh of

Inclosure 1 in No. 46.

Major Cox to Government of India.

(Confidential.) *Bushire, February 4, 1906.*

IN reply to Foreign Department letter, dated the 8th December, 1905, regarding the possibility of an endeavour by Abdul Aziz-bin-Saood to visit Oman and the Pirate Coast, I have the honour to attach copies of correspondence which has since passed in that connection between myself and the Political Agent, Koweit.

2. Even allowing a modicum of discount upon the views expressed by Sheikh Mubarak, the probability is that they are primarily well founded.

At the same time the question of the spread of Wahabi influence is one with regard to which we need to maintain a very vigilant attitude, and I should have addressed Government on the subject on my recent return from Beraimi had I not found the Foreign Department letter under reply awaiting me at Bushire.

3. The Sheikh of Abu Thabi, at a confidential interview which he asked me to give him on the "Lawrence," spoke to me very strongly on this question.

The Government of India will have learnt from paragraph 2 of Captain Trevor's previous communication* that Sheikh Zaeed was sufficiently disturbed by Bin Saood's missive to proceed to Muscat and discuss the situation with the Sultan, and I found him still much exercised at heart.

It is not surprising that being, as he is, the leader of the Hinawi element in Northern Oman (as the Sultan of Muscat is further south), and having been himself instrumental in the final extinction of Wahabee influence from Beraimi and the Pirate Coast in 1870, Sheikh Zaaed, and his kinsman the Sheikh of Debai, should regard the contingency of the appearance of Bin Saood with much anxiety.

4. Nor is there, on the other hand, much cause for wonder if, as is the case, the Ghafiri section of the Trucial Chiefs, that is to say, all except Abu Thabi and Debai, should regard Bin Saood's overtures with favour, if not with pleasurable excitement. An indirect result of them has been that Shargah and Hamriyeh, and Shargah and Umm-el-Kowein, who have respectively for a long time been on strained terms, have lately made the support of the Beni Katab Bedouins in a quarrel with Sheikh Zaeed on the Beraimi side an occasion for reconciliation among themselves, as Ghafiris, for united resistance to Sheikh Zaeed, whom, as the most powerful Chief on the coast and as a Hinawi, they regard with jealousy and distrust.

I did my best to impress upon Sheikh Zaeed the folly of inducing a combination of the other Sheikhs against himself by proceeding to extremities with the Beni Katab, and I am glad to hope from the Residency Agent's recent reports that he has found a pacific solution of his quarrel with them, so that any cause for actual unrest is for the present removed. I think, however, that I have said enough to show that the progress of Bin Saood's fortunes will be keenly watched on the Pirate Coast by all parties.

5. Sheikh Zaeed was very anxious that the Government of India should take steps to prevent any movement of Bin Saood towards the Pirate Coast, and that imperative orders should be issued to the Ghafiri Sheikhs not to intrigue with him.

Beyond the sign which we have already made through Sheikh Mubarak, as now reported, there seems little else that we can do at present; but if the Government of India approve, I see no objection to my giving all the Trucial Sheikhs, both Ghafiri and Hinawi, to understand that on the grounds that general unrest prejudicial to our commercial interests on the coast would inevitably result, the Government of India would not view with complacency the intrigues of any of them with Bin Saood.

The existing impression on the Trucial Coast undoubtedly is that as long as Bin Saood restricts his movements to the land, the British Government will, as heretofore, refrain from interfering in any way; but the political situation has been so much modified in the last thirty-five years, that I can hardly think that in regard to the present problem a strict adherence to tradition would be a safe policy for us to pursue.

I beg to be favoured with the views and instructions of Government as early as may be possible.

* October 29, 1905.

Inclosure 2 in No. 16.

Major Cox to Captain Knox.

January 17, 1906.

I HAVE the honour to forward a copy of a communication from the Government of India regarding the reported ambition of Bin Saood to visit the Pirate Coast and Oman. This was one of the matters which I had hoped to discuss with you personally at Bussorah last week, but, as you know, I was prevented from proceeding there at the last minute.

2. The position is briefly this:—

Abdul Aziz-bin-Abdul-Rahman has shown by letters which he has addressed to some of the Trucial Chiefs that he has some idea of attempting to re-establish the old Wahabee influence which his forefathers formerly acquired in Oman, and of paying a preliminary visit to the Pirate Coast in connection with that aspiration.

His interference in the affairs of the Trucial Chiefs or with subjects of the Sultan of Muscat would obviously be a most undesirable contingency; and the Government of India consider that our best means of preventing it is through the medium of Sheikh Mubarak. Hence their desire that you should sound him on the subject.

In order that it may not appear that we attach very great importance to the reports at present existing, it would be better that you should in the first instance discuss the matter with Sheikh Mubarak, not as if you were acting on the instructions from Government, but as if on a casual reference from me. You might tell him, as is the case, that during a tour on the Trucial Coast from which I have just returned, I heard from some of the Sheikhs that Abdul Aziz-bin-Saood had been writing to them about a visit which he said that he contemplated paying to their country, and then ask him if he thinks that Bin Saood seriously contemplates such a thing. You could go on to say that you cannot suppose that Government would approve of any interference by Bin Saood in the affairs of Chiefs in Treaty relation with us, and that you would advise Sheikh Mubarak, as our friend and that of Bin Saood, to discourage the latter from the project should Bin Saood consult him in the matter.

Please report as early as possible the results of your interview.

Inclosure 3 in No. 16.

Captain Knox to Major Cox.

Camp Jahra, January 19, 1906.

I HAVE the honour to acknowledge the receipt of your Confidential letter, dated Bushire, the 17th instant, on the subject of Bin Saood's projected visit to the Pirate Coast and Oman.

2. This morning I took the opportunity of discussing the matter with Sheikh Mubarak on the lines indicated at the close of paragraph 2 of your letter quoted above.

3. Sheikh Mubarak informed me that he had heard of Bin Saood's plans, which he regarded as a mere attempt to extort money from the various coastal Chiefs; that he had written already to Bin Saood, pointing out to him the impolicy of a confession, on the part of a Ruler, to lack of funds; and, further, reminding him that Bin Rashid was only scotched, not killed; that Bin Saood's power in Nejd was anything but finally established; that he had neither funds nor transport for a policy of aggression in the direction of Oman, and that the first fruits of such an attempt would be that Sheikh Mubarak would break off relations with him.

4. The Sheikh, in conclusion, said that he did not suppose that, after this letter, Bin Saood would persist in his design, though Sheikh Mubarak would not undertake to answer for the opinions and policy of an ignorant savage.

5. The Sheikh and I were quite alone at this interview, and I have done my best to render accurately the substance of his remarks. It would appear that Sheikh Mubarak by no means approves entirely of Bin Saood; he complains that there is a want of system and organization in El-Riadh, and that Bin Saood is not the man to attain to the position of his forefathers. Recently the Sheikh has been constantly complaining of the degeneracy of the Arabs and the utter want of security and order outside the limits of his own territories; but I have been unable, so far, to learn what recent occurrences have given rise to these complaints.